



صدى العلوم

متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة

ترخيص رقم 2022/244

مجلة دورية محكمة تعنى بقضايا العلوم النظرية والتطبيقية

الرقم التسلسلي المعياري الدولي لتعريف المطبوعات: ISSN 2959-9423

السنة الأولى
نيسان 2024

العدد 4






ترخيص رقم 2022/244

مجلة شهرية محكمة تعنى بقضايا العلوم النظرية والتطبيقية

الرقم التسلسلي المعياري لتعريف المطبوعات: issn 2959-9423

رئيس التحرير والمدير المسؤول

د. حسن محمد إبراهيم

009613973983 

موقع المجلة الإلكتروني: www.sadaloulum.com

البريد الإلكتروني: sadaloulum@gmail.com

الرقم التسلسلي المعياري الدولي لتعريف الدوريات الإلكترونية: issn 2959-9431

تصميم شعار المجلة: حسين جفال

الاشتراكات:
للأفراد داخل لبنان 80$ أو ما يعادلها
للمؤسسات 125$ أو ما يعادلها
مع رسوم البريد ضمناً

إخراج فني وتنفيذ طباعي:



www.8eightproduction.com | 00961 3 017 565

إن الآراء والأفكار الواردة في الأبحاث لا تعبر بالضرورة عن رأي إدارة المجلة وفكرها

أسرة التحرير

رئاسة التحرير				
الاسم	الاختصاص		الجامعة	البلد
د. حسن محمد إبراهيم	تاريخ سياسي معاصر	رئيس التحرير	----	لبنان

الهيئة الاستشارية العلمية			
الاسم	الاختصاص	الجامعة	البلد
أ.د. زينب سلطاني	أدب عربي	رئيسة جامعة الزهراء عليها السلام في كربلاء	العراق
أ.د. محمد محسن	علوم الإعلام والاتصال	عميد المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية في الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. هبة شندب	اللغة الانكليزية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. هويدا الترك	علوم اجتماعية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. عصام الحاج علي	تاريخ / إسلامي	الجامعة اللبنانية	لبنان

هيئة التحرير			
الاسم	الاختصاص	الجامعة	البلد
أ.د. محمود عواد	لغة إنكليزية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. يسرى مازح	لغة إنكليزية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.م.د. آني جوكوليان	لغة إنكليزية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. طراد حمادة	فلسفة	وزير سابق / الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. خنجر حمية	فلسفة	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. معضاد رحال	علوم اجتماعية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. يوسف طباجة	علوم اجتماعية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. محمد مراد	تاريخ	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.م.د. يحيى فرحات	تاريخ	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. قيس الجنابي	تاريخ/ حضارة الشرق الأدنى القديم	جامعة بابل	العراق
أ.م.د. نبيل سرور	علوم سياسية واقتصادية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. صفاء الحفيظ	لغة عربية	جامعة بابل	العراق
أ. م.د. حسن الزهيري	لغة غربية		العراق

د. زينب الطحان	لغة عربية / سرد روائي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. مايا خالد	لغة فرنسية/ ألسنية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. فاتن قبرصلي	لغة فرنسية/ أدبي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. محمد عبده	حقوق	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. عبير كمال الحركة	حقوق	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. مهى المصري	آثار	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.م.د. حيدر خير الدين	آثار	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.م.د. جعفر فضل اللّه	آثار وتاريخ الفن/ سياحة وفنادق	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. خليل إبراهيم خلف الدليمي	إدارة أعمال	جامعة إربد الأهلية	الأردن
أ. م.د. علي زعيتر	اقتصاد	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. سحر حجازي	علم نفس اجتماعي	الجامعة اللبنانية	لبنان
د. فاطمة دقماق	علم نفس	الجامعة الإسلامية	لبنان
أ.د. صليحة لكحل	علم اجتماع جنائي	جامعة «أحمد بن يحي الونشريسي» تيسمسيلت	الجزائر
أ.د. فراس الربيعي	جغرافية سياسية	جامعة ديالى	العراق
أ.م. د. حميدة العجل	تنمية اقتصادية اجتماعية	جامعة الجنان	لبنان
أ.م.د. أنور ترحيني	الهندسة / الذكاء الاصطناعي	الجامعة الإسلامية	لبنان
أ.د. ياسمين الغانمي	BIOLOGY/Molecular Genetics	جامعة كربلاء	العراق
أ.م.د. علي جابر	COMPUTER SCIENCES	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. إحسان ضياء جواد	PHYSICS	جامعة بابل	العراق
أ.د. محمد وسام حيدر المحنّا	BIOLOGY/Comparative Anatomy	جامعة كربلاء	العراق
أ.د. حسام الدين أنور عبد العليم	هندسة كيميائية	Manchester University	بريطانيا
أ.م.د. أمجاد حميد علي الحسيني	رياضيات	جامعة كربلاء	العراق
أ.د. محمد عاصي أحمد الدجيلي	هندسة صناعية	جامعة بابل	العراق



أهداف مجلة «صدى العلوم»

يسرّ إدارة مجلة «**صدى العلوم**» الصادرة في لبنان، بناء على القرار الرقم (244/ 2022) الصادر عن وزارة الإعلام، بتاريخ 18 تشرين الثاني 2022، والمصنفة «**مطبوعة شهرية، غير سياسية، باللغات العربية، الفرنسية والانكليزية، متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة**»، وبشخص مديرها العام ورئيس التحرير الدكتور حسن محمد إبراهيم، والتي تضم نخبة من الأساتذة الجامعين برتبة بروفسور من ذوي الكفاءة العلمية المرموقة في مختلف العلوم، ليشكلوا أسرة التحرير واللجنة الاستشارية العلمية المحكمة، أن تعلن أهدافها، التي ترتقي بالإنسان والعلوم الإنسانية وتفتخر بأنها تعمل لها ومن أجلها، ومن أبرز أهدافها:

- احترام الإنسان وعقله وروحه وفكره ومعتقد الخير والصلاح.
- تقديم ونشر رسالة العلم والعلوم لما فيه خير الإنسان والإنسانية والتعبير عن الأخلاقيات السامية.
- التواصل فيما بين الإنسان وأخيه الإنسان من خلال نقل الرسالة العلمية ضمن مكارم الأخلاق.
- توسيع آفاق التواصل العلمي بين مختلف الباحثين من مختلف الدول.
- إفساح المجال للباحثين، في شتى دول العالم، لنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية بهدف إظهار الحقائق وتعميم الفائدة.
- نشر الرسالة العلمية التي تحافظ على كينونة الإنسان والإنسانية.

نأمل من الجميع التعاون، وستجدون المجلة بخدمتكم لما هو خير لنا ونشر العلوم إن شاء اللّه.

شروط النشر في مجلة «صدى العلوم»

يسرّ إدارة مجلة «**صدى العلوم**» الصادرة في لبنان، بناء على القرار الرقم (244/ 2022) الصادر عن وزارة الإعلام، بتاريخ 18 تشرين الثاني 2022، والمصنفة «**مطبوعة شهرية، غير سياسية، باللغات العربية، الفرنسية والانكليزية، متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة**»، وبشخص مديرها العام ورئيس التحرير الدكتور حسن محمد إبراهيم، والتي تضم نخبة من الأستاذة الجامعين برتبة بروفسور من ذوي الكفاءة العلمية المرموقة في مختلف العلوم، ليشكلوا أسرة التحرير واللجنة الاستشارية العلمية المحكمة، أن تضع معايير نشر البحوث العلمية على صفحاتها، حيث يخضع حصراً للشروط العلمية، وأهمها:

1. أن يكون البحث جديداً وغير منشور سابقاً في أيّة وسيلة نشرٍ أخرى سواء أكانت ورقيَّةً أم إلكترونيَّةً، أو مشاركاً في أي مؤتمر علمي، أو مرسل إلى أية مراكز علمية وتدريبية، على أن يتعهَّد الباحث بذلك خطّيًّا عند تقديم البحث للنَّشر.
2. أن يتطابق البحث مع الشروط العلمية من حيث الدقّة والموضوعية والرصانة والتوثيق وتقديم المعلومات الجديدة.
3. يُعرض البحث على اللجنة الاستشارية العلمية، وتقوم إدارة المجلة بعدها بإخطار الباحث بمقبولية البحث أو رفضه.
4. التقيّد بمسألة الاستلال ونسبة الاقتباس ضمن المعايير العلمية المعتمدة في الدراسات الجامعية.
5. بعد عرض البحث على الهيئة العلمية المتخصصة لوضع الملاحظات العلمية، يتوجّب على الباحث الالتزام بها والعمل على تنفيذ تلك الملاحظات، وفي حال عدم التقيّد بالتنفيذ، تكون المجلة في حلّ من نشر البحث أو إرجاعه للباحث.
6. يتوجب على الباحث دفع الرسوم المالية قبل نشر بحثه، وفي حال قرّر الباحث عدم النشر فيتوجب عليه دفع رسوم التدقيق والتحكيم البالغة ٪50 من قيمة المبلغ الإجمالي،

ويتم استيفاء رسوم التدقيق والتحكيم قبل الشروع بها وذلك بعد إبلاغه بالموافقة على قبول البحث للنشر.

7. تؤول ملكية البحث أو الدراسة إلى المجلة، فتحتفظ لنفسها بإدخال بعض التعديلات البسيطة.

8. منهجية البحث: هناك نموذجان في اعتماد المنهجية:

1) منهجية هارفرد من حيث توثيق الهوامش في أسفل الصفحة. على الشكل التالي:

- اسم المؤلف، عائلة المؤلف: **عنوان الكتاب** (بولد)، دار النشر، مكان دار النشر، الطبعة، تاريخ الطبعة، الصفحة.

- ثم يعاد إدراج المصادر والمراجع في ختام البحث بنفس الطريقة السابقة، لكن مع تعديل بسيط، بكتابة عائلة المؤلف قبل اسمه.

2) منهجية «APA»:

- من حيث ترقيم الفقرات بالأرقام، مثال: (.1) لعنوان الفقرة الرئيسية الأولى، ثم (.1.1) لعنوان الفقرة الفرعي فيها، ثم (.1.1.1) لعنوان الفقرة الفرعي الأدنى؛ ثم نعود إلى الرقم (.2) لعنوان الفقرة الرئيسية الثانية، التي بدورها يندرج فيها العناوين الفرعية الأخرى بصيغة (.2.1) و (.2.1.1) .... إلخ.

- وضع توثيق المصدر أو المرجع على السطر في المتن ضمن (هلالين)، بصيغة (عائلة المؤلف، سنة الطباعة، الصفحة).

- إدراج كافة المصادر والمراجع في نهاية البحث وفق الصيغة التالية:

- إن كان المرجع أو المصدر كتاباً:

اسم المؤلف، عائلة المؤلف (دون أي صفة علمية أو سياسية أو إدارية): تاريخ النشر (بين قوسين)، **عنوان المصدر (بخط عريض)**، رقم الطبعة (بين قوسين)، اسم المحقّق أو المترجم، دار النشر، مكان النشر، رقم الجزء (إن وُجد). مثال: محمّد مراد. (2005)، **تاريخ لبنان الحديث**، (ط 4)، دار الولاء، بيروت، ج 3.

- إن كان المرجع من مجلة علمية محكمة:

اسم الباحث متبوعًا باسم الشهرة، تاريخ النّشر بين قوسين، عنوان المقالة (**بخطّ عريض**) بين علامتي تنصيص «....»، **اسم المجلة (بخطّ عريض)**، مكان النَّشر، الفصل، السنة، رقم العدد. مثال:

يوسف طباجة: (2007)، «**الشيخ البهائي، سلوكه الاجتماعي**»، مجلة **صدى العلوم**، بيروت، أيلول 2021، عدد 3.

9. أن لا يتجاوز البحث العشرين صفحة بصيغة World، بمحتوى يتراوح بين 250 ـ 300 كلمة فقط في الصفحة الواحدة.

10. التقيّد بشروط التنسيق الفني عند كتابة البحث على الحاسوب (الكمبيوتر)، باعتماد الخط Simplified Arabic للبحوث العربية، بقياس 14 للنص، و16 للعنوان، والخط Times New Roman للبحوث باللغة الفرنسية أو الانكليزية وكذلك للأرقام بقياس 14 للنص، و16 للعنوان.

11. تبتعد الكتابة في بداية الفقرة عن الحدّ الأساس للكتابة، ليتبيّن ابتداء الفقرات.

12. إضافة الفاصل بين الفقرات، ليتبين انتهاء الفقرة وابتداء الأخرى.

13. وضع مستخلص في بداية البحث مع كلمات مفتاحية.

14. إرسال البحث منسَّقًا ضمن صيغة مايكروسوفت وورد (word) إلى بريد المجلّة الإلكترونيّ أو عبر الواتس أب أو التلغرام من خلال رقم الهاتف المعتمد.

15. من أجل حفظ حق الباحث، يتوجب على المجلة إدراج اسمه وصفته العلمية عند نشر بحثه.

نأمل من الجميع التعاون، وستجدون المجلة بخدمتكم لما هو خير لكم ونشر العلوم إن شاء اللّه.



ترخيص إصدار مجلة «صدى العلوم»

الجمهورية اللبنانية
وزارة الإعلام
الوزير

قرار رقم : ٤٤٤/ ٢٠

الترخيص باصدار مطبوعة شهرية، غير سياسية ، باللغات العربية ، الفرنسية والانكليزية، متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة ، باسم " صدى العلوم "

ان وزير الاعلام
بناء على المرسوم رقم ٨٩١٩ تاريخ ٢٠٢٢/٣/١٠ (تعيين وزير الاعلام) ،
بناء على قانون المطبوعات الصادر بتاريخ ١٩٦٢/٩/١٤ وتعديلاته ،
بناء على الطلب المقدم من د. حسن محمد ابراهيم ، والمسجل تحت رقم ١١٩٨ تاريخ ٢٠٢٢/٩/٢٢ (طلب الترخيص باصدار المطبوعة) ،
وبعد استشارة نقابة الصحافة اللبنانية ،
بناء على اقتراح المدير العام لوزارة الاعلام.

يقرر ما يأتي :

المادة الاولى: يمنح د. حسن محمد ابراهيم ، اللبناني الجنسية ، ترخيصا بإصدار مطبوعة شهرية ، غير سياسية، باللغات العربية ، الفرنسية والانكليزية، متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة ، باسم " صدى العلوم " يتحمل مسؤوليتها بنفسه بصفته حائزا على دكتوراه في التاريخ .
المادة الثانية : يكون صدور المطبوعة باللغات الثلاث المذكورة في المادة الاولى في آن معا ومن ضمن العدد الواحد .
المادة الثالثة : تنحى المطبوعة ومديرها المسؤول عن الجدول النقابي للصحافة .
المادة الرابعة : ينشر هذا القرار ويبلغ حيث تدعو الحاجة .

بيروت في :
١٨ تشرين الأول ٢٠٢٢

وزير الاعلام
المهندس زياد المكاري

يبلغ نسخة الى :

رئاسة مجلس الوزراء / المحفوظات
المديرية العامة للأمن العام
(دائرة الرقابة على المطبوعات)
دائرة الصحافة والعلاقات العامة والتنسيق
نقابة الصحافة اللبنانية
صاحب العلاقة
الجريدة الرسمية
المحفوظات

نسخة طبق الاصل
قسم أمانة السر

١٨ تشرين الأول ٢٠٢٢

١١٩٨



المحتويات

الافتتاحية

د. حسن محمد إبراهيم[*]

إنه شهر الرحمة ... فارحموا أنفسكم وارحمونا، وارحموا لبنان

يعيش اللبنانيون والعالم الإسلامي اليوم، بركات شهر رمضان المبارك، الذي جاء بفيض رحمة اللّه تعالى، كانت الغاية منه إضفاء الرحمة الربّانيّة المطلقة، بما جاء في حديث الرسول الأكرم ﷺ: «**أقبل إليكم شهر اللّه بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند اللّه أفضل الشهور، وأيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات، هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة اللّه، وجعلتم فيه من أهل كرامة اللّه، أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب**»، وهو باب للانطلاق من الرحمة نحو تأديب النفس الإنسانية، لأن «**الشقيّ الشقيّ من حُرم غفران اللّه في هذا الشهر الشريف**».

إن شهر رمضان هو شهر غنيّ عن التعريف، فقد اختصّه اللّه لنفسه، وجعله تثبيتاً للإيمان، ومواساة في درجات الدنيا لكافة الشعوب والأمم، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، ولا لرجل على امرأة، ولا لمتعلّم على أمّي، إنّما جعل التمييز لمن أتى اللّه بقلب سليم.

هي دعوة صادقة من اللّه تعالى، فهو الصدق كلّه، أنِ اجتنوا كبائر الإثم والعدوان، وأطيعوه بقلوب سليمة، وعيشوا مع اللّه كل حياتكم، لا سيّما أنه فتح باب التوبة في هذا الشهر الشريف، كي لا يبقى مبعدٌ عن الرحمة، ولا يبقى قانط من المغفرة.

إن اللّه اختصّ هذا الشهر لنفسه، وهو دليل على عظمة كرمه ورحمته ومغفرته،

(*) رئيس التحرير

ودعانا إلى اللجوء إليه، وقد وصف قربه من عبده بأقرب حدّ ممكن، كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾، ويستجيب دعاءنا، بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾.

لقد وافانا شهر اللّه في وقت ما تزال في أمّتنا تعيش الانقسام الداخلي، وحتى الانقسام الذاتي والنفسي، فكثيراً ما شهدنا حالات التشتّت في الموقف السياسي العام، والابتعاد عن الوحدة المفترض أن تقود أمّتنا إلى العزّة والوحدة، وهذا من أحد اعتبارات شهر رمضان، أن نعيش العزّة مع اللّه ورسوله، وهو القائل: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وقد جمع الوحدة في مضمون الآية، بأن نكون مع اللّه ورسوله في وحدة روحية وإيمانية وفكرية وعملية.

هي دعوة لصفاء الروح، وتنقية النفس، والعيش بكل محبّة مع الآخرين، والتوجّه القلبي نحو اللّه، والنظر برحمة إلى عباده، والتآزر والتعاضد والتعاون المثمر، كما في الدعوات الصريحة إلى التواصل واللُحمة التي أوصانا بها رسوله الكريم(ص).

إضافة إلى حلول شهر رمضان المبارك، فإننا نعيش الصيام لدى الطوائف المسيحية أيضاً، بما يعني ذلك من تقرّب إلى اللّه بالمحبة والطاعة والتراحم، لذلك نحن نعيش معاني الصيام العام على أكثر الرقعة الجغرافية في الأرض.

ومن هذا المنطلق، فإن حلول شهر الصيام يمثّل أعلى مراتب دعوة البشر للرحمة، وتنقية القلوب، ونصرة الحقّ.

إن ما نعيشه اليوم، من حالة صراع دامٍ، واعتداء الكيان الصهيوني على الأمّتين العربية والإسلامية بعامّة، والشعب الفلسطيني بخاصّة، بما يتكّون من مختلف العقائد والانتماءات الفكرية والدينية، والطوائف الإسلامية والمسيحية، لهو دليل واضح وكبير على تشتّت الأمة، وضياع بوصلتها الاستراتيجية، وحتى التكتيكية المرحلية، نظراً لاحتساب المصالح الخاصة والفردية، مقابل المصلحة الوطنية الكبرى.

إننا اليوم مدعوّون لنصرة الشعب الفلسطيني ومؤازرته، ورفع الغبن عنه، وتقديم يد العون والمساعدة له، لأنّه يمثّل حالة الاستضعاف والمظلومية، لا سيّما بعد الإبادة

الجماعية، وجرائم الحرب المرتكبة بحقّه، وكل ذلك بمساعدة القوى الكبرى، ليس فقط بغضّ النظر عمّا يفعله الصهاينة، بل لشراكتها الكاملة له، بتقديم كل أنواع أسلحة القتل، وتشديد الحصار على الشعب الفلسطيني، والموافقة التامّة على تدمير المعالم الثقافية والعلمية، وهدم الجامعات، ونسف المراكز الطبية والمستشفيات، هي موافقة دولية على تشريد الشعب الفلسطيني وتهجيره من أرضه.

وإننا في لبنان، لا يمكن أن تستقيم لنا كرامة ومعالم إنسانية، بحال وقفنا موقف المتخاذل من الشعب الفلسطيني، لأن العدوان الصهيوني لن يتوقّف عند مرحلة معيّنة، وهو لطالما اتّسم تاريخه بالجرائم والقتل والتهجير والتشريد بالقوة، وهذا ما عبّر عنه كبيرهم دايفيد بن غوريون أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، بأننا «سوف نلغي التقسيم ونتوسّع إلى فلسطين كلّها، بعد تشكيل جيش كبير غداة تأسيس الدولة»[1]، وأضاف بأنه «من غير الممكن تصوّر إجلاء عام [للسكان العرب] دون إكراه، وإكراه وحشي»[2]، كما نقل جون جي. ميرشايمر في كتابه «أميركا المختطفة»، وما أوصى بن غوريون اليهود بعده لاستكمال بناء الدولة الدينية اليهوديةعلى أرض فلسطين، وتناغم معه جو بايدن بالحديث أنه «إذا نظرنا إلى الشرق الأوسط (..)، لو لم تكن هناك إسرائيل، لكان على أميركا خلق إسرائيل لحماية مصالحها في المنطقة»[3]، وأكّد على كلامه مجدّداً في مؤتمره الصحفي في فلسطين المحتلّة، بأنه «إسرائيل لو لم تكن في الوجود، لعملنا على إقامتها وسنستمر في دعمها»[4]، من موقع أنه «ليس من الضروري

---

(1) جون جي. ميرشايمر: **أمريكا المختطفة، اللوبي الإسرائيلي وسياسة الولايات المتحدة الخارجية**، نقله إلى العربية فاضل جكتر، دار العبيكان،الرياض، ط 1، 1427 هـ/ 2006م، ص 40.

(2) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(3) انظر: قالها بايدن عام 1986: «لو لم تكن هناك إسرائيل لكان على أميركا خلق إسرائيل لحماية مصالحها»، موقع euronews العربية الإلكتروني، تاريخ النشر 11/ 10/ 2023، شوهد بتاريخ 27/ 3/ 2024، على الرابط:
https://arabic.euronews.com/2023/10/11/biden-said-america-would-have-had-to-create-israel-to-protect-its-interests.

أيضاً انظر: .https://www.youtube.com/watch?v=KnmLj3c2_wk&t=25s

(4) انظر: بايدن في مؤتمر صحفي من تل أبيب: لو لم تكن هناك إسرائيل في الوجود لعملنا على إقامتها، موقع RT الإلكتروني، تاريخ النشر 18/ 10/ 2023، شوهد بتاريخ 27/ 3/ 2024، على الرابط:
https://arabic.rt.com/world/1504869-.

أن تكون يهودياً لكي تكون صهيونياً، وأنا صهيوني»[١]، وجزم بعدم وجود السلام في الشرق الأوسط إلا وفق المصالح الصهيونية، وقال: «دعونا نتحدث بوضوح هنا، حتى تعترف المنطقة بأسرها وبشكل لا لبس فيه بالحق الوجودي لإسرائيل كدولة «يهودية مستقلة» لن يكون هناك سلام»[٢].

فهذه هي حقيقة الصراع في المنطقة، فهو يقوم على احتلال أرض فلسطين وإقامة كيان صهيوني.

ومن هنا، فإن الدعوة لصون الأراضي الفلسطينية، وحفظ الشعب الفلسطيني، هي دعوة تنطلق من أصول حفظ لبنان وشعبه ومؤسّساته وأرضه، وحريّ بالشعب اللبناني وقياداته السياسية والحزبية والطائفية والدينية أن تقف موقفاً شجاعاً، فلا تفيدنا كل تلك النعرات الطائفية، ولا التعصّب الحزبي، ولا التقسيم المناطقي والجغرافي، لا سيّما في خضمّ الحرب التي يقودها الكيان الصهيوني على فلسطين، ومن ثمّ لبنان.

إن كل خلاف داخلي يشكّل مصدر قوة للعدوّ الصهيوني، لذلك تنطلق الدعوة للوحدة والتعاضد والتآزر الداخلي، في وقت نحن أحوج ما نكون إليه لصدّ الاعتداءات عن بلدنا.

إن كلّ الدعوات إلى الفتن هي لن تفيد أحداً في لبنان، وإن زمن توهّم الدعم الدولي لبعض الأحزاب الداخلية قد ولّى لحساب المصالح الخاصة، بعيداً عن المصلحة اللبنانية العامّة، ولا داعي أن نعيد التذكير بما حدث مطلع العقد الثالث من القرن العشرين، ولا مآسي الحرب الداخلية اللبنانية، لأنها جرّت علينا الويلات والأحزان والخسائر العظيمة، لذلك تنطلق الدعوة الصادقة، إننا في شهر الرحمة ... فارحموا أنفسكم وارحمونا، وارحموا لبنان.

---

(1) انظر: بايدن مجدداً دعمه لإسرائيل: أنا صهيوني، موقع صحيفة الشرق الأوسط الإلكتروني، تاريخ النشر 12/ 12/ 2023، شوهد بتاريخ 27/ 3/ 2024، على الرابط: .https://aawsat.com

(2) انظر: بايدن: لا وجود لسلام دون الاعتراف بإسرائيل كـ«دولة يهودية»، موقع CNN بالعربية الإلكتروني، تاريخ النشر 22/ 5/ 2021، شوهد بتاريخ 27/ 3/ 2024، على الرابط:
https://arabic.cnn.com/middle-east/article/2021/05/22/biden-israel-recognition-peace.

الصراع العسكري بين مدينة صور والإسكندر المقدوني سنة 332 ق.م.

أ.م. د. جعفر زهير فضل الله(*)

الملخص

يتناول هذا البحث معركة حصار الإسكندر الأكبر لمدينة صور واحتلالها، التي جرت أحداثها في العام 332 ق.م. فقد قاومت صور ولفترة سبعة أشهر واحدًا من أعظم الجيوش التي عرفها التاريخ، وكادت أن تهزمه وتقضي على أحلامه التوسعية بصمودها. وإنّ الشواهد على ملاحم الشجاعة الّتي سطّرها الصوريّون وصلت إلينا بواسطة المؤرِّخين المقدونيّين أنفسهم ما يسبغ عليها كثيرًا من المصداقية. وقد تختلف النظرة إلى ما فعل الصوريّون وفقًا لاختلاف الزمان والمكان، فيرى البعض أنّ خيار الخضوع للإسكندر الذي اتّخذته باقي المدن الفينيقيّة كان من الممكن أن يوفّر على صور الدمار الّذي حلّ بها. على كلّ حال، مهما اختلفت وجهات النظر، يبقى ثابتًا أنّ أهل صور بذلوا أنفسهم من أجل مدينتهم.

لقد أخذ هذا الشعب شهرته من خلال براعته في التجارة والعمارة والإبحار وباختراعه الأبجديّة، لكنّنا لم نعرف الكثير عن قدراته العسكريّة. لذا، فإنّ أحداث هذه المعركة تُعتبر كنزًا من المعلومات في التاريخ العسكري.

(*) أستاذ محاضر في كلية السياحة وإدارة الفنادق، الجامعة اللبنانية.

الكلمات المفتاحية:

الإسكندر، حصار، صور، إحتلال، مقاومة، الجيوش، إنتصار، تحصينات.

Abstract

This research deals with the battle of Alexander the Great's siege of the city of Tire and its occupation, which took place in the year 332 BC. For a period of seven months, Tire resisted one of the greatest armies in history, almost defeating him and eliminating his expansionist dreams with its steadfastness. Evidence of the epics of courage written by the Tyrians has reached us through the Macedonian historians themselves, which gives them a lot of credibility. The view on what the Tyrians did may differ according to time and place. Some believe that the choice of submission to Alexander that the rest of the Phoenician cities took could have spared the images of destruction that befell them. In any case, no matter how different points of view there are, it remains constant that the people of Tire sacrificed themselves for their city.

This people gained fame through their prowess in trade, architecture, sailing, and their invention of the alphabet, but we did not know much about their military capabilities. Therefore, the events of this battle are considered a treasure trove of information in military history.

Key words: Akexander, Besiege, Tyre, Occupation, Resistance, Armies, Victory.

المقدّمة

تقع مدينة صور على الساحل اللبناني جنوبي العاصمة بيروت وعلى بعد 82 كلم منها، وسط السهل الممتدّ من نهر القاسمية شمالاً حتى رأس الأبيض جنوباً، وغرباً حتى البحر، وشرقاً حتى بلدة القليلة، رأس العين، ثم إلى مرتفعات حناوية ، برج الشمالي، العباسية وصولاً إلى القاسمية.

تُعتبر المدينة من أشهر مدن الساحل القديم، إن لم تكن أشهرها في العراقة والمجد، في اتُساع ممتلكاتها وغناها وانتشار مستعمراتها في العالم القديم.

ويعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ففي تلك المرحلة كانت صور تتألف

من قرية مزدوجة، أُقيم قسم منها على الشاطىء فيما أقيم القسم الآخر على بعد 600 م، فوق مجموعة من الجزر الصخرية المنتشرة أمام الشاطىء.

أما عصرها الذهبي، فإنّ صور لم تبلغه إلاّ في غضون الألف الأول قبل الميلاد. ففي بدايات تلك الحقبة حوالى القرن العاشر قبل الميلاد، قام ملك صور أحيرام بإنجاز عدد من المشاريع العمرانية، فوصل الجزر ببعضها، وردم جزءاً في البحر بهدف توسيع رقعة المدينة الساحلية، ثم ما لبثت المدينة أن تجاوزت حدودها الضيّقة بفضل إقدام تجّارها الذين جابوا البحر المتوسط ووصلوا المحيط الأطلسي، وأسّسوا لهم المستعمرات والمحطات التجارية، من بينها قرطاجة على الشاطئ التونسي أنشؤوها حوالي العام 815 ق.م، وكانت تلك الحقبة تمثل عصر صور الذهبي.

ازدهرت صور بفضل منتوجات مستعمراتها، كما بفضل صناعاتها المحلية، من بينها (الزجاج الشفاف ـ الأرجوان)، غير أن التجّار الصوريين لم يكتفوا بنشر بضائعهم وسلعهم بل تخطّوها إلى نشر حضارتهم. وإليهم يعود الفضل في إيصال الأبجدية الفينيقية إلى الأغريق الذين حفظوا لهم الجميل، من خلال تدوين أخبار القدموس ابن ملك صور الذي لقنهم الأبجدية وأخبار أوروبا التي تركت اسمها على القارة الأوروبية.

غير أنّ ازدهار صور ما لبث أن جلب المتاعب، ففي القرن السادس قبل الميلاد حاول الملك البابلي نبوخذ نصّر احتلال المدينة، إلا أنّ أسوارها المنيعة منعته من ذلك، فحاصرها مدة 13 سنة، غير أن ماعصِيَ على البابليّين لم يوقف الزحف المقدوني، عندما قام الإسكندر الكبير، في العام 332 ق.م. بمحاصرتها لمدة (7) أشهر، لعدم خضوعها على غرار المدن الفينيقية الأخرى.

ولمّا كان المقدوني يرغب في احتلال مصر، ولم يكن باستطاعته من الناحية الاستراتيجية أن يترك خلفه مدينة مقاومة تملك واحداً من أعظم المرافق الحربية العاملة لصالح الفرس، وتهدّد مشروعه من خلال قطع الإمدادات البحرية والبرية عن جيوشه. فقد عمد إلى تدمير المدينة البريّة وردم المضيق الذي يفصلها عن جزئه

البحري، لينشىء بذلك ممرّاً بعرض 600 م، يمكّن جيوشه من الوصول إليها براً واحتلالها، كما أن غيظ الإسكندر نتيجة المقاومة الصورية والخسائر التي تكبدّها، دفعه إلى تدمير نصف المدينة البحرية، وقتل رجالها، وسبي نسائها وأطفالها.

من هنا جاء البحث ليسلط الضوء على تفاصيل معركة حصار الإسكندر الأكبر لمدينة صور واحتلالها، وكيف أن المدينة صمدت بوجهه، وقاوم أهلها همجيّته وكبرياءه طيلة سبعة أشهر، وكادت أن تقضي على أحلامه التوسّعية بصمودها. وقد شكَّلت هذه المعركة في الغرب موضوعًا لعشرات المؤلَّفات، ولكّنها شبه غائبة عن الأبحاث العسكرية أو التاريخية في لبنان. من هنا تكمن أهمية الإضاءة عليها وفق منهجية علمية حديثة تعتمد بشكل رئيس على المصادر التاريخية للمؤرِّخين القدماء، وترتكز على المكتشفات الأخيرة التي توصَّل إليها علم الآثار.

الإشكالية

بعدما انتصر الإسكندر المقدوني على الفرس في معركة إيسوس، تابع زحفه باتجاه لبنان فدخل من شماله وأخضع كافّة المدن الساحلية كطرابلس والبترون وجبيل وبيروت وصيدا لسيطرته دون أية مقاومة تُذكر، حتى وصل مدينة صور، وقرّر احتلالها أسوة بغيرها من المدن الساحلية. إلا أنها رفضت سيطرته عليها وأقفلت موانئها بسلاسل معدنية ضخمة، الأمر الذي أثار حفيظة الإسكندر القادم بإسطول بحري ضخم، فعمد إلى محاصرة المدينة مدة (7) أشهر، بسبب عدم خضوعها له على غرار المدن الفينيقية الأخرى.

الجدير ذكره، أن غيظ الإسكندر أمام المقاومة الصورية وأمام الخسائر التي تكبدها، دفع به إلى تدمير نصف المدينة البحرية، وقتل رجالها، وسبي نسائها وأطفالها.

وهنا تبرز الإشكالية في الصراع العسكري بين مدينة صور وقوة صمودها أمام الإسكندر المقدوني. والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هي عناصر القوة التي امتلكها سكان مدينة صور للوقوف في وجه الإسكندر وكيف دافعوا عن مدينتهم حتى الرمق الأخير؟.

المنهج

اعتمدت الدراسة على المنهج التكاملي، ما بين النظري والعمل الميداني من خلال دمج المناهج، الوصفي والتحليلي المقارن، مع المشاهدة الميدانية لبقايا المعالم الأثرية المنتشرة في موقع الجزيرة البحري، مكان المعركة.

الدراسات السابقة في الموضوع

شكَّلت معركة الإسكندر المقدوني مع مدينة صور البحرية في الغرب، موضوعًا لعشرات المؤلَّفات، ولكّنها شبه غائبة عن الأبحاث العسكرية أو التاريخية في لبنان. من هنا تكمن أهمية الإضاءة عليها وفق منهجية علمية حديثة تعتمد بشكل رئيس على المصادر التاريخية للمؤرِّخين القدماء، وترتكز على المكتشفات الأخيرة التي توصَّل إليها علم الآثار.

أهمية الدراسة

يتناول البحث معركة حصار الإسكندر الأكبر لمدينة صور واحتلالها، والتي جرت أحداثها في العام 332 ق.م. فقد قاومت مدينة صور، القائمة على جزيرة في البحر، الإسكندر خلال هذه المعركة طيلة سبعة أشهر، وكادت أن تقضي على أحلامه التوسعية بصمودها. وقد شكَّلت هذه المعركة في الغرب موضوعًا لعشرات المؤلَّفات، ولكّنها شبه غائبة عن الأبحاث العسكرية أو التاريخية في لبنان. من هنا تكمن أهمية الإضاءة عليها وفق منهجية علمية حديثة تعتمد بشكل رئيس على المصادر التاريخية للمؤرِّخين القدماء، وترتكز على المكتشفات الأخيرة التي توصَّل إليها علم الآثار.

أولاً. الإسكندر الأكبر – شخصيّته القيادية وحملته على الشرق

قبل التعمّق بالبحث، لا بدّ من تسليط الضوء على شخصية الإسكندر الأكبر، فهو القائد العسكري الذي لم يخسر معركة قطّ، والابن المتأثّر بوالديه، والتلميذ الذي اكتسب المعرفة والحكمة من أستاذه أرسطو. وما له من أثر على كيفية تأسيس الجيش المقدوني والاستراتيجية القتالية تحت قيادة الإسكندر، علماً أنها ليست المعركة

الوحيدة التي اتّسمت بكبريات المعارك التي قادها ضدّ الفرس قبل وصوله إلى المشرق وفرض حصاره على صور.

أ. شخصيّة الإسكندر الأكبر

وُلد الإسكندر في العام 356 ق.م. في مقدونيا شمال اليونان[1]، وبحلول عامه الثلاثين كان قد أسّس إحدى أكبر الإمبراطوريات وأعظمها التي عرفها العالم القديم، وتأثّر كثيرًا بوالده الملك فيليب الثاني وورث عنه جيشًا قويًّا، كما ورث مملكة سيطرت على كامل المدن اليونانيّة، وإنه أحبّ والدته الملكة أولمبياس كثيرًا وأحبّته لدرجة أنّها اتُّهمت بقتل زوجها فيليب لتوريثه العرش.

كان لأبوَيْ الإسكندر أثر كبير في تكوين شخصيّته، فقد كانت والدته أولمبياس شديدة الجمال وذات ذكاء وحكمة ودهاء وشجاعة. قادها الاهتمام بمظهرها للسفر إلى بابل لتتبخّر وتستحم بالكندر وهو أحد أنواع البخور، وذلك أثناء حملها بالإسكندر، فسمّته عند ولادته «إس كندر» أي «روح البخور»[2]. كانت أولمبياس تعمل أحيانًا ككاهنة في المعبد، وكانت تدّعي أنّها من سلالة الآلهة وأنّ الإسكندر هو ابن الإله زويس.

بدأ الطفل بالفعل يقتنع بكلام والدته التي كانت تشرف بنفسها على تربيته وتدريبه على القتال والفروسية. وكان لاعتقاد الإسكندر أنّه من سلالة إلهية هو ما أبقى، وفقًا لبلوتارك، قلبه وروحه شامخين لا يعرفان اليأس طيلة تلك السنوات من الحملات والفتوحات التي خاضها.

ومن جانبه، فقد تحلّى والد الإسكندر فيليب الثاني، بجسم قوي ورياضي وشجاعة كبيرة ومزاج عنيف، كان ميّالًا إلى الحرب بشكل كبير، لكنّه كان في الوقت عينه

---

(1) تقع مقدونيا في الزاوية الشمالية الشرقية لشبه الجزيرة اليونانية وعلى الرغم من أنّ بعض اليونانيين القدماء كانوا يعتبرون أنّ حدود بلادهم الشمالية تقع عند جبال الأولمب أي أنّها لا تمتد لتشمل مقدونيا إلّا أنّ الباحثين يتفقون اليوم على اعتبار المقدونيين جزءًا من الشعوب اليونانية أو الهلينية.

(2) هارولد لامب: **الإسكندر المقدوني**، ترجمة عبد الجبار المطلبي ومحمد ناصر الصانع، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد، 1965، ص 15.

متوديوس زهيلاتي: **الإسكندر الكبير**، دار طلاس، دمشق، ط 1، 1999، ص 12.

رحومًا ملتزمًا بوعوده، وفائق الاحترام للخصم. وشكّل مَثَلَ الإسكندر الأعلى الذي يقتدي به في كل خطوة، إذ شبّ على رؤيته يحقّق النصر تلو الآخر. إلا أن علاقة فيليب وأولمبياس لم تكن على ما يرام، وقد زادت الأمور تعقيدًا عندما ادّعت أولمبياس أنّ الإسكندر ليس ابنًا بيولوجيًا لفيليب، بل هو ابن الإله زويس. تعمّد فيليب بعد ذلك إثارة غضب أولمبياس من خلال المجاهرة علنًا بعلاقاته النسائية، وانتهى المطاف بأن تواطأت أولمبياس مع أحد الجنرالات ودبّرت عملية اغتيال زوجها، فضمنت بذلك انتقال الحكم إلى ابنها الإسكندر.

تأثر الإسكندر بمعلّمه أرسطو، كبير فلاسفة اليونان وأحد تلامذة أفلاطون[1]، الذي درّبه تدريبًا شاملًا في فنّ الخطابة والأدب وحفَّزه على الاهتمام بالعلوم والطبّ والفلسفة. إذ إنه تولّى تعليم الإسكندر مذ كان في سن الثالثة عشر واستمرّ في تعليمه وتأديبه مدة أربع سنوات. وبنتيجة تعليمه، أيقظ أرسطو في قلب الإسكندر رغبته المتوقّدة للمعرفة وإقباله على القراءة، وقيل إنّ الإلياذة كانت من أحبّ الكتب إلى قلبه. تأثر الإسكندر كثيرًا بـ«أخيل» بطل هذه الملحمة، وربما كان ذلك من الأسباب الّتي دفعته إلى الصمود أمام أسوار صور كما فعل قبله «أخيل» أمام أسوار طروادة.

ب. الجيش المقدوني وعقيدته القتالية

اتّصف الإسكندر بالقائد الفذّ الذي لم يخسر معركةً قطّ، على الرغم من أنّ أغلب الجيوش الّتي قاتلها فاقت جيشه عددًا وعدّة. ويركّز أصحاب الاختصاص الذين عالجوا العبقريّة العسكريّة لدى الإسكندر المقدوني على مجموعة من العوامل التي أسهمت في انتصاره في المعارك كلّها التي خاضها، أهمّها قدرته على الاستفادة من طبيعة الأرض مهما اختلفت ميزاتها، وعُرِف عنه أيضًا، اندفاعه الدائم وإصراره على أن يكون موقعه على رأس الجند، ضمن أسلوب جديد في القتال عُرِف بـ«أسلوب الجبهة المنحرفة»[2].

---

(1) متوديوس زهيلاتي: الإسكندر الكبير، مرجع سابق، ص 52.

(2) قيس الجنابي: **الإسكندر المقدوني ومشروعه العالمي في بابل**، مجلة **مركز بابل للدراسات الإنسانية**، بغداد، المجلّد 5، العدد 1، 2015، ص 211.

يعود الفضل في تأسيس الجيش المقدوني إلى فيليب الثاني والد الإسكندر وملك مقدونيا، الذي امتدّت فترة حكمه بين العامين 359 و336 ق.م. كان الهدف الرئيس من إنشاء هذا الجيش منافسة باقي الممالك اليونانية والسيطرة عليها، فقد انخرط في صفوف الجيش المقدوني أبناء العائلات النبيلة، ما جعل ذلك مصدر قوة ودعامة أساسية في تكوينه. فاستغلّ فيليب عائدات الذهب المستخرج من مناجم بلاده في تجهيز الفرسان بالمعدات والمستلزمات الحربية الحديثة، وفي تسليح عناصر المشاة بأحدث الأسلحة وتدريبهم على التقنيات العسكرية[1].

في البداية، قام الجيش بقيادة فيليب الثاني بتوحيد بلاد اليونان تحت راية مقدونيا، فيما اجتاز جيشه حدود الدولة بقيادة الإسكندر، ضمن مشروع كبير كان يرمي لفتح العالم القديم الذي كانت تسيطر عليه الإمبراطورية الفارسية. والمقصود بالعالم القديم هي البقعة الجغرافية التي تضمّ اليوم كلًا من العراق وإيران وتركيا وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن ومصر وغيرها.

تعود عبقرية الإسكندر العسكرية إلى حسن استغلاله لموقع المعارك ولتدريبه المستمرّ لعناصر المُشاة والخيّالة ولاستراتيجيته المقدامة. كنَّ جنود الإسكندر له ولاءً مطلقًا لانخراطه شخصيًّا في المعارك ووجوده الدائم معهم أثناء التدريب، كما إنه سلّح جيشه بآلة قتل متطوّرة سبقت عصرها، هي عبارة عن رماح يصل طولها إلى ستة أمتار قادرة على قتل الخصم من بعد. ومن المعروف أن الإسكندر لم يختر في معاركه ساحة القتال أو أرض المعركة قطّ، بل كان ينازل العدوّ عندما يلتقيه، أي فور وصوله إليه وفي المكان الذي يكون الخصم قد اختاره وتمركز فيه. إنّ نظرة هذا القائد المقدوني الثاقبة والمُلمَّة بكلّ معطيات ساحة القتال وقدرته الكبيرة على تعبئة جنوده وترتيب قطاعات جيشه، جعلته قادرًا على تنسيق فرقه وفقًا لطريقة تتماشى وطبيعة الأرض، فيحوّل ما فُرض عليه لصالحه.

(1) الشرق الأدنى أو الشرق القريب مصطلح يستخدمه علماء الآثار والجغرافيا والتاريخ، ليشير إلى منطقة الأناضول (تركيا الحالية)، والهلال الخصيب الذي ينقسم بدوره إلى بلاد الشام وتشمل الآن الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين وشبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين وهي العراق وشرق سوريا حالياً، ومصر.

كان الإسكندر يخوض المعركة على رأس جنوده، ويحتفظ لنفسه غالبًا بالمَيمَنة في المهاجمة، تاركًا لأشهر قوّاده مهمة تثبيت العدوّ على الميسرة. واختياره لهذا الأمر سبباً لطبعه الهجوميّ، فقد عُرِف باندفاعه الشّديد في الهجوم حتّى قيل عنه أنه يكاد أن ينسى نفسه عند سماع صوت البوق المعلن بدء القتال، وقد اتّبع أسلوب الجبهة المنحرفة في معاركه، فضمنت له النصّر. ويكمن جوهر الخطّة التي أتقنها عن أبيه، أن تسعى خيّالة الميمنة بزخمٍ هجوميّ شديد إلى زحزحة ميسرة العدوّ عن مواقعها ودحرها إلى الوراء، بينما يبقى الجناح المقدونيّ الآخر صامدًا، فيتسنّى له إذ ذاك التوّغل جانبيًا في صفوف العدوّ والطعن في خاصرته المكشوفة.

ج. تاريخ العلاقات الفارسية اليونانية

تأسّست الإمبراطورية الفارسية على يد قوروش الكبير حوالى العام 559 ق.م. وامتدت في ذروة مجدها إلى كامل أرجاء الشرق الأدنى[1]، فسيطرت مثلًا على منطقة غربي تركيا والعراق وإيران وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر. مكّن ذلك الفرس من التحكّم بالطرق التجارية المؤدية إلى البحر الأبيض المتوسّط عبر البرّ والبحر.

يُعتبر قوروش من أهم ملوك الفرس على الإطلاق، ويُحكى الكثير عن سياسة التسامح والانفتاح التي انتهجها، يليه في الأهمية داريوس الكبير، الذي تحدّث المؤرخون اليونانيون كثيرًا عنه وعن ابنه ارتحششتا الأوّل، كونهما قادا عدة حملات لغزو اليونان ضمن ما عرف بالحروب اليونانية ـ الفارسية. بدأت هذه الحروب في العام 499 ق.م وانتهت في العام 449 ق.م. وضمنت لفارس احتلال مساحات واسعة في آسيا الصغرى، إلّا أنّ إخفاقات عدّة اعترتها. استغلّ اليونانيون هذه الإخفاقات ليتحدّثوا عن انتصارات عظيمة حققوها وهزائم نكراء ألحقوها بالفرس. الإشكالية هنا تكمن في أنّ معظم معلوماتنا عن هذه الحروب تأتي من مصادر إغريقية، أي من أحد أطراف النزاع حصريًا، فنحن لا نعرف شيئًا عن الرواية الفارسية للأحداث. في معركة ترموبيل على سبيل المثال، تُحَدِّثنا المصادر الإغريقية أنّ **(300)** جندي إسبارطي

(1) Jidejian, N., **Tyre through the Ages**, Dar el-Mashreq Publishers, Beirut, 1969, p.39

استطاعوا أن يؤثّروا على مسير الجيش الفارسي المؤلّف، حسب المصادر نفسها، من (180) ألف جندي. تجعل هذه المصادر من الإسبارطيين الثلاثمئة أبطالًا أسطوريّين.

لا تزال رواية ترموبيل موضوعًا لعشرات الكتب، ولعدد من الأفلام السينمائية إلى يومنا هذا، والمفارقة هي أنّ النص لا يسلّط الضوء بشكل موضوعي على قوة الجيش الفارسي الذي تابع سيره بعد ترموبيل إلى أثينا فاحتلّها وأحرقها، بل يبالغ في تمجيد من يصفهم بالأبطال اليونانيين. وهنا لا إنكار لدفاع اليونانيين عن أرضهم، ولكنّ المعتقد أنّ البطولات التي تتحدّث عنها النصوص مبالغ فيها إلى حدّ كبير، في الواقع لا يمكن الحديث عن انتصارات استثنائية لليونان على فارس في هذه المعارك، فالوقائع تُثبت العكس، ولا مجال للمقارنة بين العملاق الفارسي وبين المدن اليونانية الصغيرة والضعيفة الواقعة على أطراف الإمبراطورية الفارسية. على الرغم من ذلك، فإنّ هذا الواقع سيتغيّر جذريًا مع بدء حملة الإسكندر على الشرق منتصف القرن الرابع ق.م. حيث سيصبح الحديث عن انتصارات عظيمة ضدّ الفرس على يد الإسكندر أمرًا ممكنًا لا بل أكيدًا. في مطلق الأحوال، من الواضح أنّ الإغريق كانوا دائمي القلق من التهديد الفارسي، لكنهم لم يكونوا قادرين على القيام بأي عمل عسكري لإزالة هذا التهديد قبل وصول الإسكندر الأكبر إلى الحكم.

د. حملة الإسكندر على الشرق

مات الملك فيليب فخَلَفَهُ الإسكندر، وهو في العشرين من عمره، على عرش مقدونيا واليونان، واحتاج إلى سنتين لتوحيد البلاد اليونانية تحت قيادته، ثمّ اتّجه نحو المشرق، في الوقت الذي كانت الإمبراطوريّة الفارسيّة تحكم العالم القديم بأكمله، فوقع أول صدام بين الطرفين في معركة نهر غرانيكوس الذي يجري في إقليم طروادة ويصبّ في بحر مرمرة في تركيا الحالية، فنشر الفرس مع بدء هذه المعركة قوّة الفرسان وحشدوها على الضفة الشديدة الانحدار للنهر، ووضعوا المرتزقة خلفهم، في حين وضع الإسكندر فرسانه على المجنبة، ما دفع الفرس لنقل مقاتليهم أيضًا إلى المجنبة المقابلة للفرسان المقدونيين، إلّا أن الإسكندر قام على رأس مجموعة من هؤلاء الفرسان بعمل مباغت مهاجمًا حملة الرماح والنبال الموجودين على المجنبة

الأخرى، فلم يستطع هؤلاء الصمود في وجهه.

وهناك عامل آخر أسهم في حسم المعركة لصالح الإسكندر، يكمن في اختيار توقيت الهجوم، فقد شنّ الإسكندر هجومه في فترة ما بعد الظهر، عندما كانت الشمس تلمع في الأفق مقابل صفوف الجنود الفرس، ما أدّى إلى انبهارهم وساهم في إخفاقهم. أثبتت هذه المعركة عبقرية الإسكندر في تنظيم صفوف جنوده ومباغتة أعدائه وقدرته على اتخاذ القرارات الحاسمة، بالإضافة إلى إخلاص قوّاده ووفائهم له.

كانت معركة نهر الغرانيكوس شبه مرتجلة، إلّا أنّها فتحت الباب أمام المنازلة الكبرى في إيسوس، التي تقع قرب ممرّ كيليكيا في خليج مدينة الإسكندرون في تركيا الحالية، حيث حشد الملك الفارسيّ داريوس جيشًا فاق عديده المئتي ألف مقاتل بحسب المصادر اليونانية، وبدأت المعركة عندما عَلِم الإسكندر أنّ داريوس الثالث وصل إلى سهل إيسوس وركّز قواه فيه، ولأن السهل كان ضيقًا، فقد شكّل عاملًا إيجابيًّا لجيش الإسكندر الذي لم يكن يتجاوز الثلاثين ألفًا، وسلبيًّا للجيش الفارسيّ الكبير إذ كان يعيق انتشاره، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ التفوّق العددي للفرس كان عديم الفائدة في هذه المعركة، نظرًا لضيق المكان واستحالة الانتشار العرضي للقوى.

لقد وصل المقدونيون عند حلول الظلام إلى الممرّ المؤدي إلى معسكر الفرس، فاجتازوه بعد أن تمّ تأمين مرتفعاته، وأراح الإسكندر جنوده على المنحدرات المشرفة على سهل إيسوس حتّى الفجر، عندها بدأ الهجوم اعتبارًا من بقعة الانطلاق الواقعة على المرتفعات حيث انطلقت القوى باتجاه السهل، ولم يكن عسيرًا عليه الإحاطة بتفاصيل تمَركُز فرق العدوّ أثناء الهبوط، ولاحظ بعينه أنّ الفرس عمدوا إلى تكثيف خيّالتهم على ميمنتهم، فأدرك أنَّهم يعدّون العدّة للقيام بحركة التفاف حول الميسرة المقدونية، فكان لا بدّ من تعديل خطته استنادًا إلى هذه المعلومات، وأكمل تعبئة صفوف رجاله، ثم أمر الخيّالة بالانتقال سرًا من الميمنة إلى الميسرة بهدف مفاجأة الفرس ومهاجمتهم في نقطة ضعفهم.

لقد جعل الإسكندر هدفه خرق ميسرة الفرس للوصول إلى وسط جبهتهم حيث كان الملك الفارسيّ يتابع مسار المعركة من على مركبته الفخمة، وبتنفيذ الهجوم المباغت

وغير المتوقّع، أحدث صدمة في صفوف القوى المعادية التي استطاع اختراقها، وتقدّم بسرعة باتجاه الملك، ولمّا رأى هذا الأخير أنّ المقدوني أصبح قاب قوسين منه، لوى عنان مركبته ولاذ بالفرار تاركاً جيشه، فكان إيذانًا بتبعثر جيش الفرس وشرذمته، فانهار سريعًا وحقّق المقدونيون انتصارًا حاسمًا.

كان لانتصاره أثراً معنوياً وعسكرياً عظيماً على جنوده، وعلى الرغم من أنّ داريوس الثالث، ملك الفرس، تمكّنَ من الفرار إلّا أنّ عددًا من أفراد أسرته وقعوا في الأسر، الأمر الذي دفعه إلى عرض التنازل عن الأراضي الفارسية الواقعة غرب نهر الفرات له مقابل إطلاق سراحهم، وردَّ المقدوني بالرفض، بل تابع زحفه باتجاه ساحل المشرق بغية إخضاعه وحرمان الفرس من موانئه، عندها استسلمت مدنٌ كثيرة، وتمّ الاستيلاء على بعضها دون صعوبة، لكنّهم اضطروا إلى فرض حصار دام سبعة أشهر للاستيلاء على مدينة صور التي كانت تشكّل موقعًا حيويًا ضروريًا للسيطرة على القوّة البحرية.

ثانياً. خلفية وأسباب حصار الإسكندر لصور

أدرك الإسكندر بعد انتصاره في معركة إيسوس ضرورة تعقّب الجيوش الفارسية التي أعادت تنظيم نفسها، بغية تدمير المدينة وتحقيق النصر النهائي عليها، وكان ذلك مستحيلًا في ظل التفوّق البحري للأسطول الفينيقي الداعم للفرس، فقرّر القائد المقدوني الزحف باتجاه المدن الفينيقية لإخضاعها، ففتحت أرواد وجبيل وصيدا أبوابها للجيش المقدوني بينما قرَّرت صور الوقوف على الحياد.

هناك أسباب كثيرة دفعت صور لاتخاذ موقفها هذا، وهناك أسباب غير مباشرة لإصرار الإسكندر على احتلال المدينة ورفضه للموقف المحايد الذي اتخذته، منها أنها «سيدة البحار» من غير منافس وتشهد ازدهاراً كبيراً.

أ. مدينة صور عبر التاريخ

تقع صور على الشاطئ الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسّط في المنطقة التي عرفت نشأة الحضارة الفينيقية العريقة وازدهارها. بناها أهل صور[1]، في القرن الثامن

(1) متوديوس زهيلاتي: **الإسكندر الكبير**، مرجع سابق، ص 57.

والعشرين ق.م. لتعرف بعد عشرين قرنًا ازدهارًا وعظمة لم يكن لهما مثيل في ذلك العصر. وقد جذب ازدهار المدينة أطماع شعوب الشرق الأدنى القديم إليها، ما سبّب لها الكثير من المآسي والمصاعب التي كانت تعظم أو تصغر مع اختلاف الوقت والمعتدي.

أُنشِئت صور، مع بداية الألف الثالث ق.م.، على مجموعة من الجزر المنتشرة على مسافة حوالى الثمانمئة متر من اليابسة، كانت نواة المدينة عبارة عن هيكل للإله ملكرت تحيط به تجمعات سكنيّة تعتمد في معيشتها على الصيد. وأطلق الصوريون على مدينتهم اسم «صُر» الذي يعني بالفينيقيّة الصّخر إشارة إلى الأرض الصخريّة القاسية التي بُنيت عليها.

لم تلعب المدينة دورًا بارزًا في الألفيّتين الثالثة والثانية ق.م. فيما بلغت عصرها الذهبي مع حلول الألفيّة الأولى ق.م. إذ شهدت ازدهارًا عمرانيًّا وتجاريًّا وثقافيًّا لم يعرفه تاريخ المنطقة من قبل. وفي فترة الازدهار هذه، قام مَلكها أحيرام بوصل الجزر التي أقيمت المدينة عليها، فردم جزءاً من البحر.

أثار ازدهار صور أطماع شعوب الشرق الأدنى القديم من أشوريّين ومصريّين وفرس وغيرهم، فهادنت حينًا بدفع الجزية وقاومت أحيانًا بأسوارها العالية، وحافظت بذلك على حريّتها. وسجّلت في القرن السادس ق.م. رقمًا قياسيًا في فترة الصمود ضدّ الحصار، عندما حاول الملك البابلي نبوخذ نصّر احتلالها، فلم يستطع بسبب أسوارها المنيعة وقوّة دفاعاتها، فحاصرها مدّة ثلاث عشرة سنة ولم تسقط.

بُنيت أسوار مدينة صور من الحجارة الضخمة تعلوها أبراج المراقبة والرمي، وكانت الأجزاء العلوية من الأسوار مسنّنة بشكل يسمح للرماة بالرمي والاحتماء، وتوجد داخل الأسوار بوابة أو أكثر، محصّنة، تسمح بالدخول إلى المدينة والخروج منها. كما بنى الصوريون ميناءً رئيسًا لسفنهم من جهة الشمال وميناءً آخر من جهة الجنوب. وبسبب ضيق مدخل الميناء الشمالي منحه إمكانية منع أي سفينة أجنبية من عبوره بواسطة بضع سفن صورية، وقد تمّ بناء برجين على جانبيه لحمايته. وما زال جزء كبير من الميناء موجودًا ومستعملًا إلى يومنا هذا، ويسمّى «ميناء الصيادين». فيما كان الميناء الجنوبي

أكبر، وامتاز بوجود برجي حماية على جوانب مدخله، وكان يتم تثبيت سلاسل حديدية ضخمة بين البرجين وشدّها لمنع السفن المعادية من دخول المرفأ.

ب. الأسباب غير المباشرة للحصار

أراد الإسكندر بسط سلطته على الساحل الفينيقي بهدف حرمان الفرس من مرافئ وأساطيل مدن هذا الساحل، والاستفادة من أهميّة موقع فينيقيا كممرّ إلزامي باتجاه مصر. وهناك عدّة أسباب أخرى غير مباشرة، أثّرت على قراراته وجعلته مصمّمًا على احتلال فينيقيا، وتتعلّق بالعلاقات التاريخية التي كانت تربط اليونانيين بالفينيقيين.

جاب الفينيقيون البحر الأبيض المتوسّط مع بداية الألفية الأولى ق.م. ووصلوا إلى سواحل الأطلسي وأسّسوا المستعمرات والمحطات التجاريّة من بينها قرطاج، المستعمرة الصورية في تونس الحالية، التي خرج منها في القرنين الرابع والثالث ق.م. جيشٌ قويٌ، حقّق انتصارات عظيمة، أهمّها الانتصار على روما في معركة «كان» تحت قيادة هنيبعل.

وخرج من صور أيضًا، قدموس حيث علّم الأبجديّة للإغريق وهو شقيق «أوروبا» التي أعطت اسمها للقارّة الأوروبية. وقدموس في الأساطير اليونانية، هو ابن أجينور ملك صور الذي أسّس مدنًا عدّة في اليونان، ووصل قدموس إلى اليونان بحثًا عن شقيقته التي خطفها الإله زيوس أثناء تنزّهها على شاطئ صور.

واتّخذ زيوس هيئة ثور أبيض جميل امتطته أوروبا فخطفها وانطلق بها إلى اليونان فتزوّجها. وعلى الرغم من احتواء هذه الأساطير أحداثًا خرافية إلّا أنّها تعكس الكثير من الوقائع والأحداث التي جرت حينها، فالفينيقيون اخترعوا فعلًا الأبجدية والعلاقات، ولاسيّما التجارية منها، التي كانت قائمة بين فينيقيا واليونان. وفي الوقت الذي كان الفينيقيون يبحرون دومًا عبر البحر المتوسط باتجاه «الغرب» أتت حادثة خطف أوروبا، فعكست واقع العلاقات المأزومة التي كانت تسود أحيانًا بين الفينيقيين واليونانيين.

وتجدر الإشارة أن الفينيقيين كانوا أسياد البحر والتجارة، وكانت مستعمراتهم التجارية بمثابة القلب الذي يضخّ الدم في شرايين حوض البحر الأبيض المتوسّط

ويبعث الحياة فيه. ويتحدّث بعض الباحثين عن شعور اليونانيين بالدونيّة تجاه التفوّق الفينيقي، على الأقل في بداية الألفية الأولى ق.م. ما جعل الإسكندر، بعد انتصاره على الفرس في إيسوس، يخطّط للقضاء على التفوّق الفينيقي، فالهيمنة الإغريقية لا يمكن أن تكون شاملة، طالما أنّ هؤلاء التجار الأثرياء يحتفظون باستقلالهم وامتيازاتهم التجارية. وكان لا بدّ من إخضاعهم كمرحلة أساسية من مراحل السيطرة على العالم القديم. كما ظهرت أسباب أخرى لرغبة الإسكندر ببسط سيطرته على فينيقيا، منها الأساطيل البحرية الفينيقيَّة التي شاركت في حملات الفرس على مقدونيا واليونان ضمن ما عرف بالحروب اليونانية الفارسية (بين 499 ق.م و 449 ق.م.)، لذلك لا بدّ من أن يدفع كل من شارك في هذه الحروب الثمن، ومنهم الفينيقيون.

ج. حملة الإسكندر على فينيقيا

رغم انتصار الإسكندر في معركة إيسوس على الفرس إلّا أنّ البحر المتوسط بقي تحت السيطرة الفارسية بسبب انضمام السفن الفينيقية للأسطول الفارسي، ولذلك لا بدّ له من مكافحة التفوّق البحري الفارسي، وأيضًا تعقّب الفرس لمحاربتهم في عقر دارهم، وقد بدا ذلك مستحيلًا في ظل التفوّق البحري للأسطول الفينيقي الداعم للفرس، عندها قرّر الإسكندر الزحف إلى المدن الفينيقية لتسوية الوضع.

بدأ الملك المقدوني، سيره بعد معركة إيسوس بمحاذاة الشاطئ الفينيقيّ[1]، وقابل في طريقه ابن ملك أرواد الذي قدّم له تاجًا من الذهب، مع مفتاح المدينة وكل ما يخضع لسيطرة ملكها، حينما كان في البحر يقود أسطوله تحت إمرة الفرس.

وقد تابع الإسكندر مسيره إلى جبيل فاستسلمت دون مقاومة، وعند وصوله إلى صيدا، استقبله أهلها بحفاوة واعتبروه محرّرًا لهم من النّير الفارسي، وكانت صيدا قد ثارت ضدّ الفرس في العام 346_345 ق.م.، فحاصرها الملك الفارسي ارتحشِشتا الثالث، وتقول بعض المصادر، أنّ الصيداويين المحاصرين، بلغ عددهم **(40)** ألفًا، فضّلوا الموت على السبي أو الأسر بيد الفرس، فأحرقوا مدينتهم وهم بداخلها

(1) Clausewitz, Carl von, **On War, David**, Campbell Publishers Ltd, London, 1993, p:120

مستسلمين للموت. هذه الأحداث، تناولها بعض المؤرخين بشكل مختلف، إذ إنّهم يعتقدون أنّ الصيداويين دافعوا عن مدينتهم وهم بداخلها، بعد أن سقطت أسوارها بيد الفرس الذين دخلوها وأحرقوا بعض أحيائها وقتلوا أهلها وقمعوا ثورتهم. فيما أننا سنرى في سياق هذا البحث أنّ التاريخ أعاد نفسه مع المقدونيين بعد نجاحهم في احتلال صور، وما يهمّنا هنا، هو الإشارة إلى أنّه في الوقت الذي كانت صيدا تتعرّض فيه للتدمير على يد الفرس، كان هؤلاء يتمتّعون بأفضل العلاقات مع صور.

وصل الإسكندر إلى مشارف صور، فأرسلت المدينة وفدًا قدّم للقائد المقدوني تاجًا من الذهب والكثير من المؤن الغذائية كبادرة حسن نيّة، أظهر عندها الإسكندر حفاوة باستقبال الوفد وأبلغه رغبته تقديم القرابين لملكرت في هيكله داخل الأسوار، فيما رغبته تنطوي على غايات مبيَّتة، فدخول قائد عسكري للصلاة في هيكل المدينة كان يعتبر في حينه بمثابة إقرار بزعامته، فرفض الصوريون دخول أي مقدوني أو فارسي مدينتهم، فنصحوا الإسكندر الذي كان يعتبر نفسه سليل هرقل أن يقدّم أضاحيه في هيكل صور البرية زاعمين بأنّه أقدم بكثير من هيكل الجزيرة، وأضافوا أنّ تقديم القرابين في هيكل ملكرت الموجود داخل أسوار الجزيرة هو حق حصري لملوك صور[1]. أرادت صور أيضًا من هذا الموقف المخالف لمواقف المدن الفينيقية الأخرى، البقاء على الحياد في الحرب الدائرة بين الفرس والمقدونيين، وكانت المدينة تميل إلى عقد معاهدة مع الإسكندر لا إلى الخضوع له، عندها رفض الأخير مبدأ الحياد وقرّر محاصرة صور بغية احتلالها مهما كلَّفه الأمر.

د. صور تمنع الإسكندر من الدخول إليها

رحّبت صور بالفاتح المقدوني عند اقترابه منها، لكنّها رفضت استقباله في هيكلها أو داخل أسوارها، ما شكّل تحديًا كبيرًا له، عندها فرض حصارًا على المدينة بغية إضعافها لاحتلالها، وقد اختلف موقف صور عن مواقف مثيلاتها من المدن الفينيقيّة الأخرى التي استقبلت الإسكندر وفتحت أبوابها له. ويعود سبب رفض صور الخضوع

(1) Arrian, **The Campaigns of Alexander**, Penguin Books, London, 1971, p.124

للإسكندر، إلى أنّ أهلها كانوا واثقين من عظمة اقتصادها، ومتانة تحصيناتها، وقدرة أسطولها، وقوّة نظامها السياسي .

بُنيت صور على جزيرة وسط البحر، تحيط بها الأسوار المنيعة، تحميها الأبراج العالية. ويفصل بين الجزيرة والبرّ قناة بحرية بعرض حوالى ثمانمئة متر، إذ لم يكن هناك مكان حول الجزيرة لنصب السلالم وتسلّق الأسوار أو لتثبيت آلات الحصار تمهيدًا لضرب هذه الأسوار بغية تدميرها، مقابل ذلك لم يملك الإسكندر سُفناً يستطيع بواسطتها التقدم نحو أسوار المدينة لضربها أو محاولة تسلّقها، في المقابل امتلكت صور أسطولاً بحرياً عظيماً قادراً على الدفاع عنها، ما جعل أهلها يعتقدون أنّ احتلالها مستحيل، من جهة أخرى، وعد الفرس الصوريين إعطاءهم الاستقلال المطلق والتوقّف نهائيًا عن التدخّل في شؤونهم في حال مقاومتهم للإسكندر ورفضهم الخضوع له.

كما الفرس كذلك القرطاجيون، شجَّعوا الصوريّين على منع الإسكندر من دخول المدينة، عندما قام الوفد القرطاجي الذي وصل إلى صور للمشاركة باحتفالات العيد السنويّ للإله ملكرت، ودعاهم إلى الثبات في وجه المقدونيين، واعدًا إيّاهم بالمساعدات من قرطاج. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ صور تعتبر الأم الحنون لقرطاج التي تأسّست على يد الأميرة أليسار الصورية حوالى العام 814 ق.م.، ومعنى قرطاج هو «قَرْتْ حَدَشْتْ» أي «المدينة الحديثة»، وأسّست قرطاج إمبراطورية عظيمة سيطرت على أجزاء واسعة من حوض البحر الأبيض المتوسط، وامتلكت أسطولاً بحرياً مهّماً وقوّة عسكرية واقتصادية لا يستهان بها.

وفي جانب آخر، تميّز الحكم في صور بالديمقراطية، واعتبر الوجه الأقدم للديمقراطيات التي عرفها التاريخ. علماً أن المؤرخين اليوم ذهبوا إلى أنّ الديمقراطية انطلقت من أثينا، وهذا ما لا ننكره، فالإرث الثقافي والسياسي اليوناني الذي بقي محفوظًا إلى يومنا هذا، يوضح الوجود الفعلي لهذه الديمقراطية بشكلها الأوّلي. وعلى الرغم من ذلك، فالديمقراطية اليونانية لم تكن الوحيدة في العالم القديم ولا حتى الأقدم، لأن المدن الفينيقية كانت بأكثريتها عبارة عن دولة-مدينة ذات حكم

ديمقراطي، والأبحاث في هذا المجال ما زالت في بداياتها، إلا أنّ الكثير من الباحثين باتوا يتحدثون عن الجذور الفينيقية للديمقراطية اليونانية، ولو تعمّقنا في الموضوع أكثر، سنجد أنّ جذور النظام الديمقراطي تعود إلى المجتمعات البدائية الأولى. ولا يمكن التخيّل أنّ هذه المجموعات التي كانت تتألف من عدد قليل من الأشخاص قد حكمها ديكتاتور مثلًا، ومن المؤكّد أنّ نظام حكمها قام على شكل من أشكال التشاور والتعاون، لذلك يمكن اعتبار النظام القائم في صور نظامًا ديمقراطيًا قويًا، وقد رأى الصوريون في الإسكندر حاكمًا عسكريًا توتاليتاريًا يهدف للقضاء على نظامهم الاستشاري الديمقراطي في حال خضوعهم له.

ثالثاً. سير الأعمال القتالية وانتصار الإسكندر

في كانون الثاني من العام 332 ق.م.، اندلعت الأعمال القتالية بين المقدونيين والصوريين الذين قاوموا الإسكندر ببسالة عظيمة، ساعدهم في ذلك موقع مدينتهم على الجزيرة، ونذكر هنا أن تفاصيل دقيقة حول مجريات العمليات العسكرية في معركة صور، وصلنا معظمها من المؤرخين الإغريق، وعلى الرغم من أنّ هذه المصادر غير محايدة، إلّا أنّها بغاية الأهمية والدقّة، تعطي صورة واضحة جدًا عن تفاصيل المعركة.

أ.المراحل التحضيرية للمعركة

رفضت صور الخضوع للإسكندر، فحشد أمام أسوارها جيشًا قوامه خمسون ألف عنصر، وراح يخطّط لاحتلال المدينة، فشحن عزيمة جنوده وأقنعهم بضرورة خوض المعركة، فجَمَع المعلومات ووضع خطّة استمدّ مضمونها، بحسب زعمه، من الإله هرقل، أضفى عليها بذلك بُعداً دينيًا وجعلها غير قابلة للنقد، وقضت خطته بوصل الجزيرة باليابسة، بواسطة ممرّ من الأحجار ينتقل عليه الجنود سيرًا لمهاجمتها[1].

قبل البدء بالحصار، أرسل الإسكندر وفدًا إلى المدينة مُهدِّدًا ومتوعّدًا أهلها، عندها ألقى هؤلاء القبض على الوفد وقتلوا أعضاءه ورموا جثثهم من فوق أسوار المدينة،

(1) DeVries, Kelly. «**Siege of Tyre, 332 BC.**» In Battles that Changed Warfare 1457 BC – AD 1991, 28-37, Amber, London, 2008, p:30

فشكّل الشرارة الأولى أو السبب المباشر للمعركة[1]، وجمع الإسكندر جنوده وألقى فيهم خطاباً بليغاً حفّزهم على القتال ورفع معنوياتهم وأقنعهم بضرورة فرض الحصار. وممّا ذكره، أنّ هذه المدينة هي الوحيدة التي تجاسرت على مجابهتهم وإيقاف موجة انتصاراتهم، واضاف أنّه لا يمكنهم الذهاب إلى مصر ومن بعدها إلى فارس دون السيطرة على صور بأسطولها البحريّ العظيم وموقعها الاستراتيجي المهّم، وإنّ احتلال صور ومن ثمّ مصر لاحقاً، سوف يحرم الفرس من القدرة على إعادة تجميع قواهم ويمهّد لطردهم إلى منطقة نهر الفرات، وأوضح أنّه لا يمكن إطلاقًا الإبقاء على مدن غير موالية ضمن المناطق التي يتم احتلالها لما قد تشكّله من خطر داخلي على المشروع المقدوني في المستقبل.

حلم الإسكندر بمنامه، أنّ الإله هرقل أمسكه بيده وقاده سيرًا على أرض صلبة باتجاه أسوار صور فاتحًا له أبوابها فدخلها وقدّم القرابين في هيكلها. وفي الميثولوجيا الإغريقيّة، هرقل هو ابن زيوس الأكبر وهو البطل الأسطوري المؤلَّه بعد موته الّذي أنقذ جبل أوليمبوس من شرور عمّه إله الموت بعد بذله جهودًا جبارة، وإنّ الحديث عن هرقل في هذا الإطار يرمز إلى المصاعب الكثيرة التي ستواجه الإسكندر، لكنّه سيتغلّب عليها تمامًا كهذا البطل الأسطوري.

لقد استوحى الإسكندر خطّته بحصار صور من حلمه، فقرّر ردم القناة البحريّة التي كانت تفصل الجزيرة عن الساحل ما يؤمّن له الانتقال على أرض صلبة لمهاجمة الأسوار، واستطلع المناطق الساحلية الواقعة مقابل صور، باحثًا عن المواد اللازمة لتنفيذ مشروعه، فوجد أنّ الأخشاب والصخور اللازمة للأعمال متوافرة في صور البرية وفي جبل لبنان[2].

غرز المهندسون المقدونيّون صفّين متوازيَيْن من الدعائم الخشبيّة عند النقطة

---

(1) اسم لبنان كان يطلق على الجبال المشرفة على الساحل الشرقيّ للبحر الأبيض المتوسط وقد ذكر لبنان للمرة الأولى في التاريخ في الألفيّة الثالثة قبل الميلاد حيث قصده البطل الأسطوريّ غلغامش باحثًا عن الخلود في جبال الأرز. الأمر نفسه فعله المصريون الذين استعملوا خشب الأرز في بناء الأهرامات وفي تصنيع مراكب الشمس الفرعونية.

(2) Arrian, **The Campaigns of Alexander**, Penguin Books, London, 1971, p. 124.

الساحليّة الأقرب للجزيرة وباتجاهها، وهو عمل شاقّ، لا سيّما في البقعة القريبة من الجزيرة حيث المياه العميقة، ثم ملأوا المساحة الفارغة بين الدعائم بالأحجار والردميّات التي كان يُؤتى بها من البرّ، تقدّمت الأعمال بسرعة في البداية ولكنّها تباطأت مع ازدياد عمق المياه.

راقب الصوريّون ما يجري بقلّة اكتراث، لا سيّما أنّ الممرّ لم يكن ظاهرًا فوق المياه بداية، ما دفعهم بالاستهزاء من العمال ويسألونهم إن كان ملكهم الإسكندر أقوى من إله البحر الفينيقي[1]، ومع تقدّم الأعمال فوّض الإسكندر قيادة الحصار إلى أحد قادته وتوجّه إلى منطقة البقاع، يندرج ذلك على ما يبدو ضمن إطار الحرب النفسية، إذ إنه أراد إعطاء انطباع أنّ حصار صور ليس بالأهمية أو الخطورة التي تطلب تواجده الدائم، كما وأراد من خلال ذلك أن يوضح أنّه لن يبذل كل جهده ووقته في حصار مدينة واحدة.

ب. التفوّق الصوريّ في بداية المعركة

لاحظ الصوريّون، مع تقدّم الأعمال المقدونيّة، أنّ قسمًا من الممرّ البحري بدأ بالظهور فوق سطح الماء، فأدركوا حينها حجم الخطر الذي يهدّدهم فيما لو استطاع العدو إنجاز البناء وقرّروا المواجهة، في الوقت الذي يميل ميزان القوى لصالحهم، فنفّذوا هجمات منتظمة على بناة الممرّ، تميّزت بحركيّة صوريّة عالية وقدرة على ابتكار الجديد دائمًا كما ونفّذت وحدات خاصة من سكان الجزيرة أعمالًا قتاليّة في عمق دفاع العدو.

أرسل الصوريّون قوارب قتال خفيفة إلى جانبَي الممرّ على متنها جنود رموا سهامهم على العمّال المقدونيّين فقُتل وجُرح الكثير منهم، في المقابل، لم يتكبّد الصوريّون أيّة خسائر مقارنةً بالمقدونيّين الذين وقفوا على ممرّ ضيق وسط البحر عاجزين عن حماية أنفسهم، وارتدوا دروعًا مصنوعة من الجلد والحديد لحماية أنفسهم، إلا أنها لم تفِ الغرض، عمد بعدها المقدونيون إلى حماية أنفسهم بالاختباء، أثناء العمل، خلف

(1) رؤوف سلامة: **أعلام ومشاهير، الإسكندر الكبير**، دار المستقبل، بيروت، ط 1، 1985، ص 57.

ستائر كبيرة من الجلد أو القماش الخشن مثبتة على هياكل خشبية، وبالإضافة إلى الحماية التي كانت تؤمنها، فقد سمحت هذه الستائر بإعادة جمع السهام العالقة عليها تمهيدًا لاستعمالها ثانية من المقدونيين ضدّ الصوريين.

قام المقدونيون ببناء برجين متحرّكين من الخشب لتأمين حقول مراقبة ورمي لصالح العاملين في الممرّ، بينما جهّز الصوريّون سفينة قديمة وملأوها بالأغصان اليابسة والزفت والكبريت، ثمّ أضرموا النار فيها وأرسلوها باتجاه الممرّ كي ترتطم بالأبراج، فانتشرت النيران بسرعة وقبل أن يتمكّن العمّال من حصرها أحاطت بالبرجين وبآلات الحصار الأخرى وأتت عليها.

عند عودة الإسكندر من البقاع وجد أضرارًا كبيرة قد لحقت بالأعمال التي تمّ إنجازها، فكانت بمثابة صفعة لكبريائه، لكنّها لم تُثنِهِ عن متابعة العمل، بل لجأ إلى إجراء تعديلات جذرية على شكل الممرّ وموقعه، ارتكزت على تغيير اتّجاه الممرّ ليتلاءم مع التيارات المائية الجارفة، وعلى توسيعه ليسمح بمناورة أكبر، ونتيجة مخطّط العمل الجديد، أصبح الممرّ قادرًا على استيعاب الأبراج المتحركة وآلات الحصار التي تمّ تطويرها وتزويدها بعجلات يمكن دفعها كلما تقدم البناء.

مقابل ذلك نفّذت مجموعات صغيرة من الصوريّين عمليات قتاليّة خاصّة لإفشال التقدم في بناء الممرّ، فقامت مجموعة بالتسلّل إلى الشاطئ حيث كان العمّال ينقلون الحجارة، وتمّت مُهاجمتهم، وأغارت فرقٌ خاصّة على العمّال المقدونيّين الذين كانوا يقطعون الأشجار في جبل لبنان ملحقةً بهم الخسائر، إضافة إلى ذلك، سبح الغطّاسون الصوريون باتجاه الممرّ بهدف نزع الدعائم الخشبيّة التي كانت الردميات والأحجار ترتكز عليها، فقاموا بتثبيت الخطافات على هذه الدعائم، ثمّ عادوا إلى الجزيرة وسحبوا بواسطة الحبال هذه الخطافات فانهارت الدعائم جارفة كل ما عليها وما حولها من صخور إلى الأعماق[1].

---

(1) Plutarque, **La vie des hommes**, Didier, Paris ,1844, p.291.

ج. انقلاب ميزان القوى لصالح المقدونيّين

أخضع الإسكندر آسيا الصغرى بسرعة لا مثيل لها، ووقف أمام أسوار صور يخسر الوقت ولا يحقق أيَّ نتائج، وفكّر بفكّ الحصار ومتابعة الزحف إلى مصر لكنّه خشي على اسمه وشهرته، حتى لا يعيّره أعداؤه بالهزيمة، في ظل هذا التخبّط استطاع الإسكندر إنشاء أسطول بحريّ كبير وإدخاله في المعركة، فيما أنهى جنوده بناء الممرّ وأصبح بإمكانه أن يصل إلى أسوار صور عبر البرّ، إلى جانب ذلك لم تصل المساعدات التي انتظرها الصوريّون من قرطاج، عندها غيّرت هذه الأحداث مجريات المعركة وقلبت ميزان القوى لصالح الإسكندر.

كان الإسكندر يدرك أنّه يسير بخطى ثابتة نحو الهزيمة ما لم يُدخِل في أعماله القتالية آلة الحرب البحريّة بهدف فرض حصار بحري على صور، وتوجّه إلى صيدا لإنشاء أسطوله البحري، وفي الأثناء، قرّر ملكا أرواد وجبيل اللذان علما بسيطرة الإسكندر على مدينتيهما، تَرْكَ الأسطول الفارسي والعودة إلى موانئهما ومن ثم الالتحاق بأسطول الإسكندر.

إضافة إلى ذلك، انضمّت مجموعة كبيرة من السفن التابعة لقبرص ولبعض الجزر اليونانية للأسطول المقدوني، فعاد الإسكندر من صيدا بأسطول بحري يقدر بـ (**223**) سفينة، وفرض حصارًا بحريًا على صور، التي نفّذ أهلها هجومًا بحريًّا لفكّ الحصار، واختاروا فترة بعد الظهر لتنفيذ هذا الهجوم كونها فترة الاستراحة لدى المقدونيّين، وأسعف الحظّ الإسكندر الّذي لم يكن قد أخذ قيلولته بعد، فقاد هجومًا بحريًّا معاكسًا محقّقًا النجاح ففشل الهجوم الصوري.

إنّ الخطر الذي شكّله دخول الأسطول المقدوني المستحدث في المعركة لا يكمن في فرض الحصار البحري على صور فقط، فقد تمّ استخدام السفن كحاملات لماكينات الحصار التي كانت تتألف من الأبراج والمدقّات. والمدقّة عبارة عن عمود خشبي ذات رأس معدني معلّق بواسطة حبال على مركبة تسير على عجلات، بحيث يمكن أرجحة العامود ودفعه بقوة لضرب أسوار المدن. ففي حصار صور، تمّت الاستعانة بسفينتين لحمل البرج الواحد أو المدقّة الواحدة. وهناك إنجاز آخر حقّقه

المقدونيون في المعركة، شكّل ضربة قوية للصوريين، بعد الانتهاء من بناء الممرّ، أضحى من الممكن الوصول إلى صور عبر البرّ، نتيجة لذلك نُصِبت أبراج الحصار والمدقّات أيضًا مقابل الأسوار وثُبِّتت على الأرض اليابسة فوق الممرّ.

دافع الصوريّون ببسالة عن المدينة فملأوا أكياسًا من الجلد ووضعوا داخلها أعشابًا بحريّة وألصقوها بالأسوار لتخفيف صدمات المدقّات، ثم ملأوا قدورًا بالرمل المتوهّج والزيت المغليّ وأفرغوها من أعلى الأسوار، فكانت حبّات الرمل تُغرز في دروع وأجساد المقدونيّين، إضافة إلى ذلك قام الغطّاسون بقطع حبال تثبيت المراكب التي كانت تحمل الأبراج والمدقّات بمحاذاة الأسوار ما أجبر الإسكندر على استبدالها بجنازير حديدية.

ضربة أخرى تلقاها الصوريون تتعلّق بالدعم الذي كانوا ينتظرونه من قرطاج، عندما وصل إلى صور وفد قرطاجيّ معلنًا أنّ قرطاج لن تتمكّن من إرسال التعزيزات كونها منشغلة هي الأخرى بالحرب، إزاء هذه التطوّرات، رأى كبير الكهنة في حلمه الإله ملكرت وهو يغادر المدينة، فكان ذلك نذير شؤم كبير. أدرك الصوريّون خطورة الموقف، وبدأوا بإجلاء مَن استطاعوا إجلاءه من نساء وشيوخ وأطفال إلى قرطاج، ورُفعت الصلوات في هيكل ملكرت علّه يتدخّل لنجدة المدينة.

د. سقوط المدينة وارتكاب المجازر بحق أهلها

رأى الإسكندر أنّ الوقت قد حان لشنّ الهجوم الحاسم على صور، فالمتغيّرات الّتي طرأت على سير أحداث المعركة كانت لصالحه بحرًا وبرًا، فشنّ هجومه الحاسم في شهر آب مستخدماً كافة قواه، واستطاع فتح ثغرة في الأسوار الجنوبية للمدينة ساعدته على الدخول، في حين أن الصوريّين دافعوا عن أرضهم حتى الرمق الأخير، ما شكّل ذلك سببًا آخر لانتقام الإسكندر وارتكابه أفظع الجرائم في صور بعد دخولها، ثمّ عمد إلى تنظيم احتفالات النّصر بداخلها وتقديم القرابين لإلهها.

شنّ المقدونيّون هجومًا حاسمًا على صور، وأحاطت الأبراج والمدقّات بالجزيرة من كل صوب، وبينما كان ارتفاع الأسوار شاهقًا من الجهة الشرقية للجزيرة، كانت التحصينات في الجنوب أضعف والأسوار أقل ارتفاعًا، استغلّ الإسكندر ذلك،

فأحدث ثغرة فيها نفذ منها إلى الداخل، ووجّه جهده الرئيس باتّجاه الخرق، فرمت السفن السلالم ووثب بعض المقاتلين من خلالها عبر مجموعات منظمة إلى الأسوار ومنها إلى داخل المدينة، عندها تمكّنت مجموعة الأسوار من احتلال برجين من أبراج الجزيرة، فيما تقدّمت المجموعة تحت حماية مجموعة الأبراج إلى الداخل عبر الثغرة، وتوجّهت مباشرة إلى القصر الملكي فحاصرته وداهمته، وفي هذه الأثناء، تقدّمت السفن الفينيقيّة باتجاه موانئ المدينة، حيث تمكنت سفن الصيدونيين والجبليين والأرواديين من فتح المرفأ الجنوبي، بينما هاجمت سفن القبارصة المرفأ الشمالي وتدفَّق المقاتلون المقدونيّون إلى الداخل، وما إنّ ضعف جهاز الدفاع، حتّى شكّلت الأبراج الملاصقة للأسوار جسور عبور لآلاف المقاتلين المقدونيين إلى داخل المدينة.

سقطت صور من الناحية العسكرية إلّا أنّ أهلها لم يستسلموا، بل واجهوا آلة القتل المقدونيّة ببسالة قلّ نظيرها عبر التاريخ، واتّخذوا قرار المقاومة حتّى الرمق الأخير، وانتشر جنود المدينة أمام المنازل وبين المهاجمين، يقاومون ويقاتلون حتّى الموت فلا يقضون دون أن ينتقموا من الغزاة، فيما صعد من لا يملك منهم سلاحًا إلى سطوح المنازل واستلّوا حجارة وصخورًا رموا بها الأعداء أثناء مرورهم في الأزقّة، وقد احتمى عدد من الشيوخ والنساء والأطفال في هيكل ملكرت، وأغلق عدد آخر منهم أبواب منازلهم بعد أن احتموا بداخلها منتظرين مصيرهم، بينما التجأ آخرون إلى السفن الفينيقيّة الرابضة في المرفأ الجنوبي، وعلى الرغم من مشاركة هذه السفن في الحرب إلى جانب الإسكندر، إلّا أنّ صلات القربى التي تربطهم بأبناء صور حرّكت ضمائرهم أخيرًا فدفعتهم إلى نجدة أهل صور ولو سرًّا.

بعد الانتصار، أمر الإسكندر بقتل جميع السكان، باستثناء من يلجأ منهم إلى معابد المدينة، وجاب المنادون الشوارع يعلنون ذلك مرارًا لكنّ أحدًا من المدافعين لم يرضخ، فحصلت مجازر أدّت إلى مقتل ثمانية آلاف صوريّ بحسب المصدر اليوناني، وبعدما تعب المقدونيون من القتل قاموا بصلب ألفي مقاتل صوري على الشاطئ، كما تمّ بيع ثلاثين ألفًا من الناجين كعبيد.

مشى الإسكندر على الدماء متوجّهًا إلى هيكل ملكرت وقدّم الأضحية فيه أمام جنده وملك صور والهيئة الإداريّة، الذين أجبرهم على الحضور للاحتفال بالنصر، وتزيّنت السفن التي شاركت في القتال بالأعلام والأنوار، وتتهادى أمام الجزيرة في مشهد مهيب، كما نُظّمت مباريات رياضية وسباقات بالمشاعل أمام هيكل ملكرت في هذه الاحتفالات.

كان فرح الإسكندر عارمًا، فالكابوس الذي كاد أن يقضي على أحلامه قد انتهى. فهو قادر الآن على متابعة زحفه إلى مصر ومنها إلى فارس وغيرها، ليسطّر اسمه كواحد من أعظم القادة العسكريين في التاريخ وكواحد من مجرمي الحرب بمفهومنا المعاصر.

الخاتمة

ختاماً، لا بد من استقاء العبر من معركة حصار صور التي راح ضحيتها عشرات آلاف الجنود أثناء دفاعهم عن موطنهم، لقد قاومت صور لفترة سبعة أشهر، واحدًا من أعظم الجيوش التي عرفها التاريخ، وكادت أن تهزمه.

إنّ الشواهد على ملاحم الشجاعة الّتي سطّرها الصوريّون وصلت إلينا من خلال المؤرِّخين المقدونيّين أنفسهم ما يسبغ عليها كثيرًا من المصداقية، وقد تختلف النظرة إلى ما فعل الصوريّون وفقًا لاختلاف الزمان والمكان، فيرى البعض أنّ خيار الخضوع للإسكندر الذي اتّخذته باقي المدن الفينيقيّة كان من الممكن أن يوفّر على صور الدمار الّذي حلّ بها.

وعلى كلّ حال، مهما اختلفت وجهات النظر، يبقى ثابتًا أنّ أهل صور بذلوا أنفسهم من أجل مدينتهم، ومن المفيد ذكره أن دعم صيدا وجبيل وأرواد للإسكندر أدى إلى قلب ميزان القوى لصالحه، وفي تحليل هذا الموقف، يجب ألّا يكون من خلال إسقاط عمودي للحاضر على الماضي. وبالتالي، فإنّ مقاربة الأحداث لا يمكن أن تتمّ بفصلها عن خلفيّتها التاريخيّة والجغرافيّة؛ على الرغم من ذلك، يمكننا القول أنّ تشرذم الإخوة نتيجة إعلائهم لمصالحهم الضيّقة أدّى إلى تدمير صور.

ولا بد من التأكيد أيضًا، أنّ معركة صور تعتبر مصدرًا مهمًا، لا بل نادرًا، يمكن الارتكاز عليه في محاولة فهم التاريخ العسكري للفينيقيين، فقد اشتهر هذا الشعب ببراعته في التجارة والعمارة والإبحار وباختراعه الأبجديّة، لكنّنا لم نعرف الكثير عن قدراته العسكريّة، لذا، فإنّ أحداث هذه المعركة تعتبر كنزًا من المعلومات في التاريخ العسكري.

نذكر أيضًا أنّ المعلومات الواردة في هذا البحث قد تصلح لتشكيل نواة لدراسة أكبر وأشمل تُلقي المزيد من الضوء على تاريخ الفينيقيين العسكري، ونأمل أيضًا أن يسهم هذا البحث في التوعيّة على أهميّة دراسة التاريخ لفهم الحاضر واستقاء العبر، كما نرجو أن تساعد هذه الدراسة ولو جزئيًا في التنبيه على ضرورة الحفاظ على المواقع الأثريّة في لبنان باعتبارها شاهدًا على الأحداث الغابرة.

قائمة المراجع

أ. المراجع العربية

1. سلامة، رؤوف: **أعلام ومشاهير، الإسكندر الكبير**، دار المستقبل، ، بيروت، ط 1، 1985.
2. لامب، هارولد: **الإسكندر المقدوني**، ترجمة عبد الجبار المطلبي ومحمد ناصر الصانع، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد، نيويورك، 1965.
3. متوديوس، زهيلاتي: **الإسكندر الكبير**، دار طلاس، دمشق، ط 1، 1999.

ب. مجلة باللغة العربية

1. الجنابي، قيس : **الإسكندر المقدوني ومشروعه العالمي في بابل**، مجلة مركز **بابل للدراسات الإنسانية**، بغداد، المجلّد 5، العدد 1، 2015.

ج. المراجع باللغة الإنكليزية

1. Arrian, The Campaigns of Alexander, Penguin Books, London, 1971.
2. Clausewitz, On War, Campbell Publishers Ltd, London, 1993.
3. DeVries, Siege of Tyre, 332 BC, In Battles that Changed Warfare 1457 BC – AD 1991, 28-37, Amber, London, 2008.
4. Jidejian, Tyre through the Ages, Dar el-Mashreq Publishers, Beirut, 1969.

د. مرجع باللغة الفرنسية

1. Plutarque, La vie des hommes, Didier, Paris ,1844.

الصدام بين المغول والإسماعيليّين

أ.م.د. جورج نصّار(*)

ملخّص

بدأ المغول مسيرهم نحو الجنوب لغزو الصين انطلاقاً من منغوليا بهدف السيطرة على آسيا الوسطى. ثم توجّهوا نحو الهند حيث اصطدموا بالغوريّين، وتقدّموا نحو بلاد ما وراء النهر، الممتدة بين نهري سيحون وجيحون، التي كانت بمثابة معبر لهم نحو البلاد الإسلامية. وبعد الانتصار على الخوارزميّين، حاولوا الهجوم على بغداد، لكنهم وجدوا أمامهم عدوّاً آخر تمثّل بالإسماعيليين. فكان الصدام معهم أمراً لا مفرّ منه، وقد كانت واحدة من أخطر التيارات المعادية للمغول في العالم الإسلامي لامتلاكهم عشرات القلاع الحصينة والمنيعة التي أعاقت الزحف المغولي نحو بغداد لعدة سنوات. وكان لهذا الصدام أسباب عديدة لكن أبرزها كان تأمين ظهر المغول من أي هجوم قادم يعيق توغّلهم داخل بغداد.

كلمات مفتاحية:

المغول، الإسماعيليين، هولاكو، القلاع الإسماعيلية، الحشاشين.

(*) أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مادة التاريخ العربي والإسلامي.



Résumé en français

Les Mongols ont entamé leur marche vers le sud pour envahir la Chine, partant de la Mongolie dans le but de contrôler l›Asie centrale. Ensuite, ils se sont dirigés vers l›Inde où ils ont affronté les Gurjars, avançant vers les régions au-delà des rivières Sihon et Jihon, agissant comme un passage mongol vers les terres islamiques. Après avoir vaincu les Khwarazmiens, ils ont tenté d›attaquer Bagdad mais ont trouvé face à eux un autre ennemi, les Ismaéliens. L' affrontement avec eux était inévitable, car ils constituaient l›un des courants les plus dangereux hostiles aux Mongols dans le monde islamique, possédant des dizaines de forteresses impénétrables qui ont entravé l›avancée mongole vers Bagdad pendant plusieurs années. Ce conflit avait de nombreuses raisons, mais la plus notable était de sécuriser l›arrière des Mongols contre toute attaque entravant leur progression à l›intérieur de Bagdad.

Mots clés: Les mongols, les Ismaéliens, Hulagu, Fortresses ismaelinnes, Assassins.

مقدمة

بدأ الزحف المغولي من منغوليا نزولاً لغزو الصين التي أسّسوا فيها سلالة حاكمة جديدة، ثم توجّهوا إلى الهند واصطدموا بالغوريّين، ووصلوا بلاد ما وراء النهر (ما بين نهري سيحون وجيحون) التي كانت عبارة عن جسر عبور للمغول نحو المشرق العربي، وبعد القضاء على الخوارزميّين فيها، أرادوا العبور نحو العراق، لكن بقيت أمامهم عثرة في طريقهم تتمثّل بالحشّاشين، وكانت هذه الحركة من أخطر الحركات المتطرّفة في العالم الإسلامي، وكان صدام المغول معهم أمراً لا مفرّ منه. ولهذا الصدام عدة أسباب، أبرزها تأمين ظهر المغول من أي عدوّ يضرب جيشهم من الخلف عندما يصطدمون بالعباسيّين في بغداد.

إنّ الصدام بين هاتَيْن القوّتَيْن موضوع غني يشمل تفاعلات معقّدة. إذ تجسّد هذا الصدام من خلال غزو هولاكو للمنطقة وتدميره عدد كبير من المدن الإسماعيليّة وبالتالي يمكننا أن نطرح الإشكالية التالية:

أين ومتى وما هي المعارك التي خاضها المغول من أجل تحقيق أهدافهم وما كانت

أسبابها؟ وكيف بدأت قلاع الإسماعيليين تتهاوى تحت أقدام المغول الواحدة تلو الأخرى؟

وفي سياق الصدام بين المغول والإسماعيليين تثير الإشكالية المطروحة العديد من الفرضيّات التي تساعدنا في فهم السياق التاريخي لهذا الصراع الذي تجلّى على الصعيد السياسي والعسكري.

- شكّل الحشّاشون عثرة أمام المغول لاحتلال بغداد.
- لم تكن أراضي الإسماعيليين في إيران هدفاً للمغول، بل كانت فقط بوابة عبور لأراضي العباسيين.
- أراد المغول القضاء على الإسماعيليين كي يؤمّنوا ظهر الجيش.

لذلك، يتطرّق البحث إلى الأوضاع السياسية في المشرق، قبل قيام حركة الحشيشية في إيران، التي انبثقت عن الشيعة الإسماعيلية النزارية، ثم دراسة أسس الدعوة الإسماعيلية، وعلاقة الحشّاشين بالمغول، إضافة إلى مجريات المعارك بين الطرفين. ثم في ختامه، يسلّط الضوء على نهاية الحشّاشين وإزالة كل العثرات التي حالت دون وصول المغول إلى بغداد.

ويشكّل البحث نتاج بحث معمّق في المصادر مع إعادة ترتيب الأحداث التاريخية وتحليلها تحليلاً دقيقاً.

أولاً. الأوضاع السياسية في المشرق قبل قيام حركة الحشيشيّة في إيران

استطاع الحسن بن الصبّاح في نهاية القرن الخامس الهجريّ/ الحادي عشر الميلادي، أن يُؤسّس حركة سياسيّة مذهبيّة، اتّخذت من قلعة أَلَمُوتْ في إيران مركزًا لها. وسرعان ما توسّع انتشارها في إيران وبلاد الشام، وانضمّت العديد من القلاع الحصينة لابن الصبّاح، واستطاع بفضل قوّته المتنامية أن يشكّل نوعًا من الخطورة والتهديد للدولة السلجوقيّة.

ويمكننا القول، أن القرن الخامس الهجري، كان ميدانًا للصراع بين خلافتَيْن عظيمتَيْن، الأولى هي الخلافة العبّاسيّة في بغداد، وهي وإن كانت قد فقدت الكثير من

جوانب عظمتها الماديّة وقوتها العسكريّة الحربيّة، إلّا أنّها احتفظت إلى حدّ ما بسلطتها الروحية على جميع المسلمين السُنّة. أمّا الخلافة الثانية، فهي الخلافة الفاطميّة التي ابتدأ أمرها في بلاد المغرب في العام 297هـ/ 909م، ثم شهدت تطوّرًا بعد انتقالها إلى مصر مع الخليفة المعزّ، في العام 359هـ/ 969م، وقد استفادوا من ضعف الخلافة العبّاسيّة أثناء سيطرة الفرس عليها، ففرضوا سيطرتهم على عدد من المناطق، وخُطِبَ لخلفائهم في مكّة والمدينة، ودخلوا في عدّة حروب ضد الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وكانوا بمثابة حصن الشيعة الحصين[1]. والإسماعيليّة فرقة من الشّيعة سُمّيت بهذا الإسم لأنّها وقفت بِسلسلة الإمامة عند إسماعيل، الابن الأكبر لجعفر الصادق، وقد جعلوا الإمامة من بعده لابنه إسماعيل[2]، وانقسمت الطائفة الإسماعيليّة، بعد وفاة الخليفة الفاطميّ المستنصر في العام 487هـ/ 1094م إلى فرقتين: النزاريّة التي اعتقد أتباعها بأحقيّة ابنه الأكبر نزار بالخلافة، وقد فرّوا إلى الشرق، بعد أن تعرّضوا لحملة اضطهاد في مصر، وكان على رأسهم الحسن بن الصبّاح الذي أسّس في بلاد فارس ما يُعرف بالفرقة النزاريّة، وقد غلب على أتباعه إسم الحشيشيّة أو الباطنيّة. أما الفرقة الثانية فهي المستعلية نسبة إلى المستعلي ابن الخليفة الفاطمي المستنصر[3]، ولن نخوض في غمار هذه الفرقة لأنها خارجة عن موضوع البحث.

وفي هذا الصدد يذكر فرهاد دفتري في كتابه «**خرافات الحشّاشين وأساطير الإسماعيليّين**»، أن الحشيشيّة أو الحشّيشيّين سُمّوا بهذا الإسم، إمّا نتيجة استعمالهم الحشيش الذي تزخر به الطبيعة الجبلية في تلك البلاد التي استقروا فيها لصنع الأدوية، وإمّا لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش المُخَدِّر كي يصبح الفرد منهم كالآلة في يد الشيخ قبل أن يوجّهه لتنفيذ مهمة ما، ونحن نعلم من مؤرّخي الحروب الصليبيّة أن جماعة الحشّاشين استعملت الحشيش إستثارة للقتل، واحتقارًا للموت في سبيل أهدافهم السياسيّة، ومن ثم انتقل الاسم «حشّاشين» وهو أصل الكلمة (Assassin) إلى لغات

(1) محمد يسري حسن: **تاريخ الحشيشية والمهدية التومرتية**، دار النفائس، بيروت، ط 1، 2016، ص 49.

(2) هيورات كلود: **مقال الإسماعيلية في دائرة المعارف الإسلامية**، دار المعرفة، بيروت، لا ت. مج2، ص 187.

(3) محمد سهيل طقّوش: **تاريخ المغول العظام والإيلخانيين**، دار النفائس، بيروت، ط 1، 2007، ص 132.

جنوبيّ أوروبا، على أن المألوف لهذه الكلمة الأوروبيّة لا صلة له باللفظ الأصليّ[1].

كما أطلق المؤرّخون على هذه الحركة الجديدة تسمية ثانية، هي:

- **السبعية:** لأن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق هو الإمام السابع عندهم، ولتمييزهم عن طائفة الإثنيّ عشريّة.
- **الباطنيّة:** لأنهم يقولون أن لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلًا، وقد جعلوا هذه النظريّة عقيدة شاملة لكل أمور الحياة، كما جرت المصنّفات الشرقيّة على تسميتهم بالملاحدة أو النزاريّة، وعلى الرغم من تعدّد التسميات، فإن طقّوش يسمّيهم بالحشيشيّة، وأحيانًا يسميهم الإسماعيليّة النزاريّة[2]، وسنعتمد تسميتهم بالإسماعيليّين كي لا يقع القارئ بأيّ التباس.

أ. انقسام الدعوة الإسماعيليّة

تعرّضت الدعوة الإسماعيليّة في بداية انطلاقتها لخضّة سياسيّة ومذهبيّة حادّة بعد وفاة المستنصر في العام 487هـ/ 1094م، نتجت عن تدخل الوزير الأفضل بن بدر الجماليّ وأدّت إلى انقسامها إلى قسمين، وكان لها آثار جسيمة على مصر وخارجها. خلف المستنصر عدّة أولاد منهم نزار وهو الابن الأكبر ومحمد وعبد اللّه وإسماعيل المحسن والحسن وحيدرة وأحمد، هو الأصغر، فتوفي بعضهم في حياته، وقد ذكرت المصادر أنّه بعد وفاة المستنصر وردت أسماء نزار وعبد اللّه وإسماعيل وأحمد وأنهم لا يزالون على قيد الحياة[3].

وتبعًا للقوانين الإسماعيليّة، تُنقل الإمامة من الأب إلى الابن الكبير، وعلى هذا الأساس، فإنّ نزار هو صاحب الحقّ الشرعيّ في خلافة أبيه في منصب الإمامة، وإنّ

---

(1) فرهاد دفتري: **خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين**، ترجمة سيف الدين القصير، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط 1، 1996، ص 145.

(2) محمد سهيل طقوش: **تاريخ الفاطميين في شمالي أفريقية ومصر وبلاد الشام**، دار النفائس، بيروت، طبعة 1، 2001، ص 392.

(3) تقي الدين أحمد المقريزي: **إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، تحقيق محمد حلمي أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996، ج 3، ص 11.

الخليفة المستنصر قد رشح نزارًا ليخلفه، ولكن لم تجرِ أية احتفالات لتنصيبه وليًا للعهد، بل سُكّ اسمه على العملة، وربما أشار إلى خاصّته بولايته[1].

والواقع أن المستنصر قبل وفاته أخذ البيعة لابنه نزار على رجال الدولة، فتقاعس الوزير الأفضل عن ذلك وماطله حتى مات لكراهته لنزار، وتجاهل الوزير الأفضل هذا التقليد وذاك الترشيح، كونه كان المتحكّم بالخلافة الفاطميّة، ويفعل ما يحلو له، فأبعد نزارًا عن الحكم، وأجلس أخاه الأصغر القاسم أحمد على كرسي الخلافة، ولقّبه بالمستعلي باللّه، وذلك يوم الخميس 18 ذي الحجة 487 هـ/ 29 كانون الأول 1094م[2].

وهناك ثلاثة أسباب دفعت الوزير الأفضل إلى هذا التصرّف، هي:

- صغر سنّ المستعلي مقارنة مع سنّ نزار، فقد كان عمر الأول عشرين عامًا وعمر الثاني خمسين عامًا، ما يتيح له التحكم به إذا ما ولّاه الإمامة، فيصبح مُطلق التصرّف في شؤون الدولة.
- الترابط العائلي، فقد كان المستعلي زوج أخته ست الملك ابنة بدر الجماليّ.
- الغيرة، فقد كان الوزير الأفضل يغار من نزار، لذلك اتّخذ موقف العداء منه، وكان يقلّل من شأنه، ولا يقرّب أحدًا من غلمانه وحاشيته، بل عرّضهم للأذى، وحذّر رجال الدولة من قبول مبايعته وخوّفهم منه[3].

أضف إلى ذلك معرفة الوزير الأفضل أنه لن يبقى في سدّة الحكم مع وجود نزار، وأنه سوف يُقصيه عن الوزارة إذا تولّى العرش، وبخاصة أنّه كان على علاقة طيّبة مع محمد بن مصّال اللّكّي، وقد وعده بتوليه الوزارة وقيادة الجيوش إذا تولى الحكم. فانتهز الوزير الأفضل فرصة وفاة المستنصر، وأشار على الأمراء بتولية ابنه الأصغر

(1) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، دار الكتب العالمية، بيروت، ط 1، 1997، ج 2، ص 25. سيتمّ اعتماد اسم السيوطي لاحقاً.

(2) محمد علي بن جلب بن ميسر: **أخبار مصر**، إعتناء هنري ماسيه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1919، ج 2، ص 35. سيتمّ اعتماد اسم ابن الميسر لاحقاً.

(3) المصدر نفسه، المكان نفسه.

أبي القاسم أحمد، واختاره دون بقية إخوته، وتبعًا لما ذكره المؤرخون، فإن المستنصر نعت ابنه أحمد بلقب أبي القاسم، وعندما عقد نكاحه على ابنة بدر الجماليّ، نعته بصفة «ولي عهد المؤمنين كتب ذلك بكتاب الصداق وعلّم عليه بخطه»، واستدعى الوزير الأفضل أولاد المستنصر، وأخبرهم بوفاة أبيهم وضرورة حضورهم، فلما حضروا وأبصروا أخاهم الأصغر جالسًا بزَيِّ الخلافة امتعضوا وأنكروا ذلك، وقال كل منهم أن والده وعده بالخلافة ورفض نزار مبايعة أخيه الأصغر منه وتوجَّهَ إلى الإسكندرية.

ولمّا علم الأفضل بقرار نزار، قبض على أخويه وأنفذ قوة عسكريّة للقبض على نزار، غير أن الجنود فشلوا في اللّحاق به وتتبع أثره والعثور عليه[1].

ب. نتائج انقسام الدعوة الإسماعيلية

أدّى إقصاء نزار عن الإمامة، على الرغم من أحقيّته لها، إلى نتائج بعيدة الأثر في تاريخ الدعوة الإسماعيليّة والدولة الفاطميّة، ويُعدّ إبعادُه وتولية المستعلي انقلابًا مذهبيًا وسياسيًا واضحًا قام به الوزير الأفضل ليحافظ على مكتسباته وسلطاته التي كان يتمتع بها منفردًا منذ أواخر عهد الخليفة المستنصر.

فرّ نزار إلى الإسكندرية، وأعلن عن نفسه إمامًا وتلقّب بلقب المصطفى لدين اللّه وانضمّت إليه كلّ الأجناد من عربان وسودان ومغاربة أي حوالي ثلاثين ألف فارس واستولى أنصاره على معظم الدلتا[2].

لكن ثورته لم تنجح بسبب تأييد الجيش للوزير الأفضل الذي تمكّن بعد محاولتَيْن من هزيمته، وجرى قتال ضارٍ في موضع كوم الريش بجوار القاهرة تقهقر فيه نزار ومن معه، وعاد إلى الإسكندرية التي حاصرها الوزير الأفضل حوالي عشرة أشهر، وفيما بعد طلب ناصر الدولة أفتكين الأمان له ولنزار ولأهل البلد فأمنهم الوزير الأفضل إلا أنه قبض عليهما وأرسلهما إلى القاهرة[3].

---

(1) ابن ميسر: أخبار مصر، مصدر سابق ج 2، ص 35.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 35 ـ 36.

(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 36 ـ 37.

وسِيق نزار وناصر الدولة أفتكين في اليوم التالي إلى مجلس المُستَعْلي، فلما رأى نزارًا صاح في وجهه وانتهره وأمر بإخراجه، ثم اعتقل بالقصر، وضيّق عليه حتى مات وربّما قتل، أما ناصر الدولة أفتكين فقد قتل بالعصي(1).

وقد اعترف بإمامة المستعلي القسم الأكبر من الإسماعيليّة في مصر وبلاد الشام وكل الطائفة الإسماعيليّة في اليمن والهند، وعرفوا بالمُستعليّة نسبة إلى المُستعلي، أو بالإسماعيليّة الغربيّة.

ج. ظهور الإسماعيليّة النزاريّة

أزعج تدخّل الوزير الأفضل في شؤون المستنصر غضب بعض الدّعاة في مصر، وبخاصة بعد أن اتّبع القسوة مع الذين لم يناصروه، فنفى أسرة عبد القوي إلى المغرب.

واستطاع أحد الدّعاة الزائرين لمصر أيام المستنصر، أن يثير معارضة جدية خارج مصر. هذا الداعية هو الحسن بن الصبّاح المشهور بالحميري، نسبة إلى قبيلة حِمْيَرْ اليمنية، بعدما هاجر والده من اليمن إلى الريّ واستوطنها، وهناك ولد الحسن في بيت اشتُهر بالتشيّع على المذهب الإثنيّ عشريّ(2).

اهتمّ الحسن منذ شبابه بتلقّي العلوم والمعارف والتزوّد بكل ما يستطيعه من أجل توسيع مداركه، وعمل في دواوين الدولة السلجوقيّة في عهد السلطان ألب أرسلان، ثم انتقل إلى القاهرة ليتعمّق في دراسة المذهب الإسماعيليّ في دار الحكمة، فوصل إلى القاهرة في العام 471هـ/ 1078م، ولعلّه كان يأمل بالتتلمذ على يد داعي الدّعاة المؤيّد في الدّين هبة اللّه الشيرازيّ وهو فارسيّ، لكن المؤيّد توفي قبل أن يصل، إلا أنّه استفاد ممّا وجده من كتبه وتلاميذه.

بقي الحسن بن الصبّاح مقيمًا في مصر حوالى سنة ونصف كان خلالها موضع حفاوة لدى المستنصر (الذي حكم نحو ستين سنة)، فأمدّه بالأموال وأمره بأن يدعو

---

(1) ابن أيبك الدوداري : **كنز الدرر وجامع الغرر، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية**، تحقيق صلاح الدين المنجد، المعهد الألماني للدراسات الشرقية، القاهرة، 1972، ج 6، ص 352.

(2) الجويني: **تاريخ فاتح العالم جهان كشاي**، تحقيق محمد عبدالوهاب القزويني، ترجمة محمد السباعي، منشورات المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007، ج 1، ص 163.

الناس لإمامته في بلاد العجم. وفي تلك الأثناء سأله عمّن يكون الإمام من بعده فأخبره المستنصر بولاية عهده لابنه نزار[1]، وكان الحسن بن الصبّاح يرى أن تولية نزار تتفق مع التعاليم الإسماعيليّة التي تشترط في الإمام أن يكون أكبر أبناء أبيه.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المصادر لا تؤكد خبر هذا اللقاء مع المستنصر، وبخاصة أن أمير الجيوش بدر الجماليّ لم يرحّب بالحسن بن الصبّاح في مصر ورأى في وجوده خطرًا على كيانه فحال بينه وبين لقاء المستنصر، بل سجنه في مدينة دمياط، ثم نفاه إلى بلاد المغرب، ولكنّ الرياح ألقت بالسفينة التي أقلّته على سواحل بلاد الشام ففرّ منها عائدًا إلى بلاد فارس، وذلك في شهر ذي الحجة 473 هـ/ أيار 1081م[2].

ثمّة أمر لا بدّ من ذكره، ألا وهو أن إقامة الحسن بن الصبّاح في مصر أتاحت له التعرّف على خفايا الخلافة الفاطميّة وخباياها، وما آلت إليه الدعوة الإسماعيليّة في ظِلّ سيطرة بدر الجماليّ، وقد عزم على إقامة الدعوة للمستنصر في فارس وخراسان، وحرص على تكوين مجتمع إسماعيليّ صرف يعمل أعضاؤه على نشر المذهب الذي عُرف بعد وفاة المستنصر بالإسماعيليّة الجديدة[3]، ولذلك عُرف هو وأتباعه بالنزاريّة أو الإسماعيليّة الشرقيّة، كما عُرفت فرقتُه بالحشيشيّة، وربما لتعاطي أفرادها الحشّيش أثناء قيامهم بعمليات إنتحاريّة، وسمّاهم أعداؤهم بالباطنيّة لأنهم يرون لكل ظاهر باطنًا وهم سمّوا أنفسهم بالتعليميّة[4].

وعندما تُوفي المستنصر وخلفه ابنه المُستعلي، خَطَبَ الحسن بن الصبّاح لنزار وأذاع بين أنصاره أنّ المُستعلي إغتصب الإمامة من نزار وبذل جهدًا كبيرًا في الردّ على حجج طائفة المُستعليّة.

---

(1) ابن الأثير: **الكامل في التريخ**، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي بيروت، ط1، 1997، ج7، ص 775؛ محمد سهيل طقّوش: **تاريخ الفاطميين**، مرجع سابق، ص 392 ـ 393.

(2) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، مصدرسابق، ج1، ص 165 ـ 166.

(3) أيمن فؤاد السيّد: **الدولة الفاطمية**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط 1، 1992، ص 157.

(4) محمد عبد الكريم الشهرستاني: **الملل والنحل**، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1968، ج 1، ص 192.

د. العودة إلى إيران

خرج الحسن بن الصبّاح من مصر بعدما اكتسب الكثير من المعارف والعلوم الدينيّة، ولم تكن الإسماعيليّة متاحة له في فارس، كما إنّه تمّ تنصيبه بطريقة رسميّة داعيًا إسماعيليًّا، وهو الأمر الذي سيُكسبه بعد ذلك نوعًا من أنواع الشرعية التي سوف تساعده في بناء دولته فيما بعد[1].

خرج الحسن بن الصبّاح مُجبرًا من عاصمة الإسماعيليّين الكبرى، وانهارت آماله وخططه الطموحة التي رتّب لها، وهدف من ورائها أن يجد لنفسه مكانًا مهمّاً في الساحة السياسيّة الفاطميّة.

لذلك غيّر الحسن من استراتيجيته وبدّل من خططه، فبعدما كان أقصى طموحه أن يجد له موضعًا في الدولة القديمة، نجده بدأ يفكر في بناء دولة جديدة فتيّة يكون هو مركزها وأساسها، وعرف الحسن أن هؤلاء لن يمكّنوا نزارًا من اعتلاء عرش آبائه، لذلك جعل فكرة ولاية عهد نزار حجر أساس في دعوته، واستغلّ ما كان يربط بينه وبين نزار في مصر من علاقات التبعيّة والتفاهم والمصلحة المشتركة في إقناع الإسماعيليّين بصدقه ومشروعيّة دعوته، وكان من الطبيعي أن يعود الحسن إلى وطنه القديم في إيران بعد إخراجه من مصر، فنجده بعد وصوله إلى بلاد الشام ينزل بعكّا ثم يتوجه إلى حلب ومنها يتجه إلى ديار بكر مارّاً ببغداد عاصمة الخلافة العبّاسيّة، ثم يكمل طريقه فيتوغل في أراضي خوزستان[2]، ثم يقصد أصفهان آخذًا طريق كرمان ثم يزد[3]، وكان وصُوله إلى أصفهان في العام 473 هـ/ 1080م[4].

---

(1) أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن المعروف بابن الجوزي: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1992، ج 17، ص 63. سيتمّ اعتماد اسم ابن الجوزي لاحقاً.

(2) خوزستان: هو اسم لجميع بلاد الخوز. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1990، ج 2، ص 404.

(3) يزد: مدينة بين نيسابور وشيراز وأصبهان. المصدر نفسه، ج 5، ص 435.

(4) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، مصدر سابق، ج 1، ص 166؛ فرهاد دفتري: **خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين**، مرجع سابق، ص 57؛ فرهاد دفتري: **الإسماعيليون في العصر الوسيط**، ترجمة سيف الدين القصير، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، 1999، ص 190.

ثانياً: أسس الدعوة الإسماعيليّة

لم يمكث الحسن بن الصبّاح كثيرًا في أصبهان مركز الإسماعيليّة الرئيسي فيّ إيران، وبعد قليل من وصوله إليها، انطلق زائرًا لبعض المدن والأقاليم الفارسيّة فوصل إلى خوزستان ـ يزد ـ كرمان ـ فرمان ـ شهرياركوه[1]، ويبدو أنّه وصل في رحلته تلك إلى بعض المناطق المتطرّفة في إيران، التي تبعد كثيرًا عن المركز الرئيسي للدعوة في أصبهان، وذلك لأن بعض المصادر تذكر أن الحسن قد وصل إلى كاشغر[2]، الموجودة في أقصى الشرق الفارسي، بالقرب من تخوم بلاد الصين، واستمرّت رحلة الحسن في إيران مدة تسع سنوات كاملة، لم يكلّ ولم يتعب من الأسفار المتلاحقة، حاول أن يحشد أكبر عدد ممكن من الأعوان والأتباع الإسماعيليّين المؤمنين بفكرة ولاية نزار وإمامته بعد أبيه[3].

إنتقل الحسن إلى المنطقة الشماليّة المُطلّة على بحر قزوين[4]، وقد تمكّن أن يؤهل بعض أتباعه ليُصبحوا دعاةً مُؤهلين لنشر أفكاره بين الناس واستمرّت فترة مكوث الحسن في دامغان مدّة ثلاث سنوات، وبعد ذلك قرّر أن ينتقل إلى منطقة الدَيلم ومن ثم في النهاية استطاع الوصول إلى مدينة قزوين (Qazvin).

هذه الرحلة الطويلة أتاحت له التعرّف على كثير من الآراء والأفكار السياسيّة والعسكريّة التي سوف يستخدمها في سبيل بناء حركته أو دولته الخاصة، فالحسن الذي وصل إلى قزوين بعد طول سفر وترحال، لم يكن هو نفسه ذلك الشاب الطموح الذي خرج من بلاده هاربًا من السلاجقة وطالبًا العلم في مصر، ركيزة العالم

---

(1) أبو العبّاس أحمد القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب المصرية القاهرة، ط 1، 1922، ج 1، ص 120، سيتمّ اعتماد اسم القلقشندي لاحقاً؛ برنار لويس: **الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام**، تعريب محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 2، 2006، ص 71.

(2) كاشغر: مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي وهي في وسط بلاد الشرق. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، ج 4، ص 430.

(3) القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، مصدر سابق، ج 1، ص 120.

(4) قزوين: مدينة مشهورة بينها وبين النهر سبعة وعشرون فرسخًا، ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، ج 4، ص 342.

الإسماعيليّ حينئذ، ويمكن القول أن الحسن اعتمد في حركته على أربع ركائز أساسية مهمّة، واستطاع هو عن طريق دمج تلك الركائز ببعضها، أن ينتج منها حركة ذات طبيعة مُتفرِّدة ومُستقلّة عن الحركات السياسيّة والمذهبيّة التي سبقتها وهذه الركائز هي باختصار:

- الركيزة الأولى: العمل على إيقاظ الروح القومية الفارسيّة.
- الركيزة الثانية: التعريض بسياسة السلاجقة الأتراك في إيران.
- الركيزة الثالثة: الاستفادة من تاريخ الحركات السياسيّة والمذهبيّة السابقة في إيران وغيرها من البلاد الإسلاميّة.
- الركيزة الرابعة: الوعي العميق بطبوغرافيّة إيران وديموغرافيّتها[1].

أ. الاستيلاء على قلعة أَلَمُوتْ

يُستدلّ من تصرّفات الحسن بن الصبّاح ونشاطه الدعويّ والعسكري، أنه ينزع نحو الاستقلال وتأسيس كيان خاصّ به في فارس، فكان من الطبيعي أن تتنبّه الدولة السلجوقيّة إلى خطره، وأدرك القيّمون عليها أن الحسن وأتباعه ليسوا جماعة عقائديّة فقط، وإنّما لديهم توجّهات سياسيّة توسّعيّة، وبناء على ذلك صدر الأمر بتعقّبهم، وجرت عدّة معارك ومواجهات بن الطرفين، لن نغوص بها كونها خارج نطاق البحث، ما أجبر الحسن بن الصبّاح للتفكير في ضرورة تأمين حصن منيع يحميه هو وأتباعه، ويكون منطلقًا لنشر الدّعوة الإسماعيليّة، وقد وجد ضالّته في إحدى القلاع القريبة منه، لا سيّما أن سكّان المنطقة مستعدّين لاعتناق المذهب الإسماعيليّ وهو على صدام مع السُّنة، أضف إلى ذلك، طبيعة الإقليم الجغرافيّة التي تشتمل على هضاب وعرة وطرق عسيرة المسالك، وفيها قلاع وحصون كثيرة يصعب على الأعداء المهاجمين اقتحامها.

هذه القلعة هي قلعة أَلَمُوتْ التي تعدّ أحصن قلاعها وأقدرها على تحقيق الحماية له ولأتباعه، ومنطلقًا يوجّه منها غاراته ضد السلاجقة، فاستخدم أسلوب الدهاء

---

(1) للمزيد انظر: محمد يسري حسن: **تاريخ الحشيشية** ، مرجع سابق، ص 70 ـ 76.

والاستقطاب فبثّ رجاله داخلها وفي المنطقة المحيطة بها، وتمكّن من جذب أهلها إلى الدعوة الإسماعيليّة[1]، لأنه كان يتمتع بالشجاعة والذكاء وحسن التدبير وقوة العزيمة فيصفه الذهبي أنّه «كان من دهاة العالم وشجعانهم وشياطينهم»[2].

تقع قلعة أَلَمُوتْ في ناحية من نواحي قزوين، وبالتحديد في منطقة روذيار شمالي قزوين، وهي مبنيّة فوق إحدى جبال البورز العاليّة، وكلمة ألموت تعني عشّ العُقاب أو عشّ النسر، باللّسان الفارسيّ الديلميّ، وتنقسم تلك الكلمة إلى مقطعين هما، أله بمعنى النسر، وأموهث بمعنى المعلوم أو المعلم[3].

يذكر القلقشندي أن السلطان السلجوقي ملكشاه هو الذي قام ببناء قلعة أَلَمُوت، أما باقي المؤرخين والباحثين فيذكرون أن تاريخ بناء القلعة يعود إلى فترة زمنيّة أبعد بكثير من ذلك، فهم يتفقون على أن القلعة تم بناؤها بأمر أحد ملوك الديلم، ويذكرون في سبب بنائها، أنّ أحد ملوك الديلم قد خرج للصيد في أحد الأيام ومعه عُقاب، وعندما أطلق العُقاب وجده قد وقع على موضع هذه القلعة فوق الجبل، فعرف هذا الملك ما لهذا الموقع من حصانة ومنعة، فأمر ببناء القلعة في موضع العُقاب[4].

هناك عدة أسباب حملت الحسن بن الصبّاح على العمل جاهدًا للاستيلاء على قلعة أَلَمُوتْ بالذّات، لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه ما هي الأسباب الموجبة لبنائها؟

بالواقع هناك عدّة أسباب ومنها أن القلعة (أَلَمُوتْ) تقع فوق قمة جبل شامخ، وترتفع فوق سطح البحرمسافة (**6000**) قدماً، كما إنه لا يمكن الوصول إليها إلّا عن

---

(1) محمد سهيل طقّوش: **تاريخ الزنج والقرامطة والحشّاشين**، دار النفائس، بيروت، ط 1، 2014، ص 218.

(2) الذهبي: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997، ج 11، ص 290.

(3) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون: **تاريخ إبن خلدون**، ضبطه ووضع حواشيه والفهارس خليل شحادة، مراجعة د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2010، ج 4، ص 121، سيتمّ اعتماد اسم ابن خلدون لاحقاً.؛ برنار لويس: **الحشاشون فرقة ثورية**، مرجع سابق، ص 73؛ كي ليسترانج: **بلدان الخلافة الشرقية**، نقله الى العربية كوركيس عواد وبشير فرنسيس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 3، ص 265.

(4) القلقشندي: **صبح الأعشى**، مصدر سابق، ج 1، ص155.

طريق حلزونيّ ضيق شديد الانحدار[1]، وأقصى عرض له ثلاثة أميال، ويصلح الوادي للزراعة، إذ يتميز بالخصوبة وتنوّع المحاصيل الزراعيّة، وهو ما وجد فيه الحسن وسيلة لتحقيق الاكتفاء الذاتي الذي كان يطمح إليه، كما إنه عن طريق تخزين المحاصيل الزراعيّة سوف يحمي نفسه من قلّة المؤن والأغذيّة أيام الحصار.

وكانت النواحي تحت حكم شرفشاه الجعفريّ، وقد عيّن على القلعة حاكمًا علويًّا من قبله يدعى مهدي، أحسن الظن بالحسن بن الصبّاح وسمح له بالدخول إليها، ولمّا تمكّن من الوضع، أخرجه منها إلى دامغان، وأعطاه ثمنها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية[2]، واستقرّ بها، ولم يغادرها طيلة خمسة وثلاثين عامًا حتى وفاته، ويُعدّ الاستيلاء على القلعة أول عمل تاريخي في حياة الدعوة النزاريّة في المشرق الإسلامي.

ب. توسّع الحسن بن الصبّاح في إيران

أقام الحسن بن الصبّاح التحصينات في قلعة أَلَمُوتْ، وأمر بحفر قناة وجلب الماء إلى أسفلها، ووضع بعد استيلائه على القلعة هدفين:

- الأول: استقطاب المزيد من الأنصار لدعوته.
- الثاني: السيطرة على مزيد من القلاع ليتقوّى بها.

أخذ يرسل الدعاة إلى مختلف الجهات لتحقيق هذين الهدفين. وكانت الخطوة الأولى الاستيلاء على الأراضي المجاورة لقلعة أَلَمُوتْ في منطقة رودبار[3]، وبدأ

---

(1) ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، مصدر سابق، ج 4، ص 121؛ حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي**، دار الجيل، بيروت، ط 14، 1996، ج4، ص 256؛ كي ليسترانج: **بلدان الخلافة الشرقية**، مرجع سابق، ص 256؛ محمد حسن: **تاريخ الحشيشية**، مرجع سابق، ص 77.

(2) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، مصدر سابق، ج 3، ص 167؛ حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي**، مرجع سابق، ج4، ص 257؛ فرهاد دفتري: **الإسماعيليون في العصر الوسيط**، مرجع سابق، ص 192؛ برنار لويس: **الحشاشون فرقة ثورية**، مرجع سابق، ص 74.

(3) رودبار: هي من المناطق التابعة لولاية قزوين وتدعى رودبار في المصادر العربية الإسلامية ب روذبار. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج 3، ص 77؛ محمد سهيل طقّوش: **تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين**، مرجع سابق، ص 218 ـ 219.



بالأراضي المتاخمة للقلعة فنشر دعاته في تلك النواحي، واستطاع أن يجد كثيرًا من القرويّين والنبلاء الذين آمنوا بدعوته وساندوه وأعلنوا تبعيّتهم له[1].

وبعد ذلك، قام الحسن باستخدام كل الطرق الممكنة من تحاور وقوة وكل الأساليب السياسيّة والقتال وسفك الدماء، من أجل الوصول إلى أهدافه، فسيطر على العديد من القلاع في المنطقة الشماليّة الغربيّة من إيران، ووسّع مجال دعوته بعد أن وجّه دعاة الإسماعيليّة الذين درّبهم إلى الأطراف والأكتاف، حتى استطاع أن يستوليَ على عدد كبير من القلاع والحصون شمالي إيران وشرقها، ويرى بعض المؤرخين أن عدد القلاع التي بسط الإسماعيليّون سيطرتهم عليها في تلك الفترة كان كبيرًا جدًا[2]، إضافة إلى أنّ الحسن كان ينتهز كل فرصة ممكنة لبناء قلاع وحصون جديدة في كل مكان وجده يصلح لهذا الغرض.

ومن أهم القلاع التي استولى عليها الإسماعيليّون في تلك الفترة:

- **قلعة شاه دز**: تقع بالقرب من مدينة أصفهان، وكان السلطان السلجوقيّ ملكشاه بناها، وأنفق الكثير من الأموال في سبيل بنائها، وقد استطاع الإسماعيليّة أن يستميلوا صاحب القلعة، ثم دخلوها وقتلوا جماعة من أصحاب حاكمها، وفرضوا سيطرتهم عليها، وأصبحت أحد أهم مراكزهم وقلاعهم[3].
- **قلعة لمبس**: تقع في منطقة رودبار، وكان كيا بوزرك أوميد قد تمكّن من الاستيلاء عليها في العام 495هـ/ 1102م، وحكمها بتفويض من الحسن بن الصبّاح، وتعتبر تلك القلعة من أهم القلاع الإسماعيليّة في إيران[4].
- **قلعة كردكوه**: تقع جنوب دمغان، أبطن حاكمها الاعتقاد بالمذهب الإسماعيليّ،

(1) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، مصدر سابق، ج 3، ص 167؛ برنار لويس: **الحشاشون فرقة ثورية**، مرجع سابق، ص 75.

(2) عارف تامر: **تاريخ الإسماعيلية**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، لندن، ط 1، 1991، ج 4، ص 11؛ عبد الرحمن بدوي: **مذاهب الإسلاميين**، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1997، ص 1061.

(3) ابن الجوزي:**المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، مصدر سابق، ج17، ص 101.

(4) محمد حسن: **تاريخ الحشيشية**، مرجع سابق، ص 82.

وأقنع السلاجقة بضرورة تحصين القلعة وتجديد ترميم أسوارها، واستغلّ حالة الصراع والتنافر والاضطراب بين أفراد البيت السلجوقيّ، وأعلن انضمامه للإسماعيليّة وخضوعه لسلطة الحسن بن الصبّاح في قلعة أَلَمُوتْ في العام 489هـ/ 1095م[1].

- **قلاع قهستان**: تقع جنوب خراسان، في التخوم الموجودة بين إيران وأفغانستان، أصبحت مع الأيام معقلًا حصينًا من معاقل الشيعة، مثلها في ذلك مثل منطقة الديلم في الشمال الغربي لإيران، وقد تمكّن حسين القاييني من إرساء الدعوة للمذهب الإسماعيلي بأمر من الحسن بن الصبّاح، واستطاع نشر دعوته بنجاح كبير، وترتّب على ذلك الاستيلاء على بعض القلاع المهمّة وضمها لسلطة حاكم قلعة أَلَمُوتْ[2].

كما استطاع أحد الدّعاة الإسماعيليّين أن يقنع صاحب كرمان باعتناق المذهب الإسماعيلي، وبذلك ضمّها إلى نطاق سيطرة الصبّاح، واستطاع أن يستولي على قلعة لاماسار بالقوة.

ج. الانقسام الفاطمي وأثره على دولة الإسماعيليّين

بينما كان الحسن بن الصبّاح يمدّ سيطرته على عدد كبير من القلاع في أنحاء إيران، جرى حدث خطير في العام 487هـ/ 1094م، كان له دور مهم في تغيير شكل وطبيعة ومستقبل الدولة الفاطميّة في مصر والدولة الإسماعيليّة في إيران، تمثّل بوفاة الخليفة الفاطمي المستنصر وتعيين ابنه المستعلي باللّه الأمر الذي أدى إلى تفجير الخلاف.

وكما أسلفنا القول هرب نزار إلى القاهرة، وتمّ إلقاء القبض عليه، ثمّ قُتل بعد ذلك في سجنه.

وقد أدّى ماحدث من انقسام في صفوف الفاطميّين في مصر إلى حدوث اختلاف بين الإسماعيليّين في شتّى أنحاء العالم الإسلاميّ، فنجد أن الحسن بن الصبّاح زعيم

(1) برنار لويس: **الحشاشون فرقة ثورية**، مرجع سابق، ص 83.

(2) فرهاد دفتري: **الإسماعيليون في العصر الوسيط**، مرجع سابق، ص 195؛ فرهاد دفتري: **خرافات الحشّاشين وأساطير الإسماعيليين**، مرجع سابق، ص 56.

الإسماعيليّين في بلاد فارس، أعلن رفضه لما جرى في مصر، وأعلن تبعيّته لنزار، واعتبره إمامًا شرعيًّا، وقطع جميع العلاقات مع الفاطميّين المستعليّين في مصر، وقام الإسماعيليّون في بلاد فارس، وجزء كبير من بلاد الشام، باتباع ابن الصبّاح في اعتقاده وأعلنوا ولاءهم المطلق لنزار والأئمة من عقبه[1]، أما باقي الإسماعيليّين في مصر واليمن وجزء من بلاد الشام فقد اعتقدوا بصحة ولاية المستعلي باللّه، فعُرفوا باسم (المستعليّة)، بينما عُرف أتباع نزار باسم «النزاريّة»[2].

ثالثا: علاقة الحشّاشين بالمغول

خلف ركن الدّين خورشاه أباه علاء الدّين محمد بعد مَقتله، وكان أول عَمَلٍ قام به أنّه أرسل الجيش الذي قد أعدّه والده للاستيلاء على قلعة شاه رود من ناحية خلخال[3]، ويذكر الجوينيّ أنّ ركن الدّين أَمَرَ قادته بالاستيلاء على القلعة ونَهْبِها وقَتْلِ أهلها، ثمّ أرسل مبعوثين إلى جيلان[4]، والمناطق المجاورة لها يُعْلِمُهُم بوفاة والده، كما أَرسل آخرين إلى جميع أطراف مملكته يَأمُرُهم باتّباع الدين الإسلاميّ وهو الطريق السليم[5].

ويبدو أنّ زعيم الحشّاشين أراد كَسْبَ صداقة الأُمراء المسلمين المجاورين لبلاده، كي يَتَفَرَّغ لمعالجةِ قضية الزحفِ المغولي باتجاه الغرب، والمعروف أنّ المغول استأنفوا زَحْفَهُم باتجاه مناطق غربي آسيا ضمن سِياسة توسعيّة، وقد حَقَّقوا ما وضعه خاناتهم من توسّع على الأرض وصولًا إلى عهد منكو الذي انتُخب خانًا أعظمَ للمغول في العام 648 هـ/ 1250م.

قرّر منكو في العام التالي استئناف التوسّع المغوليّ باتجاه غربي آسيا والصين

(1) فرهاد دفتري: **خرافات الحشّاشين وأساطير الإسماعيليين**، مرجع سابق، ص 59.

(2) محمد حسن: **تاريخ الحشيشية**، مرجع سابق، ص 86.

(3) خلخال: مدينة وكورة في أطراف أذربيجان متاخمة لجيلان في وسط البلاد بينها وبين قزوين سبعة أيام. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، ج 2، ص 436.

(4) جيلان: قوم من أبناء فارس انتقلوا من نواحي إصطخر فنزلوا بطرف من البحرين فغرسوا وزرعوا وحفروا وأقاموا هناك، فنزل عليهم قوم من بني عجل فدخلوا فيهم. المصدر نفسه، ج 2، ص 234.

(5) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، مصدرسابق، ج 3، ص 259 ـ 260.

الجنوبيّة، وفي اجتماع القوريلتاي، وهو مجمع أمراء المغول من أهل الحلّ والعَقْد، في العام 649هـ/ 1251م، عيّن منكو أخاه هولاكو حاكمًا على فارس، وكلّفه بالقضاء على فِرقة الحشّاشين في خُراسان وإيران، والخلافة العبّاسيّة في بغداد، فضلًا عن الاستيلاء على بلاد الشّام ومصر[1]، أي تحقيق الحلم الذي كان يُراوِدُ جدَّه جنكيزخان وأعمامَه أوكتاي وجوجي وجغتاي وتولوي، وقرّر أن ينفّذ هذه المَهَمّة مهما كان الثمن، بخاصّة أنَّ علاقةً عدائيّةً كانت تقوم بين المغولَ من جهة، والحشّاشين والعبّاسيّين من جهة مقابلة.

والجدير بالذِكر، أنّ العلاقة كانت سيئةً لعدّة أسباب، هي:

- كان منكو آن يَعْلَمُ تمام العِلم، أنّ فِرقة الحشّاشين سَتُشَكِّل عَقَبَةً أمام الزحفِ المغوليّ باتجاه بغداد عاجلًا أم آجلًا، وتحول دون تحقيقِ أطماعِ المغول في السيطرة على القسم الغربي من بلاد الشّام (سوريا ولبنان وفلسطين) ووصولِهم إلى مصر، مقرّ إقامة سلاطين المماليك، وبالتالي ما يحولُ دون إقامة حكومةٍ مركزيّة فيها وفق التخطيط المغوليّ.
- محاولة الحشّاشين التحالف مع أوروبا لمواجهة الزحف المغوليّ، ففي العام 636هـ/ 1238م، أرسل علاء الدّين محمد بعثة إلى أوروبا، زارت فرنسا وانكلترا واجتمعت بملكَيْها، لويس التاسع وهنري الثامن، وحثّتهما على التعاون للتصدّي للمغول الذين يُشكّلون خطرًا على الطرفين؛ ولكنّهم لم يَلْقوا أيّ تعاطف مع قضيّتِهم، وقد نَصَح أُسْقُفُ مدينة ونشستر الملكُ الإنكليزيّ بِعَدَمِ التّدخل فيما يَنْشَبُ من قِتال بين المسلمين والمغول، لِما سَيَتَرَتّب عليه من القضاء على الجانبَيْن، وفي ذلك انتصار للنصرانيّة[2].
- محاولة الحشّاشين استمالة الملوك والأمراء المسلمين وتَشْكِيل حِلْفٍ يجمع كافّة الإمارات الإسلاميّة المجاورة لهم المُعَرَّضَة للخطرِ المغوليّ، حتى تلك

(1) محمد سهيل طقّوش: **تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين**، مرجع سابق، ص 256.

(2) المرجع نفسه، المكان نفسه. محمد سهيل طقّوش: **تاريخ المغول العظام والإيلخانيين**، مرجع سابق، ص 133.

التي تُناصِبُهُم العَداء، وذلك للتَّصَدِّي للزحف الذي يتهدّدهم جميعًا، ولكنّهم لم يَلقَوا تجاوبًا.

- تشجيع المسلمين السُّنة الذين كانوا تحت حُكم المغول، بخاصة سُكّان قزوين، للقضاء على هذه الفرقة التي كانت تُلحق بهم الأذى والضرر، من واقع العداء المُستحكم بين السُّنة والشيعة آنذاك، وأشاروا إلى أنّ أفراد هذه الفرقة يُخالفون في عقيدتهم ديانات المسلمين والنصارى والمغول[1]، وقد كشف قاضي قزوين أمام هولاكو عن قميص من الزرد وشرح له كيف أنّه يرتديه طوال الوقت تحت ملابسه توقيًّا لخطر الإغتيال الماثل دائمًا.

وهذا ما يفسّر لنا المعاملة السيّئة التي لقيها رسلُ الحشّاشين الذين أوفدوا إلى العاصمة المغوليّة قراقورم، بمناسبة انتخاب كيوك خانًا أعظم للمغول في العام 644هـ/ 1246م[2].

من نافلة القول، أن الحشّاشين كانوا يتوقّعون هجومًا مغوليًّا عاجلًا أم آجلًا ضد معاقلهم منذ وصولهم إلى بلاد الخوارزميّين وقضائهم على جلال الدّين منكبرتي، واستيلائهم على بلاد ما وراء النهر، غير إنّهم كانوا يمرّون قي مرحلة ضعف وصراع داخليّ على العرش، إضافة إلى أن الحشّاشين كانوا يمارسون أساليب اغتيال الشخصيات، منها نظام الملك والخليفة العبّاسيّ الراشد، كما إنّهم حاولوا اغتيال السلطان صلاح الدّين الأيوبيّ، إيمانًا منهم أنّ التخلّص من الرأس يضعف الجسد، لذلك عجزوا عن مواجهة المغول منفردين، ولمّا لم يَجدوا من يُساعِدهم على المواجهة من كلّ جيرانهم، أدركوا أن نِهايتهم باتَتْ وشيكة.

أ. الاستعدادات المغوليّة للقضاء على الحشّاشين

أعدّ الخان المغولي منكو قاآن الحملة الموجهة إلى الأقاليم الغربيّة إعدادًا دقيقًا

(1) محمد بن علي المعروف بابن طباطبا: **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1938، ص 25؛ محمد سهيل طقّوش: **تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين**، مرجع سابق، ص 257.

(2) محمد سهيل طقّوش: **تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين**، مرجع سابق، ص 251.

يكفل النصر لهولاكو، وعلى هذا الأساس، أمدّه بقوات كبيرة ذات خبرة في الحروب، وضمّ إليها ألف مجموعة صينيّة من أولئك الذين برعوا في استخدام أدوات القتال مثل المنجنيق، وقاذفات النفط، ورمي السهام، وأرسل إلى كل فروع أسرة جنكيزخان بتقديم خُمس رجالها من المقاتلين، واختار اثنين من كل عشرة رجال، من خيرة جنود جنكيزخان، لتكوين حرس خاص لهولاكو، واصطحب الأخير معه زوجته المفضلة طقز خاتون، بالإضافة إلى زوجتين أخريين، وولديه الكبار أباقا ويشموت(1). وجرى إرسال جيش لتمهيد الطريق بقيادة كتبغا النسطوريّ، وهو أحد القادة المقربين من هولاكو، فأصلح الطرق التي تجتاز تركستان وفارس لتسهيل حركة الجيش وآلياته، وشيّد الجسور على الأنهار ومجاري المياه السريعة، ووفّر العربات اللازمة لنقل أدوات الحصار، كما جرى توفير المراعي لخيول العساكر عبر إجلاء الرعاة في البراري، وأعاد القائد سلطة المغول على المدن الكبرى في هضبة إيران، واستولى على بعض معاقل الحشيشيّة(2).

وبعد أن جهّز منكو مستلزمات الحملة من الرجال والعتاد، رسم لأخيه هولاكو الخطة التي سوف يتّبعها، والتي تقضي بالاستيلاء على الأراضي التي لم تدخل بعد تحت حكم المغول، والممتدّة حتى أقاصي مصر (مقر السلطنة المملوكيّة)، وأن يعامل من يطيع أوامره بلطف، ويقتل من يعصيه من نسائه وأبنائه وأقاربه وكل مَن يتعلق به، على أن يبدأ بإقليم قهستان في خراسان، فإذا انتهى فعليه أن يتوجه إلى العراق ويخضع في طريقه شعب اللّور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها، وإذا قدّم الخليفة العبّاسيّ فروض الطاعة فلا يتعرّض له، أما إذا رفض فعليه أن يتخلّص منه، وأوصاه أن يكون عقلانيًا في تعامله مع الشعوب على أن يتخلّص من الذين يتصدّون

(1) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، مصدرسابق، ج 3، ص 90 ـ 97؛ رشيد الدين فضل اللّه الهمذاني: **جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران، تاريخ هولاكو**، نشره كاترمير، باريس، 1839، مجلد 2، ج 1، ص 234 ـ 235.

(2) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، مصدرسابق، ج 3، ص 93ـ95 ـ رشيد الهمذاني: **جامع التواريخ**، مصدر سابق، ص 236 ـ 237.

له، وأن يخفف التكاليف عن الرعيّة، وأن يعيد تعمير الولايات الخربة[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ المغول حتى هذه المرحلة كانوا لا يتقبّلون حليفًا لهم، فالناس في نظرهم إما عبيد خاضعون لسلطانه منفّذون لأوامرهم أو أعداء يجب القضاء عليهم والتخّلص منهم.

وكان منكو واثقًا من أن هولاكو بجيشه القوي، يستطيع السيطرة على تلك البلاد والأقاليم الغربيّة، وأن يكوّن منها مملكة خاصة به وبأبنائه من بعده، ولكنّه مع ذلك أوصى أخاه بأن يعود إلى مقرّه الأصلي عند الانتهاء من تنفيذ مهمّته[2].

ب. تحرّك الجيش المغولي

فوّض منصب قيادة الجيش إلى كيتو بوقا (Kito - Boqa) المسيحي، وكان خانًا من خانات قبيلة النايمان، وعلى عداوة قديمة مع المسلمين، وكان أبناء قبيلته المشاركين معه في هذه الحرب يدينون بالمسيحيّة، وقد رافقه هولاكو في رحلته الحربيّة وإثنتان من زوجاته الأصليّات، هما دوقوز خاتون وأولجاي خاتون المسيحيّتان المتعصّبتان، وكذلك ولداه أباقا ويشموت اللذان كانا يدينان بالبوذيّة، إذاً لنا أن نسبغ على هذا الغزو طابع «الحرب الدينيّة» أيضًا[3].

أرسل هولاكو قبل انطلاق حركته القائد كيتو بوقا برفقة إثنيّ عشر ألف جندي طلائع الجيش، ثم سار بآلته الحربية المدمرة نحو إيران في خريف 651 هـ/ 1253م، ليبدأ حربه من قهستان الواقعة في خراسان، وقلاع الإسماعيليّة في إيران، ثم يتقدّم حتى مصر. اجتاز كيتو بوقا الطريق بسهولة دون أية عقبات، ثم عَسْكَر في خراسان ينتظر مجيء هولاكو، وعند وصوله أول مدينة حدوديّة في أولوس جغطاي، أي مدينة الماليغ، استقبله حاكم المدينة أرغنة خاتون استقبالًا بالغ الحفاوة، فأقيمت له حفلة باهرة وقدّمت له الكثير من الهدايا. وبعد اجتياز الماليغ أسرع الأمير مسعود حاكم

---

(1) رشيد الهمذاني: **جامع التواريخ**، مصدر سابق، ص 240.

(2) محمد سهيل طقّوش: **تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين**، مرجع سابق، ص 259.

(3) شيرين بياني: **المغول التركيبة الدينية والسياسية**، ترجمه عن الفارسية سيف علي، راجعه وقدّم له د. نصير الكعبي، منشورات المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت 2013، ص 147.

الولايات المسلمة في الإمبراطوريّة إلى استقبال هولاكو وأقام له في سمرقند خيمة مطرّزة بالذهب وأعدّ له حفلًا استمرّ أربعين يومًا. شهدت سمرقند مثول الملك شمس الدّين كرت أمام هولاكو وتقديمه فُرُوض الطاعة له، فَلَقِيَ اللّطف والمودّة[1].

وفي مدينة كِش، إحدى المدن الحدوديّة، أسرع الأمير المغوليّ أرغون، حاكم مناطق إيران المحتلة، برفقة عدد من الشخصيات الإيرانيّة، إلى استقبال هولاكو مُحمّلين بكثير من الهدايا مُقدّمين الخضوع والتَبَعيّة، فرحّب بهم هولاكو بِلُطف ومَكَثَ عدّة أيام فيها، ثمّ وَجّه فرامانات إلى جميع حُكّام الولايات الإيرانيّة جاء فيها: «لقد أتينا للقضاء على الطائفة الإسماعيليّة فإذا ساهمتم معنا في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات وقبلتم طاعتنا فسوف نبقي لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم، أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم، فإننا حين نفرغ من الملاحدة نتوجه إليكم ونجري عليكم ما قد جرينا عليهم». وقد بعث هولاكو الرسل بالجياد لتنفيذ هذه المهمة، بعد أن تلقَّ الحكّام الكتاب، أقبل إليه السلطان عز الدّين وركن الدّين من بلاد الروم، والأتابك سعد من فارس، والملوك والصدور والأعيان من العراق العجميّ وخراسان وأذربيجان وأرّان وشيروان وبلاد الكرج محمّلين بالهدايا العديدة مقدّمين الطاعة والخضوع[2].

إجتاز هولاكو نهر جيحون عبر جسر ربط بالسفن، ثم عسكر في مرج شبورقان، في شهر ذي الحجة 653هـ/ 1256م، مع جيوشه كلّها، فضرب الأمير أرغون خيمة مذهّبة بألف مسمار ودهليز كبير، وأقام حفلة فخمة شهدت جلوس هولاكو على العرش وإعلانه الحرب على إيران رسميًا بإسم الحاكم الجديد لها، من أجل حقوق الإمبراطوريّة، ثم توجّه نحو الحرب قائلاً: «طار السكون والهدوء من العالم بضجيج حركته وذهبت راحة وسكينة معانديه خوفًا من شديد بطشه، وانشغلت القبائل بإعداد الجيوش والعدّة والسلاح لسلطان بأسه»[3].

---

(1) شيرين بياني: **المغول التركيبة الدينية والسياسية**، مرجع سابق، ص 147 ـ 148.

(2) المرجع نفسه، ص 148.

(3) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، مصدرسابق، ج 3، ص 94.

وكما سبق القول، كانت أولى أهداف المغول إخضاع الطائفة الإسماعيليّة واستئصالها إذا ما رفضت طاعتهم. والإسماعيليّون في تلك المرحلة الحرجة شكّلوا أكثر قواعد الإيرانيّين المعنويّة والماديّة أهمية وصمودًا في طول البلاد وعرضها.

ج. سياسة الإسماعيليّين

كان الإسماعيليّون لايزالون قبل وأثناء التحرك المغولي يواصلون، على قدم وساق، جهودهم المثاليّة لبلورة حياة قوميّة وثقافيّة إيرانيّة، دون المزج بالثقافة والعرق التركيّ والمغولي الأجنبيّ. فعندما زحف المغول نحو إيران وأسقطوا الدولة الخوارزميّة، استغلّ الإسماعيليّون فوضى الاضطرابات والفراغ الذي حصل بسبب غياب دولة مستقرّة أحسن استغلال، لتعزيز قدراتهم الماديّة والمعنويّة، فعملوا على إضعاف الحكومات السُنّيّة والقضاء عليها تزامنًا مع المغول، وقد بادروا إلى قتل قادة الجيش والوزراء والحكّام الإيرانيّين من عملاء المغول الذين دخلوا في طاعتهم وكذلك رجال الدين الذين كانوا يحرّضون الناس في المدن والقرى ضد النهضة الإسماعيليّة[1].

اتجه بعض سكّان المدن والقرى، الذين بقوا دون قادة وحماة، إلى الإسماعيليّين، وسلّموهم مدنهم. وعلى الرغم من تصاعد قدراتهم، فإنّ أهم أسباب سقوط دولتهم تكمن في مسألتين مدمّرتين تتعارضان تمامًا، سبّبتا تآكل ركائزها الراسخة من الدّاخل والخارج، وجعلتاها عُرْضَةً للمخاطر والضرر، وهما:

المسألة الأولى: هي السبب الخارجي الذي يحتلّ مكانة مهمّة، ألا وهو تعاطف السنّة والشيعة الإثني عشرية واتفاقهما ضد الإسماعيليّين. فمع كل الخلافات فيما بينهم، اتفق السنّة والشيعة سويّاً في القضاء على الطائفة الإسماعيليّة، ووضعا طاقاتهما كلٌّ على انفراد، مع العلم أن الصراع بين الشيعة الإثني عشرية والإسماعيليّين لم يتجاوز حدود التشاحن الكلاميّ بين الطرفين، كما إنّ الخلافة العبّاسيّة التي كانت تهيمن على فكر غالبيّة المسلمين، عملت على تحريض وتشجيع العدوّ بمختلف الحيل والدسائس للقضاء على الإسماعيليّين عندما وجدت الفرصة مؤاتية، لا سيّما

(1) شيرين بياني: **المغول التركيبة الدينية والسياسية**، مرجع سابق، ص 150.

في مرحلة الإضطرابات والتوتّر[1].

كما ساهمت سياسة «العَلَن» أو مرحلة «الظُهور»، التي اتّبعها قادة الإسماعيليّين في هزيمتهم، فقد انفتحت القلاع مدة طويلة أمام الأجانب من كل الفرق، فالعلماء والصناعيّون والفنّانون والأطباء والأدباء، سواء من السنّة أو الشيعة أو اليهود أو المسيحيّين، الذين كانوا يُدعون إلى بلاط الدّعاة أَلحقوا كبرى الضربات بالإسماعيليّين بمساندة المغول. لأن هؤلاء اكتشفوا أسرار الولوج إلى القلاع أثناء إقامتهم فيها، وتركوا أثرًا بالغًا في هزيمة الإسماعيليّين، ومنهم فلاسفة وعلماء أمثال الخواجة نصير الدّين الطوسيّ، وأطبّاء يهود أمثال رئيس الدولة وموفق الدّولة، وأبناؤهم الذين دخلوا عند الإسماعيليّة بغير إرادتهم، فضلًا عن فريق من الغرباء والمسلمين، وفق تعبير رشيد الدّين الهمذانيّ، وأهل الصناعة والفنّ الذين يعملون مُكْرَهِين وبأعداد كبيرة لدى الإسماعيليّين، فقلعة شميران كانت تضمّ وحدها نحو خمسة آلاف سجين عندما افتتحها المغول[2].

علماً أنّ أهل السنّة كانوا يُعدّون العدوّ الأول للإسماعيليّين والمغول هم العدوّ الثاني، ويليهما الشّيعة في آخر سلّم هذا الترتيب، لقد هزّ العدوّ الأول دعائم الإسماعيليّين، وأسقط العدوّ الثاني دولتهم، ولكنّ الفوز النهائيّ كان من نصيب الشيعة.

المسألة الثانية: تتمثّل بالسبب الداخليّ الذي يتجلّى في اختلاف الطبقات العليا والدنيا في المجتمع الإسماعيلي، فبينما كان الأشراف والملّاك يطالبون بطاعة المغول حفاظًا على مكانة مناصبهم، وجدوا أن طريق السلام والمصالحة هو الأنجع، تحت تأثير الأجانب المقيمين في البلاط، في الوقت الذي كانت الطبقة الدنيا والبسطاء يطالبون بالجهاد ضد الأجانب وحماية القلاع وحفظ المعتقدات. واستمرّ الشرخ والخلاف في المجتمع الإسماعيلي، ولم يجلب لهم سوى النفاق والتشرذم، فشكّل أحد أكثر العوامل تأثيرًا في سقوط القلاع[3]. أضف إلى ذلك، وصول أنباء إلى الخان المغولي

(1) شيرين بياني: المغول التركيبة الدينية والسياسية، مرجع سابق، ص 151.

(2) المرجع نفسه، ص 151 ـ 152.

(3) المرجع نفسه، ص 152.

تؤكد أن أربعين فدائيًّا متنكّرين توجّهوا إلى قراقورم لقتله، وكان القادة العسكريّون يرسلون تقارير بشكل دائم إلى قراقورم، تذكّر بأخطار الطائفة الإسماعيليّة، وقد هاجم المغول قلاع رودبار وقهستان عدّة مرات في عصر علاء الدّين بتحريض من السُنّة، إلا أنّهم رجعوا صفر اليدين، ووجدوا صعوبة الأمر أكثر ممّا كانوا يتوقعون، عندها خوّل منكو قاآن أخيه هولاكو خان رسميًّا لإنجاز هذه المهمة ليزيل كبرى العقبات أمام السيطرة على إيران، وذلك بإصداره فرمان القضاء على الدولة الإسماعيليّة قضاء مبرمًا وتصفيتهم جميعًا وإبادتهم(1).

أرسل هولاكو قائده المسيحيّ كيتوبوكا إلى خراسان ليبدأ الحرب من قهستان قبل أن ينطلق ويجري اتصالاته الرسميّة ويعلن الإنذار الأخير، فسار كيتوبوكا إلى قهستان ليبدأ من قلعة كردكوه التي تعتبر أهمّ قلاع المنطقة، لكنّه لم يحقّق أي تقدم في أولى عملياته ولم يستولِ سوى على مدينة تون التي كانت خاضعة للإسماعيليّين، ثم توجه إلى طوس، ووصل هولاكو خلف نهر جيحون بعد سنتين، إلا أنه بعد المحاولات التجريبيّة وإدراك صعوبة الأمر، أرسل الملك شمس الدّين كرت برسالة إلى شمس الدّين محتشم قلاع قهستان يدعوه إلى الدخول في طاعته وترك الحرب، فامتثل الأخير وتوجّه على رأس وفد لإجراء المباحثات مع خان المغول مقدمًا له الطاعة والخضوع(2).

وهنا لا بدّ أن نشير إلى دور حكّام آل كرت في نجاح خطة المغول لفتح إيران، فقد شكّلوا الذراع الأيمن للمغول في هذه السلسلة من الحروب، وقدّموا لهم المساعدة الكبرى، لا سيّما في معارك خراسان.

وبعث ركن الدّين خورشاه رسولًا إلى أحد قادة هولاكو في إيران، تزامنًا مع المجريات العسكرية، ظنًّا منه بأنّه سيتحرّر من قلق المغول، ويبدو أن هذا القيادي كان قائد العمليات العسكريّة ضد الإسماعيليّين، فكتب رسالة تتضمّن: «الآن وبعد أن تولّيت زمام الأمور سأقدّم الطاعة والخضوع»، فجاءه الجواب أنه «لدرء أيّ شبهة

(1) شيرين بياني: المغول التركيبة الدينية والسياسية، مصدر سابق، ص 171.

(2) رشيد الهمذاني: **جامع التواريخ**، مصدر سابق، ج 2، ص 687 ـ 691.

والتباس يفضّل أن يلتقي ركن الدّين بهولاكو شخصيًّا ليحلّ الخلاف وجهًا لوجه»[1]. وهنا يمكن الاستنتاج من خلال هذا الكلام أنّ المغول كانوا يَتوَخّون الحِيطَة والحَذر حِيال الإسماعيليّين.

كان الانشقاق لا يزال قائمًا داخل القلاع الإسماعيليّة على أساس فريقين متخاصمين، فريق يترأسه ركن الدّين ومحتشم قهستان، ويطالب بالإستسلام وقبول شروط العدو، وفريق آخر يَتكَوَّن من أتباع علاء الدّين وأنصاره، ويطالب بالصمود والمقاومة. ويبدو بأنّ أكثريّة سكان القلاع، بخاصة الإسماعيليّين من سكان المدن، كانوا من أنصار الفريق الثاني.

وبعد تبادل السفراء والمراسلات وتشجيع من نصير الدين الطوسيّ الذي كان يتواجد آنذاك في قلعة أَلَمُوتْ، حيث لعب دورًا مميزًا في هذه المحاولات، فتقرر عندها ذهاب شهنشاه شقيق ركن الدّين برفقة عدد كبير من كبار الشخصيات الإسماعيليّة، وبعد أن تباحث معه بعث هولاكو رسلًا إلى القلعة ظنّاً منه بأنّ الأمور تجري كما يريد، مطالبًا ركن الدّين بتنفيذ وعوده بأسرع وقت ممكن، لا سيّما في ما يتعلق منها بتدمير القلاع، وهنا يمكن القول أنه «بالغ في تدمير القلاع» على حدّ تعبير الجويني[2]. ولما تلقّى ركن الدّين هذه الرسالة، أو هذه الأوامر بتعبير آخر، أتى جوابه مراوغاً غير صريح. وهذا ما يفيد بأن ركن الدولة لم يكن على اطّلاع بمجريات الأحداث، كما يدلّ على تشتّت الأفكار داخل القلاع.

ولما رأى هولاكو تَضْليل ركن الدّين ومُراوغته لكسب الوقت، عندها تأهّب للحرب، وفي الأثناء قَدِمَ يسورنويان بجيش جَرّار من المغول والإيرانيّين إلى رودبار، وتوجّه إلى أَلَمُوتْ ليبدأ الحرب فدارت معركة طاحنة في سفح هذا الجبل انتهت بهزيمة المغول، ما اضطرّهم للعودة منكسرين.

وتجدر الإشارة إلى أن حضور الإيرانيّين في هذه المعركة، له دلالات مهمّة ترشدنا إلى أن أعداء الإسماعيليّة وضعوا جيوشهم تحت تصرف الأجانب عندما وجدوا

(1) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، مصدرسابق، ج 3، ص 119.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 160.

الفرصة مؤاتية للانتقام، ولمّا كان هولاكو على عِلْم بصُعوبة الأمر، واصَل جهوده مرة أخرى، لحلّ القضية سلميًا، فوجّه آخر الإنذارات إلى ركن الدّين خورشاه وبَعَثَ رُسلًا إليه يحملون نداءه، أنه «إذا كُنْتَ على سابق عَهدِكَ سارعْ إلى تحطيم القلاع وتَوَجّهْ نحوَ مُعسكر هولاكو»[1]، أما ركن الدّين الذي لم يدرك بعد خطورة الأوضاع، أَخْلى إحدى القلاع التي لم تكن ذات أهمية، ودمّر بوابتها وسورها وأوصل الخبر إلى مسامع هولاكو. لكنّ خان المغول بفعل أنظمته المخابراتيّة العظيمة، التي أقامها في مختلف نقاط إيران، علم بأنّ هذه المحاولة ليست إلّا محاولة أخرى من قبل ركن الدّين[2].

وتجدر الإشارة إلى أن هولاكو كان قد غادر عاصمة المغول قراقورم على رأس جيشه، في جمادى الأولى 650هـ/ تموز 1252م، متوجّهًا إلى الأقاليم الغربيّة للدولة الإسلاميّة، فتقدّم متمهّلًا حتى وصل إلى أطراف سمرقند في شعبان 653هـ/ أيلول 1255م، فقدّم له أمراء الأطراف كافّة التسهيلات لتموين الجيش وتسهيل مروره بأمان، ثم عبر نهر جيحون في الأول من ذي الحجة 653هـ/ الأول من كانون الثاني 1256م، وتوجَّهَ إلى مراعي «كانّ كُل»، واستقبلَهُ مسعود بك حاكم بلاد ما وراء النهر، فأمضى بضيافته أربعين يومًا قبل أن يرحل إلى مدينة «كِش» الواقعة إلى الجنوب الغربيّ من سمرقند، ومَكَثَ فيها مدّة شهر، واستقبل خلالها وُجوهَ أهل خراسان وأعيانها حيث قدّموا الطاعة والهدايا، وكان على رأسهم أرغون حاكم إيران من قبل المغول، ثم وجّه منها عدة رسائل إلى ملوك وأمراء تلك النواحي، وطلب منهم المساهمة في حملته ضد الحشّاشين، وحذّرهم من مَغَبّة مَعْصِيَتِهِ[3]، فهَرَعَ هؤلاء لتقديم الولاء والطاعة والترحيب، وكان من بينهم شمس الدّين كرت صاحب هراة[4]، وأبو بكر السلغريّ

---

(1) شيرين بياني: **المغول التركيبة الدينية والسياسية**، مرجع سابق، ص 173.

(2) المرجع نفسه، ص 173.

(3) رشيد الهمذاني: **جامع التواريخ**، مصدر سابق، ج 2، ص 240؛ محمد سهيل طقّوش: **تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين**، مرجع سابق، ص 295 ـ 296؛ محمد سهيل طقّوش: **تاريخ المغول**، مرجع سابق، ص 136.

(4) هراة: مدينة مشهورة في خراسان. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، ج 5، ص 456.

وسعد بن زنكي أتابك فارس والسلطانان السلجوقيّان كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع، في آسيا الصغرى[1].

والواقع أن هولاكو لم يصادف في إيران مقاومة تذكر، لأن قسمًا من خراسان كانت تحت حكم المغول، بالإضافة إلى أن حكّام تلك النواحي كانوا في حالة وهن وضعف، وقد فضّلوا انتهاج سياسة المسالمة والخضوع للمغول.

ووفقًا لخطة منكو قاآن، كان على هولاكو أن يهاجم معاقل الحشّاشين البالغة أكثر من مئة قلعة[2]، ولكي يزرع منكو الرعب في نفوس الإسماعيليّين وينفذ إجراءات تجريبيّة، أرسل ثلاثة جيوش لمحاربتهم: جيش عبر مازندان، وثانٍ عبر خوار وسمّنان (قومس)، وثالث عبر أَلَمُوتْ.

وتزامنًا مع هذه الخطة، أوفد مبعوثين إلى بلاط ركن الدّين لكي يطلعوه على بدء الحرب، ويعطوه آخر فرصة للوفاء بوعوده، وفي المقابل وعد هولاكو بنسيان الماضي وإقامة الصداقة بين الطرفين إذا ما نفّذ ركن الدّين وعوده وقبل بشروطه. أخذ الداعي وأنصاره الأمر على محمل الجدّ، فقبلوا بها وبعثوا إليه بصحبة رسوله وزيرًا إسماعيليًّا يدعى كيقباذ لكي يُطلع المغول على قبول تدمير القلاع.

طالب الوزير الإسماعيليّ بشروط أمر بها ركن الدّين خورشاه الذي كان قد انتابه القلق، والذي أبدى استعداده للخضوع للمغول، وحاول في بادئ الأمر التقرّب منهم لكيّ يتجنّب خطرهم، ومن جملة هذه الشروط التي أرسلها مع وزيره:

- أن يبقى الإمام في قلعته سنة كاملة، وبعد انقضاء هذه المدة سيمثل أمام هولاكو، وفي المقابل، سيأتي محتشم (متسلم) قلاع قهستان وكردكوة عند الخان.
- أن تبقى قلاع أَلَمُوتْ ولمسر ولار (لال) على حالها ولا تدمّر، لأنّها تعدّ منازل آبائه وأسلافه.

---

(1) Rene Grousset: **L'EMPIRE DES SEPPES,** 4eme edition, Librairie Payot, Paris 1963, P427.

(2) شيرين بياني: **المغول التركيبة الدينية والسياسية**، مرجع سابق، ص 173.

- أن يمهل سنة لتحطيم ماتبقى من قلاع[1].

تزامنًا مع إرسال المبعوث، أمر ركن الدّين خورشاه جيشه بتدمير عدّة قلاع أخرى لتأكيد صداقته وتسليمه بالأمر الواقع، أضف إلى ذلك أنّه أمر بهدم بوابات قلاع أَلَمُوتْ ولمسر وهمايوندز وعددًا من أبراج وأسوار هذه القلاع، في المقابل أوفد هولاكو رسلًا برفقة مندوبين إلى ركن الدّين للإشراف على تحطيم القلاع تحت إشراف مراقب كانوا يسمّونه باسقاق (Basqaq)[2].

وهنا يُمكننا القول أنّ القلاعَ الإسماعيليّة شَهِدَتْ دخول المغول إليها لأول مرة، وتمكّن قادة هولاكو من الاستيلاء على ثلاث قلاع ودمّروها. لكنّ اللافت للنظر أن ركن الدّين خورشاه كان يراوغ، بدليل أنه امتنع مرة أخرى عن المُثول بين يَدَيّ هولاكو بعد انتهاء المدة المحدّدة، وأوفد وزيره الجديد شمس الدّين الكيكلي، وابن عم أبيه سيف الدّين سلطان ملك الذي كان من الشخصيّات، برفقة الرسل إلى بلاط المغول عوضًا عنه، معتذرًا عن التأخير وطالبًا المكوث مدّة أطول داخل القلعة، وإن دلّ هذا الكلام على شيء فإنما يدلّ على المناورة والكذب بما يتمتّع بهما ركن الدّين خورشاه، ربما إيمانًا منه بحلحلة ما أو لكسب الوقت في سبيل تجهيز جيشه وإجبار المغول على التراجع واليأس[3].

لكنّ حسابات البيدر لم تتطابق مع حسابات الحقل، وما يسترعي الإنتباه هنا، هو تغيير ركن الدين وزيره المبعوث، فقد عيّن شمس الدّين الكيلكي وزيراً جديداً، مع أنّ المصادر صمتت حيال هذا الموضوع، ولكن يبدو أنّه لا يخلُ من صلة بالتغيير الذي حدث في توجّه ركن الدّين السياسيّ المبني على عدم المصالحة وتغيير الوعود والأفعال، ما سيدفع المغول إلى ردة فعل سلبية فيما بعد.

وبعد وصول الوفد الجديد مع الوزير شمس الدّين الكيلكي إلى قهستان، ليأتي بمحتشمي القلاع عنده، وفقًا للمعاهدة السابقة فتحقّق هذا الطلب وقدم المحتشمون

---

(1) شيرين بياني: المغول التركيبة الدينية والسياسية، مرجع سابق، ص 174.

(2) المرجع نفسه، المكان نفسه.

(3) المرجع نفسه، ص 175.

برفقة الوزير إلى هولاكو، عند حدود بلاد الريّ. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أهمية قلاع قهستان، لا سيّما كردكوه البالغة الأهمية بعد قلعة أَلَمُوتْ، فإنّ القبض على حكّام تلك القلاع يُعَدّ أولى الضربات الكبرى التي ألحقها المغول بالإسماعيليّين. فقد أدرك العدوّ أن عليه البدء بمحتشمي القلاع وهم ذيل الدولة، حتى يتم إضعاف المركز ويضيّق الخناق عليه.

أرسل ركن الدّين عوضًا عن ابنه، طفلًا آخر في الثامنة من العمر برفقة عدد من الوجهاء إلى مدينة الريّ في الموعد المحدّد، وعندما علم هولاكو عبر جواسيسه بالأمر، لم يُظهر أيَّ ردّة فعل، ثم قَرَّرَ خَوْضَ غِمارِ الحرب نهائيًّا فتوجّه من الريّ نحو قزوين[1].

بدأ هولاكو بقتلِ جميعِ رُسل ركن الدّين المتواجدين في بَلاطه بِنَحْوٍ خَفِيّ، وابتدأ الأمر في جبال أباد قزوين، ثم انتشر الخبر بعد ذلك. والحقّ بأن كل هذا التردّد والتمهُّل كان قد تجاوز حدودَ طاقة المغول في تمالك النفس وضبطها[2]، وهذا ما يشير إلى تأزّم الأوضاع الداخليّة في القلاع والانشقاق العمودي والتفرقة وتشتت الأفكار لدى الإسماعيليّين.

د. بداية الهجوم المغوليّ

كشّفت الحرب عن ساقها عندما طوّق اثنان من قادة المغول قلاع رودبار عبر جيلان أي من الخلف، في حين توجّه هولاكو إلى قلعة ميمون دز التي كان يقيم بها ركن الدّين. حاصر العدو مقرّ قيادة الإسماعيليّين من الشمال والجنوب، وبعد عدّة أيام من تطويق القلعة أدرك هولاكو أنّ اقتحامها ليس بالأمر الهيّن، فأرسل مبعوثًا إلى ركن الدّين يحمل عرضاً إليه، بأن «لم يفتِ الأوان بعد فإن نزلت من القلعة ستكون بأمان»[3]. ولم تشهد كلّ حروب المغول مثل هذه المرونة أمام الأعداء، إذ يمهل العدو مرّة ثانية بعد أن يخلف بوعده، وهذا ما يدلّ على مدى قدرات القلاع

---

(1) شيرين بياني: المغول التركيبة الدينية والسياسية، مرجع سابق، ص 175 ـ 176.

(2) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، ج 3، ص 106 ـ 112.

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 124.

الإسماعيليّة، إذ كان المغول يتردّدون كلّ مرة في اتخاذ القرار النهائيّ مؤجّلين حسم الأمر، لكنّ الإسماعيليّين لم ينتهزوا الفرصة وأجابوا كذبًا بأنّ «ركن الدّين ليس في القلعة، وبالتالي لا يحقّ لنا أخذ أي قرار دون إذنه»[1].

أمام هذه الأكاذيب واصل المغول تقدّمهم حتى باتوا على مشارف أبواب القلعة، فحينئذ تنازل ركن الدّين مستسلمًا، وبعث رسولًا يحمل اعتذاره وندمه على ما اقترفه من جرائم، ثم أوفد كبار شخصيّات القلعة برفقة طفله الوحيد وأخيه إيرانشاه إلى هولاكو، ونزل مع أسرته في اليوم التالي، وكان ذلك في صباح يوم الأحد غُرّة ذي القعدة سنة 654هـ/ 20 تشرين الثاني 1256م[2]. رافق ركن الدّين جميع زعماء القلعة، مع العلماء والوجهاء الأجانب الذين كانوا يتواجدون في البلاط الإسماعيليّ منذ مرحلة طويلة، من بينهم نصير الدين الطوسيّ، وعدد كبار من الأطباء اليهود، ثم بدأ القتال.

قرّر هولاكو بأن يشارك في تلك المعركة المصيريّة والحاسمة، فانطلق بآلته الحربيّة وعَسْكَرَ في رودبارد، وبعدَ معركةٍ مَريرة إستمرَّت عدّة أيام إنهار صمودُ سكان أَلَمُوتْ مُطالبين مهلة ثلاثة أيام لنقل أسرهم وأمتعتهم. وفي اليوم الرابع، اقتحم الجنود القلعة وأعملوا فيها الخراب، ونهبوا ما تبقّى من أموال.

وهكذا «تلاشى تراب أَلَمُوتْ بمكنسة الهدم»[3]، فقد كانت أَلَمُوتْ أكبر وأهمّ القواعد الإسماعيلية وأقدمها. تلك القلعة التي طالما تعرّضت للحصار على مرّ التاريخ، لكنّها بقيت بعيدة المنال مثل وكر العُقاب، وعندما تفقّدها هولاكو، وقف أمام ذلك الجبل «فاغرًا فاه دهشة وتحيّزًا لعظمته»[4]. ويروي رشيد الدّين الهمذانيّ حول عملية تدميرهذه القلعة، بأن قائدًا برفقته عدد من الجيوش، دخلوا أَلَمُوتْ لتنفيذ هذه المهمة، وبعد أيام طويلة باستخدام طرق عديدة من الحرق وغيره تمكنوا من تخريبها.

(1) الجويني: تاريخ فاتح العالم، مصدرسابق، ج 3، ص 124.

(2) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(3) شيرين بياني: **المغول التركيبة الدينية والسياسية**، مرجع سابق، ص 177 .

(4) رشيد الهمذاني: **جامع التواريخ**، مصدر سابق، ج 2، ص 696.

ولم يبقَ شيء من كنوزها إلا مكتبتها، فعطا مُلك الجويني الذي كان في بلاط هولاكو وشارك في هذه الحرب، وطلب من الخان المغوليّ أن يسمح له بتفقّد المكتبة حتى يُبقيَ على الصالح من كتبها، وعلى الأرجح، فإن نصير الدّين الطوسيّ أدّى أيضًا دوراً في إنقاذ هذه المكتبة، إذ كان على علم بمحتويات المكتبة كمًّا ونوعًا لأنه أقام مدّة طويلة فيها. وقد قام الجويني برفقة بعض من له معرفة بالكتب، وكذلك مع نصير الدّين على ما يبدو بحرق الكتب المجردّة في عقائد الإسماعيليّة ودعوتهم، وأخرج أنْفَسَ ما فيها من المصاحف والكتب وآلات الرصد والإسطرلابات والأدوات الأخرى[1].

إثر هذه الفتوحات الفريدة أمر هولاكو بأن يتوجه شمس الدّين محتشم قلاع قهستان برفقة مندوب من ركن الدّين إلى تلك المناطق، ليبدأوا بتدمير القلاع من كردكوه، إذ كانت تتجاوز قلاعها خمسين قلعة. وقد قام أغلب حكّام القلاع في مختلف المناطق بتدمير الحصون بناءً على طلب هولاكو وأوامر ركن الدّين مقدّمين فروض الطاعة بعد انتشار خبر هزيمة وتدمير أَلَمُوتْ والقلاع الرئيسيّة الأخرى[2].

أبدت قلعة شاهدز الواقعة في حدود لارودماوند مقاومة عنيفة إلّا أنّها سقطت بعد يومين، وتضيف بياني نقلًا عن الجوزجاني، بأنّ جميع القلاع الإسماعيليّة ومدنهم دُمِّرَتْ في مرحلة زمنيّة لا تَتَعدى عشر سنوات، ماعدا قلعة كردكوه الواقعة في حدود ولايات خراسان والعراق العجميّ في الجبال الغربيّة «لدامغان»، فقد بَقِيَتْ مُحاصرة لمدة عشر سنوات حتى أيام تأليف الكتاب (أواخر سنة 658 هـ/ 1260م)، وكانت ملجأ لمائة أو مائتي رجل، ولم يتم فتحها بعد، وقد استمرّت مقاومة كردكوه لمدة عشرين سنة[3].

لقد اختلفت الروايات حول رقم القلاع، وتنقل بياني عن الجوزجاني صاحب كتاب «**طبقات ناصري**» (بالفارسيّة)، قوله بوجود مائة وخمسين قلعة في بلاد الملاحدة[4]؛

---

(1) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، مصدرسابق، ج 3، ص 270.

(2) المصدر نفسه، المكان نفسه.

(3) رشيد الهمذاني: **جامع التواريخ**، مصدر سابق، ج 2، ص 694.

(4) شيرين بياني: **المغول التركيبة الدينية والسياسية**، مرجع سابق، ص 179.

فيما ذكر رشيد الدّين الهمذاني بأن قلاع قهستان ورودبار وقومس بلغت مائة قلعة[1]، وأهم هذه القلاع هي: أَلَمُوتْ، ميموندز، لمسر، كردكوه، شاهدز، شميران، لار، همايون دز، سروش، آهنكوه، خوران، تاج، سرخه، دزك، بيسره، بهرام دز، فردوس ومنصورية. وكل هذه القلاع كانت استثنائيّة من حيث موقعها الاستراتيجيّ وما تحوي من ذخائر ماديّة ومعنويّة[2].

بعد هذه الفتوحات اللامعة قسّم هولاكو الغنائم بين الأقرباء والجنود ثم أرسل ركن الدّين خورشاه مع حاشيته وأفراد أسرته وأمواله إلى قزوين ليقيم فيها ويكون تحت الإشراف؛ فقزوين كانت من المراكز المعادية للإسماعيليّة. وقد قسّم هولاكو الإسماعيليّين وجنودهم على آلاف ومئات لكي يكونوا تحت كامل إشراف قادته العسكريّين. ويبدو أنّ السبب وراء إبقاء خورشاه يعود لحاجة هولاكو إليه، فالكثير من القلاع كانت ماتزال تصمد وترفض الاستسلام، وإذا ما أمر خورشاه فستخضع القلاع داخل وخارج البلاد للمغول دون الحاجة إلى الحرب.

ولما رأى ركن الدّين انتهاء الأمور، طلب من هولاكو أن يرسله إلى منكو قاآن في قراقورم حفاظًا على نفسه وأسرته، فنفذ طلبه وأرسله برفقة تسعة من أصحابه إلى بلاط منكو سنة 655 هـ/ 1257م، والراجح أنّ منكو كان متفقًا مع أخيه هولاكو على التخلّص من زعيم الحشّاشين واجتثاث جذور هذه الطائفة، وحتى يظهر بمظهر المحافظ على وعده بالإبقاء على حياته، أرسله إلى منكو كي يأتي قرار التخلّص منه من جانبه. ومهما يكن من أمر فقد ثار منكو عندما علم بوصول ركن الدّين خورشاه إلى قراقورم وطلب مقابلة الإمبراطور فور وصوله ليقدّم له فروض الطاعة والولاء، ولكي ينقذ أرواح ما تبقّى من الإسماعيليّين في أقل تقدير، لكنّ منكو قاآن رفض طلبه ولم يستقبله وسأل الوفد المغوليّ الذي أحضره: «لماذا تحضرونه وتُشْقونَ عبثًا الدابّة التي ركبها؟»، ومن ثم أعاده من حيث أتى ليقنع محتشمي القلاع القليلة التي استعصت على المغول بالاستسلام، وأرسل خلفه جماعة عملت على قتله

(1) رشيد الهمذاني: **جامع التواريخ**، مصدر سابق، ج 2، ص 695.

(2) شيرين بياني: **المغول التركيبة الدينية والسياسية**، مرجع سابق، ص 179.

في الطريق بين أبهر وقزوين، وتبع ذلك التخلّص من أفراد أسرته وأقاربه جميعًا، الرجال والنساء والأطفال[1].

خاتمة

جاءت نتيجة القضاء على الحشّاشين واندحارهم، صدىً إيجابيًا في العالم الإسلاميّ على الرغم ممّا عاناه المسلمون على أيدي المغول، وما يتوقعونه منهم في المستقبل، ولعل مردّ ذلك لعدّة أسباب وهي:

- إن طائفة الحشّاشين قاومت في القرن السادس الهجريّ/ الثاني عشر الميلاديّ جهود السلاجقة في القضاء عليها.
- أرهبت الخلافة العبّاسيّة واغتالت أحد خلفائها، ولم تَتَوانَ عن بثّ الرعب في أنحاء الخلافة كافّة، ولم تبدِ أية نيّة في التعاون معها لمواجهة عدوّهم المشترك (المغول).
- كانت سببًا من أسباب الفساد المعنوي والتفرّق في العالم الإسلاميّ، كونها كانت تنشر دعوتها بالسرّ ثم بالعلن ممارسةً أشكال العنف والاغتيال والقتل كافة.

فإذا كان هولاكو قد قضى على وجودها في خراسان وإيران؛ فإنّه يكون بذلك قد قدّم خدمة كبيرة لقضية النظام والحضارة كما يقول غروسيه[2]. وكما أشار الجويني إلى ذلك عندما بقوله: «وكذلك كان هذا العمل مرهمًا لجراح المسلمين وتداركًا للدّين من الخلل، وإن الناس الذين سيأتون بعدنا سَيُدركون مدى ما بلغ اضطراب الناس وإنزعاجهم من أذى هذه الجماعة، ومدى ما كانوا يبثّون من الفوضى والرعب منذ أول ظهورهم حتّى آخرهم، وإنّ الشخص الذي كان على وفاق معهم منذ عهد الملوك السالفين حتى عهد ملوك هذا العصر، إنّما كان مَدفوعًا فقط بِدافع الخوف منهم، أمّا

(1) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، مصدر سابق، ج 3، ص 275 ـ 278؛ محمد سهيل طقّوش: **تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين**، مرجع سابق، ص 262 ـ 263

(2) Grousset: **L'EMPIRE DES STEPPES,** P 427.



إذا عاداهم فكان عليه أن يعيش ليلًا ونهارًا في ضِيقٍ خوفًا من أفعالهم، وهكذا انتهى أمرهم، وذلك ذكرى للذّاكرين وكذلك يفعل اللّه بالظالمين»[1].

وأخيرًا، يمكننا القول أنّ هولاكو استطاع بالحيلة تارّة، وبالقوّة تارّة أخرى، أن يستولي على قلاع الإسماعيليّة الحصينة الواحدة تلو الأخرى حتى انتهى من آخر قلاعهم، ألا وهي قلعة أَلَمُوت في أواخر سنة 654 هـ/ 1257م، ويلاحظ أنّ زعيم الإسماعيليّة (الحشّاشين)، ركن الدين خورشاه، لم يستطع مقاومته، فاستسلم له وقبّل الأرض أمامه، وبذلك تمكّن المغول من الإستيلاء على كافة قلاع الإسماعيليّة التي بلغ عددها أكثر من مئة قلعة، وللأسف لم تمدّنا المصادر إلا بأسماء القسم القليل منها، هذه القلاع التي كان قد اتخذها الإسماعيليّون أوكارًا لهم سنين طويلة، ولم يكتفِ هولاكو بالاستيلاء على قلاعهم في إيران، بل طلب من ركن الدّين خورشاه أن يسلّمه جميع قلاعهم في بلاد الشام، فاستجاب له وراسل مندوبيه في بلاد الشام ومعهم رسل هولاكو لدعوة الناس هناك إلى التسليم عندما تصل إليهم الرايات المغوليّة[2].

وهذا ما حصل بالفعل وتقدّم المغول بعد أن قضوا على طائفة الإسماعيليّة، ساروا لتحقيق هدفهم الثاني، ألا وهو الاستيلاء على بغداد، والقضاء على الخلافة العبّاسيّة التي أدركتها الشيخوخة وظهرت عليها مظاهر الضعف والإنهيار والتفكّك، أضف إلى ذلك وجود خليفة ضعيف الشخصية ألا وهو المستعصم باللّه، الذي كانت نهايته على يد المغول الذين اجتاحوا العراق وبلاد الشام ولم يتمكنوا من الوصول إلى مصر بسبب تصدّي المماليك لهم في معركة عين جالوت سنة 658 هـ/ 1260 م.

---

(1) الجويني: **تاريخ فاتح العالم**، مصدرسابق، ج 3، ص 278.

(2) علي الصلاّبي: **دولة المغول والتتار بين الإنتشار والإنكسار**، دار المعرفة، بيروت، ط 4، 2012، ص 192؛ حسين الأمين: **الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي**، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط 2، 1997، ص 135.

المصادر والمراجع

أ. المصادر باللغة العربية

1. ابن الأثير: **الكامل في التريخ**، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1997.
2. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1992.
3. ابن أيبك الدوداري: **كنز الدرر وجامع الغرر، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية**، تحقيق صلاح الدين المنجد، المعهد الألماني للدراسات الشرقية، القاهرة، 1972.
4. ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد: **تاريخ إبن خلدون**، ضبطه ووضع حواشيه والفهارس خليل شحادة، مراجعة د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت.
5. ابن طباطبا، محمد بن علي: **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1938.
6. ابن ميسر، محمد علي بن جلب: **أخبار مصر**، إعتناء هنري ماسيه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1919.
7. الجويني: **تاريخ فاتح العالم جهان كشاي**، تحقيق محمد عبدالوهاب القزويني، ترجمة محمد السباعي، منشورات المركز القومي للترجمة، القاهرة.
8. الذهبي: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997.
9. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، دار الكتب العالمية، بيروت، ط 1، 1997.
10. الشهرستاني، محمد عبد الكريم: **الملل والنحل**، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1968.

11. القلقشندي، أبو العبّاس أحمد: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب المصرية القاهرة، ط 1، 1922.

12. الهمذاني، رشيد الدين فضل اللّه: **جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران، تاريخ هولاكو** ، نشره كاترمير، باريس، 1839.

13. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبداللّه الرومي: **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1990.

ب. المراجع باللغة العربية

1. الأمين، حسين: **الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي**، الطبعة الثانية، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، 1997.

2. بدوي، عبد الرحمن: **مذاهب الإسلاميين**، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1997.

3. بياني، شيرين: **المغول التركيبة الدينية والسياسية**، ترجمه عن الفارسية سيف علي، راجعه وقدم له د. نصير الكعبي، منشورات المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت 2013.

4. تامر، عارف: **تاريخ الإسماعيلية**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، لندن، ط 1، 1991.

5. حسن، حسن إبراهيم: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي**، دار الجيل، بيروت، ط 14، 1996.

6. حسن، محمد يسري: **تاريخ الحشيشية والمهدية التومرتية**، دار النفائس، بيروت، ط 1، لا ت.

7. دفتري، فرهاد:

1) **الإسماعيليون في العصر الوسيط**، ترجمة سيف الدين القصير، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، 1999.

2) **خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين**، ترجمة سيف الدين القصير،

دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط 1، 1996.

8. السيّد، أيمن فؤاد: **الدولة الفاطمية**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط 1، 1992.

9. الصلّابي، علي: **دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار**، دار المعرفة، بيروت، ط 4، 2012.

10. طقّوش، محمد سهيل:

1) **تاريخ الزنج والقرامطة والحشّاشين**، دار النفائس، بيروت، ط 1، 2014.

2) **تاريخ الفاطميين في شمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام**، دار النفائس، بيروت، ط 1، 2001.

3) **تاريخ المغول العظام والإيلخانيين**، دار النفائس، بيروت، ط 1، 2007.

11. كلود، هيورات: **مقال الإسماعيلية في دائرة المعارف الإسلامية**،، دار المعرفة، بيروت، لا ت.

12. لويس، برنار: **الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام**، تعريب محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 2، لا ت.

13. ليسترانج، كي: **بلدان الخلافة الشرقية**، نقله الى العربية كوركيس عواد وبشير فرنسيس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 3، لا ت.

ج. المراجع باللغة الفرنسية

1. Grousset, Rene : L’EMPIRE DES SEPPES, 4eme edition, Librairie Payot, Paris 1963.

الأطماع البيزنطيّة في لبنان في العصور الوسطى

أ.م.د. جورج نصّار(*)

الملخّص

يحمل هذا البحث عنوان الأطماع البيزنطية في لبنان في العصور الوسطى، وقد تطرّق إلى تعدّد آراء المؤرخين وإختلافها حول تاريخ ميلاد الإمبراطورية البيزنطية حسبما وردت لدى كلٍّ منهم، ثم بداية الصراع البيزنطي الفارسي، مع تحديد لمحة عن جغرافية لبنان السياسية، من خلال المصادر العربية واليونانية والبيزنطية، وبعد تزايد الأطماع البيزنطية في لبنان مع الإمبراطور هرقل، والغزوات البحرية الإسلامية نحو بلاد الروم، أيام الأباطرة قسطنطين الليحياني وابنه يوستينيانوس الثاني، والجهد الذي قام به البيزنطيون من أجل الدخول إلى مدينة طرابلس وفشلهم أمام مناعة أسوارها، لكنّ هذا لم يثنِهم عن الاستمرار في هجماتهم على لبنان أيام الأمويين والعباسيين والأخشيديين والفاطميين، خاصة مع الإمبراطور نقفور فوقاس وخلفه يوحنا تزيمسكس وفشلهم في دخول طرابلس، وصولاً إلى الإمبراطور باسيل الثاني الذي حارب الفاطميين ولم يتمكن من دحرهم سواء في حملته الأولى أو الثانية.

وأخيراً جاء الحديث عن الهدن التي عقدت بين الطرفين واحترما بنودها، وصولاً حتى العام 1057م، حيث توقّفت الأطماع البيزنطية مع بداية انحطاطها وتراجعها، وصولاً إلى سقوطها سنة 1453م، في عهد الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر.

(*) أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مادة التاريخ العربي والإسلامي.

كلمات مفتاحية:
لبنان، البيزنطيّون، الفاطميّون، الأطماع، باسيل الثاني، العباسيّون.

Résumé en français

Cette recherche porte sur les ambitions byzantines au Liban au Moyen Âge. en abordant la pluralité des opinions des historiens et leurs divergences sur la date de naissance de l'Empire byzantin selon chacun d'eux, ainsi que le début de la lutte entre Byzance et la Perse, avec une description de la géographie politique du Liban à travers les sources arabes, grecques et byzantines. Après l'augmentation des ambitions byzantines au Liban sous l'empereur Héraclius, et les invasions maritimes islamiques vers les terres des Romains, pendant les jours des empereurs Constantin IV et son fils Justinien II, et les efforts déployés par les Byzantins pour entrer dans la ville de Tripoli et leur échec devant la résistance de ses remparts, rien de tout cela ne les a découragés de continuer leurs attaques contre le Liban pendant les jours des Omeyyades, des Abbassides, des Aghlabides et des Fatimides, en particulier avec l'empereur Nicéphore Phocas et son successeur Jean Tzimiskes et leur échec à prendre Tripoli, jusqu'à l'empereur Basile II qui a combattu les Fatimides et n'a pas pu les repousser que ce soit dans sa première ou sa deuxième campagne. Enfin, il est question des trêves conclues entre les deux parties et le respect de leurs clauses, jusqu'en 1057, lorsque les ambitions byzantines se sont arrêtées avec le début de leur déclin et de leur recul, aboutissant à leur chute en 1453, sous le règne de l'empereur Constantin XI.

Mots clés: Liban, Byzantins, Fatimides, Ambitions, Basile II, Abbasids.

مقدمة

إختلفت آراء المؤرّخين حول ميلاد الإمبراطوريّة البيزنطيّة، نظرًا لتعدّد الآراء وتضارب المعلومات بشأنها، ما سبّب ضياعًا لدى عدد كبير منهم، إذ يتّضح لنا أن الآراء لا تزال تتخبّط وتتشابك.

ويرجّح المؤرخون أنّ العام 476م، هو بداية الإمبراطوريّة البيزنطيّة، لأنه يُعتبر تاريخ إسقاط الإمبراطوريّة الرومانيّة على أيدي الجرمان بقيادة إدواكر Adoacer، وانتهاء

حكم الإمبراطور رومولوس أوجستيلوس آخر إمبراطور رومانيّ، وبذلك انتهت الإمبراطوريّة في الغرب وعند أصحاب ذلك الرأي، وبدأت الإمبراطوريّة الرومانيّة الشرقيّة أي البيزنطيّة. ومسمّى الإمبراطورية البيزنطيّة هو الآخر من المسمّيات الحديثة وله ما يبرره، فكلمة بيزنطة مرجعها إلى أنّ الإمبراطور قسطنطين عندما بنى عاصمته القسطنطينيّة، بناها على أنقاض مدينة قديمة تدعى بيزنطة أسّسها بيزاس قائد المجموعة اليونانيّة التي هاجرت إلى هذا الموضع في القرن السابع قبل الميلاد، وقد عُرفت المدينة بإسم بيزنطة نسبة إلى هذا القائد[1].

سيعالج البحث بداية الصراع البيزنطي-الفارسي على أرض بلاد المشرق، وصولاً إلى الصلح بينهما، ثم الصراع البيزنطي-الإسلامي، أيام الخلفاء الراشدين، ومع الخلفاء الأمويين، وفي العهد الإخشيدي ثم الفاطمي الذي دام حوالى قرنين من الزمن، إلى أن وصل الفرنج الذين واجهوا جيش الفاطميّين والزنكيّين والأيوبيّين، ثم أتت نهايتهم على يد المماليك.

لقد اعتمد البحث على المنهج التاريخي إضافة إلى المنهج التحليلي، للوصول إلى معطيات علمية تفيد في تقديم البحث بشكل منطقي وتسلسلي، وابتعد قدر الإمكان عن السرد الأدبي المملّ. وقد استند إلى عدد غير قليل من مصادر العصور الوسطى التي شهدت ذاك الصراع، والذي بدوره إمتد حوالى أربعة قرون، ما أنهك جميع الأطراف بالرغم من فترات الهدن التي عقدت بين الطرفين.

وانطلاقاً مما تقدّم، تبرز الإشكالية التالية:

كيف أدّت الأطماع البيزنطيّة في لبنان إلى نشوء صراعات على أراضيه؟ وما هي الجذور التاريخية لهذه الأطماع؟

وللإجابة على الإشكالية، لا بدّ من وضع الفرضيات التي جاءت على الشكل التالي:

- أخذ الصراع منحى عسكرياً وتسبّب بنشوء نزاعات عسكرية على أراضيه.
- أراد البيزنطيون السيطرة على أراضي لبنان، لما لها من أهمية اقتصادية.

---

(1) Vasiliev, A, **HISTOIRE DE L'EMPIRE BEZANTIN**, Vol 1, p 213.

- تعود الجذور التاريخية لهذه الأطماع لأيام الفتح العربي، وهذه الأطماع متعلّقة بإعادة أمجاد الإمبراطورية البيزنطية.

أولاً. الصراع البيزنطيّ - الفارسيّ

استهلّ القرن السابع الميلاديّ سنواته الأولى بنشوب صراع عنيف بين قوتيّ العالم آنذاك، الدولة البيزنطيّة والدولة الفارسيّة، وقد بلغ ذروته عندما تولّى الإمبراطور هرقل عرش الإمبراطوريّة البيزنطيّة، الذي امتدّت ولايته من العام 610 حتى عام 641م، وسبب تلك الحروب ما جاش بأكاسرة الفرس من أطماع توسّعيّة عاملين على الإفادة ممّا ساد الدولة البيزنطيّة من اضطراب، وما تفشّى فيها من حوادث القتل والدسّ والمؤامرات التي هيّأت لهرقل فرصة اعتلاء عرش الإمبراطوريّة، فجهد الفرس على تحقيق الحلم الذي داعبهم وأرّقهم أيضًا، وهو الحصول على منفذ يطلّ على البحر المتوسط تكمل به دولتهم سيطرتها التجاريّة[2].

تقدّمت القوات الفارسيّة وتوغّلت في بعض أقاليم آسيا الصغرى حتى وصلت إلى خلقيدونية قبالة القسطنطينيّة، كما وصلت قوات أخرى إلى أرجاء الشام، وتقدّمت جيوشهم إلى حمص بالشام، واستولوا عليها، كما استولوا على إنطاكية وقيصرية ودمشق بالشام. وفي سنة 614 م، أنزل الفرس بالبيزنطيين، قادة العالم المسيحيّ، ضربة قاسية باستيلائهم على بيت المقدس، إذ أضحت تلك المدينة المرتبطة بأصول الديانة المسيحيّة في أيدي الفرس الوثنيّين الذين أمعنوا في الحطّ من هيبة بيزنطة أمام العالم المسيحيّ، بنقلهم صليب الصلبوت من بيت المقدس وإرساله إلى عاصمة بلادهم. وفي سنة 619 م، غدا الفرس سادة بحر الشام وأكملوا سيطرتهم على مياه البحر المتوسط الشرقيّ باستيلائهم على مصر، ولم يقف الجشع الفارسيّ عند هذا الحدّ، بل جرأتهم حملتُهم على مهاجمة القسطنطينيّة التي أنقذتها مِنْعتها الطبيعية وموقعها الجغرافي من التردّي في يد الفرس[1].

---

(1) J.B. Bury: A **HISTORY OF THE LATER ROMAN EMPIRE**, vol 2, London, P P. 219 - 240.

لقد فرض هذا الأمر على الكنيسة والدولة أن يقفا صفًا واحدًا في سبيل تخليص بيت المقدس وصليب الصلبوت، وانكبّ هرقل على إعداد خطّته الحربيّة التي انتهى منها سنة 621م. وقد جاءت محكمة هيأت له فوزًا مظفرًا، فبعث أسطوله من القسطنطينيّة سنة 622 م، إلى مياه الشام، في حين تقدّم على رأس جيوشه برًا عبر آسيا الصغرى، متجنّبًا الاصطدام بالجيوش الفارسيّة الضاربة في تلك البلاد، ولمّا وصل إلى أطراف آسيا الصغرى من ناحية الشام، قام بمناورة حربيّة معلنًا أنّ هدفه الزحف إلى بلاد الفرس نفسها، فاضطر الجيش الفارسيّ إلى الجلاء عن آسيا الصغرى لكي يمنع تقدّمه نحو الأراضي الفارسيّة، وبذلك أنقذ هرقل آسيا الصغرى في حركة حربيّة بارعة تشهد له بالمهارة وحبّه للمغامرة.

ثَمّة أمر آخر لا بدّ أن نشير إليه، هو أنّ النصر ظلّ يسير ركاب هرقل منذ بدأ حملاته على الفرس سنة 621 م، وقد باءت جميع محاولات الفرس بالفشل، بخاصّة بعد محاولتهم استعداء القبائل الضاربة على أطراف الدولة البيزنطيّة الشماليّة وحثّهم على مهاجمة القسطنطينيّة، وحمل هرقل للتخلّي عن مهاجمة الفرس.

وفيما بعد حصل الصلح بين الدولتين، البيزنطيّة والفارسيّة عام 628م، جَلَتْ بمقتضاه كل القوات البيزنطيّة من الأراضي الفارسيّة، وأعاد الفرس إلى البيزنطيّين صليب الصلبوت[1].

وهكذا اختتمت الدولتان فصلًا من قصة حروبهما المتكرّرة، اتّسم بتبادل الطرفين اجتياح أراضٍ واسعة ووصول جيوشهما إلى مشارف عاصمتيّ الدولتين مُبدين الحِرص والنبل، ومثقلين كواهل من بقيَ على قيد الحياة بالنهب والسلب، فضلًا عمّا استنزف من مواردهم للنهوض بالأعباء الحربيّة، وظلت كل من بيزنطة وفارس تئنّ من الخور والإنهاك، وبقيت حروبهم معلّقة عند هذا الحدّ إلى أن أتم الإسلام فصلهما الأخير، فأدخل فارس المثخنة الجراح في حظيرته واقتطع من الدولة البيزنطيّة، أسمى أقاليمها في حوض البحر المتوسط الشرقيّ مصر والشام

---

(1) Bury: **A HISTORY OF THE LATER ROMAN**, Vol 2, P 244.

اللتان ذاقتا كل أصناف العذاب والاضطهاد الدينيّ على أيدي البيزنطيّين، لا سيّما بعد انتهاء الحروب الفارسيّة[1].

ثانياً. لبنان في المصادر العربيّة الإسلاميّة

أمّا من ناحية المصادر العربيّة الإسلاميّة، فيذكر اليعقوبيّ في كتابه «**البلدان**»، أنّ أجناد بلاد الشام أربعة وهي: جند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين. وكل جند من هذه الأجناد كانت له كور تتبعه إداريًّا وعسكريًّا. فمن جند دمشق وكورة جبل الجليل وكورة سنير وكورة بعلبك وكورة لبنان صيدا، وكورة أطرابلس (طرابلس) وكورة عرقة وكورة جبيل وصيدا وبيروت[2]. أما صور فهي من سواحل جند الأردن[3].

وبما أنّ اليعقوبيّ ذكر مدينة صور مرتين، الأولى مع «لبنان»، والثانية مع كور جبيل وبيروت، فهذا يشير إلى أنّ صيدا كان لها حدود مع كورة صور التي تنتمي لجند الأردن، وإنّ الجزء الشرقيّ منها تابع للجبل بحيث يكوّنان كورة «لبنان ـ صيدا»، فيما يتبع الشريط الساحليّ لمدينة صيدا لكورة صيدا وبيروت وجبيل، وعليه يكون اليعقوبيّ قد اتّفق مع روايتيّ المؤرخين البيزنطيّين نيكوفوروس وثيوفانيس فيما يتعلّق بالخارطة الجغرافيّة للبنان، مع فارق بسيط هو الترتيبات التي حصلت في مدينة صيدا[4].

وتضيف سرحان في هذا الصدّد: «أما فيما يتعلّق بالشريط الساحليّ الذي اعتبرته المصادر العربيّة جزءًا من جند دمشق، نرى أن ثيوفانيس لم يعترف بتلك التقسيمات

(1) إبراهيم العدويّ: **الإمبراطوريّة البيزنطيّة والدولة الإسلاميّة**، طبعة نهضة مصر، لا ت، ص 25؛ فتحي عثمان: **الحدود الإسلاميّة البيزنطيّة بين الإحتكاك الحربيّ والإتصال الحضاريّ**، الدار القوميّة للطباعة والنشر، مصر، لا ت. ص 126.

(2) اليعقوبيّ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح: **كتاب البلدان**، منشورات دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط 1، 1988، ص ص 87 ـ 88.

(3) البلاذريّ، أحمد بن يحيى: **فتوح البلدان**، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العربية، بيروت، ط 1، 1987، ص 124؛ عمر تدمري: **لبنان من الفتح الإسلاميّ حتى سقوط الدولة الأمويّة، 13 ـ 132هـ/ 634 ـ 750م**، جرّوس برس، طرابلس، 1990، ص 232 ـ 241.

(4) كوثر سرحان: **لبنان في المصادر اليونانيّة البيزنطيّة (من القرن 7 حتى القرن 10)**، طرابلس، 2016، ص 92 ـ 93.

الإداريّة الإسلاميّة، وقد أطلق على الساحل من اللاذقيّة إلى ما بعد جنوب صور إسم بلاد فينيقيا، ولبنان في المصادر البيزنطيّة هو الجبل وفنيقيا هي الساحل»[1].

ثالثاً. الأطماع البيزنطية في لبنان أيام هرقل

مع تولّي هرقل عرش القسطنطينيّة، أرسل وفدًا لملك الفرس ليصالحه، لكنّ الأخير رفض وأرسل قواته إلى شرقيّ المتوسط فاستولت على إنطاكية وقتلت بطريركَها، واستولت على حمص، ثمّ توغّلت في وسط آسيا الصغرى، ووصلت إلى قيصريّة قباذوقيا لمنع أي إمداد يمكن أن ترسله القسطنطينيّة للجزيرة الفراتيّة ولمدن شرقيّ المتوسط[2]. بعدها توجّهت قوات الفرس إلى العمق الفلسطينيّ واستولت على قيصريّة وفلسطين ومنها توجّهت إلى القدس سنة 615 م، ووضعت يدها على الصليب المقدس، وأسرت البطريرك زكريا سنة 619م، واستطاعت الوصول إلى الإسكندرية، إلّا أن ملك القسطنطينية هرقل الأرمنيّ (610م – 641م)، إستطاع لملمة الجيش البيزنطيّ معتمدًا بشكل مباشر على الأرمن، واستطاع السيطرة على الشرق والتقدّم نحو فارس واستعادة الصليب المقدس[3].

وبهذا يكون هرقل قد أعاد لبنان من جديد لسلطة الأباطرة البيزنطيّين، لكن سرعان ما تحركت الجيوش العربيّة الإسلاميّة من الجزيرة العربيّة باتجاه بلاد الشام بعامّة، ووضعت يدها على لبنان بالتدرّج ليصبح بذلك خاضعاً للخلافة الإسلاميّة، كما يقول البلاذريّ[4].

إنّ تاريخ الصراع بين المسلمين والبيزنطيّين (الروم)، مليء بمواقف الخداع الحربيّ الذي يقوم به الطرفان في عمليات الحصار والقتل وغيرها، فمن المحتمل أنّ

(1) كوثر سرحان، **لبنان في المصادر اليونانيّة البيزنطيّة**، مرجع سابق، ص 93.

(2) أغابيوسبن قسطنطين المنبجيّ: **المنتخب من تاريخ المنبجي**، تحقيق عمر تدمريّ، دار المنصور، طرابلس، 1986، ص 25.

(3) أغابيوسبن قسطنطين المنبجيّ: **المنتخب من تاريخ المنبجيّ**، مصدر سابق، ص 27.

(4) البلاذريّ: **فتوح البلدان**، مصدر سابق، ص 133.

طرابلس سقطت بيد المسلمين قبل قيصريّة، لكنّها لم تلبث أن عادت تحت السيطرة البيزنطيّة بعد أن سيطروا على بعض السواحل كما يقول البلاذريّ[1].

وفي العام 23 هـ/ 644م، أي بعد انتهاء ولاية هرقل، استعاد البيزنطيّون بعض المدن الساحليّة، أيام خلافة عمر بن الخطاب، وأن يتشبّثوا بها لمدة سنتين كاملتين، ومن الواضح أنّ تلك المدن كانت بيروت وجبيل وغيرها، وساعدهم في ذلك كثرة الجالية البيزنطيّة الموجودة في طرابلس، وراحت الأجناد العربيّة تدفعهم حتى ارتدّوا إلى طرابلس التي بقيت كآخر معقل لهم في سواحل الشام.

ولذلك كان لا بدّ من فتح طرابلس بعد أن أطبق عليها الحصار من كل الجهات، وأصبحت محاطة من جهات ثلاث، فمن الشمال استولى المسلمون على عرقة، ومن الجنوب دخلت جبيل في حوزتهم، ومن الشرق سقطت بعلبك في أيديهم، وبات فتح طرابلس أمرًا لا بدّ منه، إذ ليس من المعقول أن يتغاضى العرب عن وجود قاعدة بيزنطيّة تهدّد الفتوح العربيّة، لا سيّما أن البيزنطيّين كانوا لا يزالون يتفوّقون على العرب بأساطيلهم البحرية، إضافة إلى بقاء الساحل الإسلاميّ عُرضة لغزواتهم[2].

وبعد أن حصل معاوية على موافقة الخليفة عثمان بن عفان، بفتح ما تبقّى من مدن الشام الساحليّة، قرّر معاوية إرسال القائد الصحابيّ سفيان بن مجيب الأزديّ إلى طرابلس، وعسكر بجيشه على بعد خمسة أميال منها، في مرج كان يُعرف بمرج السلسلة عند سفح جبل تربل شماليّ شرقيّ المدينة، وباشر حربه ضد الروم. فبنى أول حصن للمرابطة واستخدمه للهجوم، وقطع المادّة عن أهل طرابلس من البحر وغيره، وقد دبّ اليأس في نفوس أهل المدينة بعد أن دام الحصار حوالى شهر، ونفذت المؤن فكتبوا إلى الإمبراطور قنسطانز الثاني الذي لم يستطع مساعدتهم، فاكتفى بإرسال مجموعة من المراكب تسللت ليلًا إلى ميناء المدينة حتى لا يراها المسلمون، ونرجّح أنّها رست عند

(1) ص 152. البلاذريّ: **فتوح البلدان**، مصدر سابق، ص 152.

(2) عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس السياسيّ والحضاريّ عبر العصور**، دار الإيمان، طرابلس، ط 2، 1984، ج 1، ص 89.

الجزر في البحر، فركبها الروم وأخلوا المدينة مع أمتعتهم وأبحروا تحت جنح الظلام[1].

دخل المسلمون طرابلس، وأسكن معاوية فيها جماعةً من يهود الأردن، لملء الفراغ، ووضع عليها عاملًا وفريقًا من الجند، وكان يقفل عنها في الشتاء عندما تعلو مياه البحر وتصبح الملاحة صعبة، ويعود إليها في الربيع، فتنبّه الروم لذلك زمن الخليفة عبد الملك بن مروان، فأرسلوا بطريقًا يدعى قناطر، مع جماعة من الجند طالبًا الأمان، وتقرّب من حاكمها حتى استأنس به عارضًا عليه تأدية الجزية والخراج، وتحيَّن المذكور زمن تقلّص عدد المقاتلين، فأغلق المدينة وقتل عاملها وأسر الجنود اليهود، ولكنّ مغامرته انتهت بالفشل، وعادت المدينة إلى أيدي المسلمين، ولربما يشار هنا إلى السقوط الثاني[2].

رابعاً. الغزوات البحريّة في خلافة معاوية

وجّه معاوية جيشه إلى بلاد الروم يغزو الصائفة حتى بلغ القسطنطينيّة، وهزمهم وضرب بابها بعمود حديد كان في يده فهشّمه حتى انخرق[3].

وفيما بعد تتابعت الغزوات الإسلاميّة على سواحل بلاد الشام، وتناوب على غزوة البحر عدد من القادة الذين تولّوا غزوة رودوس، وأقاموا فيها سبع سنين، وفي سنة 55هـ/ 675 م، قام يزيد بن شجرة الرهاويّ بغزوة في البحر[4].

أمّا ردّة الفعل البيزنطيّة؛ فقد تجلّت بتسيير أسطول كبير من السفن، سنة 57 و58هـ/ 677م، فتصدّى لهم الأسطول الإسلاميّ بقيادة يزيد الرهاويّ، وتمكّنوا من

---

(1) لمزيد من التفاصيل: راجع ابن عساكر، الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن: **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق محب الدين أبي سعد عم بن غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 1995، ج 21، ص 365.

(2) البلاذريّ، **فتوح البلدان**، مصدر سابق، ج 2، ص 150 ـ 151؛ أغابيوسبن قسطنطين المنبجيّ: **المنتخب من تاريخ المنبجيّ**، مصدر سابق، ص 60 ـ 61؛ ابن عساكر: **تهذيب تاريخ دمشق**، دار المسيرة، بيروت، لا ت. ج 6، ص 185؛ الياس القطار: **لبنان في القرون الوسطى من الفتح العربيّ الإسلاميّ إلى الإحتلال الفرنجي**، بيروت، ط 1، 2003، ج 1، ص 26.

(3) اليعقوبيّ: **تاريخ اليعقوبيّ**، طبعة دار صادر، بيروت، 1960، ج 2، ص 229 ـ 240.

(4) خليفة بن خياط، أبو عمرو العصفري: **تاريخ خليفة بن خيّاط**، تحقيق د. أكرم العمريّ، ؤسسة الرسالة، بيروت، 1977، ص 223.

قتله مع أصحابه، وهزموا الأسطول الإسلاميّ وانكشف الساحل لهم فنزلوا مدينتيّ صور وصيدا، واستطاعوا اقتحامهما والقضاء على كلّ مقاومة فيهما، ثم تسلّقوا جبال لبنان واستولوا عليها، وجاؤوا بالجراجمة فبثّوهم فيها من جبل الجليل شمال فلسطين إلى الجبل الأسود شمال الشام، فشكّلوا بذلك حاجزًا يفصل بين القوات العربيّة في البلاد الداخليّة وقواتهم في الساحل، ما اضّطر معاوية لرفع حصاره عن القسطنطينيّة وعقد هدنة مع الإمبراطور قسطنطين الليحانيّ الرابع، مدتها ثلاثون عامًا، إلتزم بموجبها معاوية بأن يدفع في كلّ سنة عشرة آلاف قطعة ذهبيّة ومائة عبد وخمسين فرسًا، بحسب رواية شدرانس[1].

وفي سنة 65هـ/ 685م، تولّى عبد الملك الخلافة، وتوفّي الإمبراطور قسطنطين الليحانيّ الرابع، وتولّى العرش ابنه المعروف بالأخرم، وهو في السادسة عشرة من عمره، فنقض اتفاقية الصلح مع العرب بتحريض من بعض رجال دولته، إذ كانوا قد طلبوا إلى أبيه أن يبادر إلى غزو بلاد الشام. وفي سنة 69هـ/ 689م، أخرج الإمبراطور يوستنيانوس خيل الروم إلى جبل اللكام بقيادة لاو بن فلنط، حتى وصلت لبنان وانضوى إليها جماعة من الجراجمة والأنباط عبيد أباق من عبيد المسلمين[2].

ومن ناحية أخرى، توجّه الأسطول البيزنطيّ بقيادة بطريق يدعى قلقط، قاصدًا ساحل الشام، فأرسى عند وجه الحجر (رأس الشقعة)، جنوبي طرابلس، ونزل الجيش إلى الساحل ثم إلى جبل لبنان، وتوغّل قادته إلى أقصى الجبل حيث اتصلوا بخيل الروم عند إنطاكيا وغيرها من الجبل الأسود، فأعظم المسلمون ذلك حتى أنّهم أصبحوا لا يستطيعون التجوّل في الجبال وغيرها من تلك النواحي إلّا بالساحل،

(1) يوسف الدبس: **الجامع المؤصّل في تاريخ الموارنة المفصّل**، طبعة بيروت، 1905، ص 35؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 122 ـ 123؛ أسد رستم: **الروم وصلاتهم بالعرب**، منشورات المكتبة البولسية، جونية، ط 2، 1988، ج 1، ص 260، (لكنّه يسميّه قسطنطين الثالث)؛ إلياس القطّار: **لبنان في القرون الوسطى**، مرجع سابق، ص 39.

(2) البلاذريّ: **فتوح البلدان**، مصدر سابق، ص 189؛ الأباق كان أصلهم من اليونان، راجع: عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج1، ص 130، الحاشية رقم 24.

ثم استفحل أمرهم فغلبوا على الجبال كلها من لبنان وسَنْيَر[1]، وجبل الثلج وجبال الجولان، وأقاموا الممالح وقطعوا السبل ووصل الأمر بهم إلى أنّهم كانوا ينادون عبد الملك بن مروان ليلاً من جبل دير مُرّان[2]، ووصلت بعض السفن البيزنطية إلى قيساريّة وفلسطين فشعشعوها وهدّموا مسجدها، كما خرّبوا مدينة عسقلان وأخرجوا أهلها منها[3].

وفي عهد الإمبراطور يوستنيانوس الثاني، يذكر رستم نقلًا عن كتاب اسطفان الدويهيّ المسمّى «**تاريخ الطائفة المارونيّة**»، أن الإمبراطور يوستنيانوس لم يكتفِ بما فعل، بل جيّش على المردة جيشًا جرارًا بقيادة موريق وموريقيان، بعث به سنة 694 م، إلى لبنان، فقتل رهبان دير مار مارون على نهر العاصي، وحلّ في الكورة بين أميون والناووس، وتدفّق الجبليون عليهم من أعالي الجبال فقاتلوهم حتى قتلوا أكثرهم. ولعلّ هذه الحوادث وقعت سنة 689م، عندما قام يوستنيانوس بتنفيذ شروط معاهدته مع عبد الملك سنة 694 م، كما تقدّم[4].

خامساً. البيزنطيون يهاجمون طرابلس

في الوقت الذي تحرّك فيه الجراجمة مع الروم في عهد الوليد، تعرّضت طرابلس لحملة بحريّة، انفرد ابن عساكر بذكرها، وتفصيل ذلك أن البيزنطيّين جهّزوا أسطولًا ضخمًا سيّروه إلى ساحل الشام بقيادة بطريق يدعى «دواميس»، فقصد ساحل لبنان وأرسى عند وجه الحجر وأمر القائد بترتيب خمسين سفينة للمرابطة في ذلك الساحل وحراسته وتأمين مؤخّرة بقية أسطوله وقواته التي تقوم بضرب حصار بحريّ لمنع أيّ أسطول قد يأتي من موانئ بيروت وصيدا وصور وعكّا لنجدة أهل طرابلس وللاستيلاء

(1) سنير بفتح أوله وكسر ثانيه، جبل بين حمص وبعلبك على الطريق وعلى رأسه قلعة سنير. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله الرومي: **معجم البلدان**، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى بيروت، 1990، ج 2، ص 306.

(2) دير مُرّان بضم الميم وتشديد الراء بالقرب من دمشق. انظر: المصدر نفسه، ص 603.

(3) البلاذريّ: **فتوح البلدان**، مصدر سابق، ص 189.

(4) أسد رستم: **الروم وصلاتهم بالعرب**، مرجع سابق، ج 1، ص 265.

على أيّة سفينة تحمل الغذاء والقوت، واتفق مع قادة القوة المرابطة على إشارة بينه وبينهم، وهي أن يترقّبوا رؤية نيران مشتعلة من ناحية طرابلس، فإذا بدت لهم كان ذلك إيذانًا بفتح المدينة، ثم سار ببقية الأسطول إلى طرابلس، فوصل إلى الميناء في وقت كان فيه أسطول طرابلس قد خرج للغزو في البحر، وتولى سحيم بن المهاجر بتجميع السكان في المسجد، وخطب فيهم وحثّهم على الصبر والجَلَد والثبات أمام العدو، وأمر بإحصاء عدد الرجال المقاتلين الذين بلغوا **(150)** مقاتلًا، كما أمر بقياس الشرفات الواقعة بين الأبراج، ووضع خطّة لتوزيع عدد المقاتلين بين الشرفات والأبراج، ورأى سحيم أنَّه لا يمكنه دفع الخطر البيزنطيّ إلّا عن طريق الخديعة وإظهار أن المدينة محصّنة وقوية بمقاتليها، وتنفيذًا لخطته هذه، أمر بإحضار أنواع من الثياب بألوان مختلفة، وقام بتوزيع الثياب من لون واحد على المقاتلين وأمرهم أن يظهروا للعدو، ثمّ عاد وألبسهم ثيابًا من لون آخر فصعدوا إلى البرج الثاني وأظهروا أنفسهم للعدو ولبثوا فترة، ثمّ نزلوا وبقي فيه عدد آخر من المقاتلين وعليهم قائد منهم، وهكذا فعل في بقية الأبراج والشرفات.

نجح سحيم في تدبيره، واستطاع خداع البيزنطيّين الذين رأوا أنّ من العبث بقاءهم في عرض البحر، فنزلوا إلى البرّ حيث كان يقع برج سفيان على مسافة ميلين بين الميناء والنهر، وقرروا حفر خندق بالقرب منه وبنوا عنده سورًا يحميهم من قذائف المنجنيق والنشاب، وعملوا على محاصرة المدينة من الشرق ومنع الإمدادات عنها، وأمدّتهم الجبال المجاورة بالأخشاب اللازمة. فصنعوا منها دبابات (برج متحرك) لحماية المهاجمين، وزحفوا بها نحو الباب الشرقيّ للمدينة، وصدموا بها البرج الشرقيّ، وإستطاعوا إحداث ثغرة فيه، غير أن أهل طرابلس استطاعوا صدّ المهاجمين بعد معركة طاحنة تمّ فيها أسر البطريق «دواميس»، ولم يتمكّن البيزنطيّون من اقتحام المدينة رغم فتح ثغرة في أحد أبراجها، إذ كانت الأبراج محصّنة بحيث يدخل بعضها إلى بعض ولا منفذ لها إلى المدينة، واضّطروا أن يتراجعوا إلى معسكرهم قرب النهر[1].

(1) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ج 20، ص 144؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 151 ـ 153.

سادساً. فشل البيزنطيين أمام سور طرابلس

بينما كان البيزنطيّون مقيمين على قتال المدينة وحصارها، أقبل والي بيروت وأمير الساحل أبو العلاء عبد الرحمن بن سليمان الكلبيّ، في جماعة من أهلها لنجدة أهل طرابلس(1)، كما قَدِمَ الصقر بن صفوان في ستة آلاف من أهل حمص، ونزلوا مرج السلسلة غربي جبل تربل، وتوجّهت فرقة من البيزنطيّين لقطع الطريق على أهل حمص، وخرجت طائفة أخرى إلى الكنيسة القائمة بظاهر طرابلس في الجهة الجنوبيّة الغربيّة للصلاة فيها، فوجدوا جماعة من اليهود يختبئون داخلها، فحجزوهم فيها وأشعلوا النيران في جنبات الكنيسة فمات من فيها حرقًا، وقد ارتفع لهيب النيران الدخان الأسود في الجو حتى رآه المرابطون من البيزنطيين عند وجه الحجر، الذين كانو يقطعون الطريق بين طرابلس وبيروت، فأقبلو بسفنهم نحو طرابلس ظنًا منهم أنّها سقطت بيد قائدهم، وما إن وصلوا إليها حتى علموا بوقوع البطريق دواميس في قبضة المسلمين فانحلّت عزائمهم، وتمكّن عبد الرحمن الكلبيّ والي بيروت من اجتياز العقبة التي كان يحرسها البيزنطيّون بعد أن أصيبت صفوفهم بالاضطراب، وأمر جماعة من قواته لتسير في الطليعة وتبشّر أهل طرابلس بوصول النجدة، وجعل على قيادتها سعيد الحرشيّ(2)، فتقدّم بقواته نحو المدينة وأشرف على مرتفع قريب بحيث يراه منه أهلها، وأشار إليهم بفتح باب المدينة وتقوّى بهم أهله واشتدت عزيمتهم واستبشروا بمن جاءهم من إخوانهم، ولمّا وجد البيزنطيّون أن حصارهم بات غير مجدٍ، لأنهم أصبحوا محاصرين من الشمال بجيش حمص ومن الجنوب بجيش بيروت ومن الغرب أهل طرابلس ومن وصل إليهم، فقرروا الانسحاب والعودة إلى بلادهم وتأمين سلامة خروجهم من مواقعهم، فبعثوا رسولاً إلى عبد الرحمن الكلبيّ يعرض عليه أن يتوسط لهم لإطلاق سراح قائدهم على أن يرحلوا إلى بلادهم فوافق

(1) اليعقوبيّ: **تاريخ اليعقوبيّ**، مصدر سابق، ج 2، ص 315؛ الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، ج 6، تحقيق أحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار إحياء التراث، مصر، 1963، ص 141، 349؛ إبن الأثير، عز الدين علي: **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، ط 1، 2012، ج 4، ص 138.

(2) ابن عساكر: **تهذيب تاريخ دمشق**، تحقيق عبد القادر بدران، دمشق، 1331هـ/ 1914م، ج 6، ص 164؛ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، مصدر سابق، ص 148.

بعد أن أخذ منهم عهدًا بأن «لا يغيروا على شيء من أرض المسلمين في عامهم هذا فرحلوا ومضوا»[1].

سابعاً. تبادل الغزو البحري بين العرب والبيزنطيين

في عهد الخليفة الأمـويّ يزيد بن عبد الملك بن مـروان جرت تقوية حصون اللاذقيّة وشحنها بالمقاتلين، ثمّ عاد البيزنطيّون في عهد هشام بن عبد الملك (105ـ125هـ/ 724ـ743م)، ونفّذوا غزوة إلى صور سنة 107هـ/ 726م، ووصلت سفنهم إلى باب مينائها، وكان «يزيد بن أبي مريم» مقلولًا عند اللقاء «فخرج إليهم خالد بن الحسفان الفارسيّ، فقاتلهم حتى أجبرهم على الهرب وطاردهم بسفنه، فأرست إحدى سفنهم على جزيرة قبالة صور واستولى عليها وأسر من فيها، وقد ادّعى يزيد بن أبي مريم في كتاب كتبه إلى هشام بن عبد الملك بأنه وجّه إلى الروم ابنه فهزمهم، ولكنّ صاحب البريد بطبريّا أكّد أنّ خالد الفارسيّ هو الذي خرج إليهم[2].

استمرت الغزوات البحريّة المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيّين من وإلى ساحل الشام في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، ووصل البيزنطيّون في إحدى غزواتهم إلى بيروت، فهاجموا ميناءها واستولوا على سفينة جماعة من تجار مرسيّة[3]، وتقدّموا بسفنهم حتى قاربوا باب الميناء، فوقف أهل الميناء وهم يمسكون بأيديهم خوفًا ورهبةً حتى خرج إليهم أمير البحر الأسود بن هلال المحاربيّ، فصاح بهم وركب قوارب صغيرة وأجهد نفسه في طلب البيزنطيّين حتى لحق بسفنهم وأوقع بمقاتليها واستنفذ المركب والتجار[4].

---

(1) إبن عساكر: **تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ج 34، ص 402؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس السياسيّ**، مرجع سابق، ج 1، ص 155.

(2) عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس السياسيّ**، مرجع سابق، ص 158.

(3) مرسيّة: مدينة بالأندلس من أعمال تدمير إحتطها عبد الرحمن بن الحكم. ياقوت الحمويّ: **معجم البلدان**، مصدر سابق، ج 5، ص 125.

(4) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ج 9، ص 67؛ ابن عساكر: **تهذيب تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ج 3، ص47؛ إلياس القطار: **لبنان في القرون الوسطى**، مرجع سابق، ص 42.

وفيما بعد، قرّر البيزنطيّون أن يغتنموا الوضع المضّطرب الذي كانت عليه بلاد الشام عندما بدأت الدولة الأمويّة تتهاوى أمام العباسيّين، إضافة إلى عدم استقرار الأمن في مدن الساحل، ولكن في (سنة 135هـ/ 753م)، جاء لمحاولة استيلاء البيزنطيّين على طرابلس، فقد ذكرت المصادر الإسلاميّة أن البيزنطيّين تمكّنوا من دخول طرابلس عن طريقة حملة بحريّة بمساعدة من نصارى لبنان، وأنّ الروم في قبرص هاجموا اللاذقيّة وطرابلس ودخلوهما سنة 140هـ/ 758م[1]، ثمّ تبع ذلك قيام النصارى بحركة تمرّد على الدولة العبّاسيّة استدعت نقل جماعة من التنوخيّين اللخميّين من شمال سوريا إلى وسط لبنان للحدّ من خطر المتمرّدين، لكنّ أسطولهم لم يطلِ الإقامة في طرابلس، حيث ارتدّ إلى قبرص، ولم تمدّنا المصادر التاريخيّة بتفاصيل أوسع عن تلك الغزوة[2].

ولعلّ هذا الغزو هو الذي شجّع أهالي المنيطرة وجوارها على الثورة، وتجدر الإشارة إلى أن المسلمين والبيزنطيّين بقوا يتبادلون الغزو البحريّ، ففي سنة 174هـ/ 791م، غزا البيزنطيّون ساحل الشام دون تحديد المكان، فردّ المسلمون عليهم بغزوة في البحر[3].

وفي سنة 184هـ/ 800م، قصد البيزنطيّون ساحل بيروت، وجاءوا بسفنهم إلى عين التينة على ساحل البحر قرب ضريح الإمام الأوزاعيّ، وعادوا بعد أن أسروا الأمير عمر بن أرسلان اللخميّ مع ثلاثة من أصحابه وظلّوا في الأسر حتى فُودي بهم في سنة 188هـ/ 804 م[4].

ثامناً. جهاد طرابلس في العهدين الإخشيديّ والفاطميّ

بقيت البحريّة الإسلاميّة في ميناء طرابلس تشكّل قوّة رادعة للدفاع عن ساحل

(1) عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس السياسيّ**، مرجع سابق، ج 1، ص 171.

(2) ابن عساكر: **تهذيب تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ج 5، ص 341؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس السياسيّ**، مرجع سابق، ص173.

(3) أسد رستم: **الروم وصلاتهم بالعرب**، مرجع سابق، ج 1، ص 297.

(4) عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس السياسيّ**، مرجع سابق، ص 183؛ إلياس القطار: **لبنان في القرون الوسطى**، مرجع سابق، ص 79.

الشام، وقد استعصت المدينة على أباطرة الدولة البيزنطيّة الذين جاؤوها بأنفسهم وقاومتهم لوحدها من بين كثير من مدن الشام التي استسلمت لهم، وكان من أولئك الأباطرة نقفور فوقاس الذي جاءها عندما تابعة للدولة الإخشيديّة.

أ. نزول نقفور فوقاس على طرابلس وحصاره عكا سنة 357 هـ / 968م.

كان لبنان من نصيب الإخشيديّن، وقد شهد في عهدهم حملة بيزنطيّة للفسيلفس نقفور فوقاس (963_969م) Nikephoros phokos، الذي تولّى عرش الإمبراطوريّة في 16 آب 963م، وكانت الدولة الإسلاميّة ضعيفة بسبب تنافس الفاطميّين والإخشيديّين والبويهيّين والحمدانيّين على اقتسامها، وصل نقفور إلى حلب فمعرّة النّعمان فكفرطاب فشيزر فحماة فحمص التي أخذ منها رأس القديس يوحنا، فعرقا في لبنان التي أسر أهلها بعد حصارها دام تسعة أيام، وأخذ خلقًا ومالًا كثيرًا، وأسر أمير طرابلس أبا الحسن أحمد بن نحريّ الأرغليّ الذي كان قد طرده أهل طرابلس منها لجوره، وكان موسرًا، ثم وصل إلى طرابلس فحاصرها برًا وبحرًا، لكنّه لم يفلح بأخذها، فخرّب المدن والقرى التي تجاورها وفي ساحل اللاذقيّة، وبعد رحيله عاد المسلمون إلى عرقا فسكنوها[1]. وفي هذا الصدد يضيف الهمذانيّ أنّه أخذ من بلدان الساحل مائة ألف شاب وشابّة[2]، وما أن ارتاح الإخشيديّون من الصراع مع البيزنطيّين حتى أرسل الخليفة الفاطميّ المعزّ قائد جيشه جوهر الصقلّي إلى مصر، فقضى على الدولة الإخشيديّة سنة 358 هـ/ 969م، وحلّت محلّها الخلافة الفاطميّة وسقط لبنان بيد

---

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **تاريخ الإنطاكيّ المعروف بصلة أوتيخا**، تحقيق عمر تدمري، جرّوس برس، طرابلس، 1990، ص 125_127؛ إبن الأثير: **الكامل في التاريخ**، مصدر سابق، ج 7، ص 285؛ أبو الفرج جمال الدين ابن العبريّ: **تاريخ الزمان**، تعريب الأب إسحق أرملة، قدّم له الأب الدكتور جان موريس فيّيه، دار المشرق، بيروت، 1991، ص 166؛ شمس الدين محمد الذهبيّ: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، (حوادث 351 _ 380هـ)، تحقيق عمر تدمريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط 1، 1993، ص32؛ أسد رستم: **كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى**، منشورات النور، 1958، ج 2، ص 152؛ عمر تدمريّ: **لبنان من قيام الدولة العباسيّة حتى سقوط الدولة الإخشيديّة**، جروس برس، طرابلس، ط 1، 1992، ص 136؛ وسام عبد العزيز فرج: **دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطوريّة البيزنطيّة**، طبعة القاهرة، 1982، ص 298.

(2) محمد بن عبد الملك الهمذانيّ: **تكملة تاريخ الطبريّ**، تحقيق ألبرت كنعان، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، ط 2، 1961، ص 147.

أحد قوّادهم جعفر بن فلاح، وكانت صور أول المدن التي سقطت بيدهم(1).

في الختام ومهما يكن من أمر، فإنّ مدينة طرابلس كانت المدينة الوحيدة التي لم يتيسر للإمبراطور البيزنطيّ نقفور فوكاس دخولها في تقدّمه الواسع بين المدن والحصون الشاميّة، كما كانت آخر نقطة يصل إليها في ساحل الشام حيث عاد منها باتجاه بلاده.

ب. حملة الإمبراطور تزيمسكس Johanes Tzimiskes المعروف بابن الشمشقيق، سنة 364 ـ 365 هـ/975 ـ 976 م.

قام الفسيلفس ابن الشمشقيق (كلمة أرمنيّة تعني قصير القامة) سنة 976م، بحملة على بلاد الشام في الوقت الذي دخل فيه هفتكين إلى دمشق، وكان الفاطميّون يعانون أيضاً من المتاعب أمام القرامطة، فاغتنم تزيمسكس فرصة الصراع المحتدم بين القوّتين الإسلاميّتين ليحقّق حلم الإمبراطوريّة في انتزاع بيت المقدس من المسلمين.

دخل تزيمسكس منطقة الثغور فاستولى على أكثرها، ودخل في طاعته أبو بكر بن الزيّات صاحب طرطوس في عدد كبير من أهلها، وتبعته عدّة بطون من العرب، ثم اتّبع الطريق الذي سلكه سلفه نقفور فوقاس في حملته على بلاد الشام، فنزل على حمص وافتتحها وفرض على أهلها الجزية(2)، ثمّ سار عبر مجرى نهر العاصي إلى بعلبك فخرّبها وأخذ جماعة من أهلها، فهزم هفتكين وهادنته دمشق(3).

فطلب منهم مالًا كثيرًا، وكذلك هفتكين صاحب دمشق الذي قرر تسليمها على أن يدفع في تقرير مائة ألف درهم عليها، وقد أبدى هفتكين الإذلال والخضوع أمام الإمبراطور، وفيما بعد سلّمه القائد الفاطميّ ابن الصمصامة، وكان الإمبراطور في

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 144 ـ 145.

(2) ؟؟؟ ابن حوقل: **كتاب صورة الأرض**، طبعة دار صادر نقلاً عن طبعة ليدين، 1928، ص 163.

(3) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 162؛ ابن ظافر الأزديّ: **أخبار الدول المنقطعة**، قدّم له وعقب عليه أندريه فريه، المعهد العلميّ الفرنسيّ، القاهرة، 1972، ص 35؛ أبو بكر بن عبد الله ابن أيبك الدوداري: **كنز الدرر وجامع الغرر**، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ط 1، 1961، ج 6، ص 170؛ أسد رستم: **كنيسة مدينة الله**، مرجع سابق، ج 2، ص 155؛ عمر تدمري: **لبنان من قيام الدولة العباسيّة**، مرجع سابق، ص 137.

عين الجر (عنجر)، وإزاء ما أظهره هفتكين من ضروب الطاعة والإذلال والخضوع أمام الإمبراطور، فقد وهب ما أخذه من المواثيق التي وقّعها أهل دمشق بتأدية المال كما أطلق الرهائن[1].

تابع تزيمسكس زحفه جنوبًا، فاستولى على بانياس ثم أخذ طبريّة وعيّن عليها حاكمًا، ووصل إلى الناصرة فاستسلمت له وقد أخضع في طريقه بيسان وقيسارية وعكا[2].

لكن تزيمسكس بدلًا من أن يواصل زحفه نحو بيت المقدس، انقلب فجأة ليعود إلى مدن لبنان الساحليّة الشماليّة، وعند وصول خبر الإنزال البحريّ الفاطميّ في بيروت على يد نصير الخادم غلام المعز[3]، وصل إلى صيدا التي استسلمت له على يد أبي الفتح بن شيخ[4]، وقد امتنعت عليه بيروت حيث لقيه نصير غلام المعز فهزمه وأسره[5]، وأخذ جبيل عنوة فنهبها كما نهب بيروت، ثم قصد طرابلس التي قاومته بضراوة واصطدم بعقبة، وقد ضربت هذه المدينة مثلًا رائعًا في نضالها وصمودها وتاهت بذلك على جميع مدن الشام التي استسلمت وخضعت للإمبراطور البيزنطيّ حيث تكاتف أهل طرابلس مع الجند الفاطميّ بقيادة ريّان الخادم في الدفاع عن مدينتهم واستعدّوا للقتال، وتمتّعت تحصينات المدينة بالمناعة والقوة بحيث تفوّقت على

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ج1، ص 145؛ أبو يعلى حمزة، ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، نشره أمدروز، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1908، ص 14.

(2) وسام فرج: **دراسات في حضارة الإمبراطوريّة البيزنطيّة**، مرجع سابق، ص 301؛ Shlemberger, L' ÉPOPÉE BYZANTINE, Vol1, Paris, 1896- 1905, p 305

(3) ـ شهاب الدين أحمد النويريّ: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة ط1، 1986، ج 28، ص 150؛ ابن أيبك الدواداريّ: **كنز الدرر**، مصدر سابق، ج 6، ص 170؛ وسام فرج: **دراسات في حضارة الإمبراطوريّة البيزنطيّة**، مرجع سابق، ص 301.

(4) ـ ابن القلانسيّ: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 26؛ ابن العبريّ: **تاريخ الزمان**، مصدر سابق، ص 68.

(5) ـ سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 162؛ محمد بن عبد الملك الهمذانيّ: **تكملة تاريخ الطبريّ**، مرجع سابق، ج 1، ص 225؛ ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 14؛ ابن أيبك الدواداريّ: **كنز الدرر**، مصدر سابق، ج 6، ص 171؛ أسد رستم: **كنيسة مدينة الله**، مرجع سابق، ج 2، ص 155؛ عمر تدمريّ: **لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيّين**، دار الإيمان، طرابلس، ط 1، 1994، ص 21.

تحصينات بيروت وصيدا، وزاد من قوة المدينة وصمودها وجود الأسطول الفاطميّ المرابط في الميناء، في حين لم يكن لدى تزيمسكس سفن تساعده في حملته[1].

ولمّا رأى تزيمسكس حصانة الميدان وعناد أهلها، عمد إلى بناء حولها، ورفع عليها العرادات والمناجيق، وأقام مُحاصرًا لها حوالي أربعين يومًا[2]، يقاتل أهلها ويقاتلونه حتى ضاق ذرعًا بمقاومتها، ولما لم يجد أي وسيلة لامتلاكها؛ قرّر الإنسحاب بعد أن أمر بتخريب ربضها والمرج المحيط بها، كما فعل قبله الإمبراطور نقفور فوكاس قبل سبع سنوات، وكان مرج طرابلس يشتهر بخصبه ووفرة إنتاج مزروعاته، وعن ذلك يقول تزيمسكس في رسالته: «ولقد قلبنا إقليم طرابلس كلّه رأسًا على عقب مخرّبين فيه تخريبًا كاملًا الكروم وأشجار الزيتون والحدائق، وأينما مررنا كنّا نشيع الدمار والحزن»[3]. وكان تزيمسكس بعمله التخريبيّ هذا يُعبّر عن غضبه وسخطه وروح الانتقام التي تملّكته إثر فشله أمام أسوار طرابلس.

على كل حال، غادر تزيمسكس إقليم طرابلس باتجاه الشمال واستولى على بانياس، كما تسلّم حصنيّ برزيه وصهيون، ثم جبلة التي أسكن فيها عشرين ألف شخص من أهالي الشام، ورحل أخيرًا إلى إنطاكيا، ومنها إلى القسطنطينيّة حيث قضى نحبه سنة 365هـ/ 976م، ومات في السنة عينها الخليفة الفاطميّ المعزّ لدين اللّه، وقيل أيضًا أنّ تزيمسكس مات مسمومًا بعد أن كان مُنافساه باسيل وقسطنطين قد دسّا له السمّ وهو يحاصر طرابلس[4].

---

(1) إبراهيم العدويّ: **الإمبراطوريّة البيزنطيّة والدولة الإسلاميّة**، مرجع سابق، ص 107؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 269؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطمية**، مرجع سابق، ص 23.

(2) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 162؛ ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 14؛ ابن ظافر الأزديّ: **أخبار الدول المنقطعة**، مصدر سابق، ص 35؛ شهاب الدين أحمد النويريّ: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، مصدر سابق، ج 28، ص 151؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطمية**، مرجع سابق، ص 23.

(3) عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 272؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطمية**، مرجع سابق، ص 23.

(4) ظهير الدين الروذراوريّ: **ذيل كتاب تجارب الأمم مع نخب من تواريخ شتّى**، نشر أمدروز، مصر، 1916، ص 13؛ ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 14؛ تقي الدين أحمد المقريزيّ: **إتعاظ الحنفاء بأخبار**

تاسعاً. حملات باسيل الثاني

وبما أنّ طرابلس كانت المدينة الوحيدة التي استعصت على الإمبراطور تزيمسكس في حملته الكبرى، فقد ظلّت مصدر قلق البيزنطيّين، ولذا اهتمّ الإمبراطور باسيل الثاني (416ـ365 هـ/ 975 ـ 1025م)، بغارة على طرابلس سنة 365هـ/ 976م، فأمر في السنة الأولى من حكمه القائد ميخائيل البرجيّ (بورتزيس) رئيس إنطاكية وحصن بغراس، بغزو المسلمين، فأغار على طرابلس وغنم من حولها غنائم كثيرة، ولما لم ينجح بالاستيلاء على المدينة عاد إلى إنطاكيا وقام بجمع العساكر من جديد للغزو ثانية[1].

وبعد أن تمكّن القائد نزّال من القضاء على حركة منير الصقلبي واستطاع أن يعيد السيطرة الفاطميّة على دمشق وجّه الخليفة الفاطميّ العزيز اهتمامه نحو حلب، فأمر منجوتكين بالمسير بجيشه للاستيلاء عليها والقضاء على الحكم الحمدانيّ الذي شمل قسمًا من شمال الشام وشرقها عند حدود بيزنطة، وعندما علم سعيد الدولة أبي الفضائل الحمدانيّ صاحب حلب بالزحف الفاطميّ، بعث إلى إمبراطور الروم باسيل الثاني يستنجد به، فسارع لنجدته خوفًا من سقوط حلب بأيدي الفاطميّين، وكتب إلى قائده في إنطاكيا ميخائيل البرجيّ الذي أعيد إليها بعد هزيمة كرمروك (والي اللاذقيّة)، ليصدّ الزحف الفاطميّ، غير أنّ منجوتكين تغلّب على البرجيّ وهزمه، وشقّ طريقه إلى حلب، فاستعصت عليه حتى نفذت منه الأقوات فاضطر للعودة إلى دمشق. وقد أثارت عودة منجوتكين غضب الخليفة الفاطميّ العزيز بالله الذي كان مصمّمًا على انتزاع حلب مهما كلّف الأمر، لذا أمره بالعودة إلى محاصرتها.

عاد منجوتكين إلى حلب، وعاد سعيد الدولة الحمدانيّ يستنجد بالإمبراطور باسيل الثاني من جديد، وكتب له يحذره ويخوّفه بقوله: «متى أُخذت حلب أُخذت

الأئمة الفاطميين الخلفاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2001، ج 1، ص 275؛ وسام فرج: **دراسات في حضارة الإمبراطوريّة البيزنطيّة**، مرجع سابق، ص 302.

(1) ـ سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 147؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطمية**، مرجع سابق، ص 37.

إنطاكيّة، ومتى أُخذت إنطاكيّة أُخذت القسطنطينيّة»، وقد أحدثت هذه الرسالة وقعًا شديدًا لديه، وأدرك الأبعاد الخطيرة التي ستنتج فيما لو سقطت حلب بيد الفاطميّين، وعلى الرغم من أن الإمبراطور باسيل كان مشغولًا بالقتال في الجبهة البلغاريّة، قرّر المضيّ بنفسه إلى حلب، فقصد عاصمته القسطنطينيّة، ومن هناك اتّجه على رأس جيش ضخم قوامه أربعين ألفًا[1]، عبر به إقليم الثغور حيث انضمّت إليه مجموعات كبيرة من عساكرها ووصل إلى إنطاكيّة، فرافقه ميخائيل البرجيّ بعساكره ورافقه قائده مليسينوس، وعندما اقترب من حلب، رفع منجوتكين حصاره عنها، وأحرق الخزائن والأسواق والأبنية التي استحدثها في ظاهر المدينة، ورحل منهزمًا إلى دمشق في آخر ربيع الأول 385هـ/ نيسان 995م، ولما وصل باسيل إلى حلب، خرج إليه سعيد الدولة ولؤلؤة الجراحيّ، وجدّدا معاهدة التحالف بين القسطنطينيّة وحلب، وأقام باسيل فيها يومين ثم رحل عنها في اليوم الثالث، فنزل واستولى على شيزر وحمص وكذلك رفنيه ونهب منها سبيًا كثيرًا وغنم وأحرق، وفي طريقه إلى طرابلس أغار على عسكره جماعة من العرب فأسر عدداً منهم، وواصل سيره حتى وصل إليها في شهر ربيع الآخر 385هـ/ أيار 995م، وحاصرها فراسله واليها ابن نزّال، إلى أن وعد أهلها بالإحسان إنْ هم ثبتوا على ما يكون بينهم وبينه من العهد، فخرج إليه ابن نزّال في جمع من أهلها لإبرام الإتفاق مع الإمبراطور البيزنطيّ، لكنّ قاضي المدينة تزعّم حركة الرفض وأبى أن تسلّم طرابلس للبيزنطيّين وقاد حملة مضادة ضد والي المدينة ومن معه وانضمّ إليه عسكرها وأهلها مُنادين بالجهاد وقتال العدو وطرد واليهم من بين ظهرانيهم، واتخذ قرارًا بتعيين والٍ آخر مكانه، ولما أراد الوالي العودة إلى البلد أغلق أهلها الباب في وجهه ومنعوه من دخولها، ثمّ أخرجوا عياله إليه واستعدوا للقتال، فأقام باسيل محاصرًا لطرابلس «نيّفًا وأربعين يومًا»، وبذل قصارى جهده لفتحها، ولكنه لم يستطع

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 225؛ ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 70؛ ابن العبريّ: **تاريخ الزمان**، مصدر سابق، ص 73؛ المقريزيّ: **اتعاظ الحنفاء**، مصدر سابق، ج 1، ص 285؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 284؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّين**، مرجع سابق، ص37؛ Schlemberger, L' ÉPOPÉE BYZANTINE, Vol8, PP 86 - 89

أن يفتح ثغرة في أسوارها أو ينال من تحصيناتها، ولمّا لم يجد فرصة في تملّكها إرتدّ عنها خائبًا، وكان باسيل قد ملك أيضًا عرقا وهدمها وانصرف عنها، ثم عاد المسلمون وعمّروها[1].

وعلى الرغم من الاختلاف الموجود في مضمون روايتيّ الإنطاكيّ والمقريزيّ، فإن الإثنين لم يحدّدا سبب الموقف المتخاذل الذي وقفه ابن نزّال وبعض وجوه طرابلس، بالرغم من أن المدينة صعبة المنال، بدليل أنّه رغم انحياز الأخير ومن معه إلى جانب الروم، وهم أدرى بعورات المدينة، فإنّ باسيل بجيشه الذي ناهز الخمسين ألفًا لم يجد سبيلًا لامتلاكها. وقد وصف المؤرّخ ابن القلانسيّ مناعة ثغر طرابلس فقال: «هو بريّ بحريّ متين القوة والحصانة شديد الامتناع على منازله»[2].

وليس من الواضح إن كان ابن نزّال قد حاول أن يخرج عن طاعة الخليفة الفاطميّ ويُخضع طرابلس للسيادة البيزنطيّة، أو كانت تلك مناورة منه لتأمين المدينة وأهلها ودفع باسيل عنها دون قتال. وعلى أيّة حال فإن طرابلس ثبتت على ولائها للدولة الفاطميّة وعصمت نفسها من البيزنطيّين مرّة أخرى.

وتتابعت غزوات الروم الفاشلة على طرابلس، فكانت غزوة في السنة ذاتها سنة 383هـ/ 993م، أُسر فيها الكثير من أهلها، ثم بعد ثلاثة أشهر تمّ غزو عرقا فُسبي جماعة منها، وأخرى في سنة 385 و 386هـ/ 969م، لم ينتج عنها إلّا التخريب، أما ردّة فعل الفاطميّين على ذلك، فكانت في تجهيز الأسطول البحريّ الذي باءت محاولاته بالفشل، وبعد ثورة علّاقة الذي استغلّ ضعف الدولة الفاطميّة ودخول البيزنطيّين على خطّ الصراع في صور لإبعادهم عن المنطقة، سار ابن الصمصامة والي دمشق، إلى أفاميا لقتالهم، يشاركه في ذلك القاضي ابن حيدرة من طرابلس وواليها منصور الصقلّيّ، ما

---

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 229 ـ 230؛ الروذراوري: **ذيل تجارب الأمم**، مصدر سابق، ج 3، ص 220 ـ 221؛ ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 72 ـ 73؛ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، مصدر سابق، ج 7، ص 497؛ ابن العبري: **تاريخ الزمان**، مصدر سابق، ص 73؛ الذهبي: **تاريخ الإسلام**، مصدر سابق، ص 10؛ إلياس القطار: **لبنان في القرون الوسطى**، مرجع سابق، ج 1، ص 126؛ عمر تدمري: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 285.

(2) ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 74.

اضّطر علّاقة أن يستنجد بالإمبراطور البيزنطيّ باسيل الثالي ووعده بتسليمه البلد[1]، فأنفذ إليه عدة مراكب، وعندما وصلت ساحل صور، تصدّت لها السفن الفاطميّة ودارت معركة احتدم فيها القتال الشديد وظفر المسلمون بالبيزنطيّين، ولمّا عاين أهل صور ما حصل لمراكب البيزنطيين التي جاءت لنجدتهم ضعفت نفوسهم وعجزوا عن دفع الجموع المحاصرة لهم برًا وبحرًا، وشعر الفاطميّون بانهيار معنويات أهل صور، فدخلوا المدينة وقبضوا على علّاقة وبعض أصحابه بعد أن تحصّنوا في بعض الأبرجة، ونهبت المدينة، وحُمِلَ علّاقة إلى مصر مقيّدًا، وقد ألبس طرطورًا من رصاص ثم سلخ جلده وأعدم مع جماعة من أحداث مصر، وأُعطيت ولاية صور لابن ناصر الحمدانيّ وذلك في شهر جمادى الآخرة 388هـ/ حزيران 998م[2].

سار ابن الصمصامة بإزاء الروم الذين كانوا يحاصرون حصن أفاميا، حتى اضطر أهله إلى أكل الجيف والكلاب، ونزل بمن معه، وكان يفصل بينه وبين الروم نهر العاصي المعروف بالنهر المقلوب، ونشب القتال، واستطاع الروم أن يحقّقوا نصرًا على المسلمين عندما هزموا قلب الجيش، ثم هزموا الميسرة وفيها ميسور الصقلبيّ والي طرابلس، ثم لحقتها الميمنة وفيها ابن الصمصامة، وتفرّقوا على طريق جوسية إلى بعلبك، ولكن مقتل داميانوس المفاجئ على يد رجل كرديّ يعرف بابن الحجر قلب الموقف رأسًا على عقب، فعاد المنهزمون إلى القتال وأحاطوا بالروم وأنزلوا بهم شرّ هزيمة يوم الثلاثاء 21 رجب 388هـ/ 19 تموز 998م[3].

وهكذا خابت آمال باسيل في إضعاف النفوذ الفاطميّ، فطلب عقد هدنة مع الخليفة الفاطميّ الحاكم بأمر الله الذي لم يستجب لرأيه، فعقد باسيل العزم على

---

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ص 234؛ عمر تدمري: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 296؛ إلياس القطار: **لبنان في القرون الوسطى**، مرجع سابق، ج 1، ص 127.

(2) شهاب الدين أحمد النويريّ: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، مصدر سابق، ج 28، ص 28، ص 174؛ المقريزيّ: **إتّعاظ الحنفاء**، مصدر سابق، ج 1، ص 353؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 296 ـ 297؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّين**، مرجع سابق، ص 48 ـ 51؛ إلياس القطار: **لبنان من الفتح العربيّ**، مرجع سابق، ج 1، ص 127.

(3) ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مصدر سابق، ص 84 ـ 85؛ ابن العبريّ: **تاريخ الزمان**، مصدر سابق، ص 73.

الخروج بحملة جديدة إلى الشام لاسترداد هيبته، بعد مقتل قائده داميانوس وهزيمة قواته[1].

عاشراً. حملة الإمبراطور باسيل الثانية (389هـ/999م)

جاء ردّ البيزنطيّين بعد مقتل داميانوس، بحملة جديدة على بلاد الشام، ففي سنة 389هـ/ 99م، خرج الإمبراطور باسيل مجددًا، ونزل بجسر الجديد وسار إلى أفاميا ومنها إلى شيزر فتسلّمها وانتقل منها إلى حصن أبي قبيس، ونزل على رفينة فأحرقها، واستمر يحرق ويسبي ويخرّب إلى أن بلغ حمص فنزلها وأحرق جنوده جماعة من أهلها، وفي الأثناء كان ابن الصمصامة يستعدّ لملاقاته بعد أن علم بكثرة الجموع التي جاء بها الإمبراطور فحشد جيشًا ضخمًا[2].

وعندما علم باسيل بالأمر، سار إلى الساحل، بعد أن كان قد اقترب من بعلبك فهاجم عرقة وأحرقها وهدّم حصنها، ثم نزل على طرابلس في شهر ذي الحجة 389هـ/ ك1 999م، وأمر بحفر خندق حول المكان الذي يعسكر فيه ليأمن عسكره من غارات القوات الفاطميّة المرابطة في حصن المدينة، ثم قطع قناة الماء، وفيما بعد وصله المدد من البحر مع المؤن والعلف لدوابه التي مات أكثرها في الطريق من حمص لشدّة البرد، وقام بنشر بعض سراياه على طول الساحل، فاتّجه بعضها إلى جبلة في الشمال، وبعضها اتّجه جنوبًا إلى جبيل وبيروت، فوقع في أيديها عدد كبير من الأسرى المسلمين وجيء بهم إلى الإمبراطور فشحنهم في الشلنديان، ثمّ سيّرهما إلى بلاده ليبيعهم رقيقًا في أسواق إزمير وتسالونيكا والقسطنطينيّة[3].

استمرّ حصار الإمبراطور باسيل لطرابلس حوالي اثني عشر يومًا، أي من 6 إلى 18

---

(1) السيد الباز العريني: **الدولة البيزنطية**، دار النهضة العربية، ط 1، 1982، ص 589؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 299؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّن**، مرجع سابق، ص 53.

(2) عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 299؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّن**، مرجع سابق، ص 54.

(3) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ج 1، ص 245؛ العرينيّ: **الدولة البيزنطيّة**، مصدر سابق، ص 591؛ عمر تدمري: **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّن**، مرجع سابق، ص 55.

ك[1]، وقد صمد أهلها بقيادة ميسور الصقلبيّ والقاضي ابن حيدرة، ولما وصلته السفن الحربية شنّ هجومه على المدينة من البر والبحر ونشبت معركة رهيبة على الجبهتين أسفرت عن هزيمة ساحقة للإمبراطور ومقتل وجرح عدد كبير من جنوده(1).

ويظهر أنّ نجدة بحريّة من صاحب صيدا أبي الفتح عبد الله بن الشيخ أتت إلى ساحل طرابلس وأخذت شلنديًا للروم(2).

وأمام هذه الهزيمة الثانية له في طرابلس، اضّطر باسيل الثاني أن يلملم فلوله ويعود أدراجه، يوم السبت في 5 محرم/ 22 ك[1] 999م. متجهًا إلى بلاده فانكفأ إلى إنطاكيّة عن طريق اللاذقيّة ومكث فيها إلى شهر كانون الثاني أول سنة 1000م، وعيّن عليها قائدًا جديدًا يُسَمّيه الإنطاكيّ نقفور الماجسطرس مكان داميانوس الذي قتل عند أفاميّة، ثم بلغته أنباء مزعجة عن تحرّك البلغار وتهديدهم لبلاده فرحل مسرعًا وعقد هدنة في أوائل صيف العام الثاني 1001م، مع الخليفة الفاطميّ الحاكم بأمر الله مدّتها عشر سنوات كفلته حسن العلاقات بين الدولتين حتى أواخر عهده(3).

حادي عشر. محاولات إستعادة الهيبة الفاطميّة

قرّر الفاطميّون أثناء خلافة الظاهر، العودة إلى مشاريع الإحتكاك بالروم، فقام نصر بن مشرف سيّد حصن المنيقة والرواديف، ببناء الحصون شمال سوريا، وبالإغارة على الروم، مشجّعًا والي طرابلس وقاضيها على أخذ مرقية، وإذا كان الفشل حليفهم دفعوا الروم للإنتقام بهجومهم على عكار وعرقا حيث سُبي الكثيرون وكثر التخريب(4).

وقد نجح البيزنطيّون باستمالة والي طرابلس ابن نزّال إليهم، سنة 423هـ/ 1031م،

---

(1) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ج 1، ص 246؛ المقريزيّ: **اتعاظ الحنفاء**، مصدر سابق، ج 1، ص 344؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 30.

(2) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ج 1، ص 246؛ المقريزيّ: **اتعاظ الحنفاء**، مصدر سابق، ج 1، ص 344؛ أسد رستم: **الروم وصلاتهم بالعرب**، مرجع سابق، ج 2، ص 57.

(3) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ج 246؛ المقريزيّ: **اتعاظ الحنفاء**، مصدر سابق، ج 2، ص 39؛ عمر تدمريّ: **لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّين**، مرجع سابق، ص 56.

(4) سعيد بن يحيى الإنطاكيّ: **التاريخ الإنطاكيّ**، مصدر سابق، ج 246؛ Schlemberger, L’ ÉPOPÉE BYZANTINE, Vol 3, P71.

على أن يؤدّي لهم جزية سنوية، فكان رد الفاطميّين دخول المدينة سنة 424هـ/ 1033م، ففرّ ابن نزّال إلى إنطاكيّة، فأرسل البيزنطيّون حملة بحريّة انتصرت على الأسطول الفاطميّ واستولت على طرابلس، وأعادت ابن نزّال إليها، وبفضل رفض الأهالي الانصياع للبيزنطيّين عادت طرابلس إلى أيدي الفاطميّين، ولم يَحُل موقف ابن نزّال المتخاذل دون أن يمضي بقية العمر في طرابلس حتى العام 382هـ/ 1090م[1].

ثم عقدت هدنة بين الإمبراطور ميخائيل والخليفة المستنصر (427 ـ 478هـ/ 1036 ـ 1094م)، أثمرت انتعاشًا اقتصاديًا، ثمّ تكرّرت الهدنة سنة 437هـ/ 1046م، وكان من نتائجها المباشرة إطلاق خمسين ألف مسيحيًّا كانوا معتقلين في مصر، والترخيص بتجديد بناء كنيسة القيامة[2]. ثم تكرّرت الهدنة سنة 437هـ/ 1046م، حيث رأت الإمبراطوريّة البيزنطيّة ذلك في مصلحتها للوقوف أمام قوّة فتية بدأت تهدّد حدودها الشرقيّة هي قوّة الأتراك السلاجقة، ولكنّ هذه الهدنة لم تمنع انتكاس العلائق البيزنطيّة ـ الفاطميّة، ففي العام 446هـ/ 1054م، رفضت الإمبراطورة تيودورا بنت قسطنطين مدّ مصر بالحبوب إثر الشّدة المستنصرية (المجاعة) التي أصابتها، مُشترطة موافقة الخليفة المستنصر على عقد معاهدة دفاع معها ضد السلاجقة، ولما لم تنجح في ذلك مالت إلى السلاجقة للتحالف معهم؛ فما كان من المستنصر إلا أن أرسل جيشه إلى أعمال إنطاكيّة، فردّ البيزنطيون على هذه الإجراءات بحملة بحريّة على طرابلس، وتحرّكت جيوش الإمبراطورة فسيّرت أسطولًا بحريًّا من **(50)** قطعة مشحونة بالمقاتلين وآلة الحرب، وكان هدفه الأول الاستيلاء على طرابلس، القاعدة الرئيسيّة للأسطول الفاطميّ، فوصلها سنة 448هـ/ 1056م، وحدثت عملية إنزال حولها، وقام البيزنطيّون بمحاصرتها من البر والبحر[3]، ولما كان جيش طرابلس قد

---

(1) أسد رستم: **الروم وصلاتهم بالعرب**، مرجع سابق، ج 2، ص 65؛ إلياس القطار: **لبنان في القرون الوسطى**، مرجع سابق، ج1، ص131 ـ .Shlemberger, L' ÉPOPÉE BYZANTINE, Vol 3, P71

(2) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، مصدر سابق، ج 8، ص 53؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 326.

(3) ابن أيبك الدوداريّ: **كنز الدرر**، مصدر سابق، ج 6، ص 369؛ المقريزيّ: **اتعاظ الحنفاء**، مصدر سابق، ج 2، ص 226، 231؛ المقريزي: **الخطط المقريزية**، دار صادر، بيروت، ط 1، لا ت، ج 2، ص 226.

خرج مع جيوش مكين الدولة للقتال في نواحي إنطاكيّة، فإنّ أهلها طلبوا المساعدة من إخوانهم المسلمين، فأنجدها قاضي صور أبي محمد بن أبي عقيل بإرسال قوات كبيرة برًا وبحرًا، وقد نشبت بين الفريقين معارك عدّة، أسفرت عن مقتل عدد كبير من البيزنطيّين، ما اضطرّ الباقين منهم إلى الانسحاب، وأبحروا دون تحقيق هدفهم في الاستيلاء على المدينة، وتوجّهوا شمالًا، فهاجموا حصن الخوابي في الشمال من أنطرطوس التي استولوا عليها، وتابعوا سيرهم فهاجموا اللاذقيّة واستردّوها، وتوّجوا حملتهم أخيرًا بالانتصار على مكين الدولة وأسره ومن معه من أعيان العرب في 28 ربيع الأخرة 450هـ/ 24 حزيران 1058م[1].

بعض الاستنتاجات

بعد كلّ ما مرّ معنا في هذا البحث يمكننا أن نلاحظ ما يلي:

1. أنّ المصادر سواء أكانت عربيّة أم يونانيّة، لم تقدّم لنا عن الصراع السياسيّ والعسكريّ الأمويّ- البيزنطيّ، خاصّة في عهد السلالة السفيانيّة، سوى وقائع عسكريّة وتحديداً وقائع مرتبطة بالكرّ والفَرّ في التنافس العربيّ- البيزنطيّ العسكريّ، وكما أسلفنا القول، ففي عهد الخلافة الراشدة كان التنافس البحريّ الإسلاميّ على أشدّه مع البيزنطيّين، وكان هذا التنافس جزءًا من حركة الفتوح.
2. ومن الأمور اللافتة، ورغم الفتح العربيّ والغزوات المتبادلة بين العرب والبيزنطيّين، أن البيزنطيّين كانوا موجودين في أرجاء لبنان بسهولة ولم نجد توضيحاً لذلك، ومن الأمثلة على ذلك، ما حصل زمن حكم معاوية لبلاد الشام، في السنة السابعة من خلافة عثمان بن عفّان عندما مات غريغوريوس ابن أخت هرقل في مدينة هليوبوليس (بعلبك)، حُنِّط جثمانه وأُرسل إلى القسطنطينيّة ليُدفن هناك، ما يدلّ على مدى التسامح والاحترام بين الطرفين،

(1) ابن أيبك الدواداريّ: **كنز الدرر، مصدر سابق**، ج 6، ص 369؛ المقريزيّ، **الخطط المقريزية، مصر سابق**، ج 2، ص 226؛ عمر تدمريّ: **تاريخ طرابلس**، مرجع سابق، ج 1، ص 327.



خاصّة في حالات الموت بالرغم من العداوة بينهما[1].

3. من المرجّح أن غزوات الروم المتكرّرة لمنطقة العاصي وجند حمص، كانت السبب في إجلاء الموارنة عن تلك المناطق، والدليل على ذلك أنّ الوجود المارونيّ في تلك النواحي كان قائمًا بشكل ملحوظ في زمن المسعوديّ الذي توفّي سنة 957م، ولم يبقَ من هذا الوجود شيء يستحقّ الذكر بعد خروج الروم من إنطاكيّة أواخر القرن الحادي عشر، والظاهر أن بعض الموارنة هرب من الروم إلى حلب، بينما نزح البعض إلى شمال لبنان[2].

4. لقد كان التوجّه شرقًا هدفه تأمين آسيا الصغرى من إغارات العرب المسلمين، ومع ازدياد النجاح وتحقيق النصر أصبحت سياسة الإمبراطوريّة البيزنطيّة في عهد كلٍّ من نقفور فوكاس ويوحنا تزيمسكس وباسيل الثاني أكثر عدوانيّة، وأصبحت الأهداف أكثر طموحًا. ولقد أعطى الإمبراطور لحملاتهم الكبيرة ضد المسلمين سِمة دينية، ليلهبوا مشاعر رعاياهم ويبرّروا التكاليف الباهظة لحملاتهم العسكريّة التي هدفت للاستيلاء على الشرق الأدنى الإسلامي.

5. وأخيرًا بعد هذا التاريخ ومع انتهاء الأسـرة المقدونيّة مع آخر أباطرتها رومانوس ليكابيوس سنة 1057م، توقفت فترة التوسّع لتبدأ فترة تأخّر الدولة وانحطاطها مع تكاثر الفوضى والفتن الداخليّة، ثم فترة التفكّك والانهيار مع أسرة أنجيلوس، وبعدها فترة اليقظة مع دولة صغيرة إرثها كبير وظرفها خطير، وتعتبر الفترة الممتدة بين الأعوام 1389 ـ 1453 م، هي فترة النهاية مع قسطنطين الحادي عشر[3].

---

(1) Theophanes, Ami Mudi, THE CHRONICLE OF THEOPHANES, An English translation by Harry Turledove, University of Penselvenia, 1982, P 44.

(2) كمال الصليبيّ: **منطلق تاريخ لبنان**، منشورات كارافان، نيويورك، 1979، ص 64.

(3) أسد رستم: **الروم وصلاتهم بالعرب**، مرجع سابق، ج 2، ص 61، 169، 208، 253، 279.



فهرس المصادر والمراجع

أ. المصادر

1. ابن الأثير، عز الدين علي: **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر تدمري، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، 2012.
2. ابن العبريّ، أبو الفرج جمال الدين: **تاريخ الزمان**، تعريب الأب إسحق أرملة، قدّم له الأب الدكتور جان موريس فييه، منشورات دار المشرق، بيروت، 1991.
3. ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة: **ذيل تاريخ دمشق**، نشره أمدروز، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1908.
4. ابن أيبك الدواداريّ، أبو بكر بن عبد الله: **كنز الدرر وجامع الغرر**، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ط 1، 1961.
5. ابن حوقل النصيبي، أبو القاسم: **كتاب صورة الأرض**، طبعة دار صادر نقلًا عن طبعة ليدن، 1928.
6. ابن عساكر، الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن:

1) **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق محب الدين أبي سعد عمر بن غرامة العمريّ، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، 1995.

2) **تهذيب تاريخ دمشق**، تحقيق عبد القادر بدران، طبعة دمشق، 1914.

7. الأزدي، ابن ظافر: **أخبار الدول المنقطعة مع مقدمة وتعقيب لأندريه فريّه**، المعهد الفرنسيّ، القاهرة، 1972.
8. الأزدي، محمد بن عبد الله: **تاريخ فتوح الشام**، تحقيق عبد المنعم عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة 1970.
9. الإنطاكيّ، سعيد بن يحيى: **تاريخ الإنطاكيّ المعروف بصلة أوتيخا**، تحقيق عمر تدمريّ، جروس برس، طرابلس، 1990.
10. البلاذريّ، أحمد بن يحيى: **فتوح البلدان**، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار

الكتب العربيّة، بيروت، ط 1، 1987.

11. خليفة بن خياط، أبو عمرو العصفريّ: **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق أكرم العمريّ، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، 1977.

12. الذهبيّ، شمس الدين محمد: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (حوادث ووفيات 351 ـ 380 هـ.) (حوادث ووفيات 381 ـ 400 هـ.)**، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 1993.

13. الروذراوري، ظهير الدين: **ذيل كتاب تجارب الأمم مع نخب من تواريخ شتى**، نشر أمدروز، مصر، 1916.

14. الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة مصر، 1963.

15. المقريزيّ، تقي الدين أحمد:

1) **إتعاط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميّين الخلفاء**، دار الكتب العربية، بيروت، ط 1، 2001.

2) **الخطط المقريزيّة**، منشورات دار صادر، بيروت، ط 1، لا ت.

16. المنبجيّ، أغابيوسبن قسطنطين: **المنتخب من تاريخ المنبجي**، تحقيق عمر تدمريّ، دار المنصور، طرابلس، 1986.

17. النويريّ، شهاب الدين أحمد: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ط 1، 1986.

18. الهمذانيّ، محمد بن عبد الملك: **تكملة تاريخ الطبري**، تحقيق ألبرت كنعان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط 2، 1961.

19. ياقوت الحمويّ، شهاب الدين أبي عبد الله الروميّ: **معجم البلدان**، تحقيق فريد الجنديّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 1990.

20. اليعقوبيّ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح: **كتاب البلدان**، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1988.

ب. المراجع باللغة العربيّة

1. تدمريّ، عمر:

1) لبنان من الفتح الإسلاميّ حتى سقوط الدولة الأمويّة (13 ـ 132 هـ. / 634 ـ 750 م.)، جروس برس، طرابلس، 1990.

2) لبنان من قيام الدولة العباسيّة حتى سقوط الدولة الإخشيديّة (132 ـ 358 هـ. / 750 ـ 969 م.)، جروس برس، طرابلس، 1992.

3) لبنان من السيادة الفاطميّة حتى السقوط بيد الصليبيّين (358 ـ 518 هـ. / 969 ـ 1124 م.)، دار الإيمان، طرابلس، 1994.

4) تاريخ طرابلس السياسيّ والحضاريّ عبر العصور، دار الإيمان، طرابلس، ط 2، 1984.

2. الدبس، يوسف: **الجامع المؤصّل في تاريخ الموارنة المفصّل**، طبعة بيروت، 1905.

3. رستم، أسد:

1) الروم وصلاتهم بالعرب، الطبعة الثانية، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، 1988.

2) كنيسة مدينة الله إنطاكيا العظمى، منشورات النور، بيروت، 1958.

4. سرحان، كوثر: **لبنان في المصادر اليونانيّة البيزنطيّة (من القرن 7 حتى القرن 10)**، طرابلس، 2016.

5. الصليبيّ، كمال: **منطلق تاريخ لبنان**، منشورات كارافان، نيويورك، ط 1، 1979.

6. عثمان، فتحي: **الحدود الإسلاميّة البيزنطيّة بين الإحتكاك الحربيّ والإتصال الحضاريّ**، الدار القوميّة للطباعة والنشر، لا ت.

7. العدوي، إبراهيم أحمد: **الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية**، منشورات مكتبة نهضة مصر بالفجالة، لا ت.

8. العريني، السيد الباز: **الدولة البيزنطية**، دار النهضة العربية، ط 1، 1982.

9. القطّار، الياس: **لبنان في القرون الوسطى من الفتح الإسلاميّ إلى الاحتلال الفرنجيّ (13 ـ 491 هـ. / 634 ـ 1098 م.)**، بيروت، ط 1، 2003.

ج. المراجع الأجنبيّة

1. Anni Mundi: Theophanes THE CHRONICLE OF THEOPHANES, An English translation by Harry turdelove, University of Penselvenia, 1982.
2. Bury, J. B.: A HISTORY OF THE LATER EMPIRE, Vol 2, London, 1889.
3. Runciman, Steven: THE BYZANTINE CIVILISATION, New York, 1956.
4. Schlumberger, Gustave: L’ÉPOPÉE BYZANTINE, Vol 1, Paris, 1896 - 1905.
5. Vasiliev, Alexander: HISTOIRE DE L’EMPIRE BYZANTINE, Vol 1, 1933.

تمويل الإرهاب ومصادره

د. عبدو طانس يعقوب(*)

الملخّص

تُعتبر جهود مكافحة تمويل الإرهاب من السياسات الأساسية لدى الحكومات في مجابهتها أشكال الجرائم الإرهابية المتنوعة، فالتمويل هو المرحلة الجوهرية من مراحل النشاط الإرهابي، لذلك سعت الدول الى القضاء على الإرهاب، من خلال تجريم عمليات تمويله وإعاقتها، فعمدت لأجل ذلك إلى عقد الاتفاقيات الدولية والإقليمية وسنّ التشريعات الوطنية الفعّالة.

ازداد اهتمام العديد من دول المنطقة لا سيّما لبنان ومصر، بمجابهة عمليات تمويل الإرهـاب، وبتجفيف مصادره المشروعة وغير المشروعة، وذلك بعد توسّع نطاق هذه الظاهرة عالمياً وعدم قدرة القوانين الوطنية والأنظمة الداخلية على كبحها كلياً، وبالتالي ازداد القلق والخوف بين دول العالم من فكرة توسّع هذا التهديد، ففي الولايات المتحدة الأمريكية صدر في العام 2001، بعد أسابيع عدة من أحداث الحادي عشر من أيلول قانون تقوية وتوحيد أمريكا (USA PATRIOT ACT)، وهو تشريع تمّ إقراره لتحسين قدرات أجهزة إنفاذ القانون الأمريكية لاكتشاف الإرهاب وردعه من خلال توفير الأدوات المناسبة المطلوبة لاعتراض وعرقلة الإرهاب وبشكل خاص تمويله.

كلمات مفتاحية:

الإرهاب، تمويل الإرهاب، القدرات المالية، التهديد الأمني، الجريمة المستقلة.

(*) دكتوراه في الحقوق، قسم القانون الدولي العام.



Résumé en français

Les efforts visant à lutter contre le financement du terrorisme, sont considérés comme l'une des politiques fondamentales des gouvernements pour confronter les diverses formes de crimes terroristes. Le financement est l'étape essentielle de l'activité terroriste. C'est pourquoi les pays n'ont épargné aucun effort afin de confronter le terrorisme en criminalisant ses opérations de financement. A cet effet, ils ont décidé de conclure des accords internationaux ainsi que régionaux et de promulguer des législations nationales efficaces.

L'intérêt de nombreux pays de la région en général, notamment du Liban et l'Égypte, s'est augmenté pour lutter contre les opérations de financement du terrorisme, tout en réduisant ses sources légitimes et illégitimes, après que l'ampleur de ce phénomène s'est étendue au monde, vu l'incapacité des lois nationales et des réglementations internes à freiner le financement du terrorisme complètement. Ceci a entraîné une augmentation mondiale de l'anxiété et de la peur à l'idée d'étendre cette menace. Aux États-Unis, une loi, (Strengthening and Unifying America Act - USA PATRIOT ACT), a été publiée en 2001, quelques semaines après les événements du 11 septembre, pour améliorer les capacités des organismes américaines d'application de la loi afin de détecter le terrorisme et le dissuader en fournissant les outils appropriés nécessaires pour intercepter et entraver le terrorisme, notamment son financement.

Mots clés: Terrorisme, Financement du Terrorisme, Capacites Financieres, Menace De Securite, Contrebande, Crime Independent.

المقدمة

تُمثل الأنشطة الجرمية الإرهابية بأشكالها كافة، تهديداً فعلياً للعديد من دول العالم، حيث تؤدي ممارستها إلى شلّ القدرات المادية والاقتصادية، وتعطيل الحياة العامّة فيها والإضرار بالبنى التحتية. ولا يتوقف الأمر على تنفيذ العمل الإرهابي، فبمجرد التهديد باقتراف الأفعال الإرهابية يسبب شللاً في الحياة العامة، وهذا الأمر يرتب استنزافاً داخلياً لقدرات تلك السلطات والدول[1].

(1) راجع: عبد القادر النقوزي: **المفهوم القانوني لجرائم الإرهاب الداخلي والدولي**، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، 2008، ص 5.

لقد وجّهت الدول التي أصابها الضرر من العمليات والجرائم الإرهابية جهودها لمكافحة الإرهاب على الأصعدة كافة، لا سيّما على صعيد التمويل، ويعتبر المستوى التشريعي على الصعيد الداخلي من أبرز تلك الجهود، بخاصة عندما يعرّف نشاطات التمويل ويوصّفها بدقة.

تلعب التشريعات الداخلية الخاصة بمكافحة الجرائم الإرهابية وتمويلها دوراً فعالاً في منع هذه الجرائم. إلاّ أن القاعدة الأساسية التي يجب أن تُبنى عليها هذه التشريعات هي قاعدة المشروعية، وهذا ما دفع الأمم المتحدة إلى تركيز جهودها على نقاط عدة في إطار مكافحة الإرهاب وتمويله، فلا يكفي القول بوجوبية استصدار تشريعات حاسمة في هذا المجال تمنع تمويل العمل الإرهابي وحدوثه، وتعاقب عليهما[1]، بل يجب ألاّ تخرج عن إطار المشروعية، وتعتمد على ردة فعل متناسبة.

في الواقع، إنّ الأفعال الجرمية التي تدخل في مفهوم الفعل الإرهابي من قتل وتفجير وتدمير واستهداف للبنى التحتية، تشكل جرائم من النوع الجنائي في الدول كافة، فلا يعقل ألاّ يُجرّم فعل القتل والأذى المتعمد من قبل المشرّع في دولة ما، لذلك فقد عدّلت الدول قوانينها المحلية تماشياً مع تطوّر الخطر الإرهابي وتفشّي هذه الظاهرة، لا سيّما في العصر الراهن، بعد أن أصبحت الجرائم الإرهابية تُرتكب بدقة، وتعتمد على التنظيم والاستفادة من التكنولوجيا العسكرية والرقمية.

يعتبر تمويل الإرهاب من أخطر التهديدات الأمنية التي تواجه المجتمع الدولي، نظراً إلى تصاعد وتيرة العمليات الإرهابية وشدّتها في العديد من بقاع العالم، لا سيّما في الآونة الأخيرة، حيث أصبحت التنظيمات الإرهابية تستمد قوّتها، بالدرجة الأولى، من مصادر تمويلها، فمتى تنوّعت وتعدّدت مصادر التمويل، اشتدت خطورة المنظمات الإرهابية والجرائم التي ترتكبها. لذلك أولت مختلف الحكومات والمنظمات الدولية اهتماماً بظاهرة تمويل الإرهـاب، وقامت بتجريم الوسائل المعتمدة في تمويل العمليات الإرهابية، وإدماجها ضمن إستراتيجيات مكافحة

---

(1) القرار الرقم **(2001/1373)**، الذي اتخذه مجلس الأمن في جلسته الرقم **(4385)** المعقودة بتاريخ 28 أيلول/ سبتمبر 2001. رمز الوثيقة: **2001// 1373 S/Res**، في فقرته **(هـ-2)**.

الإرهاب. وجاءت بمجموعة من الإلتزامات ذات الطابع التشريعي، التي تهدف إلى تجريم جميع أشكال الدعم والتمويل المُقدّم إلى الإرهابيين ومتابعتها.

ومن أجل النجاح في مكافحة الإرهـاب، لا بد من القضاء على العوامل التي تساعد على نموّه وتكاثره، ويأتي في مقدمة تلك العوامل تمويله، فقوة الإرهاب ترتبط مباشرةً بالقدرة المالية للإرهابيين، فتخطيط وتنفيذ العمليات الإرهابية بما تتضمنه من تعقيدات، وبناء شبكات الإرهابيين، يتطلب بالضرورة الاعتماد على موارد مالية كبيرة، وقد أشارت ديباجة اتفاقية قمع تمويل الإرهاب لعام 1999[1]، إلى العلاقة الطردية بين اتقان الجماعات الإرهابية لأفعالها وقدرتها على التدمير، وبين قوتها الاقتصادية. لذا فقد ازداد الاهتمام على مستوى العالم عامّة، والغرب خاصّة، بموضوع تمويل الإرهاب، لا سيّما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001؛ فقد ظهر إجماع دولي على سدّ منافذ التمويل ومصادره، الذي تجسّد من خلال المواجهة المالية والقانونية للجريمة المنظّمة، لا سيّما غسل الأموال، بكونه أحد المصادر الرئيسة للتمويل، إضافة إلى المصادر الأخرى التي يعتمدها الإرهابيون في تمويل عملياتهم الإرهابية.

لقد شكّلت أحداث الحادي عشر من أيلول 2001، نقطة تحوّل مهمّة في مسيرة العالم بمواجهة الظاهرة الإرهابية، حيث برزت جريمة تمويل الإرهاب مع ظهور تنظيمات إرهابية عديدة. وبالنظر إلى أهمية مكافحة هذا النوع من الجرائم[2]، الذي

(1) راجع: موقع **الأمم المتحدة** الإلكتروني، تاريخ الدخول 11/ 1/ 2023، على الرابط:
https://www.un.org/counterterrorism/ar/international-legal-instruments.

(2) بعد نهاية الحرب العالمية الثانية نجحت الدول الغربية في المحافظة على السلام في وسط الغرب، وإبقاء على الصراعات في الميادين الخارجية، الا انها وجدت نفسها تواجه ظاهرة خطيرة الا وهي الإرهاب، لا سيما ان القرارات المتخذة من جراء اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر، كالقرار الوطني للولايات المتحدة الذي كان نتيجته تقليل نطاق الحريات العامة، وغيره من القرارات لم تأتِ ثمارها، كما أراد الغرب بأن يفرض على الإرهاب الجديد مسارح عملياته في المناطق الخارجية بعيداً عن المراكز، إلا أنه ثبت عدم جدوى هذه الإستراتيجية، وهذا ما شهد عليه اعتداءات 11 آذار2004، المرتكبة في مدريد.
voir: Marc Chesney, Le terrorisme se privatise et défie l’Occident- Blanchiment et financement du terrorisme, Ellipses Édition Marketings, Paris, p.15.

يوّفر منابع تغذّي الجرائم الإرهابية، فإنّ المؤسسات المالية والمنظمات الدولية تتكاتف في مكافحة جريمة تمويل الإرهاب، وذلك من أجل تجفيف منابع التمويل، ومن ثم الحّد من الجرائم الإرهابية، التي تستند إلى الأموال المرصودة لها، وذلك في حالة النجاح في وضع آليات تحدّ من وصولها إلى الإرهابيّين ووقوعها في أيديهم. وبدأ العديد من الجهات المصرفية بالتحفّظ على الأصول والودائع الخاصة ببعض المنظمات والهيئات المتصلة بالجماعات الإرهابية وتتبعها، أو تلك المشتبه بتمويلها منظمات إرهابية. كما أنّ غالبية التشريعات في العالم لم تجرّم جريمة تمويل الإرهاب إلاّ في نهاية تسعينيات القرن الماضي، حيث أصبحت جريمة قائمة بذاتها، وقد بُذلت جهود دولية لمكافحة تمويل الإرهاب، أهمها الجهود التي قامت بها مجموعة العمل المالي وتوصياتها «FATF»، إضافة إلى أنّ الأمم المتحدة شهدت جهوداً كبيرةً في مجال مكافحة تمويل الإرهاب من أهمها إعداد «الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب لعام 1999، التي تم اعتمادها من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة في الدورة الرابعة والخمسين في جلستها الرقم (**761**) في 9 كانون الاول 1999 وتم التوقيع عليها من قبل ممثلي الدول الأعضاء في الأمم المتحدة في 10/ 4/ 2000»، وقد تضمنت هذه الاتفاقية (**28**) مادة، كما تضمنت مبادئ وأحكاماً عامة تتعلق بإجراءات مكافحة تمويل الإرهاب.

وعلى المستوى الإقليمي، فقد بُذلت جهود كبيرة لمكافحة تمويل الإرهاب سواء في منطقة الخليج العربي أو في منطقتي الشرق الأوسط وشمال ومناطق إقليمية أخرى من العالم.

وعليه، فالتمويل هو أساس نجاح العمليات الإرهابية، والعنصر الفاعل في تحقيق أهدافها. وبالتالي فإنّ منع تمويل الإرهاب وقمعه يتطلب تعاونًا دولياً شاملاً لمحاصرة وتجفيف مصادر تمويل الإرهاب، وتجريم المساعدة على تمويل الإرهاب وتجريم عمليات غسل الأموال، وكذلك ضرورة التعاون وتبادل المعلومات حول الأنشطة المشبوهة، وإجراء رقابة فاعلة على الحسابات المصرفية وحركات الأموال بين الدول، خصوصا عبر شبكة الإنترنت.

وبناءً على ما سبق نطرح من خلال هذا البحث الإشكالية القانونية التالية:

كيف أحاطت الاتفاقيات والتشريعات الدولية ذات الصلة بمفهوم تمويل الإرهاب ومصادره المتنوعة؟

أولاً: مفهوم تمويل الإرهاب في الاتفاقيات الدولية والتشريعات

سوف نعرض الموقف الدولي من مفهوم تمويل الإرهاب، من خلال الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب وغيرها من الاتفاقيات الدولية ذات الصلة، إضافة إلى قرارات مجلس الأمن المتعلّقة بتمويل الإرهاب، ومن خلال المنظمات الدولية المعنية، وذلك في فرع أول، أما في الفرع الثاني فسنتناول تمويل الإرهاب في كلٍّ من الولايات المتحدة الاميركية، فرنسا، لبنان ومصر.

أ. مفهوم تمويل الإرهاب في الاتفاقيات ووفقاً لقرارات مجلس الأمن وتوصيات مجموعة العمل المالي

سنتناول في هذا الفرع الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب لعام 1999، الاتفاقية العربية لمكافحة غسل الأموال وتمويل الإرهاب لعام 2010، قرارات مجلس الأمن ذات الصلة، بالإضافة إلى توصيات مجموعة العمل المالي.

1. الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب لعام 1999

سعت الأمم المتحدة إلى مضاعفة الجهود لمواجهة الإرهاب، وسدّ منافذ التمويل التي تساعد على القيام بأعمال إرهابية. وقد لاحظت الجمعية العامة للأمم المتحدة أنّ الصكوك القانونية القائمة لا تعالج تمويل الإرهاب صراحة، لذا ارتأت أن تقوم لجنة متخصّصة بإعداد مشروع اتفاقية تمويل الإرهاب[1]، لتعزيز التعاون في مكافحته ومعاقبة مرتكبيه، وبناءً عليه، صدرت اتفاقية قمع تمويل الإرهاب. ووفقاً لأحكام تلك الاتفاقية قد تُرتكب الجريمة من قبل شخص طبيعي أو اعتباري وهذا ما يفهم من

(1) اعتمدت وعرضت للتوقيع والتصديق والانضمام بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة (**109/54**)، المؤرخ في 9 كانون الأول 1999، راجع: الموقع الإلكتروني التالي (تاريخ الدخول 6/ 5/ 2023 على الرابط): https://legal.un.org/avl//pdf/ha/icsft/icsft_a.pdf.

عبارة «أي شخص»؛ فجريمة تمويل الإرهاب قد ترتكب من قبل الجمعيات الخيرية والاجتماعية والدينية، ويتحمل أولئك الأشخاص المسؤولية نتيجة لارتكابهم الجريمة. وما يؤخذ على هذه الاتفاقية أنّها لم تشِرْ إلى حالة ما إذا قامت الدولة ذاتها بتمويل الإرهاب. إلّا أن الجدير بالذكر، أنّ أهم ما يميّز تلك الاتفاقية أنهّا عدّت تمويل الإرهاب جريمة مستقلة، نظراً لأهمية تلك الجريمة في استمرار الإرهاب وتطوّر أدائه، فضلاً عن أنها عدّت الجريمة قائمة وإن لم ترتكب الأفعال المنصوص عليها في المادة الثانية التي من أجل تنفيذها ارتكبت جريمة.

وعليه فإنّ جريمة التمويل يمكن أن تُرتكب من قبل أي شخص سواء أكان طبيعياً أو اعتبارياً وهذا ما يُفهم من عبارة « أي شخص»، وهو ما يميّز جريمة التمويل عن غيرها من جرائم الإرهاب التي لا يتصور ارتكابها إلاّ من قبل الشخص الطبيعي، في حين أنّ جريمة التمويل غالباً ما تقع من خلال البنوك والمؤسسات المالية والجمعيات الخيرية والإجتماعية والدينية.

2. الاتفاقية العربية لمكافحة غسل الأموال وتمويل الإرهاب لعام 2010

تضمنت الاتفاقية العربية لمكافحة غسل الأموال وتمويل الإرهاب[1]، التي حُرّرت في القاهرة بتاريخ 21/ 12/ 2010، تعريف تمويل الإرهاب في المادة الأولى منها بأنه «عملية جمع أو نقل أو تقديم الأموال بوسيلة، مباشرة أو غير مباشرة لاستخدامها في تمويل الإرهاب مع العلم بذلك». وعليه إنّ مجرد تمويل الإرهاب يشكل جريمة مستقلة بذاتها، ولو لم تقع جريمة الإرهاب التي تم تمويلها، وعلى العكس من ذلك،

---

(1) **ديباجة الاتفاقية:**

إن الدول العربية الموقّعة، إذ تدرك خطورة ما ينتج عن أفعال غسل الأموال وتمويل الإرهاب من مشاكل ومخاطر تقوّض خطط التنمية الاقتصادية، وتعرقل جهود الاستثمار ممّا يهدد الاستقرار السياسي والاقتصادي والأمني، ويخلّ بسيادة القانون. واقتناعاً منها أن هذه الأفعال تعدّ جرائم عبر وطنية تمسّ كل البلدان واقتصادياتها، ممّا يجعل التعاون على الوقاية منها ومكافحتها أمراً ضرورياً. ورغبة في تعزيز هذا التعاون في ما بينها للوقاية منها ومكافحتها، والتزاماً بميثاق الأمم المتحدة، وميثاق جامعة الدول العربية، وجميع المعاهدات والمواثيق العربية والدولية الأخرى ذات الصلة ومنها ما يتعلق بحقوق الإنسان وكذلك حق الشعوب في مقاومة الاحتلال وتقرير المصير. للمزيد راجع: الموقع الإلكتروني التالي (تاريخ الدخول 7/ 5/ 2023على الرابط):
https://www.amlu.gov.jo/ebv4.0/root_storage/ar/eb_list_page.

فجرائم المساعدة لا تقع إلا عندما يتم ارتكاب الفعل الأصلي للجريمة، أو على الأقل يتم الشروع في ارتكابه، وهو شرط لا يتضمّنه تعريف جريمة تمويل الإرهاب الوارد في الاتفاقية العربية لمكافحة غسل الأموال وتمويل الإرهاب، ففي الاتفاقية أن الصلة بالجريمة الإرهابية عند التمويل لا يتمثّل في وقوعها أو الشروع في ارتكابها، وإنما تنصرف إلى نية الفاعل استخدام الأموال لارتكاب عمل إرهابي أو مجرد العلم بأن الأموال سوف تستخدم لهذا الغرض.

ويتضح لنا أن تعريف تمويل الإرهاب الوارد في الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب سنة 1999، أشمل من تعريفه في الاتفاقية العربية لمكافحة غسل الأموال وتمويل الإرهاب سنة 2010، لاحتوائها على عدة بنود تُعدّ من قبيل تمويل الإرهاب، كما لم تشترط الاتفاقية الدولية لعام 1999، ضرورة استعمال الأموال فعلياً لتنفيذ جريمة من الجرائم المشار إليها، واعتبرت من قبيل الجريمة أيضاً محاولة ارتكاب هذه الجرائم (الشروع) والمساهمة في ارتكابها بعكس الاتفاقية العربية التي قصّرت فعل التمويل على الاستخدام من دون الشروع.

3. قرارات مجلس الأمن

صدر عن مجلس الأمن قرارات عدّة بشأن الإرهاب منذ تأسيس الأمم المتحدة، وكان من أهمها القرار الرقم (**1373**)، الذي صدر بعد سبعة عشر يوماً من أحداث 11 أيلول 2001[1]، وبعد الاطّلاع على مضمونه، نجد أن ديباجته أدانت الهجمات الإرهابية في نيويورك وواشنطن العاصمة وبنسلفانيا في 11 ايلول 2001، وركّزت على أهمية التصدّي لهذه الهجمات الإرهابية، والتعاون المتزايد بين الدول لمواجهتها، وأكد القرار على ضرورة إكمال هذا التعاون الدولي بتدابير إضافية تتخذها الدول لمنع تمويل أية أعمال إرهابية ووقفها أو الإعداد لها في أراضيها، بجميع الوسائل القانونية؛ فقد فرض المجلس استناداً إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة أموراً عدة ينبغي على الدول الالتزام بها. ومن استعراض بنود القرار

(1) راجع: الموقع الإلكتروني التالي (تاريخ الدخول 7/ 5/ 2023على الرابط): https://undocs.org/S/RES/1373(2001).

يتضح أنه ركّز على خمسة محاور، تشكل أساس وجود الإرهاب وسبب استمراره وهي:

- على جميع الدول منع تمويل الأعمال الإرهابية ووقفه؛ والملاحظ أن هذه الفقرة وردت مطلقة فلم تحدّد الجهة المموّلة، فقد تكون شخصاً طبيعياً أو معنوياً وقد تكون الدولة ذاتها.
- وجوب التعاون ما بين الدول لقمع الإرهاب، فينبغي تبادل المعلومات مع الدول الأخرى، لا سيّما في ما يتعلق بتحرّكات الإرهابيّين والشبكات الإرهابية، ووثائق السفر المزورة، والإتجار بالأسلحة والمتفجرات، واستخدام تكنولوجيا الاتصالات، وامتلاك الإرهابيين لأسلحة الدمار الشامل، والدخول في اتفاقيات ثنائية أو متعددة الأطراف لمنع الأعمال الإرهابية وقمعها؛ وأكّد القرار على ضرورة الانضمام إلى الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب، وعلى عدم التذرّع ببواعث سياسية للحصول على اللجوء السياسي من قبل الإرهابيين.
- التركيز على الصلة بين الإرهاب والجريمة المنظمة؛ وقد أكد البند **(د)** على العلاقة الوثيقة بين الإرهاب الدولي والجريمة المنظّمة العابرة للدول، والاتجار غير المشروع بالمخدرات، وغسل الأموال والإتجار غير القانوني بالأسلحة، والنقل غير القانوني للمواد النووية والكيميائية والبيولوجية.
- إنّ تمويل الإرهاب هو أمر يتنافى مع مقاصد الأمم المتحدة[1]، والملاحظ أنه أورد تمويل الإرهاب في معرض تناوله التحريض والتدبير لارتكاب الأعمال الإرهابية ولم يُشر إلى أنّ التمويل جريمة مستقلة.
- قرّر مجلس الأمن أن ينشئ وفقاً للمادة **(28)**، من نظامه الداخلي المؤقّت، لجنة تتبع مجلس الأمن، وتتألف من جميع أعضائه، لتراقب تنفيذ هذا القرار بمساعدة الخبرات المناسبة؛ ويطلب من جميع الدول أن توافي اللجنة خلال

---

(1) في مقدمة أهداف الأمم المتحدة حفظ السلم والأمن الدوليين، الفقرة الاولى من الميثاق. للتفصيل أكثر عن أهداف الأمم المتحدة أنظر: مصطفى سلامة حسين: **المنظمات الدولية**، الدار الجامعية، بيروت، لبنان، 1989، ص 40 وما بعدها.

مدة أقصاها تسعين يوماً، بما قامت به من خطوات لتنفيذ القرار؛ وفي آذار 2004، طرأ تعديل على الهيكل التنظيمي للّجنة، حيث أصدر مجلس الأمن، بناءً على اقتراحها، القرار الرقم **(1553)**، الذي بموجبه أضيف جهاز جديد للّجنة، هو الإدارة التنفيذية التي ترتبط بالهيئة العامّة، ويكون لها مدير يُعيَّن بناء على اقتراح الأمين العام، وموافقة مجلس الأمن، ويرتبط بالأمين العام إدارياً ويتبع الهيئة العامة للّجنة فنياً.

4. توصيات مجموعة العمل المالي

مجموعة العمل المالي (FATF)، هي هيئة مستقلّة متعدّدة الحكومات، أنشئت في العام 1989، من قبل وزراء الدول الأعضاء فيها. تتمثل مهامها مجموعة العمل المالي في وضع المعايير وتعزيز التنفيذ الفعّال للتدابير القانونية والتنظيمية والتشغيلية لمكافحة غسل الأموال وتمويل الإرهاب وتمويل انتشار التسلّح، والتهديدات الأخرى ذات الصلة بنزاهة النظام المالي الدولي. وتعمل أيضاً بالتعاون مع جهات دولية معنية أخرى، على تحديد مواطن الضعف على المستوى الوطني بهدف حماية النظام المالي الدولي من الاستغلال.

تضع توصيات مجموعة العمل المالي[1]، إطار عمل شامل ومتّسق من التدابير التي ينبغي على الدول تطبيقها من أجل مكافحة غسل الأموال وتمويل الإرهاب، بالإضافة إلى تمويل انتشار أسلحة الدمار الشامل. وحيث أن الأطر القانونية والإدارية والتشغيلية والنظم المالية تختلف باختلاف الدول، فإنه يتعذّر عليها جميعاً اتخاذ تدابير متطابقة لمواجهة تلك التهديدات. ولذلك، فإن توصيات مجموعة العمل المالي تضع معياراً دولياً، ينبغي على الدول تنفيذه من خلال اتخاذ تدابير تتكيّف مع ظروفها الخاصّة. وتضع توصيات مجموعة العمل المالي التدابير الأساسية التي ينبغي على الدول إيجادها من أجل:

(1) للمزيد راجع: الموقع الإلكتروني التالي (تاريخ الدخول 11/ 5/ 2023 على الرابط):
https://www.fatf-gafi.org/content/dam/fatfgafi/translations/Recommendations/MENA-FATF-Arabic-FATF-Recommendations-March2022.pdf.coredownload.inline.pdf.

- تحديد المخاطر، ووضع السياسات والتنسيق المحلي.
- ملاحقة غسل الأموال وتمويل الإرهاب وتمويل انتشار التسلّح.
- تطبيق تدابير وقائية على القطاع المالي وغيرها من القطاعات المحدّدة.
- إعطاء الصلاحيّات والمسؤوليّات الضرورية للسلطات المختصّة (على سبيل المثال: سلطات التحقيق وسلطات إنفاذ القانون والسلطات الرقابية)، والتدابير المؤسساتية الأخرى.
- تعزيز الشفافية وتوافر المعلومات المتعلّقة بالمستفيدين الحقيقيّين من الأشخاص الاعتبارية والترتيبات القانونية.
- تسهيل التعاون الدولي.

وضعت التوصيات الأربعون الأصلية لمجموعة العمل المالي في العام 1990، كمبادرة لمكافحة سوء استخدام النظم المالية من قبل الأشخاص الذين يقومون بغسل أموال المخدرات. وقد تمّت مراجعة التوصيات لأول مرة في العام 1996، لتعكس تطوّر اتجاهات غسل الأموال وأساليبه، وتوسيع نطاقها إلى ما وراء غسل أموال المخدرات. وفي تشرين الأول 2001، وسّعت مجموعة العمل المالي مهامها للتعامل مع موضوع تمويل الأعمال الإرهابية والمنظمات الإرهابية، حيث عقدت اجتماعاً استثنائياً في واشنطن بين 29 و30 تشرين الأوّل 2001، حضره **(300)** خبير مالي اقتصادي، قانوني مخابراتي، واتّخذت خطوة مهمة تمثلت في وضع التوصيات الخاصة الثمانية المتعلقة بتمويل الإرهاب. ثمّ أعيدت مراجعة توصيات مجموعة العمل المالي للمرة الثانية في العام 2003، وأيّد ما يزيد على **(180)** دولة هذه التوصيات الجديدة جنباً إلى جنب مع التوصيات الخاصة، والمعترف بها عالمياً باعتبارها المعايير الدولية لمكافحة غسل الأموال وتمويل الإرهاب، وفي تشرين الأوّل 2004، أُضيفت التوصية الخاصّة التاسعة [1].

---

(1) للمزيد راجع: الموقع الإلكتروني التالي (تاريخ الدخول 13/ 5/ 2023 على الرابط):
https://www.fatf-gafi.org/en/publications/Fatfrecommendations/Ixspecialrecomm enda-tions. html

أمّا التوصيات التسع الخاصّة التي أُدمجت ضمن التوصيات الأربعين، فهي:

- **التوصية الأولى**: إقرار أدوات الأمم المتحدة ratification and implementa-tion of un instruments، تفرض التوصية الأولى على الدول الانضمام إلى الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب لعام 1999، وتنفيذ ما جاء بقرار مجلس الأمن (**2001/1373**).
- **التوصية الثانية**: تجريم تمويل الإرهاب وتبييض الأموال Criminalising the financing of terrorism and associated money laundering، فرضت هذه التوصية على كل دولة أن تجرّم تمويل الإرهاب، وأن تبادر إلى وضع هذا الجرم ضمن إطار تبييض الأموال. وهنا، فإن التوصيات قد اتّجهت إلى إدراج تمويل الإرهاب ضمن تبييض الأموال، وهذا المسلك وإن كان في جانب منه إيجابي للسيطرة على منفذ رئيسي لتمويل الإرهاب، ألا وهو الأموال المغسولة، إلا أنه توجد منافذ أخرى للتمويل ينبغي مواجهتها بطبيعة الحال.
- **التوصية الثالثة**: تجميد أموال الإرهابيين وحجزها Freezing and confiscating terrorist assets، وتؤكد هذه التوصية على ما ورد في قرارات مجلس الأمن من تجميد أصول الإرهابيين وممتلكاتهم، وأموال الذين يُموّلون العمليات الإرهابية. وعلى الدول سنّ التشريعات اللازمة التي تسمح للسلطات المحلية باتخاذ قرارات لحجز الأصول التي تُستخدم في تمويل الإرهاب.
- **التوصية الرابعة**: التصريح عن التحويلات المشبوهة المرتبطة بالإرهاب Re-porting suspicious transactions related to terrorism، في هذه التوصية يُفرض على المؤسسات المالية، أو أي مؤسسة أخرى تخضع للشروط المتعلّقة بتبييض الأموال، عند الاشتباه بتحركات لأصول مرتبطة أو متعلقة أو مستخدمة في تمويل الإرهاب، إبلاغ السلطات المختصّة عنها، وهذه التوصية أكّدت ما أوردته الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب، وقرار مجلس الأمن الرقم (**2001/1373**)، من واجبات على المؤسسات المالية بعدم جواز الاحتجاج بالسرّية المصرفية كسبب لحجب المعلومات وعدم افشائها للسلطات

المتخصصة في الحالات التي تستدعي ذلك.

- **التوصية الخامسة:** التعاون الدولي international cooperation، تفرض هذه التوصية على الدول التعاون في ما بينها بشأن تبادل المعلومات في مجال التحقيقات والتنسيق القضائي وتسليم المجرمين.
- **التوصية السادسة:** تبادل استعادة الأموال Alternative remittance.
- **التوصية السابعة:** التمويل الإلكتروني Wire transfers، تفرض على المؤسّسات المالية اتّخاذ التدابير اللازمة بفرض رقابة دقيقة على مسألة تحويل الأموال، وإدراج معلومات عن أصحاب أوامر التحويلات (اسم، عنوان، رقم حساب)، واتخاذ ما يلزم بشأن التحويلات المالية التي قد تثار بشأنها الشبهات[1].
- **التوصية الثامنة:** المنظمات التي لا تبغي الربح non profit organizations، تؤكّد على الدول مراجعة قوانينها بشأن المنظمات الإنسانية، بالشكل الذي لا يسمح للإرهابيّين سوء استخدامها واتخاذها واجهة لتمرير أعمالهم غير المشروعة.
- **التوصية التاسعة:** ناقلو الأموال cash couriers، هذه التوصية تحثّ الدول على اتّخاذ الإجراءات اللازمة بغية التمكّن من اكتشاف عمليات نقل الأموال عبر الحدود والصكوك القابلة للتداول إضافة إلى وضع آليات تصريح وإفصاح فعّالة.

ب. تمويل الإرهاب في القوانين الوضعية

لا يوجد اتفاق دولي على تعريف مصطلح تمويل الإرهاب Terrorism Financing، وإن كانت قد تصدّت لتعريفه بعض الاتفاقيات الدولية والتقارير، وبعض التشريعات المقارنة، سواء الأجنبية منها أو العربية، لذا سنحاول الوقوف على ماهيّة هذا التعريف، من خلال التشريع الأجنبي في الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا ومن خلال النصوص في التشريعين اللبناني والمصري.

---

(1) المصدر نفسه.



1. قانون تقوية وتوحيد أمريكا (USA PATRIOT ACT)

قانون باتريوت[1] USA-PATRIOT، هو تشريع تم إقراره في العام 2001، لتحسين قدرات أجهزة إنفاذ القانون الأمريكية لاكتشاف الإرهاب وردعه. والترجمة الرسمية للقانون هي «توحيد وتقوية أمريكا من خلال توفير الأدوات المناسبة المطلوبة لاعتراض وعرقلة الإرهاب»، وقد خضع قانون باتريوت في العام 2015، للتعديل بهدف المساعدة في ضمان الحقوق الدستورية للأمريكيّين. وقانون باتريوت هو وثيقة من أكثر من **(300)** صفحة، أقرّها الكونغرس الأمريكي بدعم من الحزبَيْن، ووقّعه الرئيس جورج دبليو بوش، ليصبح قانونًا في 26 تشرين الأول 2001، بعد أسابيع فقط من هجمات 11 أيلول الإرهابية ضد الولايات المتحدة.

---

(1) للمزيد راجع:

الموقع الإلكتروني التالي (تاريخ الدخول 8/ 5/ 2023على الرابط) :

https://www.justice.gov/archive/ll/what_is_the_patriot_act.pdf.

الموقع الإلكتروني التالي (تاريخ الدخول 8/ 5/ 2023على الرابط) :

https://www.fincen.gov/resources/statutes-regulations/usa-patriot-act

The official title of the USA PATRIOT Act is “Uniting and Strengthening America by Providing Appropriate Tools Required to Intercept and Obstruct Terrorism (USA PATRIOT) Act of 2001.

The purpose of the USA PATRIOT Act is to deter and punish terrorist acts in the United States and around the world, to enhance law enforcement investigatory tools, and other purposes, some of which include.

To strengthen U.S. measures to prevent, detect and prosecute international money= laundering and financing of terrorism.

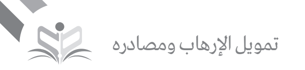
To subject to special scrutiny foreign jurisdictions, foreign financial institutions, and classes of international transactions or types of accounts that are susceptible to criminal abuse.

To require all appropriate elements of the financial services industry to report potential money laundering.

To strengthen measures to prevent use of the U.S. financial system for personal gain by corrupt foreign officials and facilitate repatriation of stolen assets to the citizens of countries to whom such assets belong Transactions of Primary Money Laundering Concern.

بعد الاطّلاع على بنود هذا القانون الصادر في 26/ 10/ 2001، نجده كغيره من التشريعات، خالياً من تعريف تمويل الإرهاب، إنما تناول محاور عدة بهدف مكافحته؛ فقد أضاف القانون مواد قانونية جرّم فيها بعض الأفعال، التي يرى واضعو القانون بأن لها دوراً كبيراً في تمويل الإرهاب، من بينها دعم المنظمات الإرهابية، فقد أضافت المادة (**376**) منه، بنداً جديداً عاقب بموجبه كل من دعم العمليات الإرهابية، كذلك فرض على المؤسّسات المالية حجز الأموال التي تفيد منظمة إرهابية متى علمت بذلك. والملاحظ أن تلك المادة قد ساوت في العقوبة بين الجريمة التامّة والمحاولة والمشاركة؛ وهذا هو اتجاه الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب.

أما بالنسبة لتهريب النقد، فقد جرّمت المادة (**371**) من القانون، تهريب النقد وعدّته جريمة مستقلّة، وأجازت مصادرة النقد أو أية أداة ماليّة مرتبطة بهذه الجريمة. وهذه الإجراءات ذات جدوى في هكذا جرائم؛ فعلى الرغم من أهمّية النقد، لكن من السهولة تأمين بدائل عنه؛ فالعلّة من تجريم تهريب النقد، وعدّه جريمة ليس لفعل التهريب بحدّ ذاته بقدر ما يهدف إلى مواجهة خطورة الجرائم التي سيدعمها المال الذي سيتمّ تهريبه. من ناحية أخرى، أوجبت المادة (**314**) منه، على وزارة الخزانة، أن تتّخذ خلال (**120**) يوماً من تاريخ صدور القانون، إجراءات تشجّع على المزيد من التعاون بين المؤسسات ذات العلاقة، لمعرفة المسائل العائدة تحديداً إلى تمويل المجموعات الإرهابية، والوسائل المعتمدة في تحويل أموالها حول العالم، أو داخل الولايات المتحدة الأمريكية بما فيها الجمعيات الخيرية والهيئات الحكومية. وكذلك يركّز التعاون في كشف العلاقة خصوصاً المالية بين مهرّبي المخدرات على المستوى العالمي والمنظمات الإرهابية الأجنبية. والملاحظ هنا، أن القانون تناول مصادر التمويل المشروعة من جمعيات خيرية لا تبغي الربح، ومؤسسات حكومية قد تسيء استخدام المال العام، أو تستغلّها المنظمات الإرهابية لتهريب الأموال بواسطتها فضلاً عن المصادر غير المشروعة كتهريب المخدرات. وأضافت المادّة (**326**) من القانون على المادة (**5318**)، التي ينبغي بموجبها على وزارة الخزانة إصدار تدابير تنظيمية، تضع الحدّ الأدنى من المعايير الواجب اتّباعها من قبل المؤسسات المالية.



2. في التشريع الفرنسي

عدّ قانون 15 تشرين الثاني 2001، ذو الإلهام الأوروبي، تمويل الأفعال المساعدة للإرهاب من ضمن جرائم الإرهاب وليس مجرد فعل من الأفعال المساعدة للإرهاب، فضلاً عن أنه توسّع في أشكال السلوك الإجرامي المكوّن الركن المادي للجريمة، فلم يقتصر على تقديم الأموال وجمعها، أو إدارة تلك الأموال والقيم، بل ذهب إلى اعتبار الجريمة متحقّقة بمجرد تقديم النصائح أو الاستشارات، وهذا مسلك المشرّع الفرنسي عليه، كون التحريض والاستشارات في مثل هكذا جرائم تكون أخطر من الجرائم ذاتها، فهي تخاطب مشاعر الناس وعواطفهم؛ فهي بذات الوقت التي تدفع إلى ارتكاب جرم تمويل الإرهاب، تخلق مشاعر العداء والكراهية بين الناس على أساس معتقداتهم وأديانهم. وأخيراً فإن العبارة الأخيرة من المادة **(421/2/2)**، عدّت الجريمة متحققة[1]، وإن لم يرتكب الفعل الإرهابي، وهنا يتّفق المشرّع الفرنسي مع توجه الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب في كون هذه الجريمة من جرائم الخطر، إلا أنه يُؤخذ عليه نوع من الإرباك في الصياغة، فبعد أن عدّ تمويل الإرهاب جنحة إرهابية، عاد وذكر بأن الجريمة تتحقّق وإن لم يرتكب الفعل الإرهابي، والأرجح أن يجعل لتمويل الإرهاب خصوصية مستقلة عن جريمة الإرهاب، فهي جريمة سابقة على جريمة الإرهاب ـ مجرد اشتراك بالمساعدةـ ولكن نظراً للمخاطر التي تفرز عن التمويل عدت جريمة مستقلة.

(1) للمزيد راجع: JEAN PRADEL, MICHEL DANTI-JUAUN MANUEL DE DROIT PÉNAL SPÉCIAL (Droit commun - Droit des affaires, 4e édition revue et augmentée au 1er juillet 2007, ÉDITONS CUJAS 4/8, rue de la Maison-Blanche PARIS, p.821-1.
à l'article 421-2-2 constitue également un acte de terrorisme le fait de financier entreprise terroriste en fournissant, en réunissant ou en gérant des fonds, des valeurs ou des biens quelconques ou en donnant des conseils à cette fin, dans l'intention de voir ces fonds, valeurs ou biens utilisés ou en sachant qu'ils sont destinés à être utilisés, en tout ou partie, en vue de commettre l'un quelconque des actes de terrorisme prévus au présent chapitre, indépendamment de la survenance éventuelle d'un tel acte/ VOIR: JURIS-CLASSEUR PÉNAL CODE-4, Lexis Nexis, SA-2007, p.780 Art 421-2.

3. في التشريع اللبناني

صدر في لبنان القانون الرقم (**553**)، بتاريخ 20/ 10/ 2003، قضى بإضافة مادّة جديدة على قانون العقوبات اللبناني الصادر بتاريخ 1/ 3/ 1943، تتعلّق بتجريم تمويل الإرهاب، وهي المادة (**316**) مكرّر. وبتاريخ 27/ 10/ 2016، تم تعديل المادة نفسها بموجب القانون الرقم (**2016/77**)، الذي أظهر بشكل واضح ومفصّل الأموال التي تدخل تحت مظلّة تمويل الإرهاب، وفقاً لمفهوم الإرهاب الوارد في قانون العقوبات اللبناني.

وفي إطار مكافحة تمويل الإرهاب على المستوى التشريعي، فقد عُدّل قانون مكافحة تبييض الأموال الرقم (**2001/318**)، بموجب القانون الرقم (**2015/44**)، تاريخ 24/ 11/ 2015، ليصبح قانون مكافحة تبييض الأموال وتمويل الإرهاب الذي أورد في البند الرابع منه جريمة تمويل الإرهاب كجريمة أصلية.

والملاحظ أنّ المشرع اللبناني لم يورد تعريفاً لتمويل الإرهـاب، إلاّ أنّه عدّها جريمة مستقلّة، وبالنظر إلى العقوبة المقررة لها فإنها تعدّ من فئة الجنايات، فضلاً عن أنّه ساوى في العقوبة بين الفاعل الأصلي والمساهم. ومما يُذكر بالنسبة للمشرع اللبناني أنّه قد حدّد الأفعال الإرهابية، ما يُسهل مهمة القضاء في تطبيق نصوص المواد المتعلّقة بتمويله كون الأفعال الإرهابية محددة سلفاً[1].

---

(1) تعدّل المادة (**316**) مكرر، من قانون العقوبات اللبناني، المتعلّقة بتمويل الإرهاب بحيث تصبح، وبالاستناد إلى الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب الموقعة في القاهرة، بتاريخ 22/ 4/ 1998، على الشكل التالي: «كل من يقوم أو يحاول القيام أو يوجّه أو يشترك عن قصد وبأية وسيلة، مباشرة أو غير مباشرة، بتمويل كلياً أو جزئياً أو المساهمة بتمويل الإرهاب أو الأعمال الإرهابية، أو تمويل شخص إرهابي أو المنظمات الإرهابية، أو الأعمال المرتبطة بها، بما فيها تقديم أو توفير أو جمع الأموال المنقولة أو غير المنقولة، من مصادر مشروعة أو غير مشروعة، في لبنان أو في الخارج، سواء استعملت الأموال أم لم تستعمل، وسواء تم العمل الإرهابي أو لم يتم في لبنان أو في الخارج. تشمل جريمة تمويل الإرهاب السفر، محاولة السفر، التجنيد، التخطيط، الإعداد، التنظيم، التسهيل، المشاركة، تقديم أو تلقي التدريب، وأي عمل آخر مرتبط بها بنية القيام بأعمال إرهابية ودون ان تكون تلك الأعمال مرتبطة بعمل إرهابي محدّد. يعاقب مرتكبو الأفعال المحددة أعلاه بالأشغال الشاقة المؤقتة لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات ولا تزيد عن سبع سنوات وبغرامة لا تقل عن مثل المبلغ المدفوع ولا تزيد عن ثلاثة أمثاله ولا يحول ذلك دون تطبيق العقوبات المنصوص عليها في المواد 212 لغاية 222 ضمناً من قانون العقوبات».

4. في التشريع المصري

ورد مصطلح جرائم تمويل الإرهاب في القانون الرقم (8)، لعام 2015، بشأن الكيانات الإرهابية والإرهابيين، على أنه «كل جمع أو تلقّي أو حيازة أو إمداد أو نقل أو توفير أموال أو أسلحة أو ذخائر أو مفرقعات أو مهمات أو آلات أو بيانات أو معلومات أو مواد أو غيرها بشكل مباشر أو غير مباشر وبأية وسيلة كانت بما فيها الشكل الرقمي أو الإلكتروني وذلك بقصد استخدامها كلها أو بعضها في ارتكاب أية جريمة إرهابية أو العلم بأنها ستستخدم في ذلك أو بتوفير ملاذ آمن لإرهابي أو أكثر أو لمن يقوم بتمويله بأي من الطرق المتقدم ذكرها». وعليه فإن تمويل الإرهاب وفقاً لمفهوم المشرّع المصري لا يقف عند مجرّد الدعم المالي أو المادّي، سواء تمثّل ذلك في مبالغ مالية، أو تحويلات، أو أماكن للإيواء... إلخ؛ بل إن تمويل الإرهاب يتحقّق بالعديد من الوسائل الأخرى منها الدعم المعنوي من خلال الترويج والتحبيذ للأعمال الإرهابية، كذلك من خلال التشجيع على هذه الأعمال بأي طريق، أو جمع الأموال للمنظمات، مع العلم بأغراضها، وهناك العديد من النصوص التي تجرّم تمويل الإرهاب سواء اتخذت الشكل الفردي أو التنظيمي[1]. ويتضّح من ذلك، أن القانون المصري نصّ على وقف أنشطة الكيانات الإرهابية وحظر اجتماعاتها وأغلق الأماكن المخصّصة لها، كما حظر تمويل أو جمع الأموال للكيان، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، وتجميد أمواله وأموال أعضائه المستخدمة في النشاط الإرهابي، وعرّف القانون الكيانات الإرهابية، كما عرّف الإرهابي بشكل واضح.

ثانياً: مصادر تمويل الإرهاب

إنّ الهجمات الإرهابية الأخيرة، بما فيها تلك التي وقعت في عدد من الدول الأوروبية، وفي منطقتي الشرق الأوسط وأفريقيا وغيرها، تدلّ بوضوح على أنّ

(1) انظر: المادة الثالثة من القانون الرقم (8) لعام 2015، بشأن الكيانات الإرهابية والإرهابيين المنشور في الجريدة الرسمية في 25 شباط 2015؛ وأنظر أيضاً: إمام حسنين خليل، **جرائم تمويل الإرهاب في التشريع المصري**، بحث مقدم إلى المؤتمر الرابع عشر للجمعية المصرية للقانون الجنائي حول تحديات العولمة والعدالة الجنائية، في الفترة من 19 إلى 20 أيار، القاهرة، 2009، ص 1.

الجماعات الإرهابية تواصل جمع الأموال لإدارة أنشطتها بالوسائل القانونية وغير القانونية، وتشكّل الصلة القائمة بين الجريمة المنظّمة وتمويل الإرهاب، مصدر قلق متزايد لكثير من الدول التي تسعى جاهدة لإعاقة عمليات تمويل الإرهاب.

فقد لا تكلّف الهجمات الإرهابية كثيراً من المال، وقد تدار أحياناً وتنفّذ الأنشطة الإرهابية من دون تكلفة نهائياً، وهي ما يطلق عليها عمليات Zero Dollar Financing، التي وسمت بها أعمال الذئاب المنفردة، لكنّ الغالب أنّ المنظمات الإرهابية تحتاج إلى نفقات طائلة لتغطّي احتياجاتها من تدريب عناصرها في معسكرات مجهزة بأحدث أنواع التقنيات، فضلاً عن نفقات التجهيز والسفر والإقامة أثناء التحضير للقيام بعمليات إرهابية في دول مختلفة، ونفقات شراء الخدمات كمنظومات التواصل ونفقات ولوج شبكة الإنترنيت السوداء والعميقة Deep net & Dark net، فضلاً عن تكاليف إعانة أُسر الإرهابيين الذين يقضون في تلك العمليات[1].

وللتمويل مصادر عديدة[2]، فقد يكون التمويل من مصادر مشروعة كما قد يأتي من إيرادات الجرائم التي قد تكون جرائم تقليدية، كالأموال المتأتية من تجارة المخدرات، وتجارة السلاح، وعمليات السطو المسلحة. ومن أبرز أنشطة الجريمة المنظّمة، التي أكدت العديد من المواثيق الدولية على صلتها بالإرهاب، غسل الأموال؛ لذا آثرنا أن نتناول هذا المطلب ضمن فرعين: في الأول المصادر المشروعة في حين سنفرد الثاني لدراسة المصادر غير المشروعة لتمويل الإرهاب.

---

(1) للمزيد راجع: الموقع الإلكتروني (تاريخ الدخول 10/ 5/ 2023على الرابط) :
https://www.ojp.gov/ncjrs/virtual-library/abstracts/lone-wolf-terrorism-america.
Lone-wolf terrorism, is the term used to describe someone who acts alone in a terrorist attack without the help or encouragement of a government or a terrorist organization.

(2) أكّد السفير فيرانراتيس أكس تايلور، منسّق شؤون مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية الأميركية، بأنه كانت لدى الإرهابيين الذي نفذوا هجمات 11 أيلول، أموال كافية لإكمال تحضيراتهم مسبقاً، وقبل أشهر عدة إن لم يكن قبل سنوات عدة، فالتمويل جوهري في تجنيد المؤيدين ولتنفيذ عمليات إرهابية واسعة المدى لذا يجب ان توقف عمليات جمع الأموال للإرهابيين وتحويل الأموال إليهم. للمزيد راجع: الموقع الإلكتروني (تاريخ الدخول 11/ 5/ 2023على الرابط) :
http:/www.bcbkuwait.com/Arabic/topics/aml_ben.htm.

أ. المصادر المشروعة لتمويل الإرهاب

قد تكون المصادر المشروعة لتمويل الإرهاب من أموال الإرهابيّين الخاصة، وأحياناً قد تأتي من أموال الجمعيات الخيرية التي يساء استخدامها.

1. التمويل الذاتي للإرهاب

إنّ مصطلح التمويل الذاتي متعارف عليه، وليس من الصعوبة بحال أنه يحتاج إلى توضيح، فقد كان التركيز على كيفية مكافحته، والحيلولة لمنع عمليات التمويل. والتمويل الذاتي وفقاً للمفهوم الاقتصادي يقصد به «الاعتماد على المقدرات والموارد الذاتية من دون الاستعانة بمصدر خارجي لتسيير الأمور الحياتية»[1]. وعليه نجد من بين الإرهابيّين من لديه أمواله الخاصة يموّل فيها الأعمال الإرهابية، ومن بين المنظمات التي تعتمد على التمويل الذاتي، وصُنّفت ضمن المنظمات الإرهابية يبرز تنظيم القاعدة وتنظيم داعش.

إنّ الطرق المستخدمة من قبل الإرهابيين في تحريك أموالهم لدعم الأنشطة الإرهابية متماثلة مع تلك المستخدمة لجمع وتحريك عائدات غسل الأموال، ففي الكثير من الأحيان توظّف المنظمات الإرهابية خدمات موظفين محترفين في مجال النقد كالمحاسبين، والمحامين وغيرهم من ذوي الاختصاص في هذا المجال لمساعدتهم على تحريك أموالهم، كما تستغلّ المنظمات الإرهابية بشكل أساس الأنظمة المصرفية التي تحكمها إجراءات ضعيفة على مستوى جمع المعلومات اللازمة عن عملائها، وكذلك على مستوى التعاون الدولي النظامي وتطبيق القانون، حيث تقوم باستخدام خدماتها المالية للقيام بتحويلات برقية وفتح حسابات تتطلّب الحد الأدنى من تحديد الهوية أو الكشف عن الملكية. وقد تغلغلت هذه البنوك في كافة أنحاء أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط منذ أواسط السبعينيات، وهذه البنوك لا تخضع لإجراءات الامتثال الواجبة.

(1) فارس محمد العمارات: **الإرهاب العابر للحدود وتداعياته على الأمن والسلم الدولي**، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمان، 2021، ص 78.

لقد أدان مجلس الأمن الدولي في القرار الرقم (**2002/1390**)[1]، الهجمات الإرهابية التي حصلت في الحادي عشر من أيلول 2001، وأعرب عن تصميمه على منع جميع هذه الأعمال، ولاحظ المجلس استمرار أنشطة أسامة بن لادن وجماعة القاعدة، وأكّد على تصميمه استئصال هذه الشبكة. كذلك لاحظ المجلس إصدار الولايات المتحدة لقرارات اتهام لأسامة بن لادن وشركائه بارتكاب جرائم، منها تفجير سفارات الولايات المتحدة في «نيروبي- كينيا، دار السلام- تنزانيا».

وقد أوجب المجلس على جميع الدول اتخاذ تدابير عدّة في ما يتعلق بأسامة بن لادن وأعضاء منظمة القاعدة وجماعة طالبان، وسائر الجماعات والأفراد والمشاريع والكيانات المرتبطة بهما، التي يأتي في مقدمتها تجميد الأموال وغيرها من الأصول المالية أو الموارد الاقتصادية التابعة لها بصورة مباشرة أو غير مباشرة. إلّا أن هذه الإجراءات لم تؤثر؛ فلجأ تنظيم القاعدة إلى طرق أخرى للتمويل الذاتي، غير طرق

---

(1) يتعلق القرار بإنهاء الحظر المفروض على الطيران ويعدل نظام الجزاءات المفروض أصلًا في القرارين (**1999/1267**) و(**2000/1333**)، عن طريق توسيع نطاق الحظر المالي ليشمل المقربين من أسامة بن لادن وأعضاء تنظيم القاعدة على النحو الذي تحدده لجنة (**1267**)، ويفرض حظراً على سفر الأشخاص والكيانات المحددة.

وأشار مجلس الأمن إلى استمرار أنشطة أسامة بن لادن وشبكة القاعدة في دعم الإرهاب الدولي. وجدّد إدانته لهجمات 11 سبتمبر في الولايات المتحدة، ولوائح الاتهام الصادرة ضد أسامة بن لادن والمنتسبين له عقب تفجيرات العام 1998، في كينيا وتنزانيا.

علاوة على ذلك، نصت ديباجة القرار على أن طالبان لم تستجب لمطالب مجلس الأمن. وأدان سماح طالبان باستخدام أفغانستان كقاعدة للأنشطة الإرهابية وتدريب شبكة القاعدة. واستنكر تنظيم القاعدة والجماعات الإرهابية المرتبطة بهجمات إرهابية متعددة أسفرت عن مقتل مدنيين أبرياء وتدمير الممتلكات.

وبموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، قرّر المجلس مواصلة الإجراءات التي من شأنها تجميد أموال القاعدة وطالبان، ورفع التدابير المتعلقة بالطائرات التي كانت تسيطر عليها حركة طالبان سابقًا، وفقًا للقرار الرقم (1388/ 2002)، ثم قرّر فرض مزيد من الإجراءات في ما يتعلق بأسامة بن لادن وطالبان والقاعدة، داعياً جميع الدول إلى:

- تجميد الموارد الاقتصادية والأصول المالية الأخرى من دون تأخير.
- منع الأفراد والمنظمات من دخول أراضيها أو عبورها.
- فرض حظر توريد الأسلحة.

للمزيد راجع: موقع **الأمم المتحدة** الإلكتروني، تاريخ الدخول 10/ 5/ 2023، على الرابط:
https://www.un.org/securitycouncil/ar/s/res/1390.

المصارف والبنوك، حيث يقول المسؤولون عن الإرهاب في لندن، أن خلايا القاعدة في المملكة المتحدة تدرّبوا على التخطيط لعملياتهم والعيش بأقل التكاليف، وهم دائماً ما يعتمدون على عائلاتهم وأعمالهم اليومية لتغطية نفقاتهم؛ وفوق كل ذلك فقد، تعلّموا تصنيع القنابل بتكاليف بسيطة.

وقد اتّبعت في غالبية الهجمات التي شهدتها أوروبا مؤخّراً، صيغ غاية في البساطة وهي القيام بصنع المتفجّرات المحلّية، ووضعها في حقائب الظهر أو الأحذية أو حقائب السفر أو الشاحنات، وقد تبيّن عملياً أن غالبية الإجراءات التي اتّخذت قد أخفقت في تجفيف منابع التمويل المتاح للقاعدة، ولم تكن ذات أثر في منع الشبكات الإرهابية من القيام بعملياتها، وتبيّن أيضاً أنّ القاعدة ونشطائها نادراً ما كانوا يستخدمون البنوك في نقل أموالهم قبل الحادي عشر من سبتمبر بصورة يمكن أن تثير الشكوك؛ فقد أثبتت التحقيقات أن الذين قاموا بتفجيرات 11 أيلول، كانوا يتلقّون الأموال على إنها مساعدات من ذويهم كونهم طلاباً في الخارج. وفي ردّ على قوانين مكافحة تمويل الإرهاب الجديدة، كانت الشبكة أكثر حرصاً، فقد استخدمت طرقاً غير رسمية في تحريك أموالها، لا سيّما نظام الحوالة، وإحدى الطرق الشائعة أيضاً، هي تهريب الأموال النقدية والأحجار الكريمة والمعادن الثمينة عبر الحدود، إمّا في صورة بضائع أو عن طريق استخدام شركات البريد السريع. ويشير LOUIS LORMEL[1]، إلى أنّ القوانين التي تم تمريرها منذ العام 2001، أغلقت بعض الفجوات، وتعاملت مع بعض الحالات التي سهّلت للقاعدة نقل الأموال؛ لكن ردّ فعل الشبكة كان سريعاً على تلك القوانين، فاعتمدت خلاياها في أوروبا على التمويل الذاتي بدلاً من الاعتماد على التمويلات الخارجية التي يمكن تعقّبها من خلال الهيئات والكيانات القانونية والتقنية الأوروبية، ويضيف على قوله أنه «من الواضح أنك عندما تتعامل مع مجموعات تمول نفسها تمويلاً ذاتياً، فأنت تتعامل مع مجموعة مختلفة تماماً من الملابسات، فهؤلاء الأشخاص

(1) يشغل لورميل منصب نائب رئيس شركة كوربون ريس انترناشونال التي تتخذ من رستون مقراً لها، وهو الرئيس السابق لقسم مكافحة عمليات تمويل الإرهاب.

يدركون بعد حين من الوقت الطرق المثلى للتعامل مع القوانين. لذا فهم يغيرون نهجهم في كيفية نقل المال، ومن المؤكد أنك لن تستطيع أن توقفهم عن الحصول على المال، فهم قادرون على التكيّف».

2. إساءة استخدام الجمعيات ذات المنفعة العامة

كانت الدول العربية الأولى في تأسيس الجمعيات الخيرية والإنسانية، لتأصيل أعمال الخير في المجتمعات العربية، وذلك عبر التوعية الدينية التي تحضّ على أعمال الخير والصدقة والإحسان، إلا أن تاريخ أحداث 11 أيلول، أصبح يُعدّ بالنسبة للجمعيات التي لا تبغي الربح، نكبة بكل المعاني؛ فقد توجّهت أصابع الاتهام إليها على إنها مموّلة الإرهاب، وقد أشارت الشكوى التي قدمت في قلم محكمة الإسكندرية الاتحادية «فيرجينيا» إلى ثمانية مؤسسات وتنظيمات مشمولة باللوائح التي ظهرت فيها أسماء الشركات والمنظمات للمثول أمام العدالة الأمريكية. وركّز ملف الإثبات على نوعية تمويل القاعدة؛ حيث اعتبر محامو العوائل أن التنظيم الذي يقوده أسامة بن لادن، اختلف في هذا الجانب عن المجموعات الإرهابية الأخرى، وشدّدوا على أن القاعدة استفادت من الإسهامات المستمرّة والأساسية الصادرة عن الاستخدام الفاسد للأموال المجموعة بصفة الزكاة، وهي الفريضة التي يجب أن يؤديها كل مسلم يمتلك دخلاً خاضعاً للضريبة، فالزكاة هي المصدر الأكثر أهمية للتمويل بالنسبة لشبكة القاعدة أساساً لأن الأمر يتعلّق بوسيلة شائعة جداً وبدون قانون لتلقي الصدقات.

وقد حاز موضوع سوء استخدام الجمعيات الخيرية لغرض تمويل الإرهاب على اهتمام المنظمات الدولية[1]، كاهتمام مجموعة العمل المالي، وأيضاً اهتمام الدول الصناعية السبعة الكبرى، وهيئة الأمم المتحدة فضلاً عن السلطات الوطنية في عدد كبير من الدول، وتُعدّ مسألة سوء استخدام المنظمات غير الربحية نقطة الضعف المهمّة في الكفاح العالمي ضد هذا النوع من التمويل، وقد بذلت جهود دولية ومحلية

---

(1) راجع: جاسم محمد حسين شنكالي: **مكافحة تمويل الإرهاب في القانون الدولي والتشريعات الوطنية**، المصرية للنشر والتوزيع، ط 1، 2020، ص 120.

عديدة لوضع الإجراءات والقوانين التي تحدّ من استغلال تلك المنظّمات الخيرية لتمويل الإرهاب من أهمها:

1) **التوصية الثامنة لمجموعة العمل المالي FATF**: حيث أشار فريق العمل المالي إلى خطورة تمويل الإرهاب من قبل المنظّمات التي لا تبغي الربح، وحاول أن يضع مبادئ ينبغي مراعاتها من قبل تلك المنظمات، فبعد أن عرّفها، بيّن أهمية المنظمات غير الربحية في المجتمع، وأن القطاع الخيري يشكل عنصراً حيوياً ومهمّاً في كلٍّ من الاقتصاد العالمي، واقتصاديات قوميات عديدة، وفي أنشطة اجتماعية تكمّل النشاط الحكومي. وعدّ مراقبة المنظمات غير المربحة مشروع تعاوني بين الحكومة المجتمع الخيري والأشخاص الذين يجمعون الأموال الخيرية وبين الذين تعمل من أجلهم المؤسسات الخيرية. ومن ضمن ما أشار إليه تقرير فريق العمل المالي، أن الإشراف على المنظمات الخيرية يجب أن يكون مرناً فعالاً ويتناسب مع مخاطر سوء الاستخدام، بالشكل الذي يخفّف من عبء الالتزام، دون أن يسمح بخلق ثغرات للالتفاف والتحايل. فالمنظمات الصغيرة التي لا تجمع كميّات كبيرة من النقود من مصادر عامّة وتكون وظيفتها الأولية إعادة توزيع الموارد بين الأعضاء، لا تحتاج بالضرورة إلى رقابة مشدّدة، وأكّد التقرير على أهمية الدور الذي يلعبه المراقب الذاتي الموجود في المنظمات غير المربحة ومنظمات الاعتماد، كذلك في حماية القطاع الخيري من سوء الاستخدام. ومن الأمور التي أوردها التقرير الشفافية المالية؛ فهي من مصلحة المتبرّعين والمنظمات والسلطات؛ فينبغي على المنظمات أن تحتفظ بميزانية كاملة لبرامجها، وأن يكون بمقدورها تقديم مثل تلك الميزانية، وأن تشير الميزانية إلى هوية المستفيدين وإلى كيفية إنفاق الأموال.

كذلك أكّدت التوصية على دور الإدارة المشرفة على المنظمات الخيرية[1]، وأشارت إلى الدور المهمّ الذي لعبته الإدارة في العمل الصحي والأخلاقي في الشركات، وعلى

(1) للمزيد راجع: الموقع الإلكتروني (تاريخ الدخول 16/ 7/ 2023 على الرابط):
https://www.fatf-gafi.org/en/publications/Methodsandtrends/Risk-terrorist-abuse-non-profits.html.

حد سواء في المنظمات غير الربحية؛ فينبغي على الإدارة أن تبذل الجهود في القيام بالعمل الخيري بالوجهة المخصصة له وعدم إساءة استخدامه. وفرضت التوصيات على ضباط تطبيق القانون والأمن، عند قيامهم بمكافحة سوء استعمال المنظمات غير الربحية من قبل المنظمات الإرهابية، وعلى الجهات الحكومية المتخصّصة التي تختلف من بلد إلى آخر، إلى ضرورة قيامها بعملها بالإشراف والرقابة والتدقيق.

وأخيراً فُرضت على الدول، سنّ القوانين أو استخدام القوانين المعمول بها لفرض عقوبات إدارية، أو مدنية وجنائية، تتناسب مع من يسيء استخدام المؤسّسات الخيرية لتمويل الإرهاب. والملاحظ أن عبارة «أن يسيء»، المقصود بها الأفراد الذين أساءوا استخدام المنظمة غير الربحية. والسؤال الذي يثار هنا، هو مصير المؤسّسات الخيرية التي يُساء استخدامها؛ هل ستتعرض للعقوبة هي الأخرى؟ هذا ما كان ينبغي أن تعالجه منظمة العمل المالي ضمن توصياتها.

2) إرشادات وزارة الخزانة الأمريكية: أصدرت وزارة الخزانة الأميركية إرشادات لمكافحة تمويل الإرهابيين[1]، من أفضل الممارسات التطوعية للجمعية الخيرية الموجودة في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد فرضت وزارة الخزانة بموجب هذه الإرشادات أن يكون لكل مؤسسة خيرية هيكلاً تنظيمياً.

كما فرضت الإرشادات عدة خطوات على الجمعيات الخيرية أن تتّبعها:

- أن يكون للجمعية الخيرية مجلس إدارة يحكمها، مؤلّف من ثلاثة أعضاء ويمارس إشرافاً فعالاً ومستقلاً عن المؤسسة الخيرية والعمليات.
- وجوب الإفصاح والشفافية في الأمور الإدارية والمالية، فمن ناحية مجلس الإدارة ينبغي أن تتوافر قائمة بأسماء أعضاء مجلس الإدارة والرواتب التي يتقاضونها وعناوينهم وأرقام الضمان الاجتماعي لهم؛ وأكّدت الإرشادات على وجوب الإفصاح والشفافية في الأمور الإدارية، وكذلك الحال بالنسبة لأكبر خمسة موظّفين يعملون لدى المؤسسة ويتقاضون أعلى الرواتب.

(1) للمزيد راجع: الموقع الإلكتروني (تاريخ الدخول 12/ 6/ 2023 على الرابط):
https://home.treasury.gov/policy-issues/terrorism-and-illicit-finance

- من الناحية المالية، ينبغي على المؤسّسة أن تحدّد أي شركات فرعية أو شركات تابعة تستلم الأموال من المؤسسة الخيرية.
- استدراج الأموال ينبغي أن يتمّ بشكل دقيق وواضح، وأن يتمّ إعلام المتبرّعين كيف وأين سيتمّ إنفاق تبرعاتهم.
- يجب أن يتمّ استلام الأموال وتوزيعها وفقاً للمبادئ المحاسبية المقبولة بوجه عام، وأن تتضمّن حساباتها كافّة المصروفات الخيرية، وإسم كل مستلم، والمبلغ الذي تمّ توزيعه، وأن يتمّ التوزيع وفق أسلوب الشيكات وليس عن طريق التوزيع النقدي.

ب. المصادر غير المشروعة لتمويل الإرهاب

ترتبط جريمة غسل الأموال القذرة Dirty Money، بأنشطة غير مشروعة، تدرّ أموالاً قذرة، غالباً ما تكون خارجة عن أُطر سريان القوانين التي تجرّم الفساد المالي، ثم تحاول الاندماج بصورة شرعية معترف بها من قبل القوانين عينها التي كانت تجرّمها. واقتصرت القوانين التي تناولت جريمة غسل الأموال بداية على جرائم المخدرات، لكن اتّضح أنها ليست المصدر الوحيد للأموال غير المشروعة محلّ الغسل، بل هنالك مصادر أخرى، وتستغل جميعها في تمويل الأنشطة الإرهابية بأشكالها كافّة. وسنتطرق إلى تلك المصادر غير المشروعة على النحو التالي:

1. جريمة الإتجار غير المشروع بالمخدرات

تشكّل تجارة المخدرات مصدراً رئيساً للأموال القذرة[1] التي تستخدم في تمويل العمليات الإرهابية، فالمتحصّلات المتأتّية منها ما هي إلاّ نتاج حلقة تجارية غير قانونية تؤدي إلى تحقيق أرباح طائلة في غضون فترة زمنية سريعة، يتمّ الحصول في نهاياتها على مبالغ نقدية تغذّي أحياناً كثيرة الأنشطة الإرهابية. ويستخدم تجّار المخدرات الوسائل والمنهجيات الإرهابية في بعض الحالات لتحقيق مآربهم،

(1) راجع: بيتر ليللي: **الصفقات القذرة**، مجموعة النيل العربية، القاهرة، 2005، ص 195؛ فارس محمد العمارات: **الأمن الإنساني في ظلّ العولمة**، دار الخليج للنشر والتوزيع، 2020، ص 59.

فيما يعتمد الإرهابيون على الإتجار بالمخدرات لتمويل أنشطتهم. ويختلف هذا التعاون باختلاف المناطق والمجموعات؛ فهنالك بعض المنظمات الإرهابية، تتولّى زراعة المخدرات وتوزيعها، حتى غسل متحصّلاتها، وانتهاءً بحمايتها من قبل التجار في المناطق الخاضعة لها، بينما تكتفي عصابات أخرى باستيفاء ضريبة على السلع والبضائع التي تعبر من مناطق أخرى تابعة لها.

2. تجارة الأسلحة غير المشروعة

هي التجارة التي تتمّ بصورة تخالف التشريعات الداخلية والدولية المنظمة لتجارة الأسلحة وتوابعها، وتتمّ بسريّة تامّة من قبل عصابات وسماسرة دوليّين هدفهم الربح. وتجارة السلاح سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة، فإنها تقود إلى مستويات مرتفعة من الفساد، حيث تؤكد مصادر في وزارة الخارجية الأمريكية أنها تشكل (**50٪**) من العمليات التي يعتريها الفساد[1]. وتمارس هذه التجارة بين بعض الدول وعصابات تهريب السلاح لتحقيق مكاسب اقتصادية غير مشروعة، أو لتحقيق أهداف سياسية أو تخريبية أو القيام بأعمال إرهابية.

3. الإتجار بالبشر

كان لظاهرة العولمة واختصار المسافات بين الدول، دور في ظهور أنواع عديدة من التجارة، إلّا أنه من بين تلك الأنواع، برز العديد من أشكال التجارة المحرّمة قانوناً أو عرفاً، التي شكّلت تهديداً للمجتمع على صعيد العديد من المستويات، سواء كانت الأمنية بتهديدها للسلم والأمن، أو تهديد القيم والمبادئ التي يقوم عليها المجتمع. فعلى الرغم ممّا أقرّته مبادئ القانون الدولي من حقوق الإنسان وعدم جواز انتهاكها، إلّا أن العصابات الإجرامية، وفي تسابقها للحصول على الأرباح الطائلة، باتت تبتكر السبل الكفيلة لتحقيق أهدافها التي من بينها الإتجار بالبشر، واعتباره سلعة يتم التداول بها؛ ويشمل هذا النوع من الإتجار أصنافاً عديدة منها: المتاجرة بالنساء،

---

(1) ستّار خليل الباتي: **غسيل الأموال القذرة وانعكاساته المحتملة على الاقتصاد العراقي مستقبلًا**، بحث في مجلة **دراسات إقتصادية**، العدد 18، مركز دراسات وبحوث الوطن العربي، الجامعة المستنصرية، بغداد ـ العراق، 2006، ص 63.

المتاجرة بالأطفال، إضافة إلى صنف جديد من المتاجرة هو المتاجرة بالأعضاء البشرية[1].

فمن المعلوم أنه مثلما سخّر العلماء العلم والتطور التكنولوجي لخدمة الإنسانية، فإنه في الجانب الآخر استغلّ المجرمون هذا التطوّر لتحقيق أغراضهم الإجرامية؛ وظهر ما يسمى بتجارة الأعضاء البشرية، تلك التجارة التي فتحت لهم منافذ جديدة لتحقيق أرباح طائلة؛ والتي تتمثّل بالتصرّف بالأعضاء البشرية خلافاً للقوانين والتعليمات التي تنظم هذه المسألة.

4. عائدات النفط

قام تنظيم داعش بتصدير النفط من الحقول التي استولى عليها، ما مكّنه من ضخّ عشرات الملايين من الدولارات إلى خزينته، وكان أحد مسؤولي الخزانات، قدّر أن داعش يكسب يومياً مليون دولار من تصدير النفط فقط. ومع ذلك فمن الصعب إجراء تقدير دقيق لإيرادات النفط، حيث أن التنظيم يعتمد على مبيعات السوق السوداء التي يصعب تعقّبها.

وفي العام 2014، كانت معظم أموال المجموعة قادمة من إنتاج وبيع الطاقة، لا سيّما أن داعش سيطرت على حوالي **(300)** بئر نفط في العراق وحده، ثم سيطرت في وقت لاحق على **(350)** بئراً، لكنه خسر **(45)** منها جرّاء الضربات الجوية الأجنبية. وقبض التنظيم المتشدّد أيضاً على **(60٪)** من الناتج الإجمالي السوري[2].

5. بيع التحف

تُعدّ مبيعات القطع الأثرية ثاني أكبر مصدر تمويل لداعش، بخاصّة وأن ثلث العراق كان قد خضع لسيطرة التنظيم، ما مكّنه من نهب قطع أثرية تعود للقرن التاسع

(1) في قضية الشابة «سلمى علي»، عمرها تسعة عشر سنة، قامت ببيع كليتها عن طريق صفقة عقدها سمسار، تبيّن أنه متورّط مع تنظيم إرهابي، لحاجتها الماسّة إلى المال، بعد أن قُتل شقيقها في أحد الانفجارات، وهو المعيل لها ولوالدها المريض الذي هو يحتاج إلى العلاج، وذلك بعد أن فشلت في الحصول على عمل. راجع: مجلة **المشهد الأول**، سياسية عامة، العدد الأول، السنة الأولى، 15– 30 تشرين التاني 2009، ص 26.

(2) عمرو فاروق: **داعش سفراء جهنم**، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2015، ص 250.

قبل الميلاد، تلك الموجودة في القصر الكبير للملك الآشوري آشور ناصر بانيبال الثاني في كالح، ونهب عناصر التنظيم أيضاً مجموعة من المخطوطات التي بيعت بمئات ملايين الدولارات. وغالباً ما كان يتمّ تهريب القطع الأثرية المسروقة إلى تركيا والأردن.

6. الضرائب والإبتزاز

جمعت داعش ثروتها أيضاً من خلال الضرائب والابتزاز، حيث فرض التنظيم الجزية على الأجانب وغير المسلمين، وحدّدت قيمة الجزية بناء على دخل الشخص، كما اعتُبرت بمثابة عقد حماية يُفرض على معظم ساكني أراضي الدولة وقاطنيها من غير المسلمين. وفرضت الدولة الإسلامية العديد من الضرائب في محاولة منها للسيطرة على الأصول التي «اكتسبها» المقاتلون خلال المعارك، ويُسمي عناصر التنظيم هذه الأصول بغنائم الحرب.

7. الخطف مقابل فدية

يعدّ مصدر تمويل إضافي، من خلال ابتزاز أموال طائلة مقابل الإفراج عن رهائن مختطفين، أصبح بالنسبة للمنظمات الإرهابية على غرار القاعدة وداعش أو بوكو حرام، مصدر دخل مهم. وتستخدم هذه المنظمات الأموال المحصّلة لتمويل عملياتها الإرهابية. فوفقاً لتقديرات صحيفة استخباراتية، فقد تلقت القاعدة مثلاً أموالاً طائلةً لا تقل عن **(125)** مليون دولار على شكل فديات دفعت لتحرير رهائن في قبضتها. جاء الجزء الأكبر من خزائن دول أوروبية، فيما تقدّر وزارة المالية الأمريكية أن مقدار الأموال التي جاءت من أوروبا ودُفعت لمنظمات إرهابية ما بين عامي 2008 و2013، بلغ إجمالا نحو **(165)** مليون دولار[1].

كما تستخدم الجماعات الإرهابية الرهائن كورقة ضغط للحصول على تنازلات سياسية أو تحفظّات، فمثلاً، رفضت تركيا المشاركة في الغارات الجوية الأمريكية ضد

(1) للمزيد راجع: الموقع الإلكتروني (تاريخ الدخول 14/ 7/ 2023 على الرابط):
https://www.cbsnews.com/news/isis-collects-millions-in-ransom-for-abducted-christians.

تنظيم «داعش»، لأن (49) تركياً كانوا لا يزالون في قبضة التنظيم[1].

(1) أبرز مصادر تمويل تنظيم داعش:
توزعت مصادر التمويل بين بيع النفط المسروق وتهريب وبيع الآثار المسروقة، والمساعدات والتبرّعات، وعوائد تحرير الأجانب المختطفين والايجارات والضرائب والجزية والزكاة والغرامات المالية، إضافة إلى السرقة والنهب، وعائدات الحبوب والمخدرات وغسل الأموال وغنائم الحرب والترانزيت والاتجار بالبشر وبالجثث. وتبيّن أن بيع النفط المسروق يشكّل نحو (55٪) من إيرادات التنظيم، وبذلك تصدّر قائمة مصادر تمويله من حيث الأهمية، يليه تجارة المخدرات وغسل الأموال بنسبة (15٪)، ثم الضرائب والغرامات والترانزيت بنسبة (12٪)، وغنائم الحرب والسرقة (10٪)، والخطف والفدية (4٪)، والتبرّعات والهبات (2٪)، ويبقى (2٪) لباقي المصادر.
ويُعتبر الاستيلاء على حقول النفط في كلٍّ من العراق وسوريا، من أهم مصادر تمويل داعش وأكبرها، إذ بات لديها استقلال مالي واقتصادي كبير. فبفضل هذه العوائد التي تصل إلى حوالي (4) ملايين دولار يوميًّا، أصبحت قادرة على تمويل نفسها بصورة ذاتية، وهو الأمر الذي يُفسّر سبب توسّعها وتمدد نفوذها واتساع حجم المناطق والأقاليم التي باتت تقع تحت سيطرتها بصورة جعلتها تبدو في الحقيقة ككيان دولة، إذ سيطرت على (60٪) من حقول النفط في سوريا، من بينها أكبر ستة حقول، وحوالي ثلاثة عشر حقلاً في شمال العراق وشرقه، إلى جانب ثلاث مصافٍ للبترول في العراق. ففي سوريا، سيطرت داعش على حقول «غاز الشعّار» القريب من تدمر، وحقل «التنك» القريب من دير الزور، وحقل «عمر» وحقل «نجمة»، وغيرها من الحقول. وفي العراق، سيطرت داعش على حقلي «عين زالة» و«بطمة» اللذين تبلغ طاقتهما الإنتاجية اليومية حوالي (30) ألف برميل من النفط الخام، وحقل «القيارة» الذي تبلغ إنتاجيته اليومية حوالي (7000) برميل، وتُقدّر احتياطاته بحوالي (800) مليون برميل، وحقل «الدجيل». وسيطرت أيضًا على الحقول الموجودة في الجنوب من تكريت، منها حقل «حمرين» الذي يبلغ إنتاجه حوالي (5000) برميل يوميًّا، وحقل «عجيل» الذي ينتج حوالي (25) ألف برميل يوميًّا من النفط الخام، و(150) مليون قدم مكعب من الغاز الطبيعي. ولقد باع التنظيم إنتاجه في السوق السوداء بأقلّ من السعر العالمي بحوالي (75٪)؛ حيث بيع البرميل بسعر تراوح بين (25) و(50) دولارًا، في حين كان السعر العالمي للبرميل تجاوز (100) دولار. وهو الأمر الذي جاءت تداعياته الكارثية على واقع الاقتصاد في كلٍّ من العراق وسوريا، لا سيّما إذا ما علمنا أن النفط يُمثل مصدر الدخل الرئيس لهذه الدول. وقد لامست عوائد داعش من النفط المليار دولار، مقابل (500) مليون دولار لتنظيم القاعدة، وهو ما جعل من داعش تنظيماً أكبر وأقوى تأثيرًا من تنظيم القاعدة على الأمن الإقليمي والعالمي.
وتمكن تنظيم «داعش» من تهريب مئات القطع الأثرية السورية، وبيعها في دول عدة لتمويل أنشطة التنظيم المتطرّف، حيث أنشأ التنظيم الإرهابي وزارة خاصة بالآثار في المدن السورية، حلب ودير الزور، هدفها بيع الآثار والكنوز التاريخية في العراق وسورية للحصول على عائداتها المالية الكبيرة.
كما تعتبر الأموال الناتجة عن فدية الرهائن من مصادر التمويل المهمّة لتنظيم داعش، وقد تراوحت قيمة فدية الرهينة الواحدة بين (5) و(15) مليون دولار أميركي، فهي غير شاقّة في الحصول عليها، باعتبارها أسهل مصادر التمويل لأنها قائمة على خطف الرهينة واحتجازه لحين دفع فديته.
ويعتبر فرض الضرائب من الموارد التي بدأ التنظيم بالاعتماد عليها بشكل متزايد، فمثلاً فرض التنظيم ضريبة دخل على موظفي الحكومة العراقية تتراوح بين (30٪) إلى (50٪) من مدخولهم، الأمر الذي أدّى إلى جمع مبلغ (300) مليون دولار في العام 2014، كما فرض ضريبة على أرباح الشركات تقدر بنحو (25٪) على ←

الخاتمة

يعتبر تمويل الإرهاب بأشكاله وأنماطه كافّة، من أخطر التهديدات التي تتجاوز حدود الدول، وممّا لاشكّ فيه، أنّ عدم وجود تعريف ومفهوم موحّد للإرهاب، على الرغم من توقيع إتفاقيات دولية وإقليمية حاولت وضع إطار له، وعلى الرغم من كثرة التشريعات التي تناولته، من شأنه أن ينعكس سلباً على سبل وفعاليّة تلك المواجهة.

وتتزايد الالتزامات الوطنية بمكافحة تمويل الإرهاب ضمن البيئة الدولية القائمة، وفي ظلّ ازدياد الخطر الإرهابي على مدى السنوات الأخيرة والتطوّر المتزامن لأنماط تمويل الإرهاب، فقد اتّخذ مجلس الأمن الدولي قرارات إضافية، غالبا بموجب الفصل السابع، أبرزها القرار الرقم (**2001/1373**)، وقد أعرب المجلس نفسه عن قلقه إزاء تدفّق الأموال إلى الإرهابيّين والحاجة إلى قمع جميع أشكال تمويل الإرهاب[1]،

← عقود الشركات ومداخيلها، إلى جانب ذلك فرض تنظيم داعش ضرائب شهرية أخرى على أصحاب المؤسسات، قُدرت حصيلتها بنحو (**8**) ملايين دولار. كما فرض تنظيم داعش الإرهابي الجزية على المسيحيين وأصحاب الديانات الأخرى الذين رفضوا الدخول في الإسلام في المناطق التي يسيطر عليها في العراق وسورية، كذلك جمع التنظيم أموالاً باهظة من المسلمين الذين يتواجدون في مناطق سيطرتهم، تحت ذريعة الزكاة. وطالب التنظيم في بيان له كل مسيحي من أثرياء الرقّة بدفع جزية تساوي (**14**) غراما من الذهب الخالص، وأن يدفع كل مسيحي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة نصف تلك القيمة. أما المسيحي الفقير فهو مطالب بأن يدفع ربع هذه الجزية مقابل الحماية.

وأيضاً، فرض التنظيم ضريبة على الشاحنات التي تدخل العراق من الأردن وسورية، عن طريق محافظة الأنبار، وتسمى ضريبة الطريق (الترانزيت) وتتراوح قيمتها بين (**200**) و(**800**) دولار على كل شاحنة. وبلغت عائدات التنظيم من إيجارات المنازل الفارغة والمحلات المستولى عليها والأراضي نحو (**3**) ملايين دولار شهرياً (**40** مليون دولار سنوياً) وتزايد هذا المصدر بشكل مستمرّ.

واستهدف التنظيم بعمليات السطو المسلح المؤسسات المالية والمصرفية بالدرجة الأولى، حيث قام بالسطو على فرع البنك المركزي العراقي في الموصل، واستولى على أموال باهظة قدرت بحوالي (**500**) مليار دينار عراقي (ما يعادل أكثر من **400** مليون دولار أميركي). كما استولى على مبالغ مالية ضخمة بالعملة العراقية من فروع البنوك المملوكة للدولة العراقية الواقعة في محافظات نينوى والأنبار وصلاح الدين وكركوك. ولجأ التنظيم إلى السيطرة على المحاصيل الزراعية لسد الفجوة الغذائية في المناطق التي يسيطر عليها. للمزيد راجع:

الموقع الإلكتروني (تاريخ الدخول 16/ 7/ 2023 على الرابط):

https://www.govinfo.gov/content/pkg/CHRG-113hhrg92874/html/CHRG-113hhrg92874.html.

(1) للمزيد راجع: موقع **الأمم المتحدة** الإلكتروني، تاريخ الدخول 16/ 7/ 2023، على الرابط: ←

وذلك بغية معالجة السبل الجديدة لتمويله، بوسائل عدة، منها استهداف الصلة بين الإرهابيّين وعصابات الجريمة المنظمة والتصدي لجمع الأموال وغير ذلك، وهذا ما دفع الدول إلى مزيد من التعاون وتبادل المعلومات وتعديل تشريعاتها ونظمها وآليات عملها.

كذلك تلعب مجموعة العمل المالي FATF، دوراً ريادياً في وضع إطار عالمي لمفهوم تمويل الإرهاب، وفي رفع مستوى التعاون بين الدول ووضع سياسات شاملة بغية تحقيق انسجام دولي لمواجهة تمويله، من خلال توصياتها الأربعين التي تتضمن تسع توصيات خاصّة ذلك التمويل.

ومن خلال ما ورد في بحثنا، فقد توصّلنا إلى وضع مفهوم لتمويل الإرهاب، نوصي باعتماده:

«هو توفير الدعم للجماعات الإرهابية أو الدول أو الأفراد المنخرطة في نشاطات إرهابية، وذلك بقصد استخدامه في الأعمال الإرهابية مع العلم بذلك، سواء وقع الفعل الإرهابي أم لا ، ويمكن أن يكون ذلك الدعم: أموالاً، معدات، خبرات تقنية، بيانات، أماكن آمنة، أو غير ذلك من أشكال الدعم التي تسهل تنفيذ العمل الإرهابي».

---

https://www.un.org/securitycouncil/ar/content/sres24622019. ←

قائمة المصادر والمراجع:

أ. الوثائق الدولية

1. الوثيقة الرقم (**S/RES/1373/2000**)، صادرة عن الأمم المتحدة، مجلس الأمن الدولي.

ب. المراجع العربية

1. النقوزي: عبد القادر: **المفهوم القانوني لجرائم الإرهاب الداخلي والدولي**، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، 2008.
2. حسين، مصطفى سلامة: **المنظمات الدولية**، الدار الجامعية، بيروت، لبنان، 1989.
3. حمد، فيدا نجيب: **مكافحة الإرهاب قبل هجمات 11 أيلول 2001 وما بعدها**، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، ط 1، 2017.
4. شنكالي، جاسم محمد حسين: **مكافحة تمويل الإرهاب في القانون الدولي والتشريعات الوطنية**، المصرية للنشر والتوزيع، ط 1، 2020.
5. العمارات، فارس محمد: **الإرهاب العابر للحدود وتداعياته على الأمن والسلم الدولي**، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمان، 2021.
6. العمارات، فارس محمد: **الأمن الإنساني في ظلّ العولمة**، دار الخليج للنشر والتوزيع، 2020.
7. فاروق، عمرو: **داعش سفراء جهنم**، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2015.
8. ليللي، بيتر: **الصفقات القذرة**، مجموعة النيل العربية، القاهرة، 2005.

ج. دوريات باللغة العربية

1. الباتي، ستّار خليل: **غسيل الأموال القذرة وانعكاساته المحتملة على الاقتصاد العراقي مستقبلاً**، بحث في مجلة **دراسات إقتصادية**، مركز دراسات وبحوث الوطن العربي، الجامعة المستنصرية، بغداد ـ العراق، العدد 18، 2006.



2. مجلة **المشهد الأول**، سياسية عامة، العدد الأول، السنة الأولى، ـ15 30 تشرين التاني 2009.

د. المؤتمرات

1. خليل، إمام حسنين، **جرائم تمويل الإرهاب في التشريع المصري**، بحث مقدم إلى المؤتمر الرابع عشر للجمعية المصرية للقانون الجنائي حول تحديات العولمة والعدالة الجنائية، ،في الفترة من 19 إلى 20 أيار، القاهرة، 2009.

هـ. المراجع باللغة الفرنسية

1. JEAN PRADEL, MICHEL DANTI-JUAUN MANUEL DE DROIT PÉNAL SPÉCIAL (Droit commun - Droit des affaires, 4e édition revue et augmentée au 1er juillet 2007, ÉDITONS CUJAS 4/8, rue de la Maison-Blanche PARIS.
2. Marc Chesney, Le terrorisme se privatise et défie l'Occident- Blanchiment et financement du terrorisme, Ellipses Édition Marketings. Paris.

و. المراجع الإلكترونية

1. http://www.un.org/ar/counterterrorism/legal-instruments.shtml
2. https://www.un.org/counterterrorism/ar/international-legal-instruments.
3. https://legal.un.org/avl//pdf/ha/icsft/icsft_a.pdf
4. https://www.fatf-gafi.org/content/dam/fatfgafi/translations/Recommendations/MENAFATF-Arabic-FATF-Recommendations-March2022.pdf.coredownload.inline.pdf
5. https://undocs.org/S/RES/1373(2001)

أثر زراعة القنّب الهندي
على تحسين الوضعين الاقتصادي والطبّي في لبنان

محمود جزيني

ملخص

يدلّ تسمية الذهب «الأخضر» لوصف نبتة القنّب في لبنان على أهمية هذه الزراعة، وما يمكن أن تدرّه من ثروات على الاقتصاد اللبناني، في حال تمّ تحويل زراعتها المحرّمة قانونًا، إلى زراعة شرعية تضبطها القوانين وتراقبها الدولة للاستعمال الطبي والعلمي، على غرار كثير من الدول، بعد أن عجزت العهود المتوالية عن محاربتها بالقوة، كما عجزت عن تقديم البدائل للمزارعين الذين يلجأ بعضهم إليها لسهولة تصريفها.

يستعرض هذا البحث استخدامات القنّب وفوائده وأضراره من جهة، والتخوّفات من تشريعه من جهة أخرى، وهو أن يتحوّل المجتمع اللبناني إلى مجتمع يتعاطى أبناؤه المخدِّرات، بخاصّة في ضوء انتشارها في السنوات الأخيرة، ومن عدم قدرة الدولة على ضبط هذه الزراعة إذا شُرّعت. إنّ هذا الموضوع سيفٌ ذو حدَّين، يقود المجتمع إمّا نحو الازدهار وإمّا إلى الانهيار.

الكلمات المفتاحية:

المخدِّرات، القنّب الهندي، الاستخدامات الطبية، الاستخدامات الصناعية، التنمية المستدامة.

ABSTRACT

The designation of "green" gold to describe the cannabis plant in Lebanon indicates the importance of this cultivation, and the wealth it can generate for the Lebanese economy if its legally prohibited cultivation is transformed into a legitimate cultivation controlled by the laws and monitored by the state for medical and scientific use, as in many countries. After successive eras were unable to combat it by force, they were also unable to provide alternatives to farmers, some of whom resort to it due to its ease of disposal.

This research reviews the uses of cannabis, its benefits and harms on the one hand, and the fears of its legalization on the other hand, which is that Lebanese society will turn into a society whose children abuse drugs, especially in light of its spread in recent years and the state's inability to control this cultivation if it is legalized. This issue is a double-edged sword that leads society either towards prosperity or collapse.

Keywords: drugs, cannabis, medical uses, industrial uses, sustainable development.

مقدمة

تُعتبر الأزمات المتعدّدة التي تصيب لبنان منذ الأزمة المالية والاقتصاديّة عام 2019، دافعًا لإعـادة النظر في الواقع الحالي والمستقبلي للزراعة اللبنانية، بغية مواجهة التحدّيات الآنيّة والبنيويّة التي يعيشها السكّان المقيمون، لناحية انخفاض الناتج المحلّي للزراعة وتهديد الأمن الغذائي. وفي حين كثُر الكلام في الإعلام والسياسة، حول استنهاض القطاع الزراعي، إلا أنّها لم ترقَ إلى المستوى المطلوب، وبرز موضوع التصويت على قانون تشريع زراعة القُنّب للغايات الطبّية في شهر نيسان 2020، من دون اتّخاذ أيّ مفاعيل أو إجراءات عملية منذ ذلك الحين.

ليست المرة الأولى التي يُطرح فيها موضوع تشريع زراعة القنّب في لبنان لأغراض طبّية على بساط البحث، غير إن الكلام الصادر عن الجهات الرسمية في هذا السياق أعطى المسألة بُعدًا أكثر جدّية، وشكّل مؤشراً على مرحلة أخرى، قد تنتقل إليها البلاد على مستويات متعدّدة، بخاصّة في المجال الاقتصادي.

منذ ما قبل استقلال لبنان في العام 1943، شكّلت زراعة القنّب المحظورة قانونًا، عاملًا مهمّاً في تأمين معيشة قسم كبير من أبناء منطقة بعلبك الهرمل في البقاع شرقي البلاد، وتزايدت المساحات المزروعة بهذه النبتة بعد اندلاع الحرب الأهلية سنة 1975، ما أدّى إلى تنامي نسبة الإتجار بها في الداخل، إضافة إلى تهريب كمّيات منها إلى الخارج، ولم تفلح القرارات والحملات السياسية والإعلامية والأمنية والتحذيرات الدولية في وقف نموّ هذه الزراعة ومنع الإتجار بها.

وفي وقت أيّدت العديد من القوى السياسيّة والحزبيّة تشريع زراعة القنّب بغية استخدامها لأغراض طبّية وصيدلانيّة، تضمّن التقرير الأخير لشركة الاستشارات المالية العالمية لماكينزي توصيات بإصلاح الاقتصاد اللبناني، ومنها تشريع بيع القنّب لأغراض طبّية واقتصاديّة.

الإشكاليّة

إن حملة كبيرة طالت زراعة القنّب، تزامنت مع وعود بتأمين زراعات بديلة ومنتجة، لكن هذه الوعود لم تُنفّذ وبقيت منطقة بعلبك - الهرمل أسيرة الفقر والعوَز، ومع التوجّه في هذه المرحلة بتشريع زراعة القنّب من أجل استخدامه في الأغراض الطبّية، كان لا بدّ من وضع أُطر قانونية وتنظيمية لازمة كوضع هيكلية إدارية شبيهة بإدارة حصر التبغ والتنباك اللبنانية.

من الواضح أنّه مع تشريع زراعة القنّب، فتح الباب واسعًا حول تنظيم هذا القطاع والنتائج المتوخّاة منه، ففي هذا الإطار يبرز السؤال الرئيس الآتي:

إلى أي مدى يساهم تشريع زراعة القنّب الهندي في تنمية الاقتصاد الوطني والحدّ من الأزمة الاقتصادية والمالية التي تمرّ بها البلاد منذ العام 2019؟.

الفرضية

بناءً على الإشكالية المطروحة، يستعرض البحث الفرضيات الآتية:

- يمكن تحويل زراعة القنّب إلى اقتصاد رسمي يساهم في تخفيف البطالة

وتحريك عجلة الدولة الاقتصادية (زيادة فرص العمل، وزيادة حجم الاقتصاد، ورفع نسبة الدخل القومي).

- تستطيع الدولة بمختلف أجهزتها الإدارية والقضائية والأمنية وغيرها، ضبط زراعة القنّب ومسار استعماله بإطاره الطبّي ومنع تفلّت الأمور.
- إن استخدام القنّب في الداخل لأغراض طبّية سيؤدي إلى إنشاء مصانع أدوية جديدة، كما إن تصديره إلى الخارج سيوفّر مردوداً اقتصادياً ومالياً كبيراً.

أهداف البحث

تتلخّص أهداف البحث في الآتي:

- التعرّف إلى تاريخ زراعة القنّب في لبنان، ودوافع زراعتها.
- التعرف إلى استخدامات القنّب المختلفة.
- التعرّف إلى مضارّ القنّب وفوائده اجتماعياً واقتصادياً.
- استعراض تجارب الدول التي شرّعت زراعة القنب الهندي واستخدامه.
- التعرّف إلى الأسباب التي دفعت الجهات الرسمية إلى تشريع القنّب (صناعة الأدوية، وتحسين الوضع الاقتصادي).

أولاً. واقع زراعة القنّب في لبنان

يُعرف لبنان بأنّه أحد البلدان الرئيسية المنتجة للقنّب الهندي، رغم الحظر التامّ على زراعته. واليوم، تسعى الحكومة والمجلس النيابي إلى تشريع هذه الزراعة، ليدخل استعماله لأغراض علاجية بهدف دفع عجلة الاقتصاد، وهنا لا بدّ من الحديث عن تاريخ اكتشاف القنّب ومدى انتشاره في لبنان ومقارنته بالزراعات البديلة.

أ. القنّب وتاريخ اكتشافه

القنّب هي كلمة لاتينية معناها ضوضاء، وقد سمي القنّب بهذا الإسم، لأن متعاطيه يحدث ضوضاء بعد وصول المادة المخدرة إلى ذروة مفعولها. والقنّب هو مخدّر

Cannabis Sativa، يُزرع في المناطق الاستوائية والمناطق المعتدلة[1]. والقنّب هو السائل المجفّف من المادة الصمغية، بينما الماريغوانا تستهلك بشكل عشبي. ويعتبر القنّب أكثر المخدرات انتشارًا في العالم نظرًا لزهادة ثمنه[2].

تعود معرفة الإنسان بالقنّب إلى العصور الوسطى، وأصل الكلمة هو فارسي ويعني «قاتل»، وسبب إعطاء هذا الإسم لهذه النبتة، يعود إلى وجود عصابات في ذلك الوقت كانت تقتل تحت تأثير القنّب، كما إنه أخذ دوراً كبيراً في المجتمع الأوروبي مع حملة نابوليون بونابرت، ففي البداية استُخدم لتخفيف آلام الجنود المصابين، ولكن سرعان ما انتشر في باريس في المجتمعات الراقية، حيث تواجد المجتمعون في نزل خاص، ويلبسون كفّية عربية ويقومون بتدخين القنّبية. ومع الوقت عمدت دول عدة إلى تشريع استهلاك القنّب (هولندا) وزراعتها (الأوروغواي). وتصنّف نبتة القنب في أربع فئات: المغربيّة، الأفغانية، اللبنانية (أصلها هندي) والأفريقية، وتتميّز الأصناف عن بعضها البعض بصفات عدّة من بين اللون، الطعم، المفعول[3].

ب. القنّب في لبنان

دخلت زراعة القنّب لبنان في أربعينيات القرن الماضي، ساعدها في ذلك أجواء الحرب السائدة، كما وطبيعة الأرض البقاعية الخصبة ووفرة المياه. فتُزرع شتلته ما بين شهري شباط وآذار من كل عام، وتُروى حتى شهر أيلول، ليتمّ بعد ذلك حصدها مثل القمح بواسطة منجل.

وتتركّز زراعة القنّب أساساً في سهول منطقة البقاع الخصبة والفقيرة في الوقت

---

(1) Ethan B. Russo: **Cannabis And Cannabinoids, Pharmacology, Toxicology, And Therapeutic Potential**, The Haworth Integrative Healing Press, New York, 2022, P14.

(2) Sharon Rodner Sznitman, Emcdda, Lisbon, cannabis reader: **global issues and local experiences**: Volume 1, European Manitoring Center for drugs and Drug Addition, Belgium, 2008, p3.

(3) Johnston L Schulenberg: **Monitoring the Future National Survey Results on Drug Use, 1975-2015**: *Overview: Key Findings on Adolescent Drug Use.* Ann Arbor, MI: Institute for Social Research, The University of Michigan; 2015, p13.

نفسه. وتمتدّ المنطقة الواقعة شرق البلاد على مساحة (**120**) كلم²، من الشمال إلى الجنوب. وتعود هذه الزراعة في لبنان إلى عدة قرون منذ العهد العثماني على الأقلّ.

استمرّت زراعة القنّب، بشكل بدائي حتى بداية الحرب الأهلية التي شجعت زراعته، وحوّلت هذه الزراعة إلى صناعة زراعية تُستخرج منها منتوجات مختلفة، بواسطة ماكينات حديثة. وعملت بعض القوى السياسية على تأمين الغطاء الأمني للمزارعين، والتكّفل بالنقل والأسواق لهذه البضائع.

فأثناء حرب لبنان (1975-1990)، شكل القنّب مصدر دخل مالي أساسي للقوى العسكرية المشاركة في النزاع على اختلاف مذاهبها الطائفية. وفي منتصف الثمانينيات قدّرت أجهزة الاستخبارات الغربية إنتاج القنّب بأكثر من (**1814**) طنًا سنوياً في لبنان الذي أصبح في ذلك الوقت أحد المراكز الرئيسية لتجارة المخدّرات في العالم. وكان ذلك يضمن، بالإضافة إلى إنتاج الهيرويين والكوكايين، قرابة (**4**) مليارات دولار، من الربح السنوي لبارونات المخدّرات المحليّين[1].

توزّعت الأرباح بين القوى العسكرية والسياسية والمزارعين، فاستمر نموّ الزراعة حيث بلغت نسبة الأراضي المزروعة نصف الأراضي الصالحة للزراعة بما يعادل نحو (**55000**) هكتار في العام 1980.

فمنذ العام 2000، أطلقت مختلف الحكومات اللبنانية المتعاقبة، عمليات تهدف إلى القضاء على زراعة القنّب ونبات الخشخاش التي تمثّل مصدر قوت عائلات بأكملها، ولم تنفكّ تطالب بتشريعها. لكن السلطة القائمة ببيروت لم تنجح في القضاء عليها، إذ فشلت في ضمان مشروع شامل للتنمية البديلة في المنطقة، أو في ضمان تعويض المزارعين عن الخسارة الناتجة في حال أوقفوا بَيْع حصادهم لتجّار المخدرات المحليّين. ففي بداية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، كان هكتاران يوفران عشرات آلاف الدولارات سنوياً.

(1) مها بن عبد العظيم: **الحشيش في لبنان، من العثمانيين إلى الميليشيات المسلحة.. ونحو التشريع؟**، موقع France 24 الإلكتروني، تاريخ النشر 23/ 07/ 2018، شوهد بتاريخ: 22/ 01/ 2024، على الرابط: https://www.france24.com/ar/2018.

إن الاتفاقات بين الدولة اللبنانية والحكومات الغربية، لا سيّما الأوروبية التي تُعتبر أهمّ وأكبر سوق لصادرات لبنان من القنّب، أدّت إلى لجم زراعة القنّب مع **(1100)** هكتار فقط في العام 2010، مقارنة بـ **(55000)** هكتار في العام 1980. لكن بعدما شهدت المنطقة حروباً متنقّلة، وعدم استقرار أمني وسياسي واقتصادي، ارتفعت المحاصيل، ما دفع بالمزارعين إلى زيادة الأراضي المزروعة بالقنّب، حتى بلغت المساحة المزروعة في العام 2013، ما يوازي الـ **(3,500)** هكتار[1].

ج. زراعة القنّب والزراعات البديلة

إن مزارعي القنّب هم عادةً مواطنون من الطبقة الفقيرة، ما يدفعهم إلى زراعته هو قبل كل شيء، حاجتهم لتأمين مستلزمات العيش، وهو واجب الدولة التي لم تقم به تجاه المناطق الطرفية ـ البقاع، عكار والجنوب ـ طيلة عشرات السنين. وهذا الغياب خلق خللاً في التوازن الاجتماعي بين المناطق اللبنانية.

كما إن لهؤلاء المزارعين حقّ على الدولة بتأمين عمل كريم، وفي الحدّ الأدنى القيام بالإرشاد الزراعي، وإنشاء التعاونيات والمؤسسات التعليمية وتصريف الإنتاج، وهناك الكثير من الأعمال التي تدرّ أموالاً طائلة على المزارعين وعلى الدولة اللبنانية في آن معاً، من بينها:

- **زراعة القمح**: الذي تستورده الدولة اللبنانية، فالدعم الذي تقوم به لاستيراده يُمكن أن يكون لصالح المزارعين في البقاع وعكار والجنوب.
- **زراعة الذرة**: هذه النبتة لها استخدامات كثيرة كالزيت والخبز ، تُستخدم أيضاً بإنتاج الطاقة.
- **تربية الحيوانات**: نحن نعلم أنّ العالم بدأ يعاني أزمة لحوم بقر، وإنه بحلول العام 2050، ستأخذ هذه الأزمة أبعاداً كارثية.

إن كلّ ما سبق لا يُمكن أن يكون إلّا ضمن إطار استراتيجية إنماء مناطقي متوازن،

---

(1) مها بن عبد العظيم: **الحشيش في لبنان، من العثمانيين إلى الميليشيات المسلحة.. ونحو التشريع؟**، مصدر سابق.

يسمح بتفادي مشاكل اجتماعية تدفع بمواطن شريف إلى أن يُصبح خارجاً عن القانون[1].

ثانياً. استخدامات القنب

إن للقنّب الهندي استخدامات متعدّدة، تدخل في المجالات الصناعية والطبية، ودخوله في بعض الصناعات الكبرى كمادة رئيسة، هذا مع ما له من ميزة نقدية زهيدة بسعره، لا سيّما إذا ما تمّ استخراجه من الأراضي اللبنانية، ويمكن ذكر أبرز استخداماته:

أ. الاستخدامات الصناعية

يدخل استخدام القنّب في الصناعات المتنوّعة، ويساهم في تحسين جودتها، وأبرز تلك الصناعات:

- **النسيج**: يُستخدم في صناعة الأقمشة بفضل قوّته ومتانته.
- **البناء**: يُستخدم كمادة عازلة، وفي صناعة الخرسانة القنّبية لتحسين العزل الحراري.
- **الورق**: يُعتبر بديلاً مستدامًا للورق المصنوع من الأشجار.
- **البلاستيك الحيوي**: يُستخدم في صناعة البلاستيك القابل للتحلّل البيولوجي.
- **الوقود الحيوي**: يُمكن استخدام زيت القنب كبديل للديزل[2].

ب. الاستخدامات الطبية

إضافة إلى الاستخدام الصناعي، يدخل القنّب ضمن العلاجات الدوائية في العديد من الحالات المرضية، كما إنه يفيد في العلاج العصبي، في الحالات التالية:

- **التسكين**: يُستخدم لتخفيف الألم، بخاصّةً الألم المزمن والصداع النصفي.

---

(1) وسيم الزهيري: **الحشيش بلبنان، نحو التشريع لأسباب اقتصادية وطبية**، موقع **الجزيرة نت** الإلكتروني، تاريخ النشر 2018/ 7/ 27، شوهد بتاريخ 20/ 1/ 2024، على الرابط: https://www.aljazeera.net/news.

(2) أسماء حسن: **بعد مصادقة المغرب على تقنينه**، موقع **أندبندت عربي** الإلكتروني، تاريخ النشر 12/ 3/ 2021، شوهد بتاريخ 16/ 1/ 2024، على الرابط: https://www.independentarabia.com/node.

- **التخدير**: يُمكن استخدام مستخلصات القنّب في تركيبة أدوية التخدير.
- **الاضطرابات العصبية**: يُستخدم في علاج بعض الاضطرابات مثل الصرع.
- **الاضطرابات الهضمية**: يُساعد في علاج التهابات الجهاز الهضمي.
- **الأمراض الجلدية**: يُستخدم زيت القنب لفوائده على الشعر والبشرة.

تُظهر هذه الاستخدامات، كيف يمكن للقنّب الهندي أن يساهم في مجالات متعدّدة بفضل خصائصه المتنوّعة. ومع ذلك، من المهمّ الإشارة إلى أن استخدام القنّب يجب أن يكون وفقًا للقوانين والتشريعات المحلية، وتحت إشراف مختصّين لضمان الاستخدام الآمن والمسؤول(1).

ج. الاستخدامات الصناعيّة

يمكن للقنّب الهندي أن يدخل في الصناعات المختلفة:

- **ألياف للسيارات**: تتميّز ألياف القنّب بالاستقرار والمرونة وخِفّة الوزن وإمكانيّة تحلّلها بشكل حيوي، ما يجعلها بديلًا ممتازًا عن البلاستيك. وينظر مصنّعو السيارات الكهربائية إلى القنّب كمكوّن جيّد لهياكل وأجزاء داخلية في السيارات(2).
- **زيت القنب كبديل للديزل**: يمكن استخدام زيت محصول القنّب كبديل للديزل، ما يساهم في تقليل الاعتماد على الوقود الأحفوري.
- **أقمشة عجيبة**: يمتلك القنّب كفاءة تعادل ستة أضعاف كفاءة القطن في استهلاك الماء، ويمكن استخدام مساحة محدّدة لزراعة قنب يعادل ثلاثة أضعاف القطن الذي يحتاج ذات المساحة، وينتج كلاهما نفس الكمية من ثاني أوكسيد الكربون خلال كافة مراحل الإنتاج(3).

---

(1) أسماء حسن: بعد مصادقة المغرب على تقنينه، مصدر سابق.

(2) لا اسم: **ماذا تعرف عن فوائد القنب المدهشة؟** موقع **ناشيونال جيوغرافيك** الإلكتروني، تاريخ النشر 9/ 10/ 2022، شوهد بتاريخ 16/ 1/ 2024، على الرابط: https://ngalarabiya.com/article/4321545.

(3) المصدر نفسه.

د. التغذية والصحة

استخدامات القنب الهندي في التغذية والصحة متعددة، تشمل[1]:

- **التغذية**: تُعتبر بذور القنّب الهندي «سوبرفود» لغناها بالمواد المضادة للأكسدة، فيتامين E، وفيتامين B12، وهي مصدر جيّد للبروتين والأحماض الأمينية والألياف وأوميغا-3.
- **الصحّة العامّة**: يُستخدم القنّب في علاج القلق والالتهابات، ويُعتقد أنّ له دورًا إيجابيًا في علاج الصرع والألم المزمن والإدمان.
- **مضادّ للجراثيم**: اكتشف باحثون أن كانابيديول يقتل أنواعًا من البكتيريا بفعالية عالية، ما يجعله مرشحًا للاستخدام في المضادات الحيوية.

هـ. التنمية المستدامة

يمكن أن تساهم استخدامات القنّب الهندي أيضاً في التنمية المستدامة بعدة طرق، منها[2]:

- **ترشيد استعمال الماء**: يحتاج القنب الهندي إلى كميات أقلّ من الماء مقارنة بالمحاصيل الأخرى، ما يساعد على توفير الموارد المائية.
- **احترام الدورات الفلاحية وتناوب المحاصيل**: يمكن أن تكون زراعة القنّب جزءًا من نظام تناوب المحاصيل الذي يساعد على الحفاظ على خصوبة التربة وتقليل الحاجة إلى الأسمدة الكيميائية.
- **حماية المياه الجوفية**: بفضل الاستخدام السليم للبذور والمبيدات، يمكن لزراعة القنّب أن تقلّل من تلوّث المياه الجوفية.
- **الحدّ من إزالة الغابات**: يمكن أن يقلّل استخدام القنّب في صناعة الورق والمنتجات الأخرى من الحاجة إلى قطع الأشجار، ما يساهم في الحفاظ على الغابات.

---

(1) لا اسم: ماذا تعرف عن فوائد القنب المدهشة؟ مصدر سابق.

(2) لا اسم: تقنين القنب الهندي: **تأثير إيجابي على البيئة**، موقع 2M.ma الإلكتروني، تاريخ النشر 3/ 3/ 2022، شوهد بتاريخ 22/ 1/ 2024، على الرابط: https://2m.ma/ar/news/.

- **فلاحة تحترم البيئة:** يمكن أن يُزرع بطرق تحترم التنوّع البيئي، وتقلّل من الاعتماد على المبيدات الضارّة.

بالإضافة إلى ذلك، يُعتبر القنّب الهندي محصولًا متينًا ولا يحتاج إلى الكثير لينمو، ما يجعل استخدام المبيدات أمرًا غير ضروري، وهذا يقلّل من التأثير السلبي على البيئة.

ثالثاً. فوائد تشريع زراعة القنّب في لبنان ومضارّه)

كان تشريع زراعة نبتة القنّب واستخدامها، أو «النبتة المباركة» كما يرغب بتسميتها أهالي البقاع الشمالي، وما زال موضع نقاش بين مؤيّدين ومعارضين، ويمكننا سرد بعض فوائد تشريع زراعة ومضارّه، واستخدام نبتة القنّب، ليتشكل صورة كاملة عن الموضوع.

أ. فوائد تشريع القنّب

يمكن طرح بعض الفوائد لتشريع زراعة القنّب وتجارته، مع الضوابط والإشراف الرسمي للدولة اللبنانية، وحسن استخدامه في بعض المجالات الاقتصادية والطبّية والصناعية، وأبرز تلك الفوائد:

- **زيادة المردود المالي:** بينما تتخبّط الحكومة بعجز مالي في الموازنة، تتراكم الديون التي تقدّر بمليارات الدولارات، يجتهد بعض السياسيين بطرح قوانين زيادة الضرائب على المواطن لسدّ الثغرات، فيما يرى بعض الاقتصاديّين أن تشريع القنّب يحرك عجلة الاقتصاد من خلال فرض ضرائب على زراعة القنّب وتوزيعها. ففي ولاية كولورادو الأميركية وصل مردود الضرائب من بيع القنّب فقط إلى مئة مليون دولار سنة 2015.
- **تفعيل العدالة الجنائية:** يعتقد مؤيدو تشريع القنّب، أن هذه الخطوة سوف تتيح أمام القوى الأمنية والقضاء فرصة تسخير نشاطهم لمحاربة قضايا ذات أهمية أكبر، كجرائم الإرهاب والقتل، وبرزت مؤخّراً قضية الإتجار بالبشر.

- **دعم مكافحة الجريمة المنظّمة**: من خلال تشريع القنّب وفرض الحكومة سلطتها على هذا المجال، تكون قد قطعت الطريق أمام وصول هذه الكمّية الهائلة من الأموال إلى رجال العصابات الذين يحتكرون تجارة القنّب، ويستخدمونها في بسط سلطتهم وتنفيذ خطتهم الإجرامية والإرهابية
- **تعزيز ضوابط السلامة**: قد لا يفرّق العديد من اللبنانيين بين أنواع المخدّرات الطبيعي من المصنّع منها، فيعتبر كلّ الكوكايين والهرويين وحبوب الكبتاغون من المواد المخدِّرة المصنَّعة، وتدخل في صناعتها العديد من المواد الكيميائية التي تفتك بجسد الإنسان. فهنا يقع دور الدولة عند تشريع القنّب بفرض حظر على استعمال تلك المواد والتأكّد من عدم دخول أي من المواد الكيميائية المضرة في صناعة القنّب[1].

ب. مضارّ تشريع القنّب

إن لكلّ عمل منافعه ومضارّه، وتتحدّد وجهة كل منها بحسب الاستخدام والمسار الذي يسلكه، وهذا ما ينطبق على القنّب، فهو في حال السير به في المسار الصحيح والسليم، فإنه يمكن أن يكون مفيداً لدرجة كبرى، أما بحال السير وفق المضارّ أو النهج المعاكس، فإن سلبيّاته تتعاظم لدرجة لا يمكن تصوّرها، بل قد تؤدي إلى تدمير الإنسان والمجتمع الإنساني، وهذا من أعظم قبائحه ومخاطره، لذلك يمكن طرح عدد من سلبيات استخدام القنّب وما له من مضارّ[2]:

- **الإدمـان**: يرى مؤيدو تشريع القنّب أن هذا النوع من المخدِّر لا يدمن عليه مستخدمه كما يحصل بالنسبة للمخدّرات الأخرى مثل الهرويين وغيره. لكن اختصاصيي معالجة إدمان المخدّرات، يؤكدون أن الأشخاص الذين أفرطوا في استخدام القنّب أصبحت من مقوّمات حياتهم، وبتركها تصبح لديهم حالة

---

(1) سعيد العرم: **تشريع زراعة الحشيشة: هذه الحسنات والسيئات**، موقع **جريدة الأنباء الإلكتروني**، تاريخ النشر 21/ 4/ 2016، شوهد بتاريخ 15/ 2/ 2024، على الرابط: https://archive.anbaaonline.com/?p=427213.

(2) المصدر نفسه.

من الانهيار تتراوح ما بين القلق والمزاج السيّء والحادّ.

- **باب للدخول إلى عالم المخدرات**: يعتقد اختصاصيّو معالجة تعاطي المخدّرات، أن القنّب يفتح الباب أمام مستخدمها لتجربة المخدِّرات ذات المفعول الأقوى والأخطر، لا سيّما فئة المراهقين الذين يسيئون استخدامها كما غيرها من المشروبات الكحولية، ما يعرّضهم لشتى أنواع المخاطر. وبذلك يتحول تشريع القنّب من نعمة إلى نقمة على المستوى الاجتماعي.
- **القيادة تحت تأثير القنّب**: إن تعاطي القنّب لا يمكن أن يعتبر جريمة بلا ضحايا، استناداً إلى كلّ الأفعال التي قد يقوم بها مستخدمها تحت تأثير المخدِّر. ومن أكثر أسباب الحوادث على الطرقات هي القيادة تحت تأثير المخدِّر، وفي غالب الحالات يكون هذا المخدر هو المشروبات الكحولية التي يسهل اكتشافها، ويتمّ توقيف السائق في بعض الأحيان، أمّا في حالة القيادة تحت تأثير القنّب فمن الصعب اكتشاف الأمر، ما يصعّب المَهمّة على رجال الأمن.
- **الضرر المباشر على الدماغ والجهاز العصبي**: يربط العلماء والاختصاصيّون الاستخدام المفرط للحشيش ببعض الأمراض العقلية، مثل الإحباط وانفصام الشخصية، وتشير الدراسات إلى أن الأوعية الدموية تتعرّض لضخّ محدود للدم، ما يعيق وظيفة الدماغ.
- **خطر الإصابة بأمراض القلب و ضعف عمل الرئة**: يزيد استخدام القنّب معدّل نبضات القلب من (**20** إلى **100** ٪)، ما يزيد إمكانية إصابة المستخدم بعدم انتظام ضربات القلب وخفقان القلب السريع والنوبات القلبية. وهذه حالات تهدّد سلامة مستخدمها، لا سيّما إذا ما كان يعاني مسبقاً من مشاكل مماثلة.

رابعًا: تجارب الدول المشرّعة لزراعة القنّب

تمّ وضع القنب لأول مرة تحت السيطرة الدولية بموجب اتفاقية الأفيون الثانية لعام 1925 (عصبة الأمم، 1925)، وقد أُشير إلى القنّب في المادة (**1**)، بإسم القنّب الهندي، وذكرت بعض أصنافه الغنية بشكل خاص في «الراتينج النشط القوي دوائيًا». وقد



حظرت اتفاقية العام 1925، تصدير راتينج القنّب إلى البلدان التي حظرت المادة (11) (أ) استخدامه، والضوابط المحليّة المطلوبة، مثل العقوبات المفروضة على الحيازة غير المصرح بها المستخلص القنب وصبغته المواد (4 ـ 7).

ونصّت الاتفاقية على وجوب معاقبة أي خرق للقوانين الوطنية بعقوبات «مناسبة» (**المادة 28**). وأقرّت الأمم المتحدة ثلاث اتفاقيات تتعلّق بالمخدرات والمؤثرات العقلية: الأولى في العام 1961، وقد عدّلت سنة 1972، والأخيرة في العام 1988، تتعلّق بمكافحة الإتجار غير المشروع بالمخدّرات والمؤثرات العقلية، وانضم إلى الاتفاقية (**189**) دولة، وأقرّها الاتحاد الأوروبي.

وتصف الاتفاقيات الثلاث الإطار الأساسي للتحكم في إنتاج وتداول وحيازة أكثر من (**240**) مادة، ذات تأثير نفسي (معظمها لها استخدام طبي معترف به). هذه المعاهدات تصنّف المخدّرات والمؤثّرات العقلية وفقًا لخطرها على الصحة، ومخاطر الإساءة والقيمة العلاجية.

واستنادًا إلى تقرير الهيئة الدولية لمراقبة المخدّرات للعام 2023، يبدو أن ثمّة خلل في التحكّم بمسار الدول ومراقبة العمليات المرتبطة بالمخدّرات، ومن أجل تعزيز عمل نظام المراقبة الدولية للمخدّرات، وتطبيق المعاهدات الدولية ذات الصلة، فإن الهيئة الدولية لمراقبة المخدّرات تواصل العمل الوثيق مع جميع الحكومات بغرض التشجيع على التصديق الكامل على الاتفاقيات الدولية الثلاث لمراقبة المخدرات، وتنفيذها في إطار القانون الداخلي[1].

ويتحدّد الإطار الدولي لمراقبة المخدّرات بأهداف متعدّدة، منها ما يلي:

- التنظيم الرقابي لجميع أشكال التجارة المشروعة في العقاقير المخدرة والمؤثرات العقلية والموارد المستعملة في صنع تلك المواد المشروعة، مع منع تسريبها إلى القنوات غير المشروعة.
- ضمان الحصول على الأدوية المحتوية على مواد خاضعة للمراقبة بالقدر

(1) للمزيد راجع: لا اسم: **تقرير الهيئة الدولية لمراقبة المخدرات، تقرير 2016**، صادر عن الأمم المتحدة، تاريخ كانون الثاني 2017، ص 11 ـ 12.

الكافي للأغراض الطبية المشروعة لمن يحتاجونها.

- إنشاء مرافق للعلاج وإعـادة التأهيل والرعاية بعد العلاج وإعـادة الإدماج الاجتماعي بغية التصدي لتعاطي المخدرات والإدمان.
- التصدّي لجرائم المخدرات بطريقة متناسبة ومترسّخة في سيادة القانون، وضمانات الأصول القانونية، وتتيح اتّخاذ تدابير مؤسّسية للتصدّي لارتكاب الأفراد المتعاطين للمخدّرات أو المدمنين عليها.
- تيسير المساعدة القانونية المتبادلة وتسليم المطلوبين ومكافحة غسل الأموال[1].

وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف، فرضت الاتفاقيات على الدول اعتماد «مجموعة متكاملة من التدابير القانونية والسياساتية والتنظيمية»، بما يضمن صحة الإنسان وما فيه مصلحته.

وبطبيعة الحال، يمكن تحقيق إلتزام الدول ذات السيادة التامّة، بما فيها القدرة على الضبط في الإقليم الخاضع لها، والتحكّم بالممرّات، ومراحل وسلسلة إعداد المخدّرات، وتمتاز بقوانين حكم ملزمة وأجهزة رقابة فعّالة، وسلطة قضائية نافذة، وانعدام فساد، والتزام اجتماعي شامل.

أ. الولايات المتحدة الأميركية

تسمح معظم الولايات في أميركا، بالحصول على القنّب للأغراض الطبّية، ويُسمح بتعاطي القنّب للأغراض الترويجية في ثمان ولايات ومقاطعة كولومبيا، حيث تمنح الأخيرة للشركات الربحية لإنتاج مجموعة من المنتجات وبيعها،، تدخل في استعمال القنّب في الأغراض الطبية وغير الطبّية. وفي الولايات التي يُسمح فيها بتعاطي القنّب للأغراض الترويحية، زاد تعاطي القنب بين السكان البالغين، وهو لا يزال أعلى من المتوسّط الوطني، وقد بدأت الزيادة الكبيرة في تعاطي القنّب في تلك الولايات في العام 2008، بالتوازي مع تدابير تسمح باستعمال القنّب في الأغراض الطبّية، ولوحظ أن الزيادات في تعاطيه على نطاق الولايات المتحدة، ترتبط بنموّ غير متناسب بالبالغين

(1) لا اسم: تقرير الهيئة الدولية لمراقبة المخدرات، تقرير 2016، مصدر سابق، ص 12.

ذوي المكانة الاجتماعية والاقتصادية المتدنّية، ممّن يتعاطونه بانتظام وبكميّات كبيرة.

وتعدّ التدابير المتخذّة من جانب الولايات المتحدة بشأن استخدام القنّب لأغراض طبية وغير الطبية على السواء، مصدر قلق للهيئة الدولية لمكافحة المخدّرات، لعدم مطابقتها للشروط والمعايير الدولية المنصوص عليها، رغم الكلفة المالية العالية للخطّة الاستراتيجية المعتمدة من الإدارة الأميركية في العام 2016، للتصدّي للإدمان ومكافحة المخدرات والمؤثرات الناتجة عنها، ذلك أن التدابير المتّخذة المتعلّقة بإباحة بيع القنب وتنظيمه لأغراض ترويحية، من جانب عدة ولايات أميركية، بالنسبة للهيئة لا يمكن أن تتّفق مع الالتزام القانوني المنصوص عليه في الفقرة (ج) من المادة (**4**)، من اتفاقية 1961، بقصر إنتاج المخدرات وصنعها وتصديرها واستيرادها وتوزيعها والإتجار بها واستعمالها وحيازتها، على الأغراض الطبية والعلمية دون سواها.

وكذلك فإن العديد من الأطر القانونية والتنظيمية في الولايات التي تسمح باستخدام القنّب للأغراض الطبية، لا تتوافق تماماً مع المادتين (**23** و **28**) من اتفاقية 1961، التي تحدّد الشروط التي ينبني تلبيتها من أجل وضع برنامج للقنّب الطبي.

وتلاحظ الهيئة بقلق شديد، مشكلة تعاطي المؤثّرات الأفيونية وعقاقير الوصفات الطبية والهيروييني على نطاق واسع، التي لا تزال تؤثّر على الولايات المتّحدة، وتودي بحياة عشرات الآلاف من الضحايا كل عام، حسبما يرد بالتفصيل في الفصل الثالث من هذا التقرير، وتوصي الهيئة باعتماد إدارة مكافحة المخدّرات لخطّة عمل شاملة للتصدّي لإدمان المؤثّرات الأفيونية.

ب. كندا

بدأ التوجّه المعلن لدى الحكومة الكندية المنتخبة في تشرين الأول 2015، على إباحة القنّب للأغراض غير الطبّية، من خلال سنّ تشريع جديد من أجل تنظيم استعماله قانونيًا. واقترح مشروع القانون من قبل نواب عن الحزب الليبرالي، وسط معارضة شديدة من قبل الحزب المحافظ في مجلس الشيوخ. وبقي الجدل قائماً في كندا بشأن إقرار قانون تشريع القنّب لأغراض ترفيهية إلى أن صوّت مجلس الشيوخ الكندي في حزيران 2018، بالأغلبية لصالح قرار يقضي بتشريع استخدام القنّب لأغراض ترفيهيّة،

حيث أعلن رئيس الوزراء جاستن ترودو، أن استهلاك الماريجوانا وزراعتها وثقافتها، ستصبح قانونية ابتداء من 17 تشرين الأول 2018. وأصبحت كندا بعد هذا القرار، أول دولة من مجموعة السبع تُشرّع استعمال القنّب، بعد خمس سنوات على تشريعه في الأوروغواي لأول مرّة في العالم. وكان استخدام القنّب ممنوعاً في كندا منذ العام 1923، ثم سمحت الحكومة باستخدامه لأغراض طبّية في العام 2001. وبموجب القرار الجديد سيسمح للبالغين من عمر **(18)** سنة فما فوق، شراء القنّب واستهلاكه وزراعته، بكميات محدودة وسيتم بيعه في أماكن خاصّة تشرف عليها الحكومة.

والجدير ذكره أن الحكومة الكندية ومقاطعاتها، كانت اتخذت عددًا من الإجراءات التشريعية والسياسات، وتدابير إنفاذ القانون، لمواجهة الارتفاع في حالات تعاطي الجرعات المفرطة واستشراء المخدرات المخلوطة بالفينتانيل، من بينها تدابير التوعية والعمل بتعاون مع محرّري الوصفات الطبّية ومقدّمي الخدمات، لتزويدهم بأدوات مناسبة في هذا الشأن، ومعالجة المشاكل المرتبطة بالحصول على المؤثرات الأفيونية وعلى العلاج[1].

ج. أستراليا

عدّل البرلمان الأسترالي قانون المخدرات الصادر في العام 1967، في شباط 2016، بالسماح قانونًا بزراعة القنّب ليدخل في المنتجات الطبّية. وكان من المقرر دخول هذا التعديل حيّز النفاذ في 30 تشرين الأول 2016، وبموجب مشروع القانون المعدّل، سمح بوضع نُظم لمنح التراخيص والتصاريح لعام 2016، لزراعة القنب وإنتاجه، وراتنج القنّب للأغراض الطبية والعلمية، ومراعاة الشواغل التي يثيرها تعاطيه وتسريبه، فقد وضعت اتفاقية سنة 1961، مجموعة إضافية من تدابير المراقبة المنصوص عليها في المادتين **(23** و **28)**، التي يجب تنفيذها لجعل البرامج التي تنطوي على استخدام القنّب مماثلة للاتفاقية، التي تُعدّ أستراليا دولة طرفاً فيها.

وبموجب القانون الأسترالي، فإن التجارب الطبّية، أو تجريم المخدّر، يندرج في

(1) لا اسم: تقرير الهيئة الدولية لمراقبة المخدرات، تقرير 2016، مصدر سابق، ص 58.

إطار الاختصاص القضائي لحكومة كل ولاية، بينما تظلّ الحكومة الاتحادية مسؤولة عن تنظيم زراعة المخدر واستيراده. ويمكن أن تمهّد هذه التغييرات المقترحة على التشريع، الطريق أمام صناعة القنّب الطبّية الأسترالية، مع إمكانية التصدير لخارج البلاد أيضًا[1].

وفي العام 2018، قرّرت أستراليا السّماح بتصدير القّنب الهندي لأغراض طبّية، بغية توسيع آفاق عمل المنتجين المحليّين واكتساب موقع رائد في هذا المجال على الصعيد العالمي. ورأت الحكومة الأسترالية في هذا القطاع فرصة تَعِد بالنموّ الاقتصادي. وحصلت أوّل مزرعة على رخصة في آذار، وأعطي الضوء الأخضر لاحقًا لعدة منشآت يُزرع فيها القنّب الهندي لأغراض العلاج.

وقال وزير الصحة الأسترالي، غريغ هانت، لقناة «إيه بي سي»، أن أستراليا تطمح إلى أن تكون أكبر منتج في العالم للقنب الهندي لدواعي العلاج، غير أن السوق الوطنية تبقى على رأس أولويات القطاع، بالرغم من منح رخص تصدير[2].

د. أوروغواي

تميّزت الأوروغـواي بأنها أول دولة في العالم تسمح بتعاطي القنّب للأغراض الترويحية، ففي العام 2013، أقرّت حكومة أوروغـواي تشريعاً ينظّم زراعة القنّب وإنتاجه وتوزيعه وتعاطيه للأغراض الترويحية. ومنذ ذلك الحين، أصدرت الحكومة المزيد من المراسيم والأوامر بشأن تنفيذ عناصر محدّدة من اللوائح المنظِّمة للقنّب، تشمل تنظيم استعماله للأغراض الطبّية، وتسويقه وتوزيعه للأغراض الترويحية عن طريق قنوات منها الصيدليات، وتسجيل المتعاطي للأغراض الترويحية. بيد أن أثر الأحكام المنظّمة التعاطي ضمن الأغراض الترويحية، لن يتّضح إلّا بعد تنفيذها

(1) لا اسم: **استراليا تسمح بزراعة الماريخوانا من أجل الأغراض الطبّية**، موقع **روسيا اليوم** الإلكتروني، تاريخ النشر 18/ 10/ 2015، شوهد بتاريخ 12/ 2/ 2024، على الرابط: ttps://arabic.rt.com/news/797299.

(2) لا اسم: **أستراليا تجيز تصدير القنب الهندي لأغراض العلاج**، موقع بوابة **الوسط** الإلكتروني، تاريخ النشر 4/ 1/ 2018، شوهد بتاريخ 15/ 3/ 2024، على الرابط: .https://alwasat.ly/news/health-medicine/154336

بالكامل، وسوف يتطلب رصداً وثيقًا بمرور الوقت. واتخذت الأورغـواي تدابير تشريعية بهدف إنشاء سوق منظّمة لاستخدام القنّب لأغراض غير طبية، ومنذ 19 تموز 2017، بدأت عشرات الصيدليات ببيع المنتج تحت سيطرة الدولة من خلال مراقبة إنتاجها وتوزيعها، وتأمل التمكّن من مكافحة المخدّرات، واستعادة السيطرة على سوق تجارته، حيث تقدّر قيمة السوق السوداء **(40)** مليون دولار سنوياً.

وعلى المستوى الأممي، تؤكد الهيئة الدولية لمراقبة المخدرات، أن التشريعات التي تتّبعها الحكومة في الأوروغواي، تتعارض مع أحكام الاتفاقيات الدولية في هذا المضمار، لا سيّما الأحكام التي تنص عليها المادة **(4)**/ **(ج)** من اتفاقية سنة 1961، بصيغتها المعدّلة، والتي تلزم الدول الأطراف بـ «قصر إنتاج المخدّرات وصنعها وتصديرها واستيرادها وتوزيعها والإتجار بها واستعمالها وحيازتها على الأغراض الطبّية والعلمية دون سواها». وعلاوة على ذلك، فإن كل دولة طرف ملزمة، وفقًا للفقرة **(1)**/ **(أ)** من المادة **(3)** من اتفاقية سنة 1988، بأن تتّخذ ما يلزم، في إطار قانونها الداخلي، اتّخاذ أي تدابير لكي تجرّم، في إطار قانونها الداخلي، إنتاج أي مخدّرات أو صنعها أو استخراجها أو تحضيرها أو عرضها أو عرضها للبيع أو توزيعها أو بيعها أو تسليمها بأي وجه كان أو السمسرة فيها أو إرسالها أو إرسالها على سبيل العبور أو نقلها أو استيرادها أو تصديرها خلافًا لأحكام اتفاقية سنة 1961. وتواصل الهيئة حوارها مع حكومة الأوروغواي، بهدف تعزيز امتثالها للاتفاقيات الدولية الثلاث لمراقبة المخدرات[1].

هـ. أوروبا

يُلزم القانون الدولي بمراقبة نباتات القنّب ومنتجاته، مع سماح للاستخدام الطبّي والصناعي، ولا توجد دولة في أوروبا تسمح رسمياً بتدخين الحشيش لأغراض طبية.

في جميع أنحاء أوروبا، هناك وسائل إعلام وخطاب عام حول قضية تغيير قوانين القنّب. ومع ذلك، تشعر الإدارات الوطنية بالقلق إزاء أثر استخدامه على الصحة العامة، وعموماً، تعارض عدم تجريم القنّب أو إضفاء الصفة القانونية عليه للاستخدام

(1) لا اسم: **تقرير الهيئة الدولية لمراقبة المخدرات، تقرير 2016**، مصدر سابق، ص 28.



الترفيهي، بل إنّ تشريعه لأغراض طبية وعلمية ما زال في مرحلة البحث العلمي والنقاش، واتجاهه غير واضح.

من ناحية أخرى، هناك القليل من الانسجام بين الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي في القوانين التي تعاقب على استخدام القنّب غير المصرّح به أو عرضه، وهناك بعض البلدان تتعامل بشكل قانوني مع الحشيش، مثل الأدوية الأخرى؛ وتختلف العقوبات المتاحة لديهم على تعاطي القنّب اختلافاً كبيراً.

تعامل كافّة الدول الأوروبية حيازة القنّب للاستخدام الشخصي كجريمة، لكن أكثر من ثلث البلدان لا تسمح بالسجن، كعقوبة في ظروف معيّنة؛ ولدى العديد من الدول الأخرى توجيهات على مستوى أدنى ضد السجن بسبب تلك الجريمة.

ومنذ العام 2000، سار الاتجاه نحو الحدّ من العقوبة القصوى للجرائم المتعلّقة بالاستخدام الشخصي. وتشمل مناقشات تغيير السياسة خفض العقوبات، وقُدّمت عدة اقتراحات للتّشريع الكامل من البرلمانات في السنوات القليلة الماضية، وهي عادة من قبل أحزاب المعارضة، ولكن تمّ رفض معظمها.

1. بريطانيا

لا تزال بريطانيا في مرحلة درس تقنين القنّب للأغراض الطبّية، وتتريّث باتخاذ خطوة التقنين، بانتظار حسم الموقف النهائي من ثبات إسهام النبتة في العلاجات الطبية، وعدم إساءة استخدامه في أغراض غير مشروعة، لكنّها باتت تقترب من إضفاء الشرعية على هذا النوع من الاستخدام، استناداً إلى تقرير يؤكد فوائده للمرضى، وتراجع الحكومة البريطانية حاليًا، القواعد للسماح باستخدام المخدرات المشتقّة من النبات المحظور.

ويقول البروفيسور سالي ديفيز، كبير الأطباء في إنكلترا، في التقرير أن «هناك أدلّة قاطعة على أن الحشيش من الممكن أن يساعد الأشخاص الذين يعانون من الألم المزمن والتصلّب المتعدّد والغثيان الناجم عن العلاج الكيماوي والقيء»[1].

---

(1) لا اسم: **بريطانيا تقترب من إجازة استخدام الحشيش**، موقع **سبوتنك بالعربي** الإلكتروني، تاريخ النشر 4/ 7/ 2018، شوهد بتاريخ 15/ 3/ 2024، على الرابط: https://sputnikarabic.ae/20180704/.

كذلك أعلن المتحدث باسم رئيسة الـوزراء البريطانية تيريزا مـاي، أن «كبير المسؤولين الطبيّين في بريطانيا توصّل إلى أن هناك حالة للاستخدامات الطبيّة للحشيش، وأن الحكومة ستبحث عن تمديد مراجعتها لتشمل قواعدها المتغيرة لمثل هذا الاستخدام»[1]، كما تابع حديثه بأنه قد «استنتج كبير الأطباء أن هناك دليلا على فائدة علاجية لبعض الحالات الطبية»[2]. وتابع القول بأن ذلك أدّى إلى «التكليف اليوم بالجزء الثاني من المراجعة الذي سيستكمله المجلس الاستشاري حول إساءة استخدام المخدرات»[3].

2. هولندا

من بين جميع دول الاتحاد الأوروبي، تنفرد هولندا بنهج سياسة ليبرالية حيال السماح باستخدام المخدرات الخفيفة للأغراض الترويحيه وبيعه للجمهور، في محلات مختصّة ومحدّدة بطريقة قانونية ورسمية، مثل الحشيش والماريجوانا في المقاهي، منذ العام 1976، وبحيازة كمّية خفيفة من الحشيش، وفقًا لشروط محدّدة، منها عدم بيعها لغير البالغين، وعدم وجود شكاوى من قبل الجيران في أماكن تداولها، مع استمرار حظر البيع بكمّيات كبيرة.

وبما أن الحشيش ممنوع في باقي دول أوروبا، يأتي السُيّاح من بلجيكا وفرنسا وألمانيا لشراء الحشيش من المحلات الهولندية، وقد انتهز بعض التجّار المناسبة، فافتتحوا محلات ضخمة لبيع الحشيش في المدن والقرى الواقعة عند الحدود البلجيكية والألمانية. أدّى ذلك إلى حركة سياحية وتجارية ضخمة لشراء الحشيش، كما إدّى إلى شكوى كبيرة من سكان المدن الحدودية بسبب القلق والإزعاج الذي يتسبّب به تواجد أعداد ضخمة من البلجيك والفرنسيّين والألمان لشراء الحشيش.

واللافت استقرار عدد المدمنين في هولندا، الذي بقي بحدود **(25)** ألفًا. وتحدّث تقرير سنوي، أصدره المركز الأوروبي لمراقبة المخدرات والإدمان، في 5 تشرين

---

(1) لا اسم: **بريطانيا تقترب من إجازة استخدام الحشيش**، موقع **سبوتنك بالعربي** الإلكتروني، مصدر سابق.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

الثاني 2009، والذي استعان بأحدث البيانات المتاحة، أن (5.4٪) من البالغين في هولندا تعاطوا القنّب، مقارنة مع متوسّط في أوروبا بلغ (6.8٪). كما أن عدد الوفيات نتيجة الإدمان متدنٍّ، بالمقارنة مع دول الاتحاد الأوروبي الأخرى، إذ يصل عددهم إلى حوالي (42) شخصاً سنوياً. ويصنّف المدمنون في هولندا كمرضى وليس كجناة[1].

واستنادًا إلى دراسة الأرقام الاقتصادية الموجودة منذ العام 2015، الصادرة عن المكتب المركزي للإحصاء في هولندا، يبدو أن القيمة الاقتصادية لنموّ الحشيش أكبر بكثير ممّا كان متوقعًا في البداية. وتعتقد هيئة الإحصاء الهولندية، أن إنتاج الحشيش زاد بنسبة تقدر (40٪)، لكن المعلومات الواردة من الشرطة، تبيّن أن نسبة (20٪) هي أكثر واقعية. علاوة على ذلك، يبدو أن إنتاج القنّب السنوي يضيف إلى الاقتصاد الهولندي أكثر من (2.3) مليار يورو، ممّا كان يفترض في السابق. وفي المجموع العام، تمثّل جميع الأنشطة غير القانونية مساهمة بقيمة (4.8) مليار يورو في الاقتصاد الهولندي[2].

3. إيطاليا

أدخل الجيش الإيطالي تجربة زراعة القنّب الهندي للاستعمالات العلاجية في إيطاليا، بموجب إتفاقية وُقّعت في 15 أيلول 2014، بين وزارتي الدفاع والصحّة الإيطاليّتين، وعلّل القرار بأنه اتُّخذ بغية خفض تكلفة إنتاج الأدوية التي تعتمد في صناعتها على القنّب الهندي المستورد، حيث تصل قيمة مصل القنّب إلى (15) يورو. وأعلنت وزيرة الدفاع الإيطالية روبيرتا بينوتا، أن «الهدف ليس تحقيق الربح، وإنما نسعى إلى إنتاج الأدوية التي قد لاتثير اهتمام الأسواق، إننا نطمح لإنقاذ أرواح الناس». وحددت زراعة القنّب الهندي في ساحة ثكنة خاصة في مدينة فلورنسا، وهي

---

(1) كريستن شفايغهوفر: **هولندا نجحت في تقنين استهلاك المخدرات من خلال تنظيم بيعها**، موقع DW الإلكتروني، تاريخ النشر 10/ 2/ 2007، شوهد بتاريخ 18/ 2/ 2024، على الرابط: .https://www.dw.com/ar /a-2339709

(2) لا اسم: **زيادة غير متوقعة في زراعة وإنتاج الحشيش وقيمته الاقتصادية في هولندا**، موقع **هولندا اليوم** الإلكتروني، تاريخ النشر 24/ 5/ 2018، شوهد بتاريخ 24/ 3/ 2024، على الرابط: .https://holland-today.nl/Postview/3050

عبارة عن مؤسسة كيميائية وصيدلانية عسكرية مخصّصة لاحتياجات الجنود، حيث تمّ توسيع نشاطاتها لتشمل حالياً المدنيّين أيضًا. وحدّد الإنتاج المتوقع في المؤسسة العسكرية ما بين **(80 و 100)** كيلوغرام سنويًا، على أن تسلّم إلى الصيدليات المحليّة ومراكز الإستشفاء لإنتاج الأدوية[1].

وبدأ الجيش الإيطالي في زراعة أوّل محاصيل طبّية في العام 2016، ويبدو أن هذا البرنامج يقوم بإيصال القنّب الطبي بشكل موثوق، بالإضافة إلى ذلك، افتتح أول مقهى للقنّب للمرضى في روما في خريف العام 2016.

ويشرف الجيش الإيطالي على زراعة ما أطلق عليه «قنّب الدولة»، داخل مساحات مخصّصة لهذا الغرض بمدينة فلورنس، كما يشرف عليها معهد كيميائي عسكري يدعى «المعهد الكيميائي الدوائي». وتنتج كميّات من هذه المادة لأهداف بحثية علاجية. وقد منحت الحكومة الإيطالية الترخيص لإنتاج القنّب الهندي من طرف الجيش بكميات تلبّي الحاجات الطبية الوطنية[2].

الخاتمة

إن تشريع زراعة القنّب، أصبح أمراً واقعياً في لبنان والعديد من الدول المتقدّمة التي سبقتنا إلى تشريعها، ولكن يبقى الأمر في يد السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، لتتضافر جهودها مع مؤسّسات الدولة والجمعيات غير الحكومية، لخلق مجتمع خالٍ من الإدمان على المخدرات وغيرها من التأثيرات غير المؤاتية، من خلال رفع مستوى الثقافة والإصرار على مكافحة الجريمة .

يستند المدافعون عن تشريع زراعة القنّب في لبنان إلى حجّة واقعية، هي دعم خزينة الدولة، إضافة إلى عدد من العوامل الأخلاقية، كدعم صناعة العقاقير الطبّية ومساعدة المزارعين على تجنّب الفقر وغيره. وبالحديث عن مدخول الخزينة، إذا ما

(1) لا اسم: **الجيش الإيطالي يبدأ زراعة القنب الهندي**، موقع **العربية** الإلكتروني، تاريخ النشر 18/ 9/ 2014، شوهد بتاريخ 12/ 2/ 2024، على الرابط: https://www.alarabiya.net/last-page/2014/09/18.

(2) المصدر نفسه.

اعتمدنا الأرقام التي يُعطيها المُدافعون عن تشريع زراعة القنّب، فإن محاربة الفساد في المجتمع اللبناني أيضًا يجب أن يكون حاضرًا أكثر، وهذا أيضًا كفيل بأن يؤمّن مدخولاً كافياً، كمدخول زراعة القنّب. وإذا تمّ تشريع زراعة القنّب، لا يجب أن يكون في المقابل تشريع الاستهلاك، الذي يؤدي إلى عواقب لا يحمد عقباها.

ففي حال غياب الضوابط لمراقبة زراعة القنّب، هناك قسم من المحصول سينتشر بين شبابنا وسيؤدي إلى كوارث، وعلى سبيل المثال، فإن ولاية كولورادو التي شرّعت الاستهلاك منذ فترة وجيزة، جاءت والنتيجة بزيادة حالات التسمّم والانتحار وحوادث السير وغيرها. هذا الإرث لا يجب نتركه لأولادنا، بل يجب أن نحاربه بصرامة، ولا نقف عند قول دعم الخزينة وحجّة صناعة العقاقير .

فتشريع زراعة القنّب في حال كان خاليًا من الضوابط وحضور الدولة بصرامة، سوف يؤدي إلى قتل الفكر في المجتمع اللبناني بخاصة بين فئة الشباب، وسيقع المدافعون عن تشريع زراعة القنّب، بالتفكير بكيفية خلق قطاعات جديدة تسمح باستيعاب الشباب اللبنانيين وتأمين بقائهم في قراهم، دون الحاجة إلى النزوح نحو المدينة أو الهجرة إلى الخارج أو إلى زراعة القنّب.

المصادر والمراجع

أ. المصادر باللغة العربية

- لا اسم: **تقرير الهيئة الدولية لمراقبة المخدرات، تقرير 2016**، صادر عن الأمم المتحدة، تاريخ كانون الثاني 2017.

ب. المصادر باللغة الأجنبية

1. Ethan B. Russo, **Cannabis And Cannabinoids: Pharmacology, Toxicology, And Therapeutic Potential**, The Haworth Integrative Healing Press, New York, 2022.
2. Sharon Rodner Sznitman, Emcdda, Lisbon, cannabis reader: **global issues and local experiences**: Volume 1, European Manitoring Center for drugs and Drug Addition, Belgium, 2008.
3. Johnston L Schulenberg, **Monitoring the Future National Survey Results on Drug Use: 1975-2015**: *Overview: Key Findings on Adolescent Drug Use.* Ann Arbor, MI: Institute for Social Research, The University of Michigan; 2015.

ج. المواقع الإلكترونية

1. بن عبد العظيم، مها: **الحشيش في لبنان، من العثمانيين إلى الميليشيات المسلحة.. ونحو التشريع؟**، موقع France 24 الإلكتروني، تاريخ النشر 23/ 07/ 2018، شوهد بتاريخ: 22/ 01/ 2024، على الرابط: https://www.france24.com/ar/2018
2. حسن، أسماء: **بعد مصادقة المغرب على تقنينه**، موقع أندبندت عربي الإلكتروني، تاريخ النشر 12/ 3/ 2021، على الرابط: https://www.independentarabia.com/node.

3. الزهيري، وسيم: **الحشيش بلبنان، نحو التشريع لأسباب اقتصادية وطبية**، موقع **الجزيرة نت** الإلكتروني، تاريخ النشر 2018/ 7/ 27، على الرابط: .https://www.aljazeera.net/news

4. شفايغهوفر، كريستن: **هولندا نجحت في تقنين استهلاك المخدرات من خلال تنظيم بيعها**، موقع DW الإلكتروني، تاريخ النشر 10/ 2/ 2007، على الرابط: .https://www.dw.com/ar /a-2339709

5. العرم، سعيد: **تشريع زراعة الحشيشة: هذه الحسنات والسيئات**، موقع **جريدة الأنباء** الإلكتروني، تاريخ النشر 21/ 4/ 2016، على الرابط: .https://archive.anbaaonline.com/?p=427213

6. لا اسم: **الجيش الإيطالي يبدأ زراعة القنب الهندي**، موقع **العربية** الإلكتروني، تاريخ النشر 18/ 9/ 2014، على الرابط: .https://www.alarabiya.net/last-page/2014/09/18

7. لا اسم: **استراليا تسمح بزراعة الماريخوانا من أجل الأغراض الطبّية**، موقع **روسيا اليوم** الإلكتروني، تاريخ النشر 18/ 10/ 2015، على الرابط: .ttps://arabic.rt.com/news/797299

8. لا اسم: **أستراليا تجيز تصدير القنب الهندي لأغراض العلاج**، موقع **بوابة الوسط** الإلكتروني، تاريخ النشر 4/ 1/ 2018، على الرابط: .https://alwasat.ly/news/health-medicine/154336

9. لا اسم: **زيادة غير متوقعة في زراعة وإنتاج الحشيش وقيمته الاقتصادية في هولندا**، موقع هولندا **اليوم** الإلكتروني، تاريخ النشر 24/ 5/ 2018، على الرابط: .https://holland-today.nl/Postview/3050

10. لا اسم: **بريطانيا تقترب من إجازة استخدام الحشيش**، موقع **سبوتنك بالعربي** الإلكتروني، تاريخ النشر 4/ 7/ 2018، على الرابط: ./https://sputnikarabic.ae/20180704

11. لا اسم: **تقنين القنب الهندي: تأثير إيجابي على البيئة**، موقع 2M.ma الإلكتروني، تاريخ النشر 3/ 3/ 2022، على الرابط:
./https://2m.ma/ar/news

12. لا اسم: **ماذا تعرف عن فوائد القنب المدهشة؟** موقع **ناشيونال جيوغرافيك** الإلكتروني، تاريخ النشر 9/ 10/ 2022، على الرابط:
.https://ngalarabiya.com/article/4321545



أهمية معركة صيدا عام 1772م ونتائجها

سلام مهدي(*)

تلخيص

سيطرت السلطنة العثمانية على بلاد الشام إثر معركة مرج دابق عام 1516م، وكانت تكتفي من الأقطار التي تفتحها بالضرائب والجند، تاركةً أمر الحكم فيها لولاة يتدّبرون أمورهم بواسطة إقطاعيّين غالباً ما يكونون من أهل تلك البلاد، كما حدث في جبل عامل حيث توالت على حكمه أُسر عدّة، تنافست فيما بينها للحصول على الزعامة، إلى أن برز الشيخ ناصيف النصّار الذي تولّى زعامة جبل عامل عام 1749م، واستطاع مع باقي المشايخ العاملية، ترميم القلاع وتحصينها بالذخائر والأسلحة، تحسّباً لأي مواجهة مع السلطنة العثمانية.

وحّد الشيخ ناصيف النصّار صفوف العامليّين، ونسج تحالفات داخليّة وإقليميّة ودوليّة، كان من شأنها تنمية النهضة الاقتصادية وتعزيز القدرات العسكرية، فتحالف مع الشيخ ظاهر العمر في فلسطين عام 1767م، وبعد أن حاول الولاة العثمانيّون الضغط على سكان جبل عامل وعلى ظاهر العمر، انفجرت الأمور بين العامليّين وحلفائهم من جهة، والعثمانيّين وأتباعهم من جهة أخرى، وجرت مواجهات عديدة، منها معركة الحولة في 2 أيلول 1771م، ومعركة كفررمان في 29 تشرين الأول 1771م، وكان النصر حليف الحلف الأوّل، وهذا ما أدّى إلى صبّ غضب والي صيدا عثمان باشا، وتجهيز حملة لإخضاع العامليّين وحلفائهم، فكانت معركة صيدا عام 1772م، التي اتّخذت السلطنة العثمانية فيها إجراءات استثنائية تهدف إلى مجابهة التحالف بكلّ قواها،

(*) باحثة في التاريخ الحديث والمعاصر.

وجمعت ما استطاعت من جيوش الولايات الأخرى، وأرسلت خليل الوزير على رأس عسكر من حلب، وأحمد باشا الجزّار، أحد رجالها الموثوقين، وجهّزتهم بما استطاعت من مدافع وأسلحة، وأعطت أوامرها إلى الأمير يوسف الشهابي بالانضمام إلى هذه القوات.

كلمات مفتاحيّة

ناصيف النصّار، ظاهر العمر، السلطنة العثمانية، عثمان باشا الكرجي، درويش باشا، جبل عامل، صيدا.

Abstract

The Ottoman Sultanate controlled the Levant after the Battle of Marj Dabiq in 1516 AD and was satisfied with the countries that it opened with taxes and soldiers, leaving the matter of governance to governors who manage their affairs by feudal lords, often from the people of those countries that were conquered, as happened in Jabal Amel, where several families rolled over his rule, competing among themselves for leadership until a person emerged from the small family, namely Sheikh Nassif Al-Nassar, who assumed the leadership of Jabal Amel in 1749 AD, And he was able with the rest of the Amili sheikhs to restore the castles and fortify them with ammunition and weapons in anticipation of any Confrontation with the Ottoman Empire.

Sheikh Nassif Al-Nassar united the ranks of the workers and weaved internal, regional and international alliances that would develop the economic renaissance and enhance military capabilities, so he allied with Sheikh Zahir Al-Omar in Palestine in 1767 AD, and after the Ottoman governors tried to pressure the residents of Jabal Amel and Zahir Al-Omar, things exploded between the workers and their allies on the one hand and the Ottomans on the other hand, and many confrontations took place, including the Battle of Houla on September 2, 1771 AD, and the Battle of Kfarrman on October 29, 1771 AD, and victory was the ally of the workers and their allies, This led to the anger of the governor of Sidon, Othman Pasha, and the announcement of a campaign to subjugate the workers and their allies, so the Battle of Sidon in 1772 AD, during which the Ottoman Sultanate took exceptional measures

aimed at confronting the alliance with all its forces and collected what it could from the armies of the states other than the Levant and Sidon and sent Khalil al-Wazir at the head of Askar from Aleppo and Ahmed Pasha al-Jazzar, one of its documented men, and equipped them with what it could of cannons and weapons, and gave orders to Prince Yusuf al-Shihabi to join these forces.

Keywords: Nassif Al_Nassar, Zahir Al_Omar, Ottoman Sultanate, Osman Pasha Al_Karji, Darwish Pasha, Jabal Amel, Sidon.

مقدّمة

تبوّأت منطقة جبل عامل أهميّة جغرافية مميّزة عبر التاريخ بفضل الموقع الجغرافي، ما جعل الأمراء المحليّين التابعين للسلطنة العثمانية يتنازعون عليها، في المقابل، ظهر على الساحة العامليّة رجلٌ تطلّع إلى توحيد صفوف العامليّين، هو الشيخ ناصيف النصّار الذي تولّى قيادة مشايخ جبل عامل عام 1749م، وتمكّن مع باقي المشايخ من ترميم القلاع العامليّة وتزويدها بالأسلحة والذخائر تحسّباً لأي مواجهة مع العثمانيّين، وأقام تحالفات داخلية مع الشهابيّين ممثّلة بالأمير إسماعيل الشهابي في حاصبيا، وإقليمية مع الشيخ ظاهر العمر في فلسطين، ودوليّة مع روسيا.

وفي الوقت نفسه، ظهر في فلسطين رجلٌ عَلَويّ النسب اسمه ظاهر العمر، تولّى حكومة صفد وطبريّا وما يليها، في العام 1706م، بعد أبيه الشيخ عمر بن أبي زيدان، من سلالة زيد بن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب(ع)، وفي العام 1741م، استولى على عكّا وبنى أبراجها وشيّد حصونها وملأها بالمدافع والذخائر.

في العام 1760م، تولّى عثمان باشا الكرجي ولاية دمشق، وبعد ثلاثة أشهر من توليّه، خرج لأداء مهمّة قافلة الدورة[1]، فمرّت القافلة من قرية الطنطورة القريبة من حيفا الخاضعة لسلطة ظاهر العمر، وعمد جنود عثمان باشا إلى قتل رجاله وسيطروا عليها، فشكّلت الحادثة بداية تحوّل حادّ في طبيعة العلاقة بين ظاهر العمر ووالي دمشق، وأمضى بعدها ظاهر العمر حوالي عقدين من الزمن، يرسم حدود كيانٍ سياسي

(1) تخرج هذه القافلة قبل موعد قافلة الحج بعدة أسابيع، بهدف جمع الأموال اللازمة لتمويل قافلة الحج وتأمين طريقها، كي لا تتعرّض لأي متاعب.

واضح المعالم، يمكن أن يتحوّل في أي لحظة إلى صدام بينه وبين السلطنة العثمانية.

بدأت المناوشات تظهر بين الشيخ ناصيف النصّار وظاهر العمر، بعدما أقدم الأخير على السيطرة على عددٍ من القرى بين جبل عامل والجليل، وتطوّر الوضع إلى مواجهة عسكرية، بسلسلة معارك استمرت لعدة أيام، وقد تكبّد كلا الطرفين خسائر فادحة بالأرواح، دون أي نتائج ميدانية ملموسة، وهذا ما عجّل بتطوّر الوضع إلى اتجاه غير متوقّع، وتوصّلا إلى اتفاق بينهما، وُقّع في عكا سنة 1767م.

كان لتحالف ظاهر العمر وناصيف النصّار انعكاسات مهّمة على جبل عامل وبلاد صفد، فازدهرت الحياة الاقتصادية بفضل التبادل التجاري، وبرز نفوذهما السياسي في منطقة بلاد الشام، فأصبحا قوة لا يُستهان بها، مستخفَّيْن بهيبة السلطنة العثمانية التي تخوض المعارك مع أقوى جيوش العالم، ورفضا دفع الضرائب للباب العالي، واتّبعا في بعض الأحيان، سياسة التعدّي على بعض رجال السلطنة العثمانية، وطمحت نفوسهما نحو الاستقلال، ما دبّ الذعر في قلوب الولاة العثمانيّين الذين انتدبوا عثمان باشا والي دمشق، وابنه درويش باشا والي صيدا، لشنّ حملة عسكرية وإخضاع جبل عامل وفلسطين لسيطرتهم بمساندة الأمير يوسف الشهابي، وكانت أولى الصدامات معركة الحولة التي جرت في أيلول 1771م، وتلتها معركة كفررمان في تشرين الأول 1771م، وقد هُزِم العثمانيّون وحلفاؤهم في كلا المعركتين، وطردوا درويش باشا من صيدا واستولوا عليها.

بدأت السلطنة العثمانية تفكّر بمعركة حاسمة تعوّض خسارتها، وإزاء ذلك، أرسل عثمان باشا عريضة للدولة العليا ذكر فيها تمرّد العامليّين وحلفائهم، حينها أرسلت السلطنة العثمانية كتاباً للأمير يوسف بتجهيز جيشه، وجعلت له لقاء ذلك المال السلطاني المترتّب على بيروت والجبل في تلك السنة بعنوان نفقة حرب، وأرسلت أحمد باشا الجزّار لمساندته في الحرب، فوقعت معركة صيدا عام 1772م، وأسفرت عن هزيمة العثمانيّين وحلفائهم مجدداً.

إن دراسة معركة صيدا سنة 1772م، التي جرت بين العثمانيّين والشهابيّين من جهة، والعامليّين وظاهر العمر من جهة ثانية، تكتسب أهميّة كبرى، فعلى الرغم من المراجع

الكثيرة التي تناولت الحديث عن تاريخ بلاد الشام أثناء الحقبة العثمانيّة، إلّا أن هناك العديد من القضايا المهمّة التي لم يتمّ التطرّق إليها، بخاصة تاريخ الشيعة في منطقة جبل عامل، وما لحق به من تهميش، ومن ثمّ القضاء على قياداته المحليّة التي كان لها دور بارز في نسج علاقات مناهضة للسلطنة العثمانية.

الإشكاليّة

إن تبدّل العلاقة بين ظاهر العمر وناصيف النصّار من نزاع إلى تحالف، مكّنهما من خلق كيان سياسي يتمتّع بنوع من الحكم الذاتي مع التبعية الإسميّة للباب العالي، وهذا ما أثار انزعاج ولاة السلطنة العثمانية، بخاصّة في دمشق وصيدا، فكانت المواجهة العسكرية حتميّة بينهم، لذلك تنبثق الإشكالية بسؤال مركزي:

ما هي تداعيات معركة صيدا، عام 1772م، على مصير كل من ناصيف النصّار وظاهر العمر؟ وما هي تداعياتها على جبل عامل أيضاً؟

ويتشعّب عن الإشكالية أسئلة تتمحور حول:

- ما هي التطوّرات السياسيّة والعسكريّة التي أدّت إلى قيام معركة صيدا؟
- كيف انعكست معركة صيدا على التشدّد في موقف السلطنة العثمانية تجاه العامليّين؟

أولاً: الأوضاع العامّة في جبل عامل مطلع العام 1749

عانى جبل عامل عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي في ظلّ الدولة العثمانية وحلفائهم الشهابيّين، وصراع العائلات المحليّة من أجل السيطرة والنفوذ على الزعامة، واستمرّ الوضع حتى بروز الشيخ ناصيف النصّار وتولّيه الزعامة في العام 1749م، فاستقرّ الوضع السياسي والأمني والاجتماعي، إذ استطاع أن يفرض سقفاً محدّداً للضرائب، فازدهرت الحياة الاقتصادية، وتمتّع العامليون في عهده بالحرية والاستقلال، ولم يخضعوا لظالم ولم يتحكّم فيهم غاشم، حتى عُرف عهده بأزهى العهود.



أ. علاقة الشيخ ناصيف النصّار مع ظاهر العمر

نزلت إحدى القبائل البدوية من عرب الزيدانية في عكا، يتولاها الشيخ ظاهر العمر الزيداني، وهو علويّ النسب، من سلالة زيد بن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ولد سنة 1686م، تولّى حكومة طبريا وما يليها بعد أبيه الشيخ عمر بن أبي زيدان عام 1706م[1]، وفي العام 1734م، وضع يده على لواء صفد رغماً عن الباب العالي غير آبه لغضبه وتهديداته، واهتمّ بصناعة القطن وترويجها، فكان بحاجة إلى ميناء يخضع لسيطرته، من أجل إنماء التجارة، فانتقل إلى عكّا سنة 1741م، واتخذها مقرّاً لحكومته[2]، وفي العام 1749م، بنى سرايا عظيمة، وشيّد حصونها، وزوّدها بالمدافع والذخائر، وعزّزها بالسلاح وأحاطها بسور متين.

سادت العلاقات بين ظاهر العمر وناصيف النصّار البرودة بادئ الأمر، وكانا يلتزمان في علاقتهما بما تقتضي به الأعراف بين شيوخ العشائر، وبعدها بدأت المناوشات، حين قام ظاهر العمر بالسيطرة على قريتَيْن حدوديّتَيْن، هما البصّة ومارون، إذ كانتا في حكم ناصيف باعتبارهما من جبل عامل[3]، ثمّ تطوّر الوضع إلى مواجهة عسكرية، ففي 11 تشرين الثاني 1766م، التقى الشيخان في تربيخا[4]، ووصل الخبر إلى قلعة تبنين حيث مقرّ النصّار، فسانده الشيخ علي الفارس مع عدد من المقاتلين، والتقت الجموع واشتدّت المعركة وحمي الوطيس، وانجلت المعركة عن هزيمة ظاهر العمر، بعد مقتل مئة وخمسين مقاتلاً من عسكره، وعشرين مقاتلاً من عسكر النصّار، وقد غنم الأخير فرساً واحدة قُتل فارسها[5].

---

(1) محمد جابر آل صفا: **تاريخ جبل عامل**، دار النهار، بيروت، ط 2، 1981، ص 115.

(2) محمد كرد علي: **خطط الشام**، مكتبة النوري، دمشق، ط 3، 1983، ج 2، ص 288.

(3) سعدون حمادة: **تاريخ الشيعة في لبنان**، دار الخيال، بيروت، ط 1، 2008، ج 1، ص 455.

(4) تربيخا: أو طربيخا، قرية تقع في الشمال الشرقي من عكا، وكانت في العهد العثماني من أعمال صور، وبعد الحرب العالمية الأولى بقيت لبنانية، ثم أُلحقت بفلسطين بعد تعديل الحدود عام 1923. انظر: محمد شراب: **معجم بلدان فلسطين**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان الأردن، د ط، 2000، ص 223.

(5) محمد صالح: **الجوهر المجرد في تاريخ الأمير ناصيف النصّار والأمراء من آل الأسعد**، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط1، 2014، ص 494.

ب. معاهدة الصلح بين ناصيف النصّار وظاهر العمر

تعتبر معركة تربيخا آخر المعارك المهمّة بين ناصيف النصّار وظاهر العمر، تبعتها مرحلة من التحالف الوثيق، استمرّت حتى نهاية ظاهر العمر عام 1775م، لا سيّما بعد أن أدرك الأخير عدم قدرته على ضمّ بلاد جبل عامل بالقوّة والعنف، ما دفعه إلى كسب ودّهم بالمصالحة والتحالف.

فما هي الأسباب التي دفعت كلًّا من ظاهر العمر وناصيف النصّار إلى توقيع معاهدة الصلح؟

هناك تفسيرات عدّة حول هذا الموضوع، أوّلها، التقارب في شخصية النصّار وظاهر العمر، ووجود صفات مشتركة، وقراءة متقاربة لطبيعة توزيع نفوذ القوى في المنطقة، فقد شعر كلاهما بأهميّة التحالف ضدّ القوى السياسية المحيطة بهما، لا سيّما أن العامليّين تعرّضوا طيلة القرن الثامن عشر لهجمات الشهابيّين بتحريض من ولاة صيدا، أو نتيجة رغبة الشهابيّين في السيطرة على جبل عامل، بينما واجه ظاهر العمر سياسة عدائية من قِبَل عثمان باشا الكرجي والي دمشق، وإنّه بتحالفه مع المتاولة، يستطيع الوقوف في مواجهته، نظراً لتوفّر العدد والعدّة لدى العامليين[1].

وهناك وجهة نظر أخرى ردّت أسباب التحالف بعد الخصومة، إلى نتائج المواجهات بينهما، التي كانت بأغلبها في غير صالح ظاهر العمر، فأدرك عندها استحالة ضمّ العامليّين إليه بالإكراه، وكذلك وجد في جبل عامل خطّ دفاع عن مركز حكمه في مقاطعة صفد، في مواجهة تعدّي ولاة السلطنة العثمانية وحلفائها[2]، وقد سرّع في تبدّل العلاقة بين النصّار والعمر، الأحداث التي شهدتها الساحة السياسية، وما أحدثته من إرباكات للسلطنة العثمانية عسكرياً وسياسياً، خاصة بانشغالها في الحرب ضد روسيا القيصرية، وهذا ما عزّز طموح الفريقَيْن للاستقلال.

استجاب العمر والنصّار للوساطة التي دعى إليها زعماء الدروز، الأمير إسماعيل

---

(1) قسطنطين بازيلي: **سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني**، دار التقدّم، موسكو، ط 1، 1988، ص 52.

(2) منير وعادل إسماعيل: **الصراع الدولي حول المشرق العربي**، دار النشر للسياسة والتاريخ، ط 1، لا ت، ج 1، ص 138.

الشهابي، الشيخ علي جنبلاط، الشيخ عبد السلام العماد، والشيخ كليب النادي، وقد أشار إلى ذلك، القنصل الفرنسي في صيدا المسيو كليرامبوا «Du Clairambaut»، برسالته إلى وزير الدولة الفرنسيّة الدوق دي براسلان «Du Praslin»، بتاريخ 23 نيسان 1767م، وجاء فيها: «وصل إلى هنا الأمير إسماعيل (أمير وادي التيم) وثلاثة من مشايخ الدروز هم: الشيخ علي جنبلاط، والشيخ عبد السلام العماد، والشيخ كليب النادي، وهؤلاء يعاضدون الشيخ ناصيف، فعملوا على إحلال الوفاق بينه وبين الشيخ ظاهر العمر»[1]، واتّفق الطرفان على إيقاف الأعمال العسكرية.

بعد هذه المفاوضات الوجيزة، توجّه ناصيف إلى عكا في كانون الأول 1767م، وتمّ توقيع معاهدة الصلح بينهما، اكتسبا من خلالها إنجازات أكثر ممّا توقع أي منهما بتحقيقها عبر القتال، وأهمّ ما ورد في بنود المعاهدة:

- أن تكون البصّة ويارون لظاهر العمر[2].
- أن يدفع العامليّون الميري لظاهر العمر، ولا يكون لهم شأن مع الباشا.
- أن يعمل ظاهر العمر على صدّ أي هجوم يتعرّض له العامليّون[3].
- أن يقف العامليّون إلى جانب ظاهر العمر عند الحاجة[4].

وبعد الاتفاق، بدأت مرحلة جديدة بين جبل عامل ومقاطعة صفد الفلسطينية، بعد أن أقسم الطرفان على السيف والمصحف بأن يكونا وشعبيهما، يداً واحدة، واستمرّ التحالف قائماً حتى بعد وفاة الشيخين (ظاهر العمر 1775م، وناصيف النصّار 1781م).

وهكذا، فإن هذه المعاهدة الدفاعية تتطابق مع أهداف ظاهر العمر وناصيف في

---

(1) Ismail Adel: **Le Liban du document diplomatique et consulaire_123,** Editions des oeuvres Politique et historique, Beyrout, sans Numero d'impression, 1977, Tome VII, P.151.

(2) حسن الأمين: **جبل عامل السيف والقلم**، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، ط 1، 2003، ص 191.

(3) ميخائيل الصبّاغ: **تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد**، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط1، 2010، ص 476.

(4) سعدون حمادة: **تاريخ الشيعة في لبنان**، مرجع سابق، ج 1، ص 459.

الوقت نفسه، وتلبّي حاجتهما معاً، وتتناسب مع ما يخططان لمستقبل الأيام، بتأسيس نوع من الاستقلال الذاتي.

ج. نتائج التحالف بين ناصيف النصّار وظاهر العمر

شكّل التحالف نهضة اقتصادية نعمت بها المنطقتان في ظل حاكمَيْهما، وزادت أواصر التعاون والتكامل التجاري بينهما، بالإضافة إلى ذلك، فقد اشتدّ أزرهما تجاه السلطنة العثمانية وبرزت قوّتهما العسكرية، وخاضا معارك مشتركة ضدّ العثمانيين وحلفائهم.

1. على الصعيد الاقتصادي

شهد مرفأ صور وعكا ازدهاراً تجارياً بارزاً، نتيجة ازدياد التعامل التجاري مع أوروبا وخصوصاً فرنسا[1]، وكذلك مصر وقبرص، فاهتمّ الفلاحون بزراعة التبغ والقطن، واتّصل التجّار الفرنجة بهم مباشرة، وباتوا يدفعون ثمن منتوجاتهم مقدّماً، فتنامت المساحات المزروعة، وأصبح للقطن العاملي، لا سيّما إنتاج بلدة أنصار، سمعة عالية في الجودة، وللتبغ رواجاً شديداً في دمياط، وبذلك ارتفعت مداخيل الفلاحين والعاملين في التجارة وأصحاب الأراضي والمشايخ[2].

2. على الصعيد السياسي والعسكري

انعكس هذا التحالف إيجاباً على قوّة ناصيف وظاهر العمر العسكرية، فبرز نفوذهما السياسي وأصبحا يجاهران باستقلاليتهما عن الإدارة العثمانية مباشرة وبشكل حاسم.

أثبت العامليّون ولاءهم وإخلاصهم لظاهر العمر، ونتج عن التحالف مشاركة العامليّين له في خمس عشرة عملية عسكرية، كان النصر فيها للمتحالفين، منها أربع حملات ضد مشايخ نابلس، والعربان وحصار ويافا، ومشاركة ظاهر لناصيف النصّار في أربع حملات أيضاً في معارك دمشق والحولة عام 1771م، وكفررمان عام 1772م، وصيدا عام 1772م، وسبع تجريدات قام بها ظاهر العمر في السنوات

---

(1) كاظم ياسين: **تاريخ الشيعة والطوائف في لبنان من العصر النبوي إلى الانتداب الفرنسي**، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط 1، 2015، ج 3، ص 103.

(2) سعدون حمادة: **تاريخ الشيعة في لبنان**، مرجع سابق، ص 461.

بين 1769 ـ 1771م، انتهت دون قتال بسبب تراجع الخصوم في اللحظات الأخيرة[1]، وضمن ذلك مساندة العامليّين عسكرياً لظاهر العمر ضد ثورات أبنائه، في المقابل استعاد ظاهر العمر توازنه في منطقته، وكسب حليفاً جديداً ذا قوة عسكرية مشهودة، ونزع من يد عثمان باشا الكرجي رأس النبل الذي كان ينخر به خاصرة الجليل بين الحين والآخر.

د. علاقة جبل عامل بالإمارة الشهابية

انتقلت إمارة جبل لبنان إلى الأسرة الشهابية عام 1697م، وعيّن الأمير بشير الشهابي الأول حاكماً عليها، وعلى الرغم من تبدّل الحكّام في هذا الإمارة، فإنّ الخط السياسي العام الذي اتّبعه زعماء جبل عامل تجاه الحكم الشهابي، لم يتبدّل عمّا كان عليه زمن الأمراء المعنيّين، ولم يكن للأمراء الشهابيّين في جبل عامل حكم ثابت مستقرّ، فطوراً يخضعونه مباشرة لحكمهم ويحصّلون منه الالتزام، وطوراً آخر يحوّلون الالتزام مباشرة إلى والي صيدا.

انتهت ولاية الأمير منصور فخلفه ابن أخيه الأمير يوسف الشهابي عام 1770م، وكلاهما يطمح أن يتولّى حكم جبل عامل بضمان والي صيدا درويش باشا، فانتفض العامليّون مجدّداً بقيادة ناصيف النصّار ضد حكم الوالي العثماني، ورفضوا دفع الضرائب، وسَعَوا للاستقلال بشؤونهم الداخلية، وأظهروا البغضاء للأمير يوسف[2]، الأمر الذي دفع والي صيدا للاستعانة أكثر من مرة بالأمراء الشهابيّين لإخضاعهم[3].

ولعلّ العامل الأبرز في دفع الشهابيّين لمدّ نفوذهم إلى مقاطعة جبل عامل، هو أن تلك المنطقة نعمت بشيء من الازدهار الاقتصادي، إضافة لما فيه من حصون وقلاع وموارد بشرية تثير شهيّتهم، لا سيّما أن الوضع الاجتماعي والمذهبي للمقاطعات التي

---

(1) أحمد حطيط: **جبل عامل في قرن (دراسة في حولية رضا الركيني)**، المؤتمر الأول للجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية (لبنان في القرن الثامن عشر)، منشورات الجامعة اللبنانية، 1991، ص 70 ـ 77.

(2) إبراهيم بيضون وآخرون: **صفحات من تاريخ جبل عامل**، دار الفارابي، بيروت، ط 1، 1979، ص 67.

(3) عباس ابو صالح: **التاريخ السياسي لجبل عامل**، المنشورات العربية، بيروت، د ط، 1984، ص 59 ـ 60.

يلتزمونها عادة من والي صيدا، لا تسمح لهم بممارسة سلطة مطلقة على سكانها[1]، وبسبب رغبة الأمراء الشهابيّين الدائمة لضمّ منطقة جبل عامل إلى ولايتهم، لبّوا أكثر من مرة أمر والي صيدا لقتال العامليّين، ما أوجد بين الشهابيّين والعامليّين أحقاداً مستمرّة، وثارات متأصّلة، طبعت علاقتهما لقرون عديدة.

هـ . علاقة ظاهر العمر بالشهابيّين

انتابت العلاقة بين الزيادنة والشهابيّين تقلّبات عديدة، فانتقلت من التبعيّة إلى القطيعة والعداء، ثم تحولّت بعد منتصف القرن الثامن عشر، إلى مرحلة التحالف، وانتهت أخيراً بتخلّي الشهابيّين عن ظاهر العمر وتركه يواجه مصيره مع السلطنة العثمانية بنفسه.

كان الشيخ عمر الزيداني، والد ظاهر العمر، ملتزماً تحت وصاية الأمير منصور الشهابي حتى سنة 1701م، واستمرّت تبعيّته للأمير بشير الشهابي حتى وفاته عام 1705م، ولكن عندما خلفه ولده ظاهر عام 1706م، استقلّ عن الشهابيّين، ويعود ذلك لفصل والي صيدا، بشير باشا، بلاد صفد عن حكم الشهابيّين، فتبع ظاهر العمر والي صيدا مباشرة، إلا أنه احتفظ بعلاقة ودّية مع الأمير حيدر لكونه سنيّاً قيسيّاً[2].

شهدت المرحلة قطيعة بين الطرفين، فانشغل كل طرف بتطوير ذاته، وشكّل جبل عامل حاجزاً بشرياً وطبيعياً بينهما، وفي العام 1749م، اشتدّ التنافس الخفي بينهما على النفوذ الاقتصادي، فعندما استولى ظاهر العمر على عكّا كمنفذ تجاري بحري، سارع الأمير ملحم للاستيلاء على بيروت، في العام 1749م، واتّسمت العلاقة بين الأمير ملحم وظاهر العمر بالحذر، وخوفاً من الاصطدام بينهما، فقام الأخير، سنة 1751م، بتجديد سور عكا وتحصينه جيداً[3].

وفي ستينيّات القرن الثامن عشر، برز صراع على السلطة بين الأمير منصور من

(1) أحمد الصفدي: **لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، د ط، 1969، ص149 ـ 151.

(2) حيدر الشهابي: .**تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي**، مطبعة السلام، القاهرة، د ط، 1900، ج 2، ص 8.

(3) المصدر نفسه، ص 43.

جهة، وابن أخيه الأمير يوسف ملحم الشهابي من جهة مقابلة، الذي عدّ نفسه أحقّ بالحكم من عمّه بعد أن بلغ السادسة عشرة من عمره، وعلى أثر تلقّي الأمير يوسف الدعم من عثمان باشا الكرجي والي دمشق، حصل الأمير منصور على الدعم من والي صيدا محمد باشا العظم الذي كان على علاقة سيّئة بعثمان باشا الكرجي، فتقرّب الأمير منصور من ظاهر العمر لأنه عدوّ الكرجي.

وبعد أن رأى الأمير منصور، ميل وجوه البلاد إلى الأمير يوسف، خشي منه وتنازل له عن الحكم، مبرّراً ذلك بضعف جسده بعد كبر سنّه، وعجزه عن إدارة أعباء الإمارة، فاستلم الأمير يوسف الحكم، بينما انتقل الأمير منصور للإقامة في بيروت(1)، حينها ازدادت مخاوف ظاهر العمر، إضافة إلى أن والي دمشق عثمان باشا الكرجي يرغب في إعادة سلطته على جميع أجزاء ولايته، فاقترب الصدام بين الطرفين(2)، ما أدّى إلى معركتي الحولة وكفررمان، وهذا ما سيتم التطرق إليه لاحقاً.

ثانياً: الأسباب التي أدّت إلى معركة صيدا

بدأت السلطنة العثمانية باتّخاذ إجراءات استثنائية تهدف إلى مجابهة التحالف بين ناصيف النصّار وظاهر العمر بكل قواها، فهي تراقب تطلّعاتهما في الاستقلال، بخاصّة بعد أن اشتدّ أزرهما بالتحالف، فعيّنت قائداً عسكرياً على جميع قوّاتها في الولايات العربية، وأعطت الأوامر إلى الأمير يوسف بالانضمام إلى هذه القوات، لا سيّما أنها كانت في مرحلة ضعفٍ وتعاني هزائم متكرّرة على يد الجيش الروسي.

أ. علاقة ظاهر العمر بوالي دمشق عثمان باشا

تمحور النشاط السياسي لكلّ من الشيخ ناصيف النصّار وظاهر العمر حول مشروع واحد، تمثّل بالانفصال السياسي عن السلطنة العثمانية، أو على الأقلّ تكريس أمر واقع يتمتّع بحدٍّ من الاستقلال الذاتي مع التبعيّة الإسميّة للباب العالي، لتقليص دور الباشاوات العثمانيّين في تدخّلهم الدائم بشؤون العامليّين وحلفائهم،

---

(1) يوسف الشدياق: **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، مكتبة العرفان، بيروت، د ط، 1954، ج 2، ص 328.

(2) Rafiq Al Tamimi and Muhammad Bahjat: **The Provience of Beirut (1723 - 1738),** 1966, p.299.

الذين يطمعون بمصالح شخصية على حساب حرية الأهالي وكرامتهم.

لقد شهدت نهاية الستينيّات وبداية السبعينيّات من القرن الثامن عشر، حدثَيْن محوريَّيْن، قَلَبَا أوضاع ظاهر العمر لدى الباب العالي رأساً على عقب، الأول هو وفاة وكيله في اسطنبول يعقوب آغا، الذي فقد ظاهر العمر بها كلّ صلاته بالباب العالي، حيث كان من الصعب على ظاهر العمر استبدال يعقوب آغا بغيره، فصلاته بالباب العالي كانت محصورة به وبسليمان آغا السلحدار، بالتزامن مع بداية الحرب العثمانية-الروسية. أما الحدث الثاني، فهو نجاح عثمان باشا في الحصول على مقعد ولاية صيدا لابنه درويش باشا في أيلول 1770م[1]، إذ فقد ظاهر العمر بذلك قدرته على استغلال التنافر في المصالح بين صيدا ودمشق، ولم يضيّع عثمان باشا الوقت من أجل الاستفادة من الوضع الجديد، فأرسل لظاهر العمر كتاباً يبلّغه فيه بأنّه سيمرّ بقافلة الحجّ بالقرب من عكّا، حيث سيصحب ابنه درويش باشا إلى صيدا لترتيب أوضاع إيالته الجديدة، وقد اعتبرت السلطنة العثمانية أن وضع يدها على ولاية صيدا تمنحها فرصة ممتازة لتسخير مصدر مهمّ من مصادر الدخل لمواجهة الأعباء المالية المتراكمة على السلطنة العثمانية، وعلاوة على هذه الاعتبارات، يجب إضافة حساسيّة الباب العالي تجاه الأحداث في جنوب بلاد الشام، نظراً لقرب المنطقة من طريق الحجّ، وضرورة تأمينه، ووضع حدّ للهجمات التي تتعرّض لها القافلة، وربما اعتقد ظاهر العمر أن الباب العالي بقرارته الجديدة، قد أسقطه من حساباته[2]، وأنّ السلطنة العثمانية تسعى في القضاء عليه ومصادرة ثروته[3].

ب. خسارة العثمانيّين والشهابيّين في الحولة وكفررمّان

بدأت أحكام الاتفاق بين ظاهر العمر والنصّار تأخذ طريقها إلى التنفيذ بعد إبرامه، وحان الوقت لتوجيه الجهود نحو مقارعة السلطنة العثمانية التي خافت من مغبّة هذا

---

(1) أسامة ابو النحل: **الروض الزاهر في تاريخ ظاهر**، مجلة **الجامعة الإسلامية**، المجلّد العاشر، العدد الثاني، 2002، ص 55.

(2) المرجع نفسه، المكان نفسه.

(3) إحصاء تركة ظاهر العمر، وتظهر حجم ثروته، (مكتب أية صوفيا للمخطوطات والوثائق العثمانية، اسطنبول - تركيا، **OML 0022131132 002**.

التحالف، فانتدبت عثمان باشا والي دمشق، يعاونه والي صيدا درويش باشا، على رأس جيشٍ كبير مقاتل لإخضاع جبل عامل وبلاد فلسطين[1]، ولهدم سلطة ناصيف النصّار وظاهر العمر[2].

1. هزيمة العثمانيين في معركة الحولة 30 آب 1771

اتّجه الجيش العثماني من دمشق نحو جبل عامل بعسكر عظيم، أواخر آب 1771م، وما كاد يشرع بالزحف، حتى انتشر خبره لدى العامليّين، وما أن اجتاز الجيش جسر بنات يعقوب، جنوب الحولة، حتى انحرف نحو شمال الجسر، ونزل عند حدود بلاد جبل الخيط وسهل الخالصة، مرتكباً خطأً عسكرياً تكتيكياً فادحاً، يدلّ على عدم خبرته في الشؤون العسكرية القتالية وفنون الحرب، عندما جعل جيشه مقابل جبل عامل وظهره لبحيرة الحولة[3].

هاجم ناصيف وظاهر العمر عثمان باشا بغتةً، إذ فوجىء جيشه بهذا الهجوم، وانهزم شرّ هزيمة، وقُتِلَ العديد منهم، أما البعض الآخر، فرموا بأنفسهم في البحيرة، مع ما يصحبونه من أمتعة وحيوانات فمات أكثرهم غرقاً[4]، وفرّ عثمان باشا بنفرٍ قليل، في حين غَنم ظاهر العمر والنصّار، العديد من المدافع والسيوف ومختلف أنواع السلاح والخيل والجمال والبغال والأموال والأمتعة، فأثبتا قدراتهما العسكرية إلى جانب الإمكانات السياسية[5].

وبعد أن انكسر جيش عثمان باشا، توجّه درويش باشا إلى دمشق وأقام بها أياماً، وعند عودته إلى صيدا ومروره على المغيثة، اعتدى عساكره على الزرع، فاجتمع أهل عين دارة وقتلوا ثلث خيله، وبات تلك الليلة بجانب ينبوع الباروك، فلمّا بلغ الأمير يوسف ذلك، غضب على أهل عين دارة، وأخذ منهم غرامة ثلاثة الآف غرش، وقدّم

(1) حيدر الشهابي: **تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي**، مصدر سابق، ص 808.

(2) محمد جابر آل صفا: **تاريخ جبل عامل**، مرجع سابق، ص 121.

(3) علي الزين: **للبحث عن تاريخنا**، لا د، بيروت، ط 1، 1973، ص 511.

(4) محمد تقي الفقيه: **جبل عامل في التاريخ**، دار الأضواء، بيروت، ط 2، 1986، ص 216.

(5) حيدر الركيني: **جبل عامل في قرن**، مرجع سابق، ص 28.

لدرويش باشا خيلاً عوض الخيل التي فُقِدت، واستعطف خاطره وحضر إليه بنفسه يعتذر عن جهل القوم[1]، ثمّ توجّه الأمير يوسف إلى دير القمر، ودرويش باشا إلى حيث عصت عليه مشايخ العامليّين بعد وصوله، وأرسلوا يتهدّدونه، فأرسل إلى الأمير يوسف وأعلمه بذلك، فأرسل الأخير له عسكراً يحمي المدينة من أي هجوم.

وهنا يمكننا طرح علامة استفهام حول تصّرف الأمير يوسف الشهابي واهتمامه الزائد بوالي صيدا؟

من المرشّح أن يكون تصرّف الأمير يوسف بتأمين الحماية لدرويش باشا، عوضاً عن تقصيره أمام عثمان باشا، بعد الهزيمة التي لحقت به في الحولة، حيث لم يلبِّ الدعوة لنجدة عثمان باشا، رغم إعلان الأخير النفير العام، وإرساله المنادين إلى مرتفعات الجبال، وسماع الناس نداءهم وتردّد الأصداء، بنداء: «إلى الحرب إلى الحرب، احملوا بنادقكم، احملوا طبنجاتكم، أيها المشايخ الكرام، اركبوا خيولكم، تقلّدوا رماحكم وسيوفكم، يا غيرة الله، يا غيرة الحرب»[2].

وعلى هذا الأساس، شكّلت النتائج الحاسمة لمعركة الحولة، منعطفاً أساسياً في السلوك السياسي العامّ، والعلاقة بين العامليّين من جهة، والسلطنة العثمانية الحاكمة وباقي القوة المحليّة المؤثّرة في الأحداث، من جهة أخرى، فقد رفعت معنويّات العامليّين بعد معاناة طويلة، وأكّدت قدرتهم على مواجهة الباشوات وقساوتهم، كما أكّدت وجودهم كقوة مؤثّرة وفاعلة في مختلف المعادلات السياسية والعسكرية السائدة في تلك الفترة وما بعدها.

2. صدّ الهجوم العثماني مجدّداً في معركة كفررمان، في تشرين الأول 1771م

إذا كانت معركة الحولة من أهمّ المعارك التي انتصر فيها ناصيف النصّار وظاهر العمر على السلطنة العثمانية، فإن معركة كفررمان هي من أهمّ المعارك التي تقابل فيها العامليون والزيادنة من جهة، والسلطنة العثمانية ومؤيديهم من الدروز من جهة أخرى.

---

(1) حيدر الشهابي: **تاريخ الأمير حيدر الشهابي**، مصدر سابق، ص 809.

(2) محمد جابر آل صفا: **تاريخ جبل عامل**، مرجع سابق، ص 124.

وجد عثمان باشا نفسه في موقف لا يحسد عليه بعد أن خسر قسماً كبيراً من قواته في المعركة، وخوفاً على كرسي الولاية الذي يشغله ابنه درويش في صيدا، بخاصّة أن استنجادات ابنه لإمداده بالرجال والسلاح لم تتوقف، وتهديده بالهرب من المدينة إذا ما هاجمها الزيادنة[1]، فلم يجد عثمان باشا بديلاً غير الاستنجاد بالشهابيّين علّهم يقدّمون النجدة التي تعهّدوا بتوفيرها دون أن يوفوا بعهدهم حتى تلك اللحظة.

وفي 18 تشرين الاول 1771م، حضر إلى صيدا مندوب والي الشام عثمان باشا، وحضر معه الأمير يوسف، وقرّروا الهجوم على جبل عامل، على أن يُعفى الأمير يوسف مقابل ذلك من الخراج لمدّة عامين، وبعد أن تهيّأت كلّ الأمور للحملة، بدأ الأمير يوسف بالهجوم على القرى الآمنة، وقُدّر جيشه بأربعة آلاف مقاتل، قسّموا إلى أربعة فرق:

- الفرقة الأولى: هي المقدّمة وفيها الأمير يوسف في أول الجيش.
- الفرقة الثانية: هي الجناح الأيمن، تسير في طريق جباع - حومين - حبوش - النبطية.
- الفرقة الثالثة: هي الجناح الأيسر، تسير في طريق العرقوب - الميذنة - الجرمق - كفرتبنيت - النبطية.
- الفرقة الرابعة: هي القلب، تسير في طريق جرجوع - عربصاليم - النبطية[2].

أما جيوش مشايخ قرى جبل عامل، فتألّفت من خمسمائة فارس، وألف من المقاتلين المشاة، وعندما كتب أحد المشايخ إلى ناصيف يستنجده للدفاع عن مقاطعاتهم، انتشرت الأخبار وانطلقت القصائد والأهازيج لدبّ الحماس لدى المقاتلين[3]، ومن الطريف في هذه المعركة أن ناصيف أرسل كاشفاً أمام الجيش، وعندما عاد الفارس من تقصّي أخبار الجيش المهاجم، بدأ يهوّل بقوّة الجيش وسلاحه

(1) محمد تقي الفقيه: **جبل عامل في التاريخ**، مرجع سابق، ص 216.

(2) المرجع نفسه، ص 126.

(3) رامز رزق: **ميس الجبل لؤلؤة جبل عامل**، دار الهادي، بيروت، ط 1، 2005، ص 64.

وعدده، فأمر ناصيف بسجنه، ثم أرسل كاشفاً آخر، يبدو أنه فهم الدرس، فعندما عاد أكّد أن الجيش معظمه غير مسلّح وغير منظّم ويمكن هزيمته بسهولة، لذلك أثنى عليه وأعطاه الخلع[1].

وقبل أن تنطلق ساعة الصفر لبدء المعركة، أشارت جهود حثيثة من قِبَل كبار مشايخ الدروز، على رأسهم علي جنبلاط، وهم أصدقاء ناصيف وظاهر العمر، لتجنّب الحرب بين الطرفين، ويقول القِسّ حنانيا المنيّر، وهو من المعاصرين لهذه الحرب، أن «علي جنبلاط حمل رسالة من ظاهر العمر يعرض على الأمير يوسف ثلاثة تقديمات مقابل تخليّه عن العثمانيين والانضمام إلى حلفه مع ناصيف، وهي:

- أن يحمل المشايخ المتاولة (العامليين) على أن يحضروا ويترامو عليه ويطلبوا رضاه.
- أن يقدّموا له نفقة عسكر دراهم معلومة.
- أن يسلّمه مدينة صيدا، التي كانت على أهبّة السقوط بين أيديهم»[2].

والسؤال يطرح نفسه هنا، هل إن غاية ناصيف وظاهر العمر الخلاص من السلطنة العثمانية ومناوئيها، رغبة في توسّع النفوذ، وزيادة الأملاك والمقاطعات؟ وما الدليل على ذلك؟

بعد البحث والتدقيق وتباين المعطيات، اتّضح أنّ غاية ناصيف وظاهر العمر، هي فقط مقاتلة العثمانيّين وحدهم، والاستعانة بكلّ القوى المحليّة لمجابهتهم، للتخلّص من ظلمهم، فقد حاولا ثنْيَ الأمير يوسف عن حربه، ولو كان الثمن التنازل له عن صيدا، بدليل العرض الذي قدّماه له بأن يتولّى القيادة العامة للثورة مقابل مشاركتهم جميعاً في محاربة العثمانيين[3]، إضافة إلى ذلك، فقد أشار أحد التقارير الدبلوماسية المرسلة من القنصل الفرنسي دو توليس «De Tulis»، في صيدا، المؤرّخ في 18 حزيران 1772م، أن «الذي دفع المتاولة، وهم جميعهم من شيعة علي، إلى الثورة ضد الباب العالي،

---

(1) محمد جابر آل صفا: **تاريخ جبل عامل**، مرجع سابق، ص 182.

(2) إبراهيم بيضون وآخرون: **صفحات من تاريخ جبل عامل**، مرجع سابق، ص 68.

(3) قسطنطين بازيلي: **سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم العثماني**، مرجع سابق، ص 77.

هو طغيان الباشا، ولا يربحون شيئاً من ثورتهم غير الاستقلال والتخلّص نهائياً من دفع العائدات المفروضة عليهم من السلطان»[1]، لكن الأمير يوسف بقي مصرّاً على الحرب بالرغم من نصيحة أمراء الدروز له.

اغترّ الأمير يوسف بجيشه الكبير، وبدا مطمئناً كأنّه في نزهة، وانعزل مع فرقته الخاصّة، عندها وجد ناصيف أن الفرصة سانحة فعوّل على الهجوم بالفرسان، وعبّأ خيّالته تعبئة حربيّة محكمة، فأحاطت بفرقة الأمير من ثلاث جهات، فذعر الأمير يوسف ورأى الخطر محدقاً به، فارتبك وتشتّتت جنوده، وضيّق المهاجمون الحلقة فلاذ بالفرار، ويذكر الشيخ العاملي علي رضا، أن «الشيخ ناصيف النصّار تعقّب بنفسه الأمير يوسف الشهابي فأدركه في عقبة جرجوع فقنّع رأسه بالرمح، وأنزله عن ظهر بغلته إلى الأرض، وألبسه الفرو مقلوباً وقال له: عفوت عنك رأفة بشبابك واحتراماً لأسرتك وأنا ابن نصّار، فأجابه الأمير يوسف: «وأنت قدّها يا أولاد أم علي» وهو لقب يطلق على زعماء جبل عامل وهم يفتخرون به»[2].

وهنا لا بد من طرح سؤالٍ أيضاً، لماذا أصرّ الأمير يوسف على مواجهة ناصيف النصّار وظاهر العمر، على الرغم من إدراكه لقوّتهما السياسية والعسكرية، لا سيّما بعد معركة الحولة وخسارة حليفه عثمان باشا؟

تلقّى الأمير يوسف من السلطنة العثمانية مالاً وإعفاءات وإغراءات، وربّما كان تعهّده بقتال العامليّين والزيادنة هو الذي عجّل أو ساعد على إحلاله أميراً مكان عمّه منصور، فهو بتأثير من حداثة سنّه، وعدم خبرته ونَهَمه إلى المال والسلطة، وكونه أداة طيّعة بيد العثمانيين، ليس له رأياً ولا تدبيراً، ويعمل وفق رأي مدبّره سعد الخوري، وأصرّ على موقفه بمهاجمة العامليّين في عقر دارهم[3]، والأهمّ من ذلك، طموحه

---

(1) volney: **voyage en Syrie et en Egypt, pendant les annes 1783 _1784 et 1785 Augustins, Desenne**, Libraire au Palas Royal pre le theatre des varieties , Nummero 216, M,DCC. LXXX,1787, p 253.

(2) محمد جابر آل صفا: **تاريخ جبل عامل**، مرجع سابق، ص 129.

(3) روفائيل كرامة: **حوادث لبنان وسوريا**، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، د ط، 1939، ص 39.

الذي طالما سعى إليه، وهو السيطرة على صيدا[1]، كلّ تلك الأسباب دفعته لرمي ثقله بين يدي السلطة العثمانية.

إن معركة كفررمان لا يمكن مقارنتها بأيّة معركة أخرى من حيث نتائجها وعدد المشاركين فيها من الجانبَيْن، واختلال عدد المقاتلين بين الفريقين، بالإضافة إلى الفرق الشاسع في الاستعداد والتجهيز، فعسكر الدروز هو الذي بادر بالهجوم، مجهّزاً على نفقة السلطنة العثمانية، ومتمتّعاً بإمكاناتها الميسّرة، بينما فرسان النصّار والعمر، بعددهم القليل، وصلوا لحظة المعركة، وشاركوا فيها على غير استعداد سابق وتخطيط لها، ومع ذلك كانت حصيلة القتلى والفارين والمذعورين كبيرة في جيش الأمير يوسف.

وبهذا الانتصار استطاع مشايخ جبل عامل التخلّص من الحملات المتكرّرة التي تهدّد أمنهم، وأخذوا يديرون شؤونهم بأنفسهم، وامتنعوا عن دفع الضرائب، وانبرى شعراء جبل عامل ينشدون:

وابن امير الشوف يوم صال	**من عرب صالين على الوادي نزل**
في عساكر عدها تسعون ألف	**او تزيد عداد خوفاً ان تنزل**
من أرض بيروت للشوف العريض	**من بلاد الجبل كم فارس وصل**
شي دروز وشي يهود وشي صنوف	**شي نصارا شي كرد وشي ملل**
وانثنى على ناصيف يقول	**ان هذا الامر ما عاد ينحمل**
سيفهم ناصيف يا نعم العقيد	**شاهرا للسيف في ايد ويقل**
صاح مير الشوف اتولي الحصان	**من عظم ما صار جابولو بغل**[2]

ج. استيلاء ظاهر العمر على صيدا

شكّل هذا التحالف قوّة كبيرة في وجه السلطنة العثمانية وحلفائها، واحتلّ الخوف صفوف أفرادها، وانكسر جيش الأمير يوسف في كفررمان، فانقضّ العامليّون مع

(1) عبد الكريم رافق: **العرب والعثمانيون (1516 ـ 1916)**، لا د، دمشق، ط 2، 1993، ص 307.

(2) محمد جابر آل صفا: **تاريخ جبل عامل**، مرجع سابق، ص 130.

حلفائهم على الجيش المنهزم، وأوقعوا في صفوفه خسائر كبيرة، وقد تحدّثت الوثائق الفرنسية الصادرة عن صيدا، عن تأثير الانتصار، بأن «... حملاتهم الناجحة أثارت الحزن لدى سكان صيدا، وانتشر الرعب والخوف ...»[1]، وازدادت مخاوف والي صيدا درويش باشا حين بلغه نبأ وصول ما يقارب الألفين إلى ثلاثة الآف جندي إلى غزّة دعماً لظاهر العمر وحليفه، ورسو سبعة عشر مركباً محمّلة بالمؤن في يافا، وبأنّ جميع هذه القوّات سوف تحضر إلى صيدا لمحاصرته برّاً وبحراً[2].

خشي درويش باشا أن يسيطر أعداء والده على صيدا، وأن يتعرّض لانتقامهم، فقرّر مغادرة المدينة واللجوء إلى دمشق، لا سيّما بعد أن علم بـأن عداوة ظاهر العمر لوالده لا علاقة له بها، لكنّه أنذره بمغادرة المدينة مع جميع رجاله بعد يومين، وبعد أن شعر الباشا باقتراب الساعة المحدّدة له لمغادرة صيدا، فرّ منها والتحق بوالده في دمشق[3]، وقاد ظاهر العمر الهجوم باتجاه الشمال، فدخل صيدا منتصراً ومكث فيها مدّة من الزمن، عيّن عليها متسلّماً من قبله هو أحمد آغا الدنكزلي[4]، ثمّ غادرها إلى فلسطين[5].

ثالثاً: معركة صيدا 1772م

لقد جاء في النتائج السياسية لمعركة الحولة وكفررمان وانتصار العامليّين وحلفائهم على جيوش السلطنة العثمانية، أنها رفعت من منسوب الثّقة بالنفس، وطمحوا إلى التخطيط لدخول مدينة صيدا، فدبّ الذعر في نفوس العثمانيين الذين بدأوا بالضغط على الأمير يوسف لمواجهة العامليّين وحلفائهم.

---

(1) خالد الصافي: **ظاهر العمر الزيداني**، دار المقتبس، بيروت، ط1، 2018، ص 77 ـ 78

(2) المرجع نفسه، ص 78.

(3) محمد تقي الفقيه: **جبل عامل في التاريخ**، مرج سابق، ص 231.

(4) أحمد آغا الدنكزلي: قائد عسكري مغربي، عمل في خدمة ظاهر العمر ضد السلطنة العثمانية، وأصله من مدينة تاهرت بالجزائر، وعند حضوره إلى الشرق أظهر شجاعة فائقة، فولّاه ظاهر العمر قيادة جيشه، وتمكّن من الانتصار في عدة معارك خاضها ضد ولاة صيدا ودمشق. (انظر: لا. إ: **الموسوعة العسكرية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1979، ج 2، ص 473 ـ 474).

(5) حيدر الشهابي: **تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي**، مصدر سابق، ص 810.

أ. إجراءات السلطنة العثمانية لاستعادة ولاية صيدا

لم يكن ممكناً أن تسمح السلطنة العثمانية لناصيف وحليفه بهذا الانتصار الساحق الذي حقّقاه في معركتيّ الحولة وكفررمان، وإزاء تلك المواقف الشاجبة، أرسل والي دمشق عثمان باشا، رسالة يطلب من الأمير يوسف تجهيز جيش لمقاتلتهم.

1. كتاب الدولة العليا إلى الأمير يوسف الشهابي

بعد واقعة كفررمان وما رافقها من تطوّرات ميدانية لصالح النصّار والعمر، دبّ الذعر لدى والي دمشق عثمان باشا، لا سيّما بعد أن فرّ ابنه درويش باشا من صيدا، واستولى عليها ظاهر العمر، فاعتبرت السلطنة العثمانية ذلك تجاوزاً للخطوط الحمر وتطاولاً على هيبتها.

كانت الدولة العثمانية منهمكة بحرب ضدّ روسيا القيصرية، وبالتالي لا يمكنها تعبئة جيشها لمواجهة العصيان، فأوعزت إلى الأمير يوسف للقيام بهذه المهمّة وأغدقت عليه الهدايا مع بعض الأموال، منها «خطّ شريف إلى الأمير يوسف بالقيام لحرب الشيخ ظاهر والشيخ ناصيف، وأن تكون ميري بيروت ومال ميري الجبل في تلك السنة له خرج عسكر»[1]، في حين كان عثمان باشا في وقت سابق، قد رفع عريضة للدولة العليا ضد العامليّين وحلفائهم، يذكر فيها عدم دفعهم الضرائب، واستيلاءهم على إيالة صيدا[2].

2. إرسال والي دمشق قوة مساندة للأمير يوسف والعمل على حصار صيدا

توفّي عثمان باشا الكرجي والي دمشق، فحضر إلى الشام بدلاً عنه عثمان باشا المصري[3]، واتّبع سياسة سلفه، فكتب إلى الأمير يوسف يخبره بقدومه، ثم أرسل

(1) محمد تقي الفقيه: **تاريخ جبل عامل**، مرجع سابق، ص 228.

(2) المرجع نفسه، ص 227 ـ 228.

(3) عثمان باشا المصري: كان قائداً للقوات العثمانية، ووكيلًا للقزلار آغا في مصر في إدارة الحرمين الشريفين، ولقب المصري اشتقّ من توليته على مصر، ولم يكن عثمان باشا يشغل منصب والي الشام بعد، لأنه كان يقيم في الشام بصورة مؤقتة ريثما تتجمع قواته. للمزيد انظر: عبد الكريم رافق: **العرب والعثمانيون**، مرجع سابق، ص 306.

يأمره بأن يجمع العساكر لحرب المتاولة وأرسل إليه الدالي خليل[1]، المعروف ببطولته في الحرب، وحضر معه أحمد باشا الجزّار[2]، ومعهما ألف فارس، ومدافع وزنبكات وذخيرة[3]، ولدى وصولهم إلى عين السوق التقاهم الأمير يوسف بكلّ إكرام، وجمع عساكر بلاده، حتى أصبح عددهم أكثر من عشرين ألفاً، وساروا إلى صيدا، وحاصروها مدّة أسبوع كامل، كاد الدنكزلي أن يسلّم المدينة.

ب. التحضير للعملية العسكرية

إن انتصارات العامليّين والزيادنة في معركتيّ الحولة وكفررمان، وتملّكهم لمدينة صيدا، قد أثارت حنق السلطنة العثمانية المنهمكة في حربها مع روسيا، فاتّخذت تدابير استثنائية ترمي إلى مجابهتهم، فعيّنت قائداً عسكرياً على جميع قوّاتها في الولايات العربية.

وعلى الرغم من ردّ القوّات المحاصِرة عن مدينة صيدا وتراجعها، حاول ناصيف النصّار وظاهر العمر أن يتحاشيا استئناف القتال، فأرسلا مجدّداً إلى الأمير يوسف يطلبان منه التريّث في القتال، علّهم يصلون إلى اتّفاق، وطلبا منه أن يرجع بعسكره إلى جسر الأولي شمالي صيدا، ليجريا الاتفاق معه، إلّا أن الأمير يوسف أبى ذلك[4]، عندها زحف ناصيف وحلفاؤه إلى سهل الصبّاغ ونظّموا قواتهم، تولّى النصّار قيادة جناحهم الأيمن، ومعه المتاولة وألف من المغاربة المشاة، لمهاجمة الدروز، أما الجناح الأيسر للجيش فتولّى قيادته علي بن ظاهر العمر الذي كان يعتمد على المراكب البحرية الروسية المتقدّمة نحو الساحل، أما في الوسط،

---

(1) الدالي: مصطلح عثماني يطلق على من يعتبر خفيف الظل. انظر: حيدر الشهابي، **تاريخ الأمير حيدر الشهابي**، مصدر سابق، ص 811.

(2) أحمد باشا الجزّار: ولد عام 1735م، لأسرة مسيحيّة، ثمّ هرب إلى القسطنطينية مطلع شبابه، وباعه تاجر رقيقاً للباب العالي، حيث اعتنق الإسلام، ثم جاء إلى القاهرة مع قافلة عائدة من الحجّ، وقتل عدداً من البدو بعد أن أعدّوا كميناً له، فلذلك لقّب بـ «الجزّار»، وصل أحمد باشا الجزّار مع جملة من المغاربة إلى دير القمر، وتوجّه إلى الأمير يوسف حيث أكرمه وكلّفه حفظ بيروت، ورتّب له نفقة مكوسها، ثم عينّه متسلماً عليها عام 1772م. للمزيد انظر: محمد جابر آل صفا: **تاريخ جبل عامل**، مرجع سابق، ص 134.

(3) حيدر الشهابي: **تاريخ الأمير حيدر الشهابي**، مصدر سابق، ص 811.

(4) سعدون حمادة: **تاريخ الشيعة في لبنان**، مرجع سابق، ص 476.

فتولّى المواجهة ظاهر العمر على رأس ثمانماية من المماليك.

أما عساكر السلطنة العثمانية وحلفائهم، فقد امتدت من البحر حتى الجبل، وبخط واحد وقُسّموا إلى فرق وفصائل: في القسم الغربي تحصّن العقلاء في الخنادق وخلف المتاريس لمنع الخروج من المدينة، وفي الوسط وقف الفرسان ومعهم المدافع، وفي القسم الشرقي المحاذي للجبل تواجد الدروز المسلّحون بالبنادق فقط.

ج. الدور الروسي في المعركة

وصلت مراكب المسكوب (الروسية) من عكّا إلى صيدا لمعاونة العامليّين وحلفائهم، وضربت المحاصرين في المدينة من عسكر السلطنة العثمانية، ورجال يوسف الشهابي، فانسحبوا إلى سهل الغازية حيث تلاقى الجيشان يوم 12 أيار 1772م، وانطلقت القوات المشتركة من العثمانيّين والأمير يوسف لمحاصرة مدينة صيدا، حيث استمر الحصار أسبوعاً كاملاً، لكنها لم تسقط[1].

اتّفق ظاهر العمر مع الروس على دفع مبلغ **(600)** كيساً من الأموال، مقابل مساعدته لرفع الحصار عن صيدا بواسطة سفنهم الحربية، ويشير ذلك إلى عدم رغبة الروس تحمّل أي التزامات مالية في أعمالها الحربية، وبرزت سياساتها بدعم الحركات المعادية للسلطنة العثمانية، لكن دون أن تتحمّل نفقات عسكرها من خزينتها المالية[2].

د. بدء الهجوم العسكري

في صباح 11 حزيران 1772م، اصطدم الفريقان، وما أن بدأت السفن الحربية تطلق أولى قنابلها على الجناح الغربي للعثمانيّين، حتى انسحب الدروز من مواقعهم وتراجعوا إلى الوراء، فلحق بهم علي ظاهر العمر واشتبك معهم[3]، واستغلّ العامليّون تراجعهم وهاجموهم من الجهة الشرقية، واقتتلوا قتالاً شديداً،

(1) جهاد بنّوت: **حركات النضال في جبل عامل**، دار الميزان، بيروت، ط 1، 1993، ص 113.

(2) خالد محمد صافي: **حاكم الجليل في القرن الثامن عشر**، المركز القومي للدراسات والتوثيق، فلسطين، ط 1، 2005، ص 152.

(3) حيدر الشهابي: **تاريخ الأمير حيدر الشهابي**، مصدر سابق، ص 812.

استطاع خلالها مشاة يوسف الشهابي إبعاد العامليّين عن مواقعهم[1].

احتدم القتال واستطاع العامليّون اقتحام مدافع الأتراك، وخطف رجالها، وحاصروا فرقة خليل الوزير وهاجموها، فهربت الفرسان، وعند كسرتهم انكسرت المشاة في صفوفهم، ودام ضرب السيف لفترة وجيزة، فانهزم عسكر العثمانيّين وقُتل منهم المئات بأقل من ساعتين[2].

هـ. نتائج معركة صيدا

بعد انتهاء المعركة، أصبح سهل الغازية، موقع أكثر الاشتباكات، خالياً من العثمانيّين وحلفائهم الشهابيّين، وانتصر ظاهر العمر وناصيف النصّار، وانكسر العسكر العثماني وانقلب راجعاً إلى دمشق، وأمّا عدد القتلى من الطرفين، فقد اختلفت فيه الروايات، فقيل إنه قُتل من الدروز أكثر من خمسمئة كما في رواية الشهابي، وقيل أكثر من ألف وخمسمئة وفق ما ذكر الركيني، وقيل ثلاثة الآف كما في رواية مروّة، وأما من قتل من عسكر العامليّين وحلفائهم، فقيل مئة قتيل كما في رواية الشهابي، وقيل غير ذلك كما في رواية مروّة.

ونتيجة لهزيمة العثمانيين وحليفهم الأمير يوسف، بقيت صيدا بيد ظاهر العمر، وتراجع عسكر الدولة ومعهم الدالي خليل إلى دمشق خائباً، وهو يذمُّ الدروز بكل شفة ولسان، معتبراً أن لولاه ما سلم أحد من الدروز والعثمانيّين في تلك المعركة.

و. انقلاب الأمير يوسف على العثمانيّين

طلب الأمير يوسف من عثمان باشا المصري تعزيز حماية بيروت خوفاً من أن تصبح هدفاً لظاهر العمر، بعد الهزيمة في معركة صيدا، وقد استغلّ عثمان باشا الفرصة، فأرسل الجزّار مدعوماً بقوات من دمشق. أحكم الجزّار سيطرته على المدينة وسعى لطرد سكان جبل لبنان منها، ومنع دخولهم إلى المدينة بسلاحهم، وأصلح سور المدينة وتأهّب للحصار[3].

---

(1) حسن الأمين: **جبل عامل السيف والقلم**، مرجع سابق، ص 204.

(2) علي الزين: **للبحث عن تاريخنا في لبنان**، مرجع سابق، ص 523.

(3) محمد تقي الفقيه: **جبل عامل في التاريخ**، مرجع سابق، ص 236.

لم يكن واضحاً إذا ما كان تصرّف الجزّار ينطلق بشكل فردي أم بناء على أوامر دمشق، ولكن من المرجّح أن يكون بطلب من عثمان باشا المصري، لأن الأخير كان في أوقات سابقة قد تلقّى عدة رسائل من الأمير يوسف يطلب فيه إخراج الجزّار من بيروت، لكنه لم يتجاوب مع مطالبه[1].

إثر ذلك، جمع الأمير يوسف عسكراً وحضر به إلى قرية بعبدا، وجعل يراسل الجزّار، فطلب الجزّار أن يمهله أربعين يوماً، فكان ما يريد، إلّا أن الأخير تمرّد، وخوفاً من أن يصبح الأمير يوسف من عداد القوى النافذة في بلاد الشام، اتّجه نحو ظاهر العمر والعامليّين وتحالف معهم، وقد أكّدت ذلك رسالة القنصل الفرنسي في صيدا دي توليس «De» Taules، في شهر تشرين الثاني 1773م، بتقرير عن أحوال البلاد وقد جاء فيها: «... تمّ في 8 حزيران 1773م، في جبل الريحان على بعد ستة فراسخ من صيدا، بين الشيخ علي جنبلاط ممثّلاً الأمراء الشهابيّين، والشيخ ناصيف النصّار ممثّلاً ظاهر العمر، انتهت بلحظة كل خلافاتهم»[2]، وبعد هذا التحالف، دعم ظاهر العمر والعامليّون جهود الشهابيّين لطرد الجزّار من بيروت، وقد تواصل ظاهر العمر نيابة عن الأمير يوسف مع الأسطول الروسي مرة أخرى، لطرد الجزّار من بيروت.

فرض الروس حصاراً على المدينة في تموز 1773م، استمرّ لأربعة أشهر، اضطرّ على أثره الجزّار إلى تسليم المدينة للروس ومغادرتها، وفي الشهر الثالث من الحصار، قاد عثمان باشا المصري بنفسه قواته، في سبيل مواجهة الأمير يوسف الذي استنجد بظاهر العمر، فأرسل له إمدادات بقيادة ابنه علي وحليفه ناصيف، الأمر الذي دفع عثمان باشا المصري إلى التراجع نحو دمشق لإدراكه أن لا قدرة له على مواجهة خصومه.

وبعد هذا النصر الساحق الذي حقّقاه كل من ظاهر العمر وناصيف النصّار في معركة صيدا، استمرّ التحالف قائماً بينهما حتى العام 1775م، وانفرد العامليّون في إدارة شؤون بلادهم، وامتنعوا عن دفع الضرائب المفروضة عليهم لوالي صيدا، لكن

---

(1) قسطنطين بازيلي: **سوريا وفلسين ولبنان تحت الحكم العثماني**، مرجع سابق، ص 61.

(2) Volney: **voyage en Syrie et en Egypt, pendant les annes 1783 _1784 et 1785 Augustins, Desenne**, previous Reference, P.122.

هذه السياسة لم تدم طويلاً، عندما باشر الجزّار حملته على جبل عامل عام 1781م، بعدما تسلّم ولاية صيدا عام 1775م، ومقتل ظاهر العمر، وقد تصدّى له العامليّون بقيادة زعيمهم ناصيف النصّار، عند قرية يارون، أسفرت المواجهة عن هزيمة العامليّين ومقتل زعيمهم، ومن ثم عمدت قوّات الجزّار إلى هدم القلاع العامليّة والحصون، وبسط الجزّار سلطته المباشرة على جبل عامل، فكان بذلك نهاية حقبة من الحكم الذاتي الذي تمتّعت به بلاد عاملة، وتشتّت أعيانها في أرجاء بلاد الشام وخارجها، كما شهدت تلك الحقبة أفول عهد الراحة الاقتصادية، وعادت معاناة العامليين حتى وفاة الجزّار عام 1804م، بعدما تولّى سليمان باشا الحكم مكانه، الذي سعى إلى التقرّب من العامليّين، وتوصّل معهم إلى اتّفاق قضى بعودة زعمائهم إلى بلادهم.

استنتاج

شهدت أوائل سبعينيات القرن الثامن عشر معارك بين ظاهر العمر وناصيف النصّار من جهة، وبين السلطنة العثمانية والأمير يوسف الشهابي من جهة أخرى، تبلورت خلالها بدء انتهاء صلاحية اللعبة السياسية في عكّا وجبل عامل، والاستعداد لحرب مفتوحة بينهما، وهو خيار لطالما سعى ظاهر العمر وناصيف النصّار تجنّبه، ولكن بعد ان انقطعت روابط ظاهر العمر بالباب العالي ومحالفته للعامليّين أصبحت المواجهة شبه محسومة، وكانت النتيجة هزائم متتالية للعثمانيّين وحلفائهم في أكثر من معركة وصولاً إلى معركة صيدا عام 1772م.

وبعد الهزائم المتتالية للسلطنة العثمانية، في معركة صيدا وما سبقها من معارك، انصبّ غضب ولاة السلطنة العثمانية على العامليّين وحليفهم ظاهر العمر، وبخاصة بعد استيلاء الأخير على صيدا، كونها مركز ولاية تابعة لهم، وطرده درويش باشا منها، فاعتبرت السلطنة ذلك مساساً بسيادتها وهيبتها، ولكن الظروف آنذاك لم تكن متوفّرة لتأديبهم، ولكن ظاهر العمر كان يدرك تماماً أن مصيره معلّقٌ بأمر من السلطان العثماني وانتهاء انشغاله بالجبهات ضد روسيا القيصرية.

وبعد أن هدأت الجبهة العثمانية-الروسية، إثر توقيع معاهدة «كجك كينارجه» في تموز 1774م، سعى السلطان العثماني عبد الحميد الأول للتخلّص من المتمرّدين والعاصين

على حكمه، فأرسل حملة وقُضي على ظاهر العمر عام 1775م، وسلّم ولاية صيدا عام 1776م إلى رجلٌ تابعٌ له، معروف بقساوته وشدّته، هوأحمد باشا الجزّار.

نقل أحمد باشا الجزّار مركز إقامته إلى عكا، بعد أن دانت له فلسطين بالسيطرة واستقوى أمره، وبقي في عكا لتحصين أسوارها، وأرسل من ينوب عنه في الحكم إلى صيدا، عندها أراد الجزّار أن يُخْضِعَ جبل عامل إلى حكمه، مستذكراً حلفهم ضد السلطنة العثمانية مع ظاهر العمر، فأخذ بين الحين والآخر يقود الجيوش على جبل عامل، ويتحيّن الفرصة للإطاحة بجيش ناصيف النصّار، إلّا أنه لم يقم بأي هجوم دون أوامر من السلطنة العثمانية، حتى وصل فرمانٌ من الآستانة يأمره بالتحرّك بجيش لتأديب جبل عامل.

التقى الجيشان عام 1781م، في معركة بالقرب من يارون، انتهت بمقتل زعيم جبل عامل ناصيف النصّار، وأقدم الجزّار على طمس معالم هذا الجبل وتراثه الثقافي، فأفرغ مكتبات جبل عامل من الكتب القيّمة والنفيسة، وأرسلها إلى عكّا وأُحرقت في أفران عكا أسبوعاً كاملاً، وهجّر مشايخ جبل عامل وهدم القلاع والحصون، ومن الممكن أن يكون هذا التصرّف ليس من تخطيط الجزّار وحده إنما من السلطنة العثمانية إنتقاماً من المتردّين عليهما، وتأديباً لهم، لمسّهم سيادتها وهيبتها وسلطتها وسماحهم لإدخال قوات أجنبية روسية في المعركة التي كانت وهذا أمرٌ كبير بمثابة خيانة عظمى لها.

وثمة اختلاف ميّز جبل عامل عن غيره من المقاطعات، إذ إن الروابط القوية القائمة بين أهله، وتسودها الوفاق، حالت دون تدخّل رجال السلطنة العثمانية في شؤونهم الداخلية، واستطاع الشيخ ناصيف النصّار، ولو لفترة وجيزة، أن ينشئ كياناً ذاتياً في منطقة متوتّرة تحكمها دولة كبرى، لذلك فإن تاريخ الشيخ ناصيف النصّار يُعتبر تاريخ نهضة وحرية واستقلال، وبتحالفه مع الشيخ ظاهر العمر ازدادت سطوته، وشكّلا سوياً تحالفاً لو كُتِب له النجاح لتغيّرت موازين القوى في المنطقة إلى عشرات السنوات أو أكثر، وربما كان له أثر في عدم هجرة اليهود إلى فلسطين، ولما كان للاستعمار الغربي أن يقيم لهم كياناً على أرضها.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق

1. إحصاء تركة ظاهر العمر، وتظهر حجم ثروت، مكتب آية صوفيا للمخطوطات والوثائق العثمانية، اسطنبول ـ تركيا 002 0022131132 OML.

ثانياً: المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أ. المصادر العربية

1. الشهابي، حيدر: .**تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي**، مطبعة السلام، القاهرة، لا ط، 1900.

ب. المراجع العربية

1. آل صفا، محمد جابر: **تاريخ جبل عامل**، دار النهار، بيروت، ط 2، 1981.
2. أبو صالح، عباس: **التاريخ السياسي لجبل عامل**، المنشورات العربية، بيروت، لا ط، 1984.
3. أبو النحل، أسامة: **الروض الزاهر في تاريخ ظاهر**، مجلة **الجامعة الإسلامية**، المجلّد العاشر، العدد الثاني، 2002.
4. إسماعيل، عادل ومنير: **الصراع الدولي حول المشرق العربي**، دار النشر للسياسة والتاريخ، ط 1، لا ت.
5. الأمين، حسن: **جبل عامل السيف والقلم**، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، ط1، 2003.
6. بازيلي، قسطنطين: **سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني**، دار التقدّم، موسكو، ط 1، 1988.
7. بيضون، إبراهيم، وآخرون: **صفحات من تاريخ جبل عامل**، دار الفارابي، بيروت، ط 1، 1979.

8. حمادة، سعدون: **تاريخ الشيعة في لبنان**، دار الخيال، بيروت، ط 1، 2008.

9. رزق، رامز: **ميس الجبل لؤلؤة جبل عامل**، دار الهادي، بيروت، ط 1، 2005.

10. شراب، محمد: **معجم بلدان فلسطين**، الأهليّة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ط، 2000.

11. صافي، خالد محمد: **حاكم الجليل في القرن الثامن عشر**، المركز القومي للدراسات والتوثيق، فلسطين، ط 1، 2005.

12. صالح، محمد: **الجوهر المجرد في تاريخ الأمير ناصيف النصّار والأمراء من آل الأسعد**، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط 1، 2014.

13. الصبّاغ، ميخائيل: **تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد**، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط 1، 2010.

14. الصفدي، أحمد: **لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، لا ط، 1969.

15. كرامة، روفائيل: **حوادث لبنان وسوريا**، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، لا ط، 1939.

16. كرد علي، محمد: **خطط الشام**، مكتبة النوري، دمشق، ط 3، 1983.

17. لا اسم: **الموسوعة العسكرية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1979.

18. ياسين، كاظم: **تاريخ الشيعة والطوائف في لبنان من العصر النبوي إلى الانتداب الفرنسي**، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط 1، 2015.

ج ـ المراجع الأجنبية

1. Ismail, Adel: **Le Liban du document diplomatique et consulaire_123,** Editions des oeuvres Politique et historique, Beyrout, sans Numero d’impression, 1977, Tome VII, P.151., Nummero 216, MDCC. LXXX,1787.

2. Rafiq Al Tamimi and Muhammad Bahjat: **The Provience of Beirut (1723 _ 1738)**, Libraire Lahed Khater, I, 1966.
3. Volney: **Voyage en Syrie et en Egypte, pendant les annees 1783 - 1784 et 1785 Augustins, Desenne, Libraire au plais Royal pres le theatre des varieties**, 1787.

ثالثاً: الدوريات العربية

1. الركيني، حيدر: **جبل عامل في قرن**، مجلة **العرفان**، مجلّد 27، ج 9، 1938.

رابعاً: المؤتمرات

1. حطيط، أحمد: **جبل عامل في قرن**، المؤتمر الأول للجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية (لبنان في القرن الثامن عشر)، منشورات الجامعة اللبنانية، 1991.

الإدارة الرقميّة ودورها في تحسين أداء الإدارات العامة في لبنان

محمود جزيني

إشراف: الأستاذ الدكتور عبد اللّه رزق

ملخّص

يُعتبر موضوع التحوّل إلى أسلوب الإدارة الرقميّة هاجسًا لدى الحكومات والإدارات العامة في الدولة التي تسعى جاهدةً لكي تواكب التغيّرات العالميّة والتطوّر العلميّ والتقنيّ المتسارع والمتعاظم، بهدف تحسين مخرجات العمليات الإداريّة والابتعاد عن أسلوب الإدارة التقليديّة المرهقة والمكلفة.

إن المشاركة في المعلومات وتوظيفها وسهولة الوصول إليها، هي عاملٌ أساسيّ في نجاح أي مؤسّسة حكوميّة أو خاصّة، والتسابق الزمنيّ والتنافس بين المؤسسات في تقديم الخدمة الأفضل، وفي أقل وقت ممكن. فلم يعد مقبولًا التأخّر في إنجاز المعاملات الإدارية أو تحسينها وتجديدها في لبنان في ظلّ ما نعيشه من توفّر القدرات والتقنيات الهائلة في العالم التي أصبحت دافعًا وضرورة لاعتماد الإدارة الرقمية.

كلمات مفتاحية:

الإدارة الرقمية، إدارة بلا أوراق، إدارة بلا مكان، إدارة بلا زمان، إدارة بلا تنظيمات جامدة.

ABSTRACT

The issue of transitioning to a digital management method is a concern among governments and public administrations in the country, which are striving to keep pace with global changes and the rapid and increasing scientific and technical development with the aim of improving the outcomes of administrative processes and moving away from the cumbersome and expensive traditional management method.

Sharing information, utilizing it, and easy access to it is an essential factor in the success of any governmental or private institution, as is the time race and competition between institutions in providing the best service in the shortest possible time. It is no longer acceptable to delay in completing administrative transactions or improving and renewing them in Lebanon in light of the availability of enormous capabilities and technologies in the world that have become a motivation and necessity for adopting digital administration.

Keywords: digital management, paperless management, management without place, management without time, management without rigid organizations.

مقدمة

شهد العالم تحوّلات متسارعة نتيجة مجموعة من العوامل الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة، منها العولمة وتطوّر التكنولوجيا وانتشار واسع لشبكة الإنترنت، بحيث انتقلت من صبغتها التقليدية إلى أشكال حديثة عنوانها البارز العصرنة ومجاراة الحداثة وشبكات الأعمال، بحيث أضحى التحوّل نحو الإدارة الرقمية مدخلًا لمزيد من التسريع في جودة الخدمات العمومية، فهذه التحوّلات لم تعد حبيسة النظام الدولي ومسألة توازن القوى فقط، بل تعدى الأمر إلى البنية العلمية والتكنولوجيّة والقدرة على البحث والتطوير، إذ أصبح من المعروف أن كل التحوّلات الهائلة أيّاً كان نوعها، تقوم أساسًا على المعرفة والتراكم العلميّ، باعتبارهما الأساس المتين للتقدّم والرقي الاجتماعي والإداري.

وبما أن لبنان من ضمن الدول المتأثّرة بالتحوّلات الاقتصادية الاجتماعية والتقنية والمعلوماتية، فقد أصبحت الإدارة العمومية اللبنانية تسعى جاهدة إلى الانخراط

الفعّال في إدخال تكنولوجيا المعلومات والاتصال لمسايرة التطوّرات التكنولوجية المتسارعة، والاستفادة منها في تحديث الإدارة العمومية وعصرنتها، وفق رؤية أكثر شمولية، وبهذا اعتمد لبنان أسلوب الإدارة الرقمية، كآلية لتحديث المرافق العمومية، وتحسين الخدمات، والرفع من مستوى جودتها، وذلك نتيجة ارتفاع الطلب على خدمات المرافق العمومية، وتضاعف المعاملات الإدارية وارتفاع وتيرتها.

تم اختيار هذا العنوان باعتباره من المواضيع المهمّة والحديثة، ولم يأخذ حقّه في مجال البحث العلمي، كما أن دور الإدارة العامة أساسي في تحقيق التنمية، من خلال تحسين مستوى أدائها، سواء على المستوى الإداريّ أو الماليّ، والذي لا يمكن أن يتحقق إلّا من خلال رقمنة خدماتها وتوسيع نطاق استعمال وسائل الاتصال، على اعتبار أن الإدارة الرقمية آلية لتحقيق أهداف التواصل، وذلك من خلال الدور الذي تلعبه في الرفع من جودة الخدمات المقدمة للمواطنين.

الإشكاليّة

إن التأمّل بمعالم الإدارة الرقمية في الإدارات العامة يأخذنا إلى إشكالية أساسية ومهمة وهي:

ما مدى قدرة الإدارة الرقميّة في تحسين أداء المؤسّسات العامّة في الدولة؟

ويتفرع عن هذا السؤال، أسئلة فرعية أخرى:

- ما هو مفهوم الإدارة الرقمية وأهميّتها وخصائصها؟
- ما هو واقع الإدارة الرقمية في الإدارات العامة للدولة؟
- كيف تساهم الإدارة الرقمية في حل المشاكل الإدارية والحدّ من الفساد في الإدارات العامة؟

المنهج المعتمد

إن طبيعة البحث يتطلب اعتماد الوصفي التحليلي الذي يقوم بدراسة الظاهرة كما توجد في الواقع ويهتم بوصفها وصفاً دقيقاً، ثم يعمل بالتالي على تحليلها



ومقاربتها وفق المعطيات الحالية، وبما يمكن أن ينتج عنها مستقبلاً.

أولاً: تعريف الإدارة الرقميّة وأهمّيتها

تعدّدت التعريفات التي تناولت الإدارة الرقمية، التي من خلالها تظهر أهميّتها على مستوى الدولة ككل. ويقصد بها هنا، استخدام المعلومات الرقمية في انجاز المعاملات الإدارية، وتقديم الخدمات الرقمية، والتواصل مع الموظّفين، إذ يطلق عليها اسم حكومة عصر المعلومات، أو إدارة بلا أوراق، أو الإدارة الإلكترونية[1].

وتعتبر الإدارة الرقمية قاطرة أساسية لتحديث الإدارات العامّة في الدولة، كما تُعتبر أولوية حكومية، حيث تقوم هذه الأخيرة بتبنّي وتطوير مناهج التدبير الإلكتروني، بغية تسهيل استفادة المواطنين من الخدمات، وتخفيف تكاليف المعاملات الإدارية التقليديّة[2].

كما تناول تعريف آخر الإدارة الرقمية بالآتي: «إدارة موارد معلوماتية تعتمد على الإنترنت وشبكات الاتصال، وتميل أكثر من أي وقت مضى إلى تجريد الأشياء وإخفاء ما يرتبط بها إلى الحدّ الذي أصبح رأس المال المعرفيّ هو العامل الأكثر فعاليّة في تحقيق أهدافها، والأكثر كفاءةً في استخدام مواردها»[3].

وينطوي مفهوم الإدارة الرقميّة حسب البنك الدولي، على استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بغير الطريقة التي يتفاعل من خلالها المواطنون والمؤسسات التجاريّة مع الحكومة، للسماح بمشاركة المواطنين في عملية صنع القرار[4].

---

(1) عبد الناصر حيدر على الصربي: **دور الإدارة الإلكترونية في تخليق الحياة العامة ومكافحة الفساد الإداري**، مكتبة دار السلام، الرباط، ط 1، 2021، ص 13.

(2) عبد الغني أعيزة: **استراتيجية تحديث الإدارة الصومية بالمغرب، المجلة المغربية للإدارة المحلية والتنمية**، العدد المزدوج 87/ 88، السنة 2009، ص 57؛ محمد بومديان: **الإشكالية القانونية لاعتماد الإدارة الإلكترونية بالمغرب**، مطبعة الأمينة، الرباط، ط 1، 2020، ص 14.

(3) محمد بومديان: **الإشكالية القانونية لاعتماد الإدارة الإلكترونية بالمغرب**، مرجع سابق، ص14.

(4) مريم كريم: **إشكالية الجودة في الإدارة الإلكترونية «دراسة مقارنة»**، رسالة لنيل شهادة الماستر في القانون العام، جامعة محمد الخامس، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية أكدال، الرباط السنة الجامعية 2013/ 2014، ص 17.

أما منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية (OCDE)، فقد عرّفتها بأنها «عملية استعمال تكنولوجيا الإعلام والاتصال كوسيلة لتحقيق الإدارة بأحسن جودة ممكنة»[1]، كما عرّفتها الوكالة الفرنسية لتنمية الإدارة الإلكترونية بكونها وسيلة لتحسين الخدمات العامة المقدّمة للجمهور من جهة، وتحسين وظيفة الإدارة الداخلية من جهة أخرى، عن طريق استخدام تكنولوجيا الاتصال والإعلام[2].

وبالتالي، فالإدارة الرقمية هي تقديم الخدمات للمواطنين بشكل إلكتروني، وذلك عبر استخدام تكنولوجيا الاتصال والإعلام، لتحقيق خدمات ذات جودة عالية وبأقل تكلفة ممكنة، ما يساهم في توفير مال الإدارة وجهد الموظف.

أما أهمية الإدارة الرقمية فهي بالغة بالنسبة لـلإدارات الحكومية، عندما تسعى إلى خلق مجتمع معرفي، فإنها باستخدام تقنيات الاتصال والمعلومات، يمكن أن تحقّق مجموعة من المكاسب على صعيد التنمية الاقتصادية، إذ إن تحديث الإدارة وتطويرها وعقلنتها، بما يتلاءم مع الواقع الراهن، يُعدّ مؤشرًا على تحقيق التنمية الإدارية المرغوب فيها[3].

كما تتجلّى أهمية الإدارة الرقمية في قدرتها على مواكبة التطوّر النوعي والكمّي الهائل في مجال تطبيق تقنيات ونظم المعلومات، فهي تتمثّل في الاستجابة القويّة لتحديّات الألفية الثالثة التي تختزل في الفضاء الرقمي واقتصاديات المعلومة والمعرفة وثورة الإنترنت[4].

إضافة إلى ذلك، فإنها تساعد على التحوّل من هيئة تقليدية إلى هيئة حديثة إلكترونياً، إذ يتطلّب تطبيق إدارة الرقمية توافر رؤية إلكترونية تساعد على تصوّر المكانة المستقبلية للخدمات الرقمية المقدمة من طرف الإدارات المركزية لمصالحهم الخارجية التابعة لهم، من أجل تجويد التنفيذ.

---

(1) مريم كريم: إشكالية الجودة في الإدارة الإلكترونية، مرجع سابق، ص18.

(2) المصطفى المعزول: **مدخل لدراسة الإدارة الإلكترونية**، مطبعة مستانة طنجة، ط 1، 2020، ص 10.

(3) المرجع نفسه، ص 18.

(4) مريم كريم: **إشكالية الجودة في الإدارة الإلكترونية**، مرجع سابق، ص 18.

بناءً على أهمية الإدارة الرقمية، يمكن القول أن هدف وجود إدارة رقمية في الإدارات الحكوميّة هو إحداث التغيير نحو الأفضل، بالانتقال من الإدارة التقليدية إلى الإدارة الرقمية، ومواكبة متطلّبات مجتمع المعرفة الذي يتميّز بجودة الخدمات وأفضل النتائج بأقل تكلفة ممكنة.

ونستنتج ممّا سبق حاجة القطاع العامّة لتطبيق الإدارة الرقمية تأكيدًا للنقاط الآتية:

- النهوض بمستوى الخدمات، والخروج من الإدارة التقليديّة وتعقيداتها، وتبسيط إجراءاتها لتكون أكثر سلاسة ومرونة، وإيصال الخدمات للمواطن بسهولة.
- تعزيز الثقة بين المواطن والإدارة الحكومية، لتكون أكثر شفافية في دوائر العمل، فالإدارة الرقمية نمط جديد للتعامل، يتّسم بالحياد والموضوعية والانضباط.
- دعم الاقتصاد الوطني مستفيدًا من ميزات الإدارة الرقمية.
- تشجيع المشروعات الصغيرة والمتوسطة، للمشاركة في حركة التجارة الداخلية والخارجية، كون الإدارة الرقمية تسهّل إجراءات هذه المشروعات.
- اختصار وقت تنفيذ المعاملات الإدارية المختلفة، وتوفير البيانات للمراجعين والمستفيدين عامة بصورة فورية، وتسهيل قنوات الاتصال بين الأجهزة الحكومية المختلفة، وتوفر ميزة دقة العمليات الإدارية ووضوحها، وترشيد الإنفاق والإستغناء عن استخدام الأوراق في المعاملات، وسهولة الأرشفة ومساحتها المكانية، وكذلك تعزيز الثقافة التنظيمية عند العاملين وتوثيق الروابط بين مختلفة المستويات الإدارية هبوطًا وصعودًا، ما يزيل عوائق اتخاذ القرار[1].

---

(1) السلامة شنقار: **دور الإدارة الرقمية في توطين وتوطيد الحكامة المالية بالجماعات الترابية**، رسالة لنيل دبلوم الماستر في القانون العام، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية القاضي عياض، مراكش، السنة الجامعية 2020/ 2021، ص 34.

ثانيًا: خصائص الإدارة الرقمية وأهدافها

تتميّز الإدارة الرقمية بالعديد من الخصائص التي تؤهّلها لتلبية حاجات العصر الحديث ومتطلّباته، كما تسعى وراء تحقيق الأهداف المرسومة.

ويرغب الكثير من العاملين في الإدارة الحكوميّة في الاستغناء عن الملفات الورقية التي تقلّ جودتها مع الزمن، وتكتسي اللون الأصفر أو الأسود، وهذا يؤدي إلى شعورهم بالتقادم وخضوعهم لنظام تقليدي مرّ عليه الزمن.

إن خصائص الإدارة الرقمية كثيرة نذكر أهمها في الآتي:

- **المرونة**: تُعتبر الإدارة الرقمية مرنة، فالتقنية التي تملكها تساعدها في الاستجابة لكل الأحداث والطوارئ والتجاوب معها، وتختصر حدود الزمان والمكان وصعوبة الاتصال، ما يعين الإدارة على تقديم الكثير من الخدمات التي لم تكن متاحة أبداً بفعل تلك العوائق في ظل الإدارات التقليديّة[1].
- **السرعة والوضوح**: إن كثيراً من المعوّقات والعقبات الإدارية التي ترسخت وبقيت لسنوات على حواجز البيروقراطية، يمكن أن تتلاشى لتصبح ماضياً بفعل التحوّل إلى أسلوب الإدارة الرقمية، ففي ظلّ الإدارة الرقمية، لن تجد تلك الأوراق التي يحتاج إنجازها إلى وقت طويل، ليس إنجازها فحسب، بل أيضاً نسخها أكثر من نسخة إذا استلزم الأمر، وحفظها وإرسالها إلى الجهة التي تسبّبت في أمرها، ثم انتظار عودتها إلى مكانها الأصلي، وتكرار ذلك لمرات عديدة في حال وقوع خطأ ما[2].
- **إدارة بلا أوراق**: إذ تعتمد الإدارة الإلكترونية على الحاسوب، وبالتالي تستبعد الأساليب التقليدية المتمثّلة في الأوراق، إلّا بشكل ثانوي، هذا وتعتبر أنظمة الإدارة الإلكترونية كواجهة استخدام للموظفين التي تمكّنهم من الوصول إلى

---

(1) أحمد الشرقاوي: **الإدارة الإلكترونية الواقع والتحديات الإدارية والقانونية**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الحقوق، جامعة محمد الماس، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية السوسي، الرباط، السنة الجامعية 2009/ 2010، ص 72.

(2) مريم كريم: **إشكالية الجودة في الإدارة الإلكترونية**، مرجع سابق، ص 28.

أنظمة المؤسسة الفرعية وفق الصلاحيات الخاصة بكل موظف وإدارته[1].

- **تبسيط المساطر الإدارية**: إن تطبيق وسيلة الإدارة الإلكترونية، أيضا يتميّز بتجنّبه للتعقيدات الإدارية والمشاكل الإجرائية وينزع ظاهرة الازدحام في الإدارات والطوابير، ما ينتج عنه راحة للمواطن وخدمات مريحة ومقبولة[2].
- **زيادة الإتقان وتخفيض التكاليف**: إن الإدارية الرقمية كألية عصرية في عمليات التطوير الإداري، والتغيير التنظيمي، تمثّل منعرجاً حاسماً في شكل المهام والأنشطة الإدارية التقليدية، وتنطوي على مزايا، أهمّها المعالجة الفورية للطلبيات والدقة والوضوح التامّ في إنجاز المعاملات، كما إنه، رغم احتياج الإدارة الإلكترونية في البداية إلى مشاريع مالية بهدف دفع عملية التحوّل، إلّا أن انتهاج نموذج النظم الإلكترونية بعد ذلك سيوفّر ميزانيّات مالية ضخمة، حيث لن تعود الحاجة بعد إلى اليد العاملة ذات العدد الكبير[3].
- **إدارة بلا مكان**: حيث إنها تعتمد على وسائل الاتصال الحديثة كالإنترنت، فالمسؤول الإداري يستطيع أن يتّخذ القرار وهو في أي مكان في العالم، ولا يرتبط اتخاذه القرار بالضرورة من خلال وجوده في المقرّ المادي للمرفق، ما يضفي مرونة عالية بحيث يمكن للمدير مثلاً تتّبع نشاط إداراته، والتدخّل لحلّ المشاكل الطارئة من بُعد، واتخاذ القرارات المناسبة ولو من بيته.
- **إدارة بلا زمان**: حيث إن الإدارة الرقمية لا تلتزم بالضرورة بأوقات العمل الرسمية، فيمكن للموظف العمومي أن يتخذ القرار، حتى خارج أوقات العمل لمواجهة بعض المستجدات الطارئة، فبفضل الإدارة الإلكترونية أصبح العالم بإمكانه أن يعمل في الزمن الحقيقي **(24)** ساعة باليوم، وفي ذلك مراعاة المصلحة المواطنين.
- **إدارة بلا تنظيمات جامدة**: بفضل الإدارة الإلكترونية صار بإمكاننا الحديث

(1) السلامة شنقار: **دور الإدارة الرقمية**، مرجع سابق، ص 29.

(2) عبد الناصر حيدر على الصربي: **دور الإدارة الإلكترونية**، مرجع سابق، ص 18.

(3) محمد بومديان: **الإشكالية القانونية لاعتماد الإدارة الإلكترونية بالمغرب**، مرجع سابق، ص 22

عن تنظيمات ذكية تتّسم بالمرونة، وقابلة لأن تواكب جميع المتغيّرات الطارئة، وذلك خلافاً للإدارة التقليدية التي تتّسم بالجمود والبطء[1].

من جهة أخرى، يتمثّل الهدف الأساس للإدارة الرقمية بالانتقال الجذري من الإدارة التقليدية المتّسمة بالرتابة والبطء، إلى الاعتماد على العمل الإلكتروني، الذي يسعى وراء العديد من الأهداف التي يمكن ذكر بعضها:

- تسهيل الحصول على الخدمات والمعاملات الإدارية.
- الدقّة والسرعة في إنجاز الخدمات والمعاملات، وتوفير البيانات والمعلومات للمستفيدين بشكل فوري.
- تبسيط الإجراءات وسرعة الإنجاز، ورفع مستوى أداء الخدمات.
- السرعة في اتخاذ القرارات المناسبة المبنيّة على معلومات دقيقة ومباشرة.
- إلغاء الحاجة إلى تكديس الأوراق، مع ما يتبع ذلك من أعمال بتطبيق مصطلح إدارة بلا أوراق.
- سهولة انسياب العمليات الإدارية وتحقيق مركزية المعلومات، والتمكّن من إدارة كافة الموارد وتوسيع قاعدة البيانات الداعمة للإدارة العليا.
- إدارة الملفات واستعراض المحتويات بدلًا من حفظها ومراجعة محتوى الوثيقة واستبدال الأرشيف الورقي بالأرشيف الإلكتروني، مع ما يحمله من ليونة في التعامل مع الوثائق والمقدرة على تصحيح الأخطاء الحاصلة[2].
- تحقيق الربط بين مختلف مرافق الدولة بما فيها الجماعات الترابية، والقدرة على تقديم الخدمات عبر البوابات الإلكترونية.
- تحقيق مبدأ تنظيم وإدارة الوقت في آن واحد، ما يعود بالنفع على الفعاليات

---

(1) فترة غيور: **الإصلاح الإداري بالمغرب دور الإدارة الإلكترونية في تحديث الإثارة العمومية، وزارة العدل نموذجاً**، رسالة لنيل دبلوم الماستر في القانون العام، جامعة الحسن الثاني، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، الدار البيضاء، السنة الجامعية 2016/ 2017، ص 46.

(2) نصيرة الحيوني: **الإدارة الإلكترونية ورهان التحديث الإداري بالمغرب**، مجلة **العلوم القانونية**، العدد 7، السنة 2018، ص 23.

الإداريـة؛ توفير فرصة لتغيير المحيط الذي تعمل فيه الأجهزة الإداريـة، وزيادة مبادرات الإبداع والابتكار وفتح قنوات جديدة غير معتادة لتقديم الخدمات[1].

- تبسيط وتسريع الخدمات، من خلال خفض التنقّل والتوصيل في أي زمان ومكان، ثم سهولة الوصول للمعلومات والتوصّل بها.
- تحسين التنافسية الاقتصادية وتقليل كلفة المساطر والإجراءات الإدارية وكل ما يتعلق بها[2].
- استعمال البريد الإلكتروني بدلاً من الصادر والوارد، واعتماد الإنجازات بدلاً من محاضر الاجتماعات.
- القضاء على البيروقراطية بمفهومها الجامد وتسهيل تقسيم العمل والتخصّص فيه[3].
- تقليص الفجوة الرقمية من خلال تطوير محتوى ملائم، وتعميم البنية التحتية للاتصالات وضمان ولوج سهل للخدمات[4].

ومنه يمكن القول، أن الرقمنة تعمل على استبدال نظام العمل التقليدي الذي يحمّلها تكاليف عالية، بنظام إلكتروني يواكب التطوّرات العالمية ويسعى إلى تحقيق الأهداف بأقلّ التكاليف، ويرتكز على كفاءة الموظفين، ما يؤدي إلى الاستغناء عن الموظفين غير الأكفّاء، وغير القادرين على التكيّف مع التطوّرات الحاصلة، كما يعمل أيضاً على الحدّ من معوّقات اتخاذ القرارات، وذلك عن طريق توفير البيانات وربطها بطرق صنع القرار.

---

(1) عبد الناصر حيدر على الصربي: **دور الإدارة الإلكترونية**، مرجع سابق، ص 38 .

(2) السلامة شنقار: **دور الإدارة الرقمية**، مرجع سابق، ص 32 .

(3) مريم كريم: **إشكالية الجودة في الإدارة الإلكترونية**، مرجع سابق، ص 31.

(4) نصيرة الحيوني: **الإدارة الإلكترونية ورهان التحديث**، مرجع سابق، ص 28.

ثالثًا. دوافع اعتماد الإدارة الرقمية في الإدارات الحكومية في لبنان

تتمثل دوافع اعتماد الإدارة الرقمية في الإدارات الحكومية في لبنان، كما الآتي:

- **مواجهة تضخّم الهيكل التنظيمي**: إن اعتماد الإدارات الحكومية في لبنان للرقمنة، دليل على انفتاحها على العالم الخارجي، من أجل إصلاح البنية التنظيمية، وتجاوز أنماط الإدارة التقليدية، فهذا النمط يعيد التفكير في مسار المعلومات والقرارات، وفي توزيع الاختصاصات والمسؤوليات، وكذا في العلاقات التسلسلية داخل الإدارة، إذ إن هذه التقنيات لا تتكيّف مع البنيات الهرمية السائدة داخل الإدارة العامة[1]، وبالتالي فتطبيق التكنولوجيا الحديثة في الإدارة، من شأنه أن يؤدّي إلى إدخال تغيّرات على المستوى التنظيمي، فالفعالية والسرعة والمرونة التي تطبع الإدارة الإلكترونية عمومًا، والإدارة الرقمية على وجه الخصوص، تسهّل إمكانية تجاوز المركزية والتركيز، حيث تمكّن الوحدات الإداريـة من حرية أكبر في التعامل مع الإبقاء على روابط التفاعل مع المركز.
- **تنظيم الحياة الإدارية**: إن الحياة الإدارية قد أُغرقت في مجموعة من الممارسات التي أفسدت الفعل الإداري، وجعلته مصدر توتّر ومعاناة لمن يطلب خدماته، هذه المعاناة التي تتعمّق تحديداً مع المرافق العمومية ذات الطابع الاجتماعي، هذا المعطى يمكن تفسيره بالضغط الديمغرافي الممارس على هذا النوع من المرافق، وقد ساهمت الإدارة الرقمية بشكل كبير في تنظيم الحياة الإدارية من خلال عملها على اختيار العامل البشري المتمكّن، والسهر على ضمان جودة الإدارة الرقمية ومرونتها.
- **الاستجابة لاحتياجات المواطن**: إن الهدف من الإدارة الرقمية هو إرساء علاقة وطيدة بين الإدارات العمومية والمتعامل معها، بخاصّة أن عمل هذه الإدارة يغلب عليه الطابع الاجتماعي بشكل كبير.

(1) حسين محمد الحسن، **الإدارة الإلكترونيّة (المفاهيم، الخصائص، المتطلبات)**، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ط 1، عمّان، الأردن، 2011، ص 31.

لذلك فتحقيق الاستجابة لاحتياجات المواطنين تتطلب تحقّق ما يلي:

- **تحسين العلاقة بين المواطن والإدارة العامة**: إذ إن الاعتماد على الإدارة الرقمية من شأنه أن يعزّز مبدأ المساواة بين المرتفقين في الاستفادة من الخدمات العامة، وما يؤكّده القانون على أن كلّ شخص تتوفّر فيه الشروط التي يحدّدها القانون يحقّ له الاستفادة من الخدمات العامة. فلمواجهة السلوكيّات اللاأخلاقية التي تتعرّض لها فئة كبيرة من المواطنين، تمّ اعتبار الإدارة الرقمية تقنية من شأنها تعزيز مبدأ المساواة بين المواطنين بدءًا من عملية الاستقبال والتواصل، إذ إنّ هذا الاستقبال لا يميّز بين المواطنين، وبالتالي من شأنه أن يحدّ من تصرّفات بعض الموظفين الذين يستخدمون سلطتهم لتحقيق مصالحهم الشخصية.
- **الجودة**: يقصد بالجودة في الإدارات الحكومية، توافر مجموعة من الخصائص الداخلية والضرورية التي تؤدّي في النهاية إلى رضى المواطنين، وذلك يقتضي تحسين مستوى تواصل المرفق العام مع محيطه الخارجي، وتطوير كفاءة الموظفين الساهرين على سير المرفق العام.
- **زيادة المشاركة**: فمن خلال مدّ المواطنين بالمعلومات التي يحتاجونها للمشاركة في هذه العمليات، يمكن أن تكون القرارات والسياسات أكثر نجاعة وفعاليّة.
- تبنّي طرق وأساليب جديدة وعقلنة ترشيد الموارد المالية والمادية والبشرية.
- دمقرطة الحياة الإدارية وتوسيع مشاركة المواطنين، والقضاء على الظواهر الإدارية المعيقة لتطوّر النظام الإداري، لا سيّما ما يتعلق منها بجانب الأخلاقيات.
- **تحقيق الشفافية والفعالية**: إن ما تشهده الإدارة العمومية من عصرنة وتحديث إداري عن طريق استعمال تكنولوجيا الاتصال ونظم المعلومات، سيكون له انعكاسات وتأثيرات إيجابية على عمل الإدارات العمومية، بحيث تتحوّل كافّة الأعمال والخدمات الإدارية التقليدية التي تتّسم بطول الإجراءات، وكثرة الأوراق والمستندات، إلى أعمال وخدمات إلكترونية تنفّذ بسرعة عالية، ودقة متناهية، وهكذا فإن الإدارة الإلكترونية ترمي إلى تمكين المواطن من إدارة

فعّالة وسريعة ذات مستوى عالٍ، يستطيع من خلالها قضاء أغراضه الإدارية بطريقة شفّافة وفعالة.

إذاً، إنّ اعتماد الإدارة الرقمية في العمل الإداري يساهم بشكل كبير في إقرار المساواة بين المواطنين، والتقليص من البيروقراطية، والتخفيض من الروتين في أداء المرافق لخدماتها، ناهيك عن تحقيق شفافية أكبر[1].

رابعًا: الإدارة الرقمية في لبنان وتحديّاتها

يرتبط الواقع المتردّي لـلإدارة اللبنانية، إلى حدّ كبير، بطبيعة النظام السياسي والأمني، فبالتالي لا تستطيع هذه الإدارة أن تكون فعّالة لتقديم الخدمات إلى المواطنين بفعالية وكفاءة، في حين يعاني المواطن اللبناني المقيم والمغترب، من تدنٍّ في مستوى الخدمات، وتأخّر في إنجاز المعاملات، ناهيك عن الفساد المستشري والتنفيذ الاعتباطي والتعقيد في الإجراءات، كما والتدخل السياسي في كافة الأمور العائدة للإدارة العامة.

إن أحـد سبل مواجهة تدّني فعالية خدمات الحكومة اللبنانية للمواطنين ومكافحته، هو استخدام الحكومة للتكنولوجيا المعلوماتية للتواصل (Information Communication Technology) لتقديم الخدمات، أو ما يُعرف بالحكومة الإلكترونية التي تستخدم تكنولوجيا الاتصالات لتقديم الخدمات للمواطنين وتحسين أنشطة مؤسسات القطاع العام وتعزيز كفاءتها وفعاليّتها.

من هذا المنطلق، وبالرغم من إنطلاق مشروع الحكومة الإلكترونية في لبنان منذ أكثر من عقد من الزمن، وما رافقه من تطوير وتحديث لاستراتيجية هذا المشروع على مدار الأعوام التي خلت، وعلى الرغم أيضاً، من إنشاء بوابة الحكومة الإلكترونية في لبنان، تحت مسمى «دولتي»،، لقد حلّ لبنان في المرتبة التاسعة والتسعين عالمياً للعام 2018، وفق الدراسة الاستقصائية التي تنظّمها الأمم المتّحدة كل عامين، لتقييم الحكومات الإلكترونية وتصنيفها، في (**193**) دولة ذات عضوية فيها. في ذلك تكون

(1) غزلان بو عدلي: **دور الإدارة الإلكترونية في تسيير الحصول على المعلومات**، مجلة **المنارة للعلوم القانونية والإدارية**، عدد خاص، 2020، ص 78.

الحكومة الإلكترونية في لبنان قد تراجعت ست وعشرين مرتبة عالمياً، وثلاث مراتب مقارنةً بدول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، مقارنة مع ترتيب الدول في تقرير الأمم المتحدة الصادر في العام 2016.

وهنا نلحظ أبرز التحديّات التي تواجهها الحكومة اللبنانية ـ عبر كافة الوزارات والوكالات الحكومية ـ في تنفيذ مشروع الحكومة الإلكترونية:

- مركزية النظام الحالي، حيث وجود كافة الدوائر الرسمية في العاصمة بيروت.
- البيرقراطية في الإدارات.
- الفساد المستشري، إذ لم نلحظ سوى القليل من الإصلاح منذ العام 1959 حتى يومنا هذا.
- قلّة الثقة لدى المواطن في نزاهة خدمات الإدارات العامة.
- سوء نوعية خدمة الإنترنت في لبنان.
- وضع البنى التحتية لبعض الوزارات والوكالات الحكومية، الذي يعيق تطبيق المشروع.
- وجود نسبة من المواطنين المقيمين والمغتربين، لا يجيدون استخدام الحاسوب وتطبيقاته
- إنعدام حملات التوعية للمواطنين من قبل المسؤولين المعنيّين لمعرفة ماهية الحكومة الإلكترونية، وتدريبهم على كيفية إستخدامها والاستفادة منها.
- عدم تطبيق قانون التوقيع الإلكتروني والدفع الإكتروني إلّا في وزارتين أو ثلاثة.
- عدم مطابقة أغلبية الصفحات الإلكترونية للوزارات اللبنانية مواصفات الحكومة الإلكترونية من حيث الشكل والتطبيق والتحديث.

وهناك تحديات أخرى، تقنية ومالية ومتعلقة بمهارات الموارد البشرية، أبرزها:

- **تكاليف التحوّل**: إذ يمكن أن يكون التحوّل الرقمي مكلفاً بالنسبة للمؤسسات، حيث يتطلّب توظيف الموارد والتكنولوجيا الحديثة وتدريب الموظفين على استخدامها.

- **تحدّيات التكنولوجيا**: تتغيّر التقنيات بسرعة كبيرة، ما قد يشكّل تحدياً للمؤسّسات التي تسعى إلى التحوّل الرقمي، فالتحوّل الرقمي يتطلّب التكيّف مع التغييرات الجديدة في التكنولوجيا والابتكارات الجديدة.
- **توافر المهارات**: يتطلّب التحوّل الرقمي مهارات جديدة في مجالات مثل تحليل البيانات والذكاء الاصطناعي والتسويق الرقمي وغيرها، وهذا يمكن أن يكون تحديّاً للمؤسسات التي تفتقر إلى هذه المهارات في فريقها.
- **تكامل الأنظمة**: يمكن أن يشكل هذا تحدّيّاً للمؤسسة من حيث ربط النُظم القديمة بالنظم الجديدة، وهذا ما يمكن أن يؤثّر على تجربة العملاء وكفاءة العمليات.

بالإضافة إلى عدم وجود مركز موحّد لمعلومات المواطنين ما يعرف بالـ (Master Data)..

أمّا في ما يتعلق بالمتطلبات الدولية والميزات المعتمدة من قبل الأمم المتحدة لتطبيق الحكومة الإلكترونية، أبرزها:

- سهولة وقابليّة وإعادة الاستخدام.
- التوعية ونشر المعلومات.
- القدرة على تقديم الخدمات.
- القبول الاجتماعي ومشاركة المواطنين إلكترونياً.

وفي ملخّص دراسة أعدّت مؤخراً، تبيّن أن الحكومة الإلكترونية في لبنان تلتقي بنسبة (**28٪**) مع المتطلبات المذكورة، وتفشل بنسبة (**19٪**)، وتلتقي بشكل جزئي بنسبة (**42٪**)، وتسلّط هذه الدراسة الضوء مباشرةً على عدم مشاركة المواطنين وانعدام حملات التوعية ومدى تأثيرهم السلبي على تطبيق وتطوير مشروع الحكومة الإلكترونية في لبنان[1].

(1) مجدي عابد: **الحكومة الإلكترونية في لبنان وتحدياتها**، بحث على موقع **الأنباء الإلكتروني**، شوهد بتاريخ 8/ 3/ 2024، على الرابط: .https://anbaaonline.com/news/1785

خاتمة

إن ما تواجه الإدارات في لبنان من تحديات والعديد من المشاكل والتفاصيل التقنية التي يطول ذكرها، تبقيها بحاجة للكثير من المتابعة والتحديث لضمان تنفيذ متطلبات الإدارة الرقمية وتطبيقها في كافة الإدارات الحكومية، بما يؤمّن تعزيز خدمات المواطنين بشفافية ونزاهة، وهنا لا بدّ من الالتفات لأهمية المؤتمرات والندوات التي تُقام مؤخراً حول هذا المشروع، مما لا شكّ بهدفها لبناء مجتمعٍ أفضل يتمتّع باقتصاد متطوّر.

مكتبة البحث

أ. المراجع والمصادر

1. بومديان، محمد: **الإشكالية القانونية لاعتماد الإدارة الإلكترونية**، مطبعة الأمينة، الرباط، ط 2، 2020.
2. حسين محمد الحسن، **الإدارة الإلكترونيّة (المفاهيم، الخصائص، المتطلبات)**، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2011.
3. الصربي، عبد الناصر حيدر علي: **دور الإدارة الإدارة الإلكترونية في تخليق الحياة العامة ومكافحة الفساد الإداري**، مكتبة دار السلام، الرباط، ط 1، 2021.
4. غزلان بو عدلي، **دور الإدارة الإلكترونية في تسيير الحصول على المعلومات**، مجلة المنارة للعلوم القانونية والإدارية، عدد خاص، 2020.
5. المعزول، المصطفى: **مدخل لدراسة الإدارة الإلكترونية**، مطبعة مستانة طنجة، ط 1، 2020.

ب. دوريات

1. أعيزة، عبد الغني: **استراتيجية تحديث الإدارة العمومية بالمغرب**، المجلة المغربية للإدارة المحلية والتنمية الحدد المزدوج 88087 السنة 2009، من 57 محمد بوستيان، الإشكاليات القانونية لاعتماد الإدارة الإلكترونية بالمغرب، مطبعة الأمينة، الرباط الطبعة الأولى 2020 .
2. الحيوني، نصيرة: **الإدارة الإلكترونية ورهان التحديث الإداري بالمغرب**، مجلة **العلوم القانونية**، العدد 7، السنة 2018.

ج. أطروحة دكتوراه ورسائل ماستر

1. الشرقاوي، أحمد: **الإدارة الإلكترونية الواقع والتحديات الإدارية والقانونية**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الحقوق، جامعة محمد الماس، كلية

العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية السوسي، الرباط، السنة الجامعية 2009/ 2010.

2. شنقار،السلامة: **دور الإدارة الرقمية في توطين وتوطيد المكامة المالية بالجماعات الترابية**، رسالة لنيل ديبلوم الماستر في القانون العام، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية القاضي عياض، مراكش، السنة الجامعية 2020/ 2021.

3. غيور، فترة: **الإصلاح الإداري بالمغرب دور الإدارة الإلكترونية في تحديث الإثارة العمومية وزارة العدل نموذجاً**، رسالة لنيل ديبلوم الماستر في القانون العام، جامعة الحسن الثاني، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية الدار البيضاء، السنة الجامعية 2016/ 2017.

4. كريم، مريم: **إشكالية الجودة في الإدارة الإلكترونية «دراسة مقارنة»**، رسالة لنيل شهادة الماستر في القانون العام، جامعة محمد الخامس، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية أكدال، الرباط، السنة الجامعية 2013/ 2014.

د. موقع إلكتروني

1. مجدي عابد: **الحكومة الإلكترونية في لبنان وتحدياتها**، بحث على موقع **الأنباء** الإلكتروني، على الرابط: https://anbaaonline.com/news/1785.

التطوّرات الإدارية للتعليم المهني والتقني في لبنان (1958 - 1993)

وليد رفيق ناصر(*)

مشرف رئيس: أ.د.محمد علي القوزي

مشرف مشارك: أ.د.خالد الجندي

الملخص

تُعدّ الدولة اللبنانية من الدول الرائدة في مجال العلم والتعليم، كونها ذات تاريخ عريق في هذا السياق، وما التعليم المهني والتقني إلا من أهم القطاعات لدوره البارز في التنمية الاقتصادية للبلد، وقد تم العرض في هذا البحث لتاريخ إنشاء قطاع التعليم المهني والتقني في لبنان من فترة حكم الرئيس فؤاد شهاب إلى مطلع تسعينيات القرن المنصرم عند انتهاء الحرب الأهلية، وكذلك تم الحديث عن أبرز المؤسسات التربوية التي عنيت بتطوير التعليم المهني والتقني وتحديثه، وكذلك لأبرز القرارات والمراسيم التي أطّرت التعليم المهني والتقني في لبنان.

الكلمات المفتاحية:

لبنان، التعليم المهني، قرارات، وزارة، مراسيم، تطوير، مدارس، طلاب.

(*) طالب دكتوراه في جامعة بيروت العربية في التاريخ الحديث والمعاصر. walidrnasser@gmail.com.

:Summary

The Lebanese state is considered one of the leading countries in the field of science and education, as it has a long history in this context, and vocational education is only one of the most important sectors due to its prominent role in the economic development of the country. This research has presented the history of the establishment of vocational education in Lebanon from the period of the rule of President Fouad Chehab, to the beginning of the nineties of the last century, on the eve of the end of the civil war, and there was also talk about the most prominent educational institutions that were concerned with developing and modernizing vocational and technical education, as well as the most prominent decisions and decrees that framed vocational education in Lebanon.

Keywords: Lebanon, vocational education, decisions, ministry, decrees, development, schools, students.

مقدمة

يحتاج الناس في حياتهم اليومية لعددٍ من وسائل العيش ومستلزماتها، منها ما ورث عن الأسلاف، ومنها ما يحدّثه المجتمع وفق متطلبات عصره، ومنها ما يبتكر لحاجة الناس له بفعل التطوّر الطبيعي للثقافات وتقدّم العلوم.

في السابق كانت الوسائل تصنع بطريقة بدائية، حين لم تكن التكنولوجيا قد دخلت عالم الصناعات بعد، فكان الوالد يتولّى تدريب أبنائه وتأهيلهم على صنعته، أو يوكل أمر تدريبهم لأحد الصناعيّين، فيتعلم الولد عن طريق التقليد، وقد عرفت هذه التقنية في تعليم المهن منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، حيث كان يتم التدريب على المهن في مكان العمل نفسه، لأن مرحلة التربية التقليدية لا تتضمّن أي تعليم له صلة بالإنتاج، كالتعليم المهني.

بدأت الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، بالتزامن مع بروز أهم الاختراعات التي ساهمت في تطوّر الأعمال الصناعية، كاختراع المحرك البخاري في العام 1763، على يد «جيمس وات»، وآلة الغزل عام 1764، على يد «جيمس هارجرف»، وغيرها من الاختراعات في حقلي الكهرباء والميكانيك، ثم تلتها الثورة العلمية والتكنولوجية

في أواخر القرن التاسع عشر، لتتطوّر بعض المهن والحرف وتظهر مهن وحرف جديدة ومعقدة، كأعمال الكهرباء والإلكترونيات وميكانيك السيارات وغيرها من الاختصاصات الصناعية وغير الصناعية، فأصبحت نواتج هذه الصناعات تجتاح حياتنا بتفاصيلها وتشكّل حاجة ضرورية.

لذلك باتت تقنية إعداد الصناعيّين والمهنيّين عن طريق التقليد، دون الاستفادة من علوم العصر، تنقرض شيئاً فشيئاً، كون هذه الاختصاصات تحتاج إلى كفايات ومهارات عالية ومتخصّصة، ففتحت مدارس ومعاهد فنية ومهنية، لتقوم بتقديم خدمة تعليميّة مهنيّة في عدد من الاختصاصات التي يحتاجها سوق العمل، وهذه الخدمة التعليمية يفترض أن تكون معتمدةً ومرتكزةً على مناهج علمية تراعي في محتواها حاجات سوق العمل كماً ونوعاً.

واليوم يلقى قطاع التعليم المهني والتقني في الدول المتقدمة اهتماماً خاصاً، كونه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسوق العمل، ويساهم بشكل مباشر بتطوير القدرات الصناعية والتجارية لهذه الدول، ويدفع بعجلتها الاقتصادية إلى الأمام، ما يخلق فرص عمل أكبر ويساعد في خفض مستويات البطالة، وبالتالي يحقق التنمية والازدهار داخل المجتمع.

وهذا ما نعتقد أنه الدافع الأساس وراء اهتمام منظمة الأمم المتحدة (اليونسكو)، التي أولت قطاع التعليم المهني والتقني اهتماماً أساسياً في برامج التنمية المستدامة التي تدعم بواسطتها الدول النامية، فأنشأت لهذا الغرض «المركز الدولي للتعليم والتدريب المهني والتقني» «يونيفوك UNEVOC»[1]، حيث يقيم هذا المركز مؤتمرات دولية وإقليمية حول تطوير قطاع التعليم المهني والتقني وعناصره، بما فيها المناهج.

---

(1) مركز دولي متخصص تابع لليونيسكو، يُعنى بالتعليم والتدريب التقني والمهني، يقع في مدينة بون بألمانيا، ويعمل على تقديم خدمات متنوعة للدول الأعضاء في مؤسسة اليونيسكو حول العالم لتطوير وتقوية نظم التدريب والتعليم المهني والتقني، ويضطلع المركز بأهمية قصوى لتعزيز البلدان المختلفة ودعمها، لتطبيق نظم تعليم شديدة الصلة باحتياجات السوق ومستدامة ومتاحة للجميع.

أهمية الدراسة

إن التطوّرات الإدارية التي قامت بها الدولة في قطاع التعليم المهني والتقني منذ الاستقلال وإلى حدود الدراسة عام 1993، وكذلك أبرز القرارات والمراسيم التي أطّرت التعليم المهني والتقني في لبنان، ما هي إلا لتبيان الأهمية الكبرى التي أولتها الدولة اللبنانية إلى قطاع التعليم المهني والتقني، وإبراز مكامن القوة والضعف فيها، من خلال سرد هذه التطوّرات التي حصلت لهذا القطاع أثناء تلك الفترة.

كما تستهدف الدراسة إلقاء الضوء على قطاع تعليمي والكشف عن أثر المعوقات التي منعت مسار التعليم المهني والتقني من تحقيق ما يصبو إليه من نمو وتقدم ومواكبة العصر منها:

- عرض لواقع التعليم المهني الرسمي منذ انطلاقته في العام 1958 وحتى العام 1993 ووصفه وتحليله، وذلك من خلال دراسة واقعه في عهود الرؤساء: فؤاد شهاب (1964ـ1958)، شارل حلو (1970ـ1964)، سليمان فرنجية (ـ1970 1976)، إلياس سركيس (1982ـ1976)، أمين الجميّل (1988ـ1982)، ميشال عون (1990ـ1988)، إلياس الهراوي (1998ـ1990).
- تبيان أهمية التعليم المهني والتقني عالمياً والأدوار الانتاجية التي يقوم بها ومكانته في الأنظمة التربوية.
- الكشف عن أهم المعوقات التي تعترض عملية الإعداد المهني في لبنان، ومعرفة نشأتها ومدى تأثيرها على قطاع التعليم المهني والتقني والأضرار التي لحقت بالقطاع من جرّائها.

أسباب اختيار الموضوع

إنّ اختيار التعليم المهني والتقني ميداناً للبحث، تأتي من رغبة الباحث في دراسة موضوع تربوي تنموي مهمّ، يشكل مدماكاً في التنمية الاقتصادية. لذلك لا بدّ من تقييم واقع هذا القطاع وحاجاته وارتباطه الحقيقي بميدان العمل الذي ينتابه العديد من المعوقات التي تضرب هذا القطاع، ما دفعني للتعمّق بدراسة الموضوع، لأنَّ

العالم شهد تطوّرات كبيرة على صعيد العمل الذي ازدادت تشعّباته واختصاصاته مع تطوّر العلم والتكنولوجيا. لذا من الأهمية بمكان تسليط الضوء على هذا الموضوع ودراسته.

حدود الدراسة (الزمانية والمكانية)

لا بدّ للبحث أن يراعي الزمان والمكان، من أجل تقديم المضمون والفائدة، وتقديم المعلومات في إطار زماني ومكاني محدد.

- الحدود الزمانية: الفترة الممتدة بين عاميّ 1958_1993 كإطار تاريخي عام، ويشمل من بداية عهد الرئيس فؤاد شهاب (1958_1964) حيث تمّ مأسسة الدولة، وحتى ما بعد اتفاق الطائف الى العام 1993، عندما أنشئت أوّل وزارة تعتني بالتعليم المهني والتقني في لبنان.
- الحدود المكانية: أراضي الجمهورية اللبنانية.

إشكالية الدراسة

انطلاقاً من العنوان، وفي ضوء المعطيات تظهر معنا الإشكالية الرئيسة التالية: ما هي أبرز معوقات قطاع التعليم المهني والتقني في لبنان في فترة الدراسة؟

وتتولد عنها الأسئلة الفرعية التالية:

- كيف كان تأثير التحول السياسي الاستقلالي على التربية والتعليم بشكل عام، وعلى التعليم المهني والتقني بشكل خاص؟
- ماذا فعلت الدولة الحديثة من تشريعات لتحديث الأنظمة التعليمية في قطاع التعليم المهني والتقني؟
- ماذا فعلت الدولة الحديثة في التأثيرات الطائفية على التربية والتعليم؟
- هل قامت بحل تلك المشاكل التي تؤثر عليه؟

فرضيات الدراسة

بما أن الفرضيات هي إجابات مبدئية عن الإشكاليات، وبما أن هناك العديد من المعوّقات التي واجهت التعليم المهني والتقني في لبنان شملت هذه المعوقات المجالات كافة. وفي ضوء الإشكالية الرئيسة، تتولّد معنا الفرضية الرئيسة التالية، ويتفرع عنها الفرضيات الفرعية التالية:

- عانى لبنان قصوراً في الدعم السياسي للتعليم بشكل عام والتعليم المهني والتقني بشكل خاص.
- عملت الدولة المستقلة حديثاً على تعديل بعض النظم والقوانين، وإنشاء بعض المديريات والمصالح التي تؤدي إلى تنظيم الحقل التربوي في لبنان بشكل عام، وقطاع التعليم المهني والتقني بشكل خاص.
- حلّت الدولة بعض المشاكل العالقة في التعليم بشكل عام، والتعليم المهني والتقني بشكل خاص، ووقفت عاجزة عن البعض الآخر.

منهج الدراسة

تم اعتماد المنهجين التاريخي والتحليلي، لتسجيل الأحداث والوقائع ووصفها، من زاوية تاريخية تعليمية، وكذلك المنهج التحليلي المقارن حيث يقوم بتحليل ومقارنة المعلومات في العديد من المصادر، وتفسير هذه البيانات والمعلومات، ويزيد عليها بأن يصل إلى تفسيرات وتعميمات تساعدنا على تفسير الماضي وفهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل.

الدراسات السابقة

اعتمد البحث على مجموعة من المصادر والمراجع منها:

- حسان قبيسي: **النظام التعليمي في لبنان**، الصادر في العام 2012، والمؤلف من 352 صفحة، حيث استفدنا منه في فصله الثالث الذي أمدّ الدراسة بالعديد من الأرقام والإحصاءات الواردة فيه، في فترة الدراسة التي أغنتها.



- محمود صالح منسّى: **الشرق العربي المعاصر، القسم الأول، الهلال الخصيب،** حيث أمدّنا هذا الكتاب وخاصة في الفصل الثالث منه، حول الأوضاع السياسية والطائفية والتغيرات الدولية والإقليمية التي أثّرت على لبنان في تلك الفترة.
- نايف معلوف وخليل أبو رجيلي: **الوضع التربوي في لبنان، واقع ومعاناة،** المركز التربوي للبحوث والانماء، كانون الاول 1987، ص.199.

يتناول الكتاب اختصاصات التعليم المهني والتقني، ومعاهده، وطلابه، وأساتذته، وخرّيجيه، منذ العام 1957 حتى العام 1987، بالجداول والأرقام، حيث تحدّث الكاتبان عن الواقع التربوي في لبنان، وما يعانيه هذا القطاع، كما تحدثا بإسهاب عن معاناة واقع التعليم المهني والتقني بالأرقام، وعن انعكاس الحرب على واقع التعليم المهني والتقني في لبنان، وذلك على مستوى المؤسسات والأساتذة والطلاب، تحدّثا أيضاً عن الإنفاق الرسمي على هذا القطاع ومدى كلفة الأفراد في المؤسسات الرسمية، إضافة إلى الملاحق التي تتضمّن عدداً من الوثائق في هذا القطاع.

يُعتبر هذا الكتاب مرجعاً أساسياً للمهتمّين بالتربية والتعليم، وهو يعالج الواقع التربوي في حقبة الحرب اللبنانية، حيث يشمل جزءاً أساسياً من الدراسة. فأفاد الدراسة عن واقع الأرقام في الإنفاق التربوي للسنوات المدروسة في الكتاب، وفي سرد واقع آثار الحرب على الأساتذة والطلاب.

وقد تم تقسيم البحث إلى قسمين اثنين على النحو التالي:

1. إنشاء التعليم المهني والتقني في لبنان

إنّ الاستراتيجيّة الأساسيّة لأيّة أمور ذات طابع عام، لا بدّ من أن تكون وفق أمور قانونيّة ورسميّة، ووفق الأنظمة المرعيّة الإجراء، ولوضع الاستراتيجيّات لا بدّ لها من قوانين ومراسيم وقرارات وزاريّة ونيابيّة بحسب الدّستور اللبناني. فلقد اعتمدت الدّولة اللبنانيّة على العديد من الاستراتيجيات التي تمكّن القطاع المهني والتّقني من النّهوض، ويواكب التّطوّر الحاصل في العالم والجوار، من ناحية التّطوير الإداري والأبنية والتّجهيزات المتعلّقة بنمو القطاع المهني والتقني وتطوّره في لبنان.

1.1. واقع التعليم المهني والتقني في لبنان

بعد أن نال لبنان استقلاله في 22 تشرين الثّاني سنة 1943، كان النظام التربوي في لبنان إرثاً من الانتداب الفرنسي، وبعضاً من جذور هذا النظام كانت لا تزال تعود «لنظام المعارف العموميّة» الصادر سنة 1869، إبّان العهد العثماني، فالدَّولة حديثة النشأة (أي الدولة اللبنانية)، لم تكن قد وضعت نظامها التعليمي الخاص بها، انطلاقاً من حاجات المجتمع اللبناني وخصوصيّة تنوّعه الطائفي والأيديولوجي حتى 1/ 10/ 1946، حينما أصدرت دولة الاستقلال أوّل المراسيم الّتي حدّدت معالم النظام التعليمي في لبنان، وبقيت الثقافة الفرنسية طاغية فيه أيضاً (بشور، 1987، ص 41).

صدرت في بدايات عهد الاستقلال ستة مراسيم نظّمت مراحل التّعليم الابتدائي، والابتدائي العالي، والثانوي، وتحديد مواد التدريس، وأنظمة الامتحانات، والمراسيم هي ذات الأرقام (**6998-6999-7001-7002-7003-7004**) (مجلس الوزراء، 1/ 10/ 1946)، لكنّها تعلّقت بالتّعليم العام الأكاديمي، ولم تشمل التّعليم المهني والتّقني، الذي بقيت صلته بالتّعليم العام كما كانت إبّان العهد العثماني، فلم ينشئ الانتداب الفرنسي في عهده أيّة مدرسة مهنيّة، وقد اكتفى فقط بتطوير مدرسة الصنائع المهنيّة التي أنشأها النظام العثماني سنة 1904.

أمّا أولى التشريعات المرتبطة بتنظيم التّعليم المهني والتّقني في لبنان، فصدرت بعد عشرين سنة تقريباً على استقلال لبنان، كان ذلك بموجب المرسوم الرقم (**9404**)، الصادر بتاريخ 4/ 5/ 1962 (مجلس الوزراء، 4/ 5/ 1962)، وقد أثّر بطبيعة الحال على البنية التربوية الأولى التي رسمت في العام 1946، وفق المراسيم التي صدرت لاحقاً.

شهد قطاع التعليم المهني والتقني بعد الاستقلال ولغاية 1958، نهضة ملحوظة، حاله كحال غالبية القطاعات التربوية، ولكن بوتيرة أقل سرعة وتوسُّعاً، ذلك لتلبية معظم الاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع، فعلى الصعيد الرسمي أنشأت الدولة في نهاية الأربعينيات، أربع مدارس مهنية في بيروت، طرابلس، صيدا وزحلة، وأتبعتها بإنشاء مدرستين واحدة في دير القمر والثانية في بيروت للفندقية، وهكذا

أصبح عدد المدارس المهنية الرسمية سبعة، منها خمس مدارس مهنية، واحدة فندقية وأخرى للصنائع والفنون، وقد بلغ عدد الطلاب فيها عند نهاية الخمسينيات **(954)** طالباً (بشور، 1987، ص 44).

أما التعليم المهني والتقني الخاص، فقد برز مع بروز التعليم المهني الرسمي، وعرف «منذ الاستقلال وحتى نهاية الخمسينات توسّعاً كبيراً، أضاف إلى اختصاصات مدارسه، اختصاصات جديدة في حقول تعليم التجارة والمحاسبة وأمانة السّر والكهرباء والراديو التي فرضها التطور الاجتماعي والاقتصادي» (الطويل، 1980، ص 40).

وفي عهد فؤاد شهاب، الرئيس الثالث للجمهورية اللبنانية، في مطلع الستينيات من القرن العشرين، شهد القطاع الصناعي في لبنان نموًّا وذلك بفضل مأسسة الدولة على يد رئيس الجمهورية، فازداد عدد العاملين الصناعيّين، كما ازدادت الرساميل الموظّفة في البنوك، وشكّلت الصناعة الخفيفة أكثر من نصف عدد المؤسّسات الصناعيّة، ما دفع الدَّولة اللبنانيّة إلى توسيع نطاق التّعليم المهني، فأنشأت خمس عشرة مدرسة جديدة موزّعة على مختلف الأقضية اللبنانية. كما تمّ، في تلك الفترة، إنشاء «المعهد الوطني التربوي للتعليم المهني والتّقني، من أجل إعداد أساتذة التّعليم المهني والتّقني وتأهيلهم، بالإضافة إلى معاهد تقنيّة لإعداد الكوادر العليا من التّقنيين حملة شهادة الامتياز الفنّي (TS) (غزاوي، 2008، ص 69).

ويمكننا القول أنّ «السّنوات الثلاث التي امتدّت من عام 1964 إلى عام 1967، شهدت وضع الأسس التّنظيميّة التي بُني عليها التّعليم المهني والتّقني الرّسمي والخاص، كما أنّ الوثبة الكبيرة التي حقّقها هذا التّعليم في مجال تطويره تحقّق أكثرها في هذه السنوات القليلة» (الطويل، 1980، ص 41)

إن أبرز العوامل التي كان لها تأثير كبير في توجيه الإطار العام وتفضيل المعالم الخاصّة للقطاع المهني والتّقني في لبنان، والتي أدّت إلى تطويره، تلك المراسيم التي شرّعت وأسّست لنهوضه، هي:

- المرسوم الرقم **(15742)**، تاريخ 1964، المتعلّق بتنظيم مديريّة التّعليم المهنيّ والتّقنيّ.

- القانون الرقم (**64/62**)، تاريخ 30/ 12/ 1964، المتعلّق بتنظيم التّعليم المهنيّ الخاص.
- المرسوم الرقم (**7880**) تاريخ 25/ 7/ 1967، المتعلّق بتنظيم حقول التعليم المهني والتقني ومراحله وشهاداته، الّذي عُدّل بموجب المرسوم الرقم (**2872**)، تاريخ 21 نيسان 1988، ويعطينا صورة عن السلّم التعليمي في التّعليم المهني والتّقني.

لقد تناول المرسوم الرقم (**15742**)، المتعلّق بتنظيم مديريّة التّعليم المهني والتّقني، التي أصبحت فيما بعد مديريّة عامّة بموجب المرسوم الرقم (**938**)، تاريخ 14/ 4/ 1971، وكان من أهم الاعتبارات التي نتجت عن هذا المرسوم، ظهور المديريّة العامّة للتّعليم المهني والتّقني بدورها الأساسي، الذي يتناسب مع الأولويّة التي أعطتها الدّولة للمديريّة العامّة.

أمّا القانون الرقم (**64/62**)، فقد تناول تنظيم التعليم المهني الخاص في لبنان، بعد أن تردّت أوضاع المدارس المهنيّة الخاصّة، وذلك لعدم وجود رقابة عليها من قبل الدّولة، فجاء هذا القانون ليجعل من المهنيّات الخاصّة تعمل على تنظيم أوضاعها، بالإضافة إلى رفع مستوى جودة الامتحانات في الشهادات الرّسميّة المهنيّة والفنيّة.

وبعد أن جاء المرسوم الرقم (**7880**)، لتنظيم حقول التعليم المهني والتقني ومراحله وشهاداته، فإنه وضع الأسس التنظيمية الأساسيّة لهيكلية هذا القطاع عبر أساسيّات، منها:

- «تحديد هيكل مرن لمراحل الإعداد يتفق مع مختلف الأوضاع المهنية.
- إنشاء وصلات عديدة بين مراحل الإعداد ومختلف مراحل التّعليم العام.
- توفير المجال للتلميذ المتفوّق بالتّرقية العلميّة والمهنيّة في مراحل أخرى.
- إعادة الاعتبار للعمل اليدوي وإحياء الضمير المهني عند العامل.
- البحث المستمرّ في تحسين وسائل الإعداد والتّدريب وأساليبهما (الطويل، 1980، ص 41)

أما القرار الرقم **(83/56)**، فقد حدّد مدّة الدراسة لشهادة الامتياز الفنّي بثلاث سنوات لاحقة لحيازة البكلوريا الفنيّة أو لحيازة البكالوريا اللبنانية القسم الثاني من التّعليم الثانوي (مجلس الوزراء، 14/ 8/ 1983).

وتماشياً مع تطوّره التنظيمي، شهد قطاع التعليم المهني والتقني، مطلع سبعينيّات القرن العشرين، تطوّراً عمرانيّاً وتربويّاً، تجلّى في إنشاء المجمّع التربوي للتعليم المهني والتقني في منطقة الدكوانة في بيروت، كما أنشأت الدولة مدارس فنية ومهنية في المناطق البعيدة والنائية التي لم يدخلها القطاع الخاص بما هو مطلوب. وفي وقتٍ متصل، وتحديداً في 10/ 11/ 1971، صدر المرسوم الرقم **(2356)**، القاضي بتأسيس «المركز التربوي للبحوث والإنماء» الذي اهتم بإعداد البرامج والمناهج الخاص بالتعليم العام، إضافة إلى التعليم المهني والتقني (قانصو، 1999، ص 40).

كل هذه العوامل والتطوّرات أدّت إلى ازدياد أعداد الوافدين إلى قطاع التعليم المهني والتقني، حيث نجد في العام الدراسي 1945/ 1946، أن عدد التلاميذ بلغ **(300)** تلميذاً فقط، وبعد تلك الإصلاحات على مستوى البنى التحتية من إنشاء مدارس ومعاهد مهنية، أو على المستوى التنظيمي، من إصدار المراسيم وإقرار التشريعات التي من شأنها تعزيز ثقة المجتمع، وبالتالي أولياء أمور التلاميذ، نلاحظ هذا التطوّر في أعداد التلاميذ الذي وصل إلى **(25788)** تلميذاً في العام الدراسي 1974/ 1975، أي بزيادة ما يقارب **(85.96٪)** من عدد التلاميذ (الغزاوي، 1992، ص 70).

وأما بالنسبة للتعليم المهني الخاص، فقد ذكر التقرير السنوي لغرفة التجارة والصناعة في بيروت، أنه بدأ بالظهور في لبنان ما بين الأعوام 1920 و1938، حيث تأسست مدارس لتعليم الخياطة والتطريز والمهن المختلفة.

وفي الفترة ما بين الاستقلال وحتى منتصف الستينيات من القرن العشرين، حاز التعليم المهني والتقني الخاص على أهمية كبرى، حيث قامت الدولة اللبنانية بوضع نظام تخضع له كل مؤسسات التعليم المهني والتقني الخاص (رئاسة مجلس النواب، القانون الرقم 62/ 64)، وتم تحديد المدرسة المهنية الخاصة بأنها «كل مؤسسة خاصة تسدي تعليماً نظرياً أو عملياً، مباشرة أو بالمراسلة، أو بأي وسيلة كانت، لتأهيل

الأشخاص لممارسة مهنة أو حرفة ما، في حقل الصناعة أو الصيانة الفنية» (وزارة التعليم المهني والتقني، 1997، ص 9)، ولا بدّ للمدارس المهنية الخاصة أن تخضع جميعها لرقابة وزارة التربية الوطنية في كل ما يتعلق بتطبيق المناهج الرسمية، وبالتجهيز الفني والتربوي، وبالامتحانات الفصلية والسنوية، هذا بالإضافة إلى أن منح الشهادة هو حق حصري للدولة اللبنانية ممثلة بوزارة التربية الوطنية، وهو حق مبني على نتائج امتحانات عامّة ورسمية، وهذا من شأنه طمأنة أولياء الأمور حول التزام المؤسسات الخاصة للتعليم المهني والتقني بالمناهج الرسمية، وترشيح التلاميذ للامتحانات على أساسها، وضمان حصول أبنائهم على شهادة رسمية معترف بها.

كما تنقسم معاهد التعليم المهني والتقني الخاص إلى قسمين:

- **التجارية الربحية**: ويتسم هذا النوع من مدارس ومعاهد التعليم المهني والتقني الخاص باعتماده على الاختصاصات غير المكلفة، في التجهيز كالتربية الحضانيّة والمحاسبة والعلوم التجارية وغيرها من الاختصاصات التي لا تتطلب وجود مشاغل كبيرة ومجهزة.
- **الخاصة الاجتماعية**: وهذا النوع من مدارس ومعاهد التعليم المهني والتقني الخاص لا يتوخّى الربح، ويتبع عادةً للمؤسسات الاجتماعية، سواء أكانت مدنية أو تابعة للطوائف، ويتميز هذا النوع بمؤسساته الكبيرة التي تدرّس، إضافة إلى الاختصاصات غير الصناعية التي تدرّسها المدارس والمعاهد التجارية الربحية، إختصاصات صناعية تتطلب تجهيزاً مكلفاً، وبنىً تحتية ومشاغل واسعة قادرة على استيعاب طبيعة التجهيز الضخم لهذه الاختصاصات، كميكانيك السيارات والتدفئة والتبريد والحدادة وغيرها (الطبّال، 2007، ص 42)

واتصفت مدارس ومعاهد التعليم المهني والتقني الخاص، ببعض الخصائص التي لا يمكن التغافل عنها، وهي:

- ضعف التعليم المهني والتقني الخاص وتوزعه على مبانٍ لا تنطبق عليها مواصفات المدارس المهنية والتقنية، وهي صفة تتصف بها بعض المدارس المهنية الرسمية أيضاً.

- تمركزها في بيروت وضواحيها.
- اختصاصات معظم المدارس والمعاهد المهنية في المناطق منحصرة في الخياطة والتطريز والضرب على الآلة الكاتبة واللغات الأجنبية.
- افتقار التعليم المهني والتقني الخاص لاختصاصات الصناعية.
- تكرار معظم الاختصاصات في المدارس والمعاهد الفنية الخاصة.

وفي العام 1975، بلغ عدد مؤسسات التعليم المهني والتقني الخاص **(134)** مدرسة ومعهداً، وضمّ حوالي **(20434)** تلميذاً، متجاوزاً بذلك عدد تلاميذ التعليم المهني والتقني الرسمي بحوالي **(80٪)** من مجموع التلاميذ في ذلك العام (المجلة التربوية، 1995، ص 54).

اتّسمت حقبة ما بعد الاستقلال وحتى العام 1975، بالغنى في ميدان التعليم المهني والتقني الخاص والرسمي، ويمكن اعتبارها حقبة التأسيس لقطاع التعليم المهني والتقني، لأن معظم التشريعات والمناهج تم إقرارها، ومنها ما هو قائم حتى يومنا هذا.

في 13 نيسان 1975، عندما اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية، كان عدد تلاميذ التعليم المهني والتقني الرسمي **(5017)** تلميذاً موزّعين على **(17)** مدرسة ومعهداً فنياً، وفي العام الدراسي 1977/ 1978، ارتفع عدد هؤلاء التلاميذ إلى **(5300)** تلميذ، ولم يتغير عدد المدارس والمعاهد الفنية، ثم استمر العدد بالارتفاع ليصل إلى **(8465)** تلميذاً في العام الدراسي 1981/ 1982، (سنة الاجتياح الإسرائيلي للبنان)، أي بزيادة **(59٪)** عن العام 1975، مقسمين على **(18)** مدرسة ومعهد فني، أي بزيادة مدرسة أو معهد فني واحد (غزاوي، 1992، ص 69).

ويتبين لنا من ذلك، أنّ الإقبال على التعليم المهني والتقني الرسمي، بقي في وتيرة تصاعدية رغم الظروف الأمنية الصعبة حينها، وإن مواكبة الدولة لهذا الإقبال لجهة زيادة عدد المدارس والمعاهد الفنية بقيت ضعيفة، ولعلّ السبب يعود إلى الشلل الذي أصاب المؤسسات والإدارات الرسمية بفعل الحرب والانقسام السياسي والطائفي.

وفي سنة 1975، وضعت المديرية العامة للتعليم المهني والتقني «خطة سداسية لتطوير التعليم المهني والتقني»، لكن اندلاع الحرب الأهلية حال دون تنفيذها.

وتراوحت نسبة التلاميذ المنتسبين للتعليم المهني والتقني، إبّان سنوات الحرب والسنوات الأولى من التسعينيات، ما بين **(8 و11٪)** من مجموع تلاميذ مرحلتي التعليم المتوسط والثانوي، في حين أن مدارس التعليم المهني والتقني، لم تتجاوز **(262)** مدرسة (خاصة ورسمية)، وتضم حوالي **(25383)** تلميذاً وتلميذة. كما نجد في هذه المدارس **(29)** مدرسة رسمية فقط، تضم **(7450)** تلميذاً أي حوالي **(30٪)** من مجموع تلاميذ التعليم المهني والتقني في ذاك الوقت (تيريز الهاشم وآخرون، 1997، ص65).

2.1. أهم إنجازات التعليم المهني والتقني

في بداية الثمانينيات من القرن العشرين، وفي محاولة تطوير قطاع التعليم المهني والتقني، قامت ورشة لتطوير المناهج ووضع مناهج جديدة، بالتعاون ما بين المديرية العامة للتعليم المهني والتقني والمركز التربوي للبحوث والانماء، حيث حمل المشروع اسم «المشروع المشترك رقم 7»، فكان من أهم نواتجه تقليص المرحلة الثانوية في التعليم المهني والتقني من أربع سنوات، المعروف حينها بسنتين BT1 وسنتين BT2 تنتهي كل مرحلة منهما بامتحانات رسمية، إلى ثلاث سنوات (BT1,BT2,BT3)، وفي نهاية السنوات الثلاث يخضع التلميذ لامتحانات رسمية، وهذا ما هو قائم الآن.

كما إن القرار الرقم **(83/56)** حدّد مدة الدراسة لشهادة الامتياز الفني بثلاث سنوات لاحقة لحيازة البكالوريا الفنية أو البكالوريا اللبنانية القسم الثاني من التعليم الثانوي.

لقد حدّدت القرارات والمراسيم الحقول الخاصة للتأهيل المهني، على الشكل التالي:

- مرحلة الكفاءة المهنية CAP، وهي سنتان تقابلان السنة الأولى والثانية المتوسطتين.
- مرحلة التكميلية المهنية BP، وهي سنتان تقابلان السنة الثالثة والرابعة المتوسطتين.
- مرحلة التأهيل المهني العالي FPM، وهي ثلاث سنوات تقابل المرحلة الثانوية.

أما حقول التعليم الفني فقد كان لها الحيّز الأكبر وتنقسم عن التأهيل المهني إلى:

- شهادة البكالوريا الفنية BT، وهي بمستوى التنفيذ ومدتها ثلاث سنوات تقابل المرحلة الثانوية.
- شهادة الامتياز الفني TS، وهي بمستوى الأطر الوسطى مدتها ثلاث سنوات (حيث عدّلت إلى سنتان فيما بعد)، تقابل ثلاث سنوات تعليم جامعي.
- الإجازة التقنية LT، بمستوى الأطر العليا، وهي دراسة سنتين بعد مرحلة الامتياز الفني (حيث عدّلت إلى سنة واحدة فيما بعد)، فيكون مجموع دراستها خمس سنوات.
- الاجازة التعليمية الفنية LET، وهي موصوفة أساساً لتخريج أساتذة فنّيّين للمدارس الفنية في لبنان، مدتها أربع سنوات تقابل أربع سنوات التعليم الجامعي، وتصدر فقط عن المعهد الفني التربوي، وهو من المعاهد الفنية التابعة لوزارة التعليم المهني والتقني.

هذه التقسيمات الإدارية لسنوات الدراسة في الحقول المهنية والتقنية جاءت بعد عام 1980، ذلك لأن قبل هذا العام «كانت البكالوريا الفنية أربع سنوات، سنتين بكالوريا فنية أولى BT1، وسنتين بكالوريا فنية ثانية BT2، ثم جاءت نصوص المرسوم الرقم (**2872**) تاريخ 1980/ 4/ 21، الذي جعل الدراسة ثلاث سنوات بدلاً من أربعة واستبدلت الشهادتين بشهادة واحدة هي البكالوريا الفنية BT» (الغزاوي، 1992، ص 43).

بعد الانتهاء من الحرب الأهلية، وفي محاولة منها لتطوير التعليم المهني في لبنان، والسعي لترميم ما أفسدته تلك الحرب، قامت الدولة اللبنانية باستحداث «وزارة التعليم المهني والتقني»، وذلك بموجب القانون الرقم (**211**)، تاريخ 2/ 4/ 1993، وكان من مهام هذه الوزارة:

- إدارة شؤون المعاهد والمدارس المهنية والتقنية الرسمية.
- مراقبة المؤسسات الخاصة للتعليم والتدريب المهني والتقني والمناهج الدراسية فيها وفقاً للقوانين والأنظمة النافذة.
- تنمية شاملة لقطاع التعليم المهني والتقني العام وتطوير وتحديثه بما يتلاءم

ومقتضيات ومتطلبات سوق العمل والبيئة الاقتصادية.

وكان أول ما قامت به وزارة التعليم المهني والتقني حينها، هو وضع «خطة النهوض بالتعليم المهني والتقني خلال عقد التسعينيات»، من أهم أهدافها:

- تحقيق الملاءمة بين التعليم المهني والتقني من جهة، وسوق العمل المحلية من جهة أخرى، بالإضافة إلى التنبّه إلى حركة الإنماء والإعمار التي يشهدها لبنان بعد انتهاء الحرب الأهلية.
- مواكبة التطور العلمي والتكنولوجي والتفاعل معه بإيجابية.
- العمل على تغيير النظرة الدونية للعمل اليدوي وتنمية الضمير المهني عند المتدرب وتزويده بالأخلاق والقيم اللبنانية (وزارة التعليم المهني والتقني، 1993، ص 35).

وفي مطلع التسعينيات، تم اعتماد مناهج معدّلة للاختصاصات الصناعية لمرحلة البكالوريا، وهذه الاختصاصات هي:

- **الاختصاصات الخاصة:** هي التي تجريها المدارس والمعاهد المهنية وفق برامج خاصة، تتراوح مدة الدراسة فيها بين **(300 و900)** ساعة، تسري خلال سنة أو جزء منها، يحصل الطالب إثرها على إفادة تدريب خاصة من المدرسة المهنية، وهي على نوعين: الصناعية والتجارية.
- **الاختصاصات الرسمية:** هي التي تجريها المدارس والمعاهد المهنية وفق برامج التعليم المهني النظامي، وتؤدي دراستها إلى حيازة شهادة رسمية، صادرة عن وزارة التعليم المهني والتقني، وفق امتحانات رسمية تجريها الوزارة.

3.1. أبرز المشكلات والعقبات التي واجهت التعليم المهني والتقني

إنّ القرارات الصادرة عن الحكومات اللبنانية فيما خصّ التعليم بشكل عام، وبعد وضع خطط منهجية لتطوير التعليم المهني والتقني بشكل خاص، تبيّن وجود العديد من المشكلات التي واجهت التطوّر في هذه الفترة الطويلة.

رغم المحاولات والمساعي الرامية إلى تطوير التّعليم المهني والتّقني التي تم

عرضها أعلاه، ظلّ القطاع يعاني من مشاكل عديدة ومتنوّعة، أهمّها:

- مشكلة المناهج الّتي وُضعَت في الستينيات وبقيت جامدة، بالرغم من محاولات تطويرها، ولم تكن تواكب التقدّم العلمي والتطوّر الثقافي، ويطغى عليها الطابع النظري، حيث إن (**25٪**) من الحصص فقط، مخصّصة للنواحي العمليّة والتطبيقيّة (تريز الهاشم وآخرين، 1997، ص 79).
- إتّساع الهوّة بين اختصاصات التّعليم المهني والتّقني ومتطلبات سوق العمل، فالاختصاصات التقليديّة (التجارة، المحاسبة، التربية الحضانيّة، السكريتاريا،...) تستأثر بنحو (**70٪**)، من مجمل الاختصاصات، ويتوزّع الباقي على اختصاصات الكهرباء والإلكترونيك والميكانيك والحدادة (عزّو، 2008، ص 57).
- إنخفاض مستوى الإعداد الفنّي والمهني للهيئتين التّعليمية والإدارية في مدارس ومعاهد التّعليم المهني والتّقني، وفقدان المتابعة لأوضاع المتخرّجين وغياب الإرشاد التربوي والتوجيه المهني.
- عدم توافر الّشروط التّعليمية في مباني مدارس التّعليم المهني والتّقني ومعاهده وفي مرافق هذه المباني وتجهيزاتها، مما جعل الدّولة تبدأ بإنشاء المعاهد والمدارس في العديد من المناطق.
- نقص الكادر المتخصّص في المواقع العليا في الإدارات المركزيّة المعنيّة بالتّعليم المهني والتّقني، وضعف الرقابة على الإدارات والمؤسّسات في التّعليم المهني والتّقني.
- يَقُل تمركز المؤسسات الرسمية المهنية في بيروت وضواحيها بينما تتمركز في باقي المناطق، أما المؤسسات المهنية الخاصة فتتركز «في المناطق ذات الكثافة السّكانية وتنتشر في مدينة بيروت وضواحيها (**65٪**) وتتوزع بنسبة (**46٪**) في باقي المناطق» (وزارة التعليم المهني والتقني، 1997، ص16).

لقد تبلور مع مرور الزمن مفهوم العمليّة التربويّة، واختلفت النظرة إليها لتصبح أكثر شموليّة، وحدّدت غايتها، انطلاقاً من إعداد المواطن الصالح الذي تكتمل فيه

أبعاد النمو المختلفة، من نفسية وانفعالية وجسدية وعقلية واجتماعية، على نحو يمكنه من أن يكون فاعلاً، ومنتجاً، ومراعياً لثقافة المجتمع وقيمه ونظمه ومعاييره العامّة والخاصّة والمتغيرة.

2. التنظيم الإداري لوزارة التعليم المهني والتقني في لبنان

هناك العديد من الإدارات التي عنيت بمسألة تنظيم التعليم المهني والتقني، ومن أبرز هذه الإدارات هي:

1.2. وزارة التعليم المهني والتقني

بموجب القانون الرقم (**211**)، الصادر في 2 نيسان 1993، تم استحداث وزارة «وزارة التعليم المهني والتقني»، إذ إنها تألفت من المديرية العامة للتعليم المهني والتقني، المجلس الأعلى للتعليم المهني والتقني، الصندوق الداخلي للتعليم المهني والتقني، كما ترتبط بها المعاهد والمدارس ومراكز التدريب الرسمية.

وتشمل المديرية العامّة للتعليم المهني والتقني المصالح التالية:

- مصلحة الإدارة والتنفيذ.
- المصلحة الفنية.
- مصلحة المحاسبة والتدقيق.
- مصلحة التأهيل المهني.
- مصلحة المراقبة والامتحانات.
- دائرة المعلوماتية والاحصاء.
- الدوائر التربوية في المحافظات.

وبحسب المادة الثالثة من المرسوم الرقم (**8349**)، تاريخ 2/ 5/ 1996، يبقى إنشاء المعاهد والمدارس ومراكز التدريب الرسمية وتنظيمها خاضعاً للقوانين والأنظمة المتعلقة بوزارة التعليم المهني والتقني، اعتباراً من تاريخ بدء العمل بها الذي حدّد في 2/ 5/ 1996.

وبحسب المادة الأولى من المرسوم، تُعنى وزارة التعليم المهني والتقني بشؤون التعليم والتدريب المهني والتقني الرسمي والخاص، وتتولى بصورة خاصة:

- إدارة شؤون المعاهد والمدارس المهنية والتقنية الرسمية.
- إدارة شؤون مراكز التأهيل والتدريب المهني الرسمية.
- مراقبة مؤسسات التعليم والتدريب المهني والتقني الخاصة وفقاً للقوانين والأنظمة النافذة.
- تنمية شاملة لقطاع التعليم والتدريب المهني والتقني العام، وتطويره وتحديثه، بما يتلاءم ومقتضيات المستقبل ومعطيات سوق العمل والبنية الاقتصادية.

2.2. المجلس الأعلى للتعليم المهني والتقني

أنشئ لدى وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة «المجلس الأعلى للتعليم المهني والتقني»، بصفة استشارية فقط، كما نصّت المادة السابعة من المرسوم الرقم (**5768**)، بتاريخ 23/ 12/ 1960، مهمته إبداء الرأي في الأمور الآتية:

- مشاريع القوانين والمراسيم التنظيمية المتعلقة بالتعليم المهني والتقني.
- مشروع موازنة مديرية التعليم المهني والتقني السنوي.
- مشاريع مراسيم إحداث مدارس مهنية رسمية جديدة تابعة للإدارات والمؤسسات العامة.
- مشاريع مراسيم الترخيص بفتح مدارس مهنية خاصة.
- التقارير السنوية التي يضعها المدير العام للتعليم المهني والتقني.
- سائر القضايا التي يعرضها عليه الوزير (المرسوم الرقم (**5768**)، المادة السابعة، 23/ 12/ 1960).

كذلك أعطى المرسوم للمجلس الصلاحية بتقديم اقتراح برنامج طويل الأمد على وزير التربية، يهدف إلى تعميم التعليم المهني والتقني في لبنان وإنمائه.

أما عن تأليف المجلس، فقد وضع له المرسوم الهيكلية الآتية:

1) وزير التربية أو من ينتدبه رئيساً للمجلس.

2) المدير العام للتعليم المهني والتقني، مقرراً.

3) أحد عشر عضواً، يجري اختيارهم على الوجه الآتي:

- أربعة أعضاء يمثلون الإدارات والمؤسسات العامة.
- أربعة أعضاء يمثلون الهيئات والجمعيات النقابية والمجتمعات التعليمية التي لها علاقة بالتعليم المهني والتقني.
- عضو واحد مدير لمدرسة مهنية رسمية.
- عضو واحد مدير لمدرسة مهنية خاصة.
- ممثل واحد عن اللجان الفنية الاستشارية التي ذكرها المرسوم في مادته الثامنة (المرسوم الرقم (**5768**)، المادة السابعة، 23/ 12/ 1960).

كما أعطت الفقرة المضافة بموجب المرسوم الرقم (**16980**)، تاريخ 27/ 7/ 64، على المجلس أن ينتخب من بين أعضائه بطريقة الاقتراع السري نائباً للرئيس، يؤمن أعمال الرئيس في حال غيابه (المرسوم الرقم (**16980**)، 27/ 7/ 1964).

أما عن تعيين الأعضاء، فإنه يتم لمدة سنتين قابلة للتجديد، بمرسوم بناء على اقتراح وزير التربية. كما يقترح الوزير الأسماء من أصل لوائح ترشيح يطلبها من الإدارات والهيئات والجمعيات المعنية، وإذا تعذر الحصول على اللوائح يعود الاختيار للوزير، وتجدر الإشارة إلى أن كل أعضاء المجلس لا يتقاضون أي تعويضات مالية لحضورهم الجلسات، سواء الرئيس أو أعضاء المجلس.

كما تسقط حكماً ولاية العضو الذي يفقد الصفة التي دعت إلى تعيينه في المجلس، ويمكن بمرسوم ان يعفى من مهامه، أي عضو يتغيب بدون عذر مشروع ثلاث مرات متوالية عن اجتماعات المجلس، ويكمل العضو الخلف المدة المتبقية من ولاية السلف (المرسوم الرقم (**5768**)، المادة السابعة، 2/ 12/ 1960).

وقد حدّد المرسوم -المرسوم الرقم (**5768**) -عدد الدورات التي يعقدها المجلس بدورتين سنوياً، وأعطى للوزير حق الدعوة للاجتماع استثنائياً كلما دعت الحاجة إلى ذلك. تؤخذ المقررات بأكثرية أصوات الحاضرين على أن يفوق عددهم نصف عدد

الأعضاء المُعيّنين، وفي حال تعادل الأصوات يعتبر صوت الرئيس مرجحاً، وتعتبر هذه المقررات بمثابة توصيات لوزير التربية. وكُلّف المجلس أيضاً بوضع نظامه الداخلي، كما كُلّفت المديرية العامة للتعليم المهني والتقني بتأمين أعمال أمانة السر.

وفي المادة الثامنة من المرسوم، أعطيت الصلاحية للمجلس بإنشاء لجان فنية استشارية، تختص كل منها بمهنة معينة أو مجموعة من المهن أو بأحد حقول التعليم المهني والتقني. يُعيّن أعضاء هذه اللجان وتُحدّد مهام كل منها بقرار يصدر عن وزير التربية.

وبعد أن وضع المجلس نظامه الداخلي بناءً على المرسوم، حدّد عدد اللجان المتخصّصة على الشكل الآتي:

- **لجنة الدراسات**: تتولى دراسة مشاريع القوانين والمراسيم التنظيمية المتعلقة بالتعليم المهني والتقني، ومشاريع مراسيم إحداث معاهد ومدارس مهنية رسمية جديدة تابعة للإدارات والمؤسسات العامة، ومشاريع مراسيم الترخيص بفتح معاهد ومدارس فنية ومهنية خاصة، والتقارير السنوية التي يضعها المدير العام للتعليم المهني والتقني، وسائر القضايا التي يعرضها الوزير على المجلس.
- **لجنة الموازنة**: تدرس اقتراح المديرية العامة للتعليم المهني والتقني في الموازنة السنوية وتبدي رأيها أمام الوزير قبل إرسالها إلى وزارة المال.
- **لجنة التصميم**: تتولى إعداد برنامج طويل الأمد لتطوير وتعميم التعليم المهني والتقني في لبنان وإنمائه، واقتراح المناهج والاختصاصات والشهادات والمستويات تلبية لمستلزمات سوق العمل، بالتوافق مع المدير العام والمصالح والمعاهد والمدارس التابعة لإدارته، كما تقترح بالتشاور مع المدير العام والمركز التربوي للبحوث والإنماء، الشروط والمواصفات التربوية والفنية والمعايير الهندسية الواجب توافرها في طلبات الترخيص لمعاهد فنية ومهنية، رسمية وخاصة، بحسب تصنيف الاختصاصات ومستوياتها في حقول الصحة والصناعة والزراعة والخدمات.
- **اللجنة الفنية**: تتولى إعداد التوصيات بإنشاء لجان فنية استشارية لدى المديرية

العامة للتعليم المهني والتقني تختص كل منها بمهنة معينة أو مجموعة من المهن أو بأحد حقول التعليم المهني والتقني.

لذلك نلاحظ أن لهذا المرسوم أهمية بالغة في التقرّب إلى سوق العمل بمختلف شرائحه وأنواعه في القطاعين العام والخاص، هذا إذا تم تفعيله. كذلك فقد أنيط بالرئيس وأعضاء هذا المجلس مهمة التخطيط والمراقبة والتعديل والتصويب، لكنه لم يفعَّل دوره، ولم يتألف إلا في سنة 1995، ولم يجتمع إلا مرتين، ولم يترك أي أثر بعد تغيير الحكومة في سنة 1996. وبذلك بقي هذا المرسوم حبراً على ورق منتظراً إعادة تأليفه وإعطائه الدور المناسب في عملية التطوير المرجوة (فرانك كيليوس، 2003، ص 25).

استنتاج

لاحظت الدراسة أنّ أعداد الوافدين إلى التّعليم المهني والتّقني كانت بنسب متزايدة منذ نشأة هذا القطاع التعليمي في لبنان وحتى تاريخ الدراسة، وقد قابلت هذه الزيادة زيادة في أعداد مدارس ومعاهد التّعليم المهني والتّقني، وبالتالي زيادة في عديد أفراد الهيئة التعليميّة، وذلك في القطاعَين الخاص والرسمي.

كما لاحظنا أنّ مواكبة الدَّولة لهذا القطاع لم تكن بوتيرة منسجمة مع حجم هذه الزيادة الكميّة للتلاميذ والمعاهد والمعلّمين، ويظهر لنا ذلك عبر الخطط المتباعدة، الّتي تمّت الإشارة لها في الدراسة، والتي لم تكن تلبّي احتياجات سوق العمل من جهة، ولا تطلّعات التلاميذ من جهة أخرى، وهذا الّذي أظهرته الدراسات الّتي سبق عرضها.

كما قامت الحكومات المتعاقبة في الدولة الحديثة من تخفيف التأثيرات الطائفية على التربية والتعليم، كما كانت في العهود السابقة، وذلك عبر فرضها القوانين والمراسيم التي حُدّدت من خلالها نطاق عمل المؤسسات التربوية الخاصة، واتباعها وخضوعها إلى منطق الدولة من خلال وزارة التربية الوطنية، وبعدها وزارة التعليم المهني والتقني التي استحدثت.

كل ذلك قام من خلال التطلعات السياسية التي رأتها الحكومات المتعاقبة في فترة الدراسة، التي أعطت حرية في انتقاء التشريعات التي تراها متجانسة معها، بالرغم من القصور في العديد من الأمور التي ذكرناها، كما لا ننسى اندلاع الحرب الأهلية التي عملت على شلل المؤسسات التشريعية والحؤول دون التقدم والتطور في قطاع التعليم عامة، والتعليم المهني والتقني خاصة.

قائمة المصادر

أ. المراسيم، والقوانين، والقرارات

1. مجلس الوزراء اللبناني، المراسيم الأرقام: 6998ـ6999ـ7001ـ7002ـ7003ـ7004، بيروت، 1/ 10/ 1946.
2. مجلس الوزراء اللبناني، المرسوم الرقم 9404. بيروت 1962/ 5/ 4.
3. مجلس النواب اللبناني، القانون الرقم 64/ 62، تنظيم التعليم المهني الخاص، بيروت، 30/ 12/ 1964.
4. وزارة التربية والفنون الجميلة، القرار الرقم 83/ 56. بيروت، 1983/ 8/ 14.
5. مجلس الوزراء اللبناني، المرسوم الرقم 5768، تنظيم مديرية التعليم المهني والتقني. بيروت، 23/ 12/ 1960.

ب. قائمة المراجع

1. **بانوراما التعليم المهني والتقني في لبنان**، صادر عن وزارة التعليم المهني والتقني، بيروت، 1997.
2. لا اسم: **خطة النهوض بالتعليم المهني والتقني خلال عقد التسعينيات**، صادر عن وزارة التعليم المهني والتقني، بيروت، 1993.
3. تريز الهاشم وآخرون، **واقع التعليم في لبنان وبدائل مستقبله**، المركز التربوي للبحوث والانماء، 1997.
4. المجلة التربوية تصدر عن المركز التربوي للبحوث والإنماء، العدد الثاني، 1980.
5. بشور، منير. (1978). **بنية النظام التربوي في لبنان**، الجمهورية اللبنانية، المركز التربوي للبحوث والانماء، بيروت، ط 1.
6. فرانك كيليوس، المركز التربوي للبحوث والانماء، المجلة التربوية، العدد 27، أيلول 2003.

ج. قائمة الرسائل والأطاريح

1. الغزاوي، عبد الحكيم. (1992). **التعليم المهني والتقني في لبنان: واقعه وتطويره**، أطروحة دكتوراه في التربية، مستنسخة غير منشورة، جامعة القدّيس يوسف، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، معهد الآداب الشرقيّة، بيروت.
2. الطبال، حنان. (2007). **خريجو معاهد التعليم المهني والتقني الرسمي وسوق العمل: معهد طرابلس الفني أنموذجاً**، رسالة ماجستير في علم الاجتماع، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، بيروت، مستنسخة، غير منشورة.
3. عزّو، عبد الحميد. (2008). **مدى مساهمة التعليم المهني والتقني في تنمية الموارد البشرية في مدينة طرابلس**، رسالة ماجستير في علم الاجتماع، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، بيروت.
4. قانصو، غازي. (1999). **التعليم المهني في لبنان منذ العهد العثماني حتى اليوم،** موقعه في البنية التربوية، واختصاصاته، وربطه حالياً بسوق العمل، رسالة ماجستير في التربية، جامعة القدّيس يوسف، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، معهد الآداب الشرقيّة، بيروت.

التعالق النصّيّ وأثره في الصورة الشعريّة
عيّنات من شعر «بدويّ الجبل» نماذج

صوفي حرفوش(*)

ملخّص

إنّ أساليب التحديث التطبيقيّ للرؤى الأدبيّة والشعريّة العربيّة كان بفعل حوار ثقافيّ بين الأمم. ذلك الحوار الذي ينطلق من ارتكاز تخصّصيّ محدّد في ثقافة معيّنة، ثمّ يسعى إلى عكسه على الحركة العلميّة التخصّصيّة في الثقافة الموازية. وفي هذا البحث استثمار للمعطيات الشعريّة النصّيّة التي سادت بعد حركة التطوّر اللسانيّ، فنهل منها العالم العربيّ بتقنيّات وأدمجها في خضمّ حراكه الأدبيّ، فطاول التحديث الصورة الشعريّة. نسعى إلى مقاربة هذا التحديث في نتاج عربيّ شعريّ ذي خصوصيّة، وهو شعر «بدويّ الجبل».

كلمات مفتاحية:

النصّ، السياق، الشعريّة، الانسجام، الصورة الشعريّة، الخصوصيّة الثقافيّة.

(*) أستاذة اللغة العربية للناطقين بغيرها. درّست في غير معهد وجامعة خاصّة في لبنان. طالبة دكتوراه في المجال في جامعة الجنان، مترجمة ومدرّسة لغة فرنسية في المدارس اللبنانية.

Résumé en français

Les méthodes de modernisation appliquées aux visions littéraires et poétiques arabes sont le fruit d›un dialogue culturel entre les nations. Ce dialogue part d›un fondement spécialisé dans une culture donnée, puis cherche à le refléter sur le mouvement scientifique spécialisé dans la culture parallèle. Dans cette recherche, il s›agit d›investir les données textuelles poétiques qui ont prévalu après le mouvement de développement linguistique. Le monde arabe en a puisé les techniques et les a intégrées dans son mouvement littéraire, ce qui a permis la modernisation de l›image poétique. Nous cherchons à aborder cette modernisation dans une production poétique arabe unique, à savoir la poésie de «Bedawi al-Jabal».

Mots clés: Texte, contexte, poétique, harmonie, image poétique, spécificité culturelle.

تمهيد

تختلف الآراء حيال الحداثة الشعرية بشكل كبير، فبعض الأشخاص يرونها انبثاقًا مُفترَضًا وزائفًا، ويعتبرونها مجرّد امتداد لأفكار أو توجّهات أدبية غربية ليبرالية، بينما تستند بدايتها إلى مزيج من الشعر والنقد الليبرالي الغربي من جهة، وإلى الفكر الدوغمائي والنقد الذي يؤكّد على دور الفنّ كمنبر تبشيري طبقي من جهة أخرى. تشكل هذه الحداثة «نوعًا من الانقطاع البارز أو الانحياز غير الموضوعي مقارنةً بالتراث الذي استمرّ لقرون في إعادة إحياء الشعر العربي وتجديده»[1]. وعندما نأخذ في اعتبارنا التصنيف الجائر لزعماء النضال الوطني ضد الاحتلال العثماني والاستعمار الفرنسي، الذين كانوا على صلة بشعراء إحياء الشعر أو انضموا إليهم في هذه الحركة، ندرك بوضوح أنّ أسماء شعراء سوريا في النصف الأوّل من القرن العشرين تعرّضوا لظلم كبير، إذ لم تمنحهم الدراسات النقدية، سواء الأكاديمية أو غير الأكاديمية، حقّهم المناسب من التحليل والاهتمام والبحث.

قد يكون محمد سليمان الأحمد، الملقّب بـ«بدوي الجبل»، في مقدّمة تلك

(1) علي سعيد أدونيس: **بيان الحداثة**، سراس للنشر، تونس، 1995، ص 24.

الشخصيات الشاعرة. إذا نظرنا من الناحية الأكاديمية، يظلّ من الصعب للباحث أن يجد دراسة شاملة وجادّة حول إبداع هذا الشاعر، الذي نرى أنّه بدأ بإبداع متميّز وانتهى بأسلوب فريد يتجاوز جميع المعايير المعروفة للشعر الرفيع.

أهمية البحث

تكمن أهميّة هذا البحث في القيمة التحليليّة التي يضفيها على شعر بدويّ الجبل. فالبحث يعالج مسألة التعالق النصّيّ وأثره في تكوين الصورة الشعريّة، أي المعنى الباطنيّ الذي يكتنف القصيدة، ذلك الذي يكون مضمّنًا في المقامات الشعريّة التي أوحت بها الأبيات، بحكم ترابطها حول موضوع واحد، على أن يحتكم الموضوع إلى اعتبارَيْن أساسيَّيْن: اعتبار البلاغة الفنّيّة التي عملت على المستوى الشعريّ العميق، واعتبار الحالة النفسيّة التي يودّ الشاعر أن يعكسها على المتلقّين. ومن هذا المنطلق ينبثق الوضع الثقافيّ الذي يزيد الصورة الشعريّة زخمًا، نحو تشكيل الوعي من خلال القصيدة.

قراءة في الدراسات السابقة

لقد تطرّقنا في معرض بحثنا إلى بعض من الدراسات التي انصبّت على مقاربة عمل بدويّ الجبل، ونذكرها في النقاط الآتية:

1. إيمان فؤاد بركات: **الأمثولة في شعر بدوي الجبل: دراسة تحليلية**، بحث في مجلّة **بحوث عربيّة** - قسم اللغة العربية كلية الآداب جامعة دمنهور. المجلّد 19، العدد 74، 2008.
2. قاسم محمد عبد اللّه: **اللغة الشعرية عند بدوى الجبل: محمد سليمان الأحمد 1903-1980 م**. بحث في مجلّة **المعرفة**، عن وزارة الثقافة الكويتيّة. المجلّد 56، ع645، 2017.
3. إسماعيل العبد منشاوي: **جماليات النسيج الفني في شعر بدوي الجبل**، بحث في **مجلّة جامعة الأزهر**. المجلّد 3، العدد1، 2019.

قدّمت هذه الأبحاث معلومات قيّمة، ووسائل تحليليّة تطبيقيّة... ولعلّ الإضافة

التي حاولنا رفدها كمنت في المعالجة النصّيّة، وتسليط الضوء على الحالة الثقافيّة المتوافرة لدى بدوي الجبل، وانعكاسات هذا الأمر على المتلقّي.

الإشكالية

جعلت الحداثة الشعريّة من النص «ساحة جدال أو حتى صراع غير منظور بين المرسل والمتلقي، بقدر ماهو (وسيط) لعملية التواصل جماليًا ووظيفيًا»[1]. وهذا ما طرح إشكاليّة البحث كالآتي: كيف تتشكّل معالم بناء الصورة الشعريّة وثقافتها لدى بدوي الجبل؟ وما تسلسلات عملية إظهار البناء النصّي الشعري وكيفياتها التي تجعله قابلًا للتلقي؟

المنهج المعتمد

نلتزم في هذا البحث المنهج الأسلوبيّ، وهو منهج منطقيّ لمعالجة الصورة الفنّيّة الشعريّة، ثم العبور من خلالها إلى مسالك التعالق النصّيّ، ومن بعد ذلك نلتفت إلى العمق الثقافيّ للمتلقّي. يقوم المنهج الأسلوبيّ، بطبيعته، على إجراءات ومعطيات ومنبنيات يرتكز عليها في العمل التحليليّ، كأن يركن إلى مستويات صوتيّة، وأخرى بلاغيّة، وكذلك تركيبيّة، وصولًا إلى معالجة الدلالات وتأثيراتها على المتلقّين، ما ينمّ عن حاجة إجرائيّة لاعتماد المنهج الأسلوبيّ.

أوّلًا. بدويّ الجبل: سيرة مقتضبة

هو محمد سليمان الأحمد، نركّز هنا بنحو من التيسير على العوامل الرئيسة التي أسهمت بشكل جليّ في بناء أسلوبه الشعري، أي ما كان له أثر في إبداعاته، وهذا الدور المرتبط بسياق حياته وتجاربه أثناء مشاركته في النضال الوطني السوري من أجل الحرية، وكذلك مواقفه الوطنية والقومية في فترة ما بعد الاستقلال.

وُلد بدوي الجبل في عائلة غنية بالتراث الثقافي والعلمي في زمن راجت فيه ثقافة

---

(1) فولفجانج إيسر: **فعل القراءة ـ نظرية في الاستجابة الجمالية**، ترجمة عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص 162.

أدبية تراثية وروحانية إسلامية عميقة، حيث كانت «للعائلة مكانة مرموقة في المجتمع، وكان والده الشيخ سليمان الأحمد يتمتع بصلات وثيقة مع العديد من أبرز الشخصيات الثقافية والفكرية والاجتماعية في المنطقة الشامية، وهذه الصلات استمرت في التأكيد على تأثيرها وقوتها حتى وفاته»[(1)].

تكوّنت شخصية بدوي الجبل بشكل ثقافي وفكري ونفسي في هذا السياق. يبدأ حياته شاعرًا متميّزًا منذ صغره، يندمج في الوقت نفسه في النضال القومي العربي - سواء في شعره أو تصرفاته - منذ بداية الثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين في خلال الحرب العالمية الأولى، ومن ثم «يستمرّ في هذا الدور ضد الاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان لمدة خمس وعشرين عامًا، ثم ينضم كعضو في الكتلة الوطنية أو الحزب الوطني بعد الاستقلال»[(2)]. يتفاعل مع الأحداث في سوريا وفلسطين وبقيّة أنحاء الوطن العربي، ويعبّر عن ردود أفعاله بالشعر والمواقف التي تعبّر عن تكوين شخصيته من دون أي تنازلات أو خوف.

عندما تولّى حكم وطني مدني قبل الاستقلال، اختاروا البدوي كنائب في البرلمان عن اللاذقية. بعد الاستقلال، «شغل منصب وزير مرات عديدة حتى عام 1956. نمت لديه صداقات وثيقة مع عدد كبير من الزعماء الوطنيين مثل شكري القوتلي ورياض الصلح وعادل العظمة وسعد الله الجابري ونجيب الريس. استخدم أسلوبه الفريد في الرثاء لتكريم الثوار مثل إبراهيم هنانو»[(3)]، كما استخدم نفس الأسلوب في تأبين كل من أصدقائه الذين سبقوه إلى لقاء ربه.

من بين الأحداث الملحوظة، بعد هزيمة عام 1967، فقد تعرّض لاعتداء في الشارع كاد أن يودي بحياته بسبب قصيدة طويلة كتبها ردًّا على تلك الهزيمة. أصيب بجروح خطيرة وفقد وعيه، وكان على شفير الموت، ولكن إنذارًا صارمًا وجّهه حافظ الأسد،

---

(1) عمر الحافظ وآخرون: **بدوي الجبل شاعر وسياسي سوري**، نقلاً عن الموسوعة الدمشقيّة، شوهد بتاريخ 14/ 12/ 2023، على الرابط: .https://damapedia.com

(2) بتول محمد وآخرون: **ما لا تعرفه عن بدوي الجبل**، نقلاً عن مدوّنة «**أراجيك**»، شوهد بتاريخ 14/ 12/ 2023، على الرابط: .https://www.arageek.com/bio/badawi-al-jabal

(3) عمر الحافظ وآخرون: **بدوي الجبل شاعر وسياسي سوري**، مصدر سابق.

الذي كان آنذاك رئيسًا للدفاع في الحكومة السورية، أنقذه من المعتدين. وُجد في صباح اليوم التالي في أحد مستشفيات دمشق، وتمّ استدعاء أفضل الأطباء من سوريا ولبنان لإنقاذ حياته، «حسب قصة الأستاذ أكرم زعيتر، الذي كان صديقًا مقرّبًا للشاعر، وقد ذكر هذا الحادث في مقدمة ديوان الشاعر»(1).

هذه اللمحات السريعة من حياة البدوي تقدّم فهمًا أوّليًا لشخصيته، سُلوكه، ومواقفه بشكل عام. وبالتأكيد، سيكون شعره، بأسلوبه الخاص ودوره الفنّي وجماليته، مرآة دقيقة تعكس كل هذه الجوانب.

ثانيًّا. النصّ الشعريّ: بين الصورة الشعريّة وخصوصيّتها الثقافيّة

يُعدّ النص الشعري رسالة تواصل موجّهة نحو قارئ مفترض، يتأثّر استقباله وتفهمه للرسالة بناءً على تكوينه الثقافي وتجاربه الشخصية الفريدة. يرتبط هذا الاستقبال بقدرة الفرد على الاستيعاب، وهو متغيّر تمامًا بالظروف الزمنية والمكانية والأحداث التي تحيط بلحظة كتابة النص.

هنا يظهر العنصر الذي يُمكّن التفاعل، حتى بوجود كل هذه التباينات، وربما بكثير من السهولة: هو ما نعرفه بـ«الإنسانية المشتركة»، التي تتجلّى في أعماق النص وبنيته اللغوية، والتي قد لا تكون مشتركة بين الشاعر الكاتب والقارئ المستقبل. يحتاج هذا الأمر بحدّ ذاته إلى شرح أكثر تفصيلًا.

نحن نعتقد أنّ كل تشكيل ثقافي لأي مجتمع يضمّ في جوهره رؤية متكاملة عن علاقة الإنسان بنفسه، الطبيعة، والكون بأسره، وهذه الرؤية تتقاطع مع مفهوم يونغ عن «النفس العميقة» أو «النفس الجمعية»، أو حتى «الإنسان الكامل الأعلى» وغيرها. تكمن هذه الرؤية في عمق كل شخصية بشرية، تكوّن جوهرها أو تتجلّى في «النماذج الأولية» التي لا تظهر ذاتها إلّا عندما تمتلئ بمشاعر العاطفة.

تُشير هذه النماذج الأولية إلى منطقة اللاوعي الجماعي التي يطلق عليها يونغ،

(1) محمد الأحمد المعروف بـ «بدويّ الجبل»، **الديوان (الأعمال الكاملة)**، دار العودة، بيروت، ط 1، 1978، ص 8. سيتم إدراجه لاحقاً باسم بدوي الجبل.

حيث يتمّ تخزين خلاصة التجربة الإنسانية على الكوكب. تتجسّد هذه التجربة في عمق كل شخصية عبر نظام من الرموز الرئيسة، مثال الماء، النار، الأرض، القمر، الأم، الأب، التنين، الشمس، البحر، الهواء، وما إلى ذلك، وتحمل هذه الرموز مجموعة من التناقضات الدلالية المتنوّعة.

تشكّل كل مجموعة بشرية بنيانها الثقافي الفريد، من خلال بناء نظام خاص من الرموز التي تدلّ إليها. تستند هذه الرموز إلى تجاربهم الفريدة في الزمان والمكان وتعتمد على طبيعة الرؤى الحدسية التي تبرز في ضوء هذه التجارب لتحقّق معانٍ وقيم للوجود البشري والطبيعي والكوني. تحمل هذه الرموز «المشترك الإنساني العام والمشترك الاجتماعي الخاص في وحدة واحدة»[1]. وبفضل قوّتها وعمقها، تحمل هذه الرموز مجموعة من الدلالات والتناقضات التي تفتح آفاقًا غير محدودة لعمليات الترميز اللغوي الشامل، ومن بين أهمّ مظاهر ذلك يتجلّى في العلاقات والقيم الحياتية.

من هنا ينشأ تشكيل الشخصية الفردية وتشكّلها استنادًا إلى تجاربها الحياتية في مرحلة الطفولة ومواهبها الطبيعية. تختلف تجارب كل فرد في تحديد «لاشعوره الفردي»، الذي يتكوّن «من نظام رموز فريد له، ولكنها تنبع من النظام العام للرموز المحمولة في اللغة الوطنية وضوابط الحياة ضمن إطار البنية الثقافية الجماعية. ودرجة تأثير هذا اللاشعور على تطوّر الشخصية مرتبطة بالقدرات الطبيعية التي يمتلكها الفرد»[2]، وهذه هي أسس الذكاء والموهبة والابتكار، وما إلى ذلك.

مع تقدّم الزمن وتجارب الإنسان، يتشكّل لديه وعيه؛ وهذا الوعي هو نتاج لتفاعلات معقّدة تجمع بين جوانب شخصيته وخبراته مع العالم الخارجي. تلعب الثقافة دورًا بارزًا في نمو الوعي، إذ تمثّل تلك الثقافة نتاجات مشاهدات وتجارب الآخرين، لكن تجاربه الفريدة وصورته الشخصية تُشكّل أساسًا لكيفية استيعاب تلك الثقافة وتجسيدها في وعيه، ومن ثم استخدامها في تفاعله مع العالم الخارجي.

تكون اللغة دائمًا وسيلةً ونتاجًا للأفكار والتصوّرات والمفاهيم التي تُحوّل إلى

(1) رشيد يحياوي: **الشعري والنثري – مدخل لأنواعيّة الشعر**، اتحاد كتاب المغرب، 2001، ص 52.

(2) كمال خير بك: **حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر** ، دار الشرق، بيروت، 1982، ص150–151.

رموز. وعادةً ما نقول: «نفكر باللغة». فاللغة في ذاتها «لها طبيعة خاصة وحياة مستقلّة نظريًّا، لكنها، في الواقع، تأخذ «شخصية» داخل السياق الاجتماعي. الاستخدام هو الطريقة التي تحقّق وتظهر وتتطوّر فيها، حيث يمثل الاستخدام العملية الفردية التي تندرج تحت ما يشترك فيه الجميع من مكونات اللغة»[1]. سواء كان الاستخدام شفويًا أو كتابيًا أو حوارًا داخليًا، فإنّه يعتمد على الصورة ليعبّر عن المعنى، والصورة في الأساس هي بنية رمزية تعتمد على المقارنات والتشبيهات بين الأشياء الملموسة لنقل الأفكار أو تبادلها. اللغة نفسها هي مجموعة من البنى الرمزية الصوتية والكلامية التي تعمل على أي مستوى من مستويات استخدامها.

تشكّل الصورة الفنّية الأساس للتعبير اللغوي المتبادل مع الواقع وتفاصيله المتنوّعة. عندما يستخدم تركيب الصور نهجًا معيّنًا في التعبير، وفقًا لقواعد تنظيمية، نعتبر ذلك الأسلوب فنًّا. ليست هذه الصورة الفنّية مجرّد صيغة مبسّطة للتعبير العفوي والتجديدي، بل تتأسّس على عمليات وتكوّنات نفسية معقّدة لا يمكن تحليلها بسهولة. تركيب الصور الفنّية غني بالجمال والرمزية ويعكس حالات عميقة في الشخصية، ويسلّط الضوء على الجوانب الإنسانية والاجتماعية المشتركة المتغلّبة في العمق، أو المتجذّرة في رموز فردية.

إذا كانت الصور الفنّية مستندة إلى أفكار معتادة ومعروفة، فإنّ الفقر الجمالي والدلالي والوظيفي للتعبير الفنّي يظهر بشكل لا مفرّ منه. النص الشعري الحقيقي والأصيل يُعَدُّ المثال الأفضل والأكثر ثراءً وعمقًا لتعبير (الذات الشاعرة) في لحظة الإنتاج عبر لغة العالم وحركته، وتجسّد ذلك الموقف من الحياة وطبيعتها. يستند النص الشعري إلى رؤى فردية مستمدّة من رؤى شاملة تحمل الجوانب الاجتماعية، وبقدر قوة الانفعال في تلك اللحظة، يعكس تحفّظه على ما توصل إليه الوعي بشكل واضح وجميل وقوي. بناءً على هذا، يصبح رسالة شاملة للوجود بأسره، تعبّر عن الفردية والرموز والزمان والتجارب، متضمّنة لسياقات متباينة وتجلّيات متعدّدة وقدرات متنوّعة.

---

(1) روبرت هولب: **نظرية التلقي-مقدمة نقدية**، ترجمة عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي الثقافي بجدة، 1994، ص 156.

ثالثًا. عيّنات تطبيقيّة

قلنا من قبل إنّ الصورة الفنّية تعتمد على بنية رمزية مبْنية على التشبيه بين الوقائع والمفاهيم، سواء لتبسيط الأفكار أو استخلاصها. وأشرنا إلى أنّ هذا الأسلوب يُشكِّل النسيج الروحي للنص الشعري، فإذا كان الهدف هو الارتقاء والوصول إلى مناطق لم تُستكشف من قبل، فإنّ النص يكون محوريًّا وحيويًا. أمّا إذا كان هدف الصورة هو عرض فكرة مألوفة، فإنّ النّص يصبح مجرّد ترتيب للكلمات بلا روح أو معنى.

لم نقصد هنا المقارنة المألوفة بين التشبيه والمصطلحات البلاغية القديمة وحسب. بل كان هدفنا أيضًا استخدام كل مجاز يمكن أن يُطلق عليه البلاغيون القدامى، وكل «تركيب ينشأ منه (المعنى بالمعنى)، بناءً على مفهوم مشابه لما وصفه الجرجاني وشبهه بالتوليد التشومسكي. نشير هنا إلى ارتباط كل كلمة أو جملة شعرية بعمليات غامضة في العقل الباطن، مرتبطة بتاريخ الرموز وتطورها، والتي تتشكل ـ بطريقة فنية ـ حسب تجربة الشاعر ورغبته في نقلها ومعانيها للقارئ»[1]. هذا التركيب الكلامي، أو ما يمكن وصفه بمصطلح تشومسكي، يثير في عمق الوعي تكوينات غامضة، تتفاعل بحوار خفي مع الصورة المعبرة أو المشهد الموصول، ما يثمر إحساسًا بالجمالية الشعرية. تتداخل الكلمات بطريقة تامّة لتحصل على مكانتها المناسبة، لدرجة أنّ القارئ يشعر بأنّه لا يمكن الاستغناء عن أي كلمة منها.

ربما تكمن أبرز سمات الصورة الفنّية لدى بدوي الجبل في تضمينها لحالة مشهدية مرتبطة بالسياق الشعري الأوسع، إذ لا تأتي فرادى بمفردها بل تُدرج في مجموعة مشاهد تتباعد وتتداخل مع ما قبلها وما بعدها، ما يُشكِّل أساسًا لبناء القصيدة. دعونا نلقي نظرة على الأبيات التي يصوِّر فيها صديقه شكري القوتلي وهمومه، كما يقول في الصفحة 117 من ديوانه:

«جــراحٌ فــي ســريرتك اطمأنّــتْ   لقــد أكرمــتَ بالصبــر الجراحـا

---

(1) عزالدين المناصرة: **إشكاليات قصيدة النثر، نص مفتوح عابر للأنواع**، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ـ عمان، 2002، ص: 78.

كأن الهم ضيفك فهوى يلقى ... على القسمات بشرًا وارتياحا
وقبلك ما رأت عيني هَمومًا ... مدلّلةً وأحزانًا ملاحا
وقد ترد الهموم على كريمٍ ... فترجع من صباحته صِباحا»[١]

إنه لمشهد تصويري متعدّد الأبعاد، بدايةً من هدوء الجروح والصبر على الألم، وصولًا إلى لقاء الضيف بالبشر وتبادل الراحة، ومرورًا بتأمّل الأحزان، وانتهاءً بانبعاث الأمل والسرور من بداية يوم جديد. يبدأ هذا المشهد بالألم وينتهي بفجر سعيد في وجه الحياة.

وإذا نظرنا بعمق، نجد استخدامًا مميّزًا للتراث العربي بطريقة مبتكرة وعميقة، في حين لا تكون الرموز واضحة ومباشرة، بل تؤخذ منها الشعرية والجمالية لبناء الحالة النفسية للشاعر المتأمل في صبر صديقه.

هذا المشهد يشجعنا على خلق حالات مماثلة في أعماقنا. هنا، لا نجد رموزًا كبرى، بل نجد تصوُّرًا للذات العربية، إذ تكمن جماليتها وروحها في الرؤى الفريدة حول المعنى الحياتي... كل كلمة في سياقها تحمل بُعدًا رمزيًا مؤثرًا وتشير إلى نمط من التشكيل، وفي الوقت نفسه تكون رمزية فرعية محدّدة ضمن هذا السياق الاستخدامي.

وأخذ البدوي يتحدّث عن همومه بشكل مماثل في قصيدته الموجهة إلى روح الثائر البطل إبراهيم هنانو في العام 1950، فكان يريد التعبير عن هموم وطنية عميقة. تناول في قصيدته قضايا البطولة والأداء الشعري، وتناول هموم الشباب، مظهرًا مشاعر الفرح بالمجد الذي امتلأت به حياة صديقه. يُفهم كل ذلك داخل السياق النصي الذي نصّت عليه القصيدة، إذ يقول البدوي في الصفحة (105) من ديوانه:

«من همومي ما يَنعَمُ العقل في دنيا ... أساهُ ويهنَأُ الوجدانُ
من همومي ما لا يفيق على البعث ... ومنها المدله السكرانُ
من همومي ما يغمر الكون بالعطر ... ومنها مزاهر وقيانُ

(١) بدويّ الجبل: **الديوان**، مصدر سابق، ص 117.

وهـمـومـي مـعـطـراتٌ عليها   مـن شبابي الطموح والـريـعـانُ
لـم أضـق بالهمـوم قلبًا وهـل ضـا   قَ بـشـتـى عـطـوره الـبـسـتـانُ
والهمـوم الحسان تفعل بالأنفسِ   مـا تـفـعـل الـغـوانـي الـحـسـانُ
وأنـا الـوالـد الـرحـيـم وأبـنـا   ئي همومُ الحياة والأشـجـانُ»[1]

تُظهر الأبيات الثمانية مشهدًا مُقاربًا للبناء المشهدي الذي نجد في الأبيات الأربعة السابقة، ونلاحظ تقاطع أفكار البناء الفني في كلا السياقين. لكن لا نعرف السبب وراء اختيار الشاعر لتلك الحالة داخل مشهد ينبض بإيقاع فرحي، يُخفي وجعًا وأسىً عميقًا، ما لم نكن ندرك أنّ البدوي كان مهجّرًا قسرًا عن وطنه، وأنّ الوطن كان يخضع لحكم طاغية فاسد. يأتي هذا المشهد في سياق من الحزن على هنانو، ليُظهر الاستعلاء على الظروف الصعبة ويُشير برمزية إلى استهانة الشاعر بالطاغية، من خلال تأكيد القوة الداخلية في سياق حزن يُكرّم رجلًا شهد حياته تحت حكم الطغيان، وهو عكس للحياة الخاملة التي أدّت إلى تدهور الوضع تحت حكمه. وما قيل في الصورة الفنّية، والتركيب المشهدي لمجموعها، والمحمولات الترميزية عليها، حول الأبيات الأربعة السابقة يمكن تكراره هنا أيضًا، مع وضوح سيطرة (البلاغية) هنا تبعًا لمقتضيات الحال.

يعتمد استخدام الرموز في المواضيع السياسية على استعمال الكلمات ذات القوة الرمزية والبلاغية. نتذكر هنا دائمًا أن المفردة تحمل في صياغتها جزءًا من المعاني الرمزية، لكن توظيفها البلاغي يجعلنا ننسى قوّتها الرمزية. فالتعبير الجيّد يبعد عن المعنى المباشر للكلمة ويعزّز المعاني العميقة. تحتاج الرموز الواضحة في هذا السياق إلى نصوص عاطفية تظهر جوانب من شخصية الشاعر أو كيفية ممثلته للحقائق الأساسية للوجود الإنساني أو الكوني.

مثالًا على ذلك، في قصيدته «خالقة»، التي إن كان لدينا المجال لفحصها بشكل كامل، تتحدّث عن الحب الذي يُعتبر أساسًا للوجود الإنساني في مفهومه الأساسي.

---

(1) بدويّ الجبل: **الديوان**، مصدر سابق، ص: 105.

يقول البدوي في مستهل القصيدة:

«١- مـن نعمياتِـك لـي ألـفٌ مُنَوَّعـةٌ   وكـلُّ واحـدةٍ دنيـا مـن النـورِ
٢- رفعتني بجناحَيْ قـدرة وهـوىً   لعالـم مـن رؤى عينيـك مسـحورِ
٣- تَعُبُّ مَنْ حسنِهِ عيني فإن سكرتْ   أغفـتْ على سندسـيٍّ مـن أسـاطيرِ
٤- أخـادِعُ النومَ إشفاقًا على حلمٍ   حـانٍ على الشـفة اللميـاء مخمـورِ

إلى أن يقول مكملًا:

٥- رشـفتُ صوتَـك فـي قلبـي معتقةً   لـم تُعتصَـرْ وضيـاءً غيـر منظـورِ
٦- خلقتِنـي مـن صبابـاتٍ مدلَّهـةٍ   ظمـأى الحنيـن إلـى دلٍّ وتغريـرِ
٧- عنـدي كنـوز حنانٍ لا نفاد لها   أنهبْتُهـا كلَّ مظلـوم ومقهـورِ
٨- أعطي بذلةِ محرومٍ فو الهفي   لسـائلٍ يغـدق النعمـاءَ منهـورِ
٩- جواهري في العبير السكب مُغنيةٌ   مـن الونـى بعـد تغليـسٍ وتهجيـرِ
١٠ -تاهتْ عن العنق الهاني فأرشدها   إلـى سـناه حنيـن النـور للنـورِ»[(١)]

عندما ننظر إلى هذه الأبيات ـ وهي اختيار جزء من القصيدة ـ نجد أنّنا لا نواجه فكرة محدّدة يُعبَّر عنها بشكل بلاغي. بل نشهد عرضًا مثيرًا للخيال إذ ينقل الشاعر عواطفه الشخصية بقوّة. يبدو الأداء الشعري كما لو كان تدفقًا من المشاعر العميقة، تتداخل الصور في مشهد متكامل، ويستند ذلك إلى مجموعة من الرموز الكبرى التي تولد تفريعات رمزية جماعية وفردية. لا يبتعد الشاعر عن البلاغة القوية التي تتجلّى في الأبيات: أحيانًا في شكل مناقشات متعارضة، ودائمًا في صورة تميل نحو التصوف العاطفي، ما يعزّز اتّساع الحالة الشخصية نحو التحقق من معاني الوجود الشاملة، ويظهر ذلك المعنى بوضوح ويتفجّر من خلال هذا التحقق.

إنّ كلمات مثال النور، الخمر (المعتقة)، جناح القدرة، جناح الهوى، سندسي، كنز (أو كنوز)، جوهرة (جواهر)، سنا... تندرج ضمن نظام رموز كبير، إلّا أنّها تحوّلت

(1) بدويّ الجبل: **الديوان**، مصدر سابق، ص: 413.

لتصبح جزءًا من الرموز الجماعية التي يقوم البناء الثقافي الفريد على استيعابها. في جوهر هذا الأمر، تكمن قيمة الأنثى (الخالقة) مع كل الرموز المتناقضة التي تحملها، والتي لا تُناقَش هنا، ولكنها تظهر واضحة في دلالات العبارات التي تشير إليها وفي العمليات التي تُشفر عبرها. تتأهَّب الأنثى للارتقاء: من كائن ملموس مرئي إلى المبدأ العالمي المقابل لمبدأ الذكورة، محيطة ومدلّلة لها وتسيطر عليها. في الوقت نفسه.

يُعتبر التركيز المبالغ في تفصيل الصور عبثًا هنا، إذ يُظهر محتوى كلّ صورة وعلاقاتها، ومن ثم يكشف عن البنية الداخلية لوحدتها... وهذا التركيز يُفرِق (الحالة) التي تمثّلها الجملة، ويُخفِض من تأثيرها البلاغي العاطفي، ما يؤدّي إلى تشتيت وحدة البناء المشهدي التعبيري الذي يُجسِّدُها.

نعرض في الآتي ثمّة ملاحظات حول الطبيعة التصويريّة:

يُعتبر الشطر الأوّل في البيت الأوّل بداية حسية تستند على كلمة «نعميات»، ولكن الشطر الثاني يأخذنا إلى مستوى أعلى بشكل مُثير. عندما نتأمّل الشطر الأوّل في البيت الثاني، نجد «جناح القدرة» ـ الذي يُظهر للأنثى المحبوبة، المُختصرة في كلمة «خالقة» ـ يرتقي بالمحبوبة نحو المبدأ الأنثوي. بالرغم من ذلك، إنّ تأكيد كلمة «جناح» واستخدام كلمة «هوى»، يربطها برقة بالمبدأ الذكوري المحجوم هنا، والذي يتّضح بشكل أساسي في كامل النص الشعري، والذي يُحدّد تلقائيًا في طبيعة صياغة الشطر الأول.

لا يرغب الشاعر في أن تكون الحالة العاطفية النابعة من الشعور كفيض مُدمّر، بل يريدها سريانًا هادئًا. يُدخل الشطر الثاني من البيت الثاني بتصوير حسي، ما يجعل كلمة «مسحور» تبقى ذات مشهد حسي على أعتاب التحول إلى المرحلة الإنسانية العامة... المرحلة الكونية الشاملة. يحدث الأمر عينه في صياغة البيت الثالث، فيجعل إغفاءة العين السكرى بسعادة مثل السندس الأسطوري. إذا كان السندس يرمز إلى الحيوية والنمو، فإنّ «الأساطير» تُشير هنا إلى جزء من معانيها العامة وهو الارتباط الضيق بين الإنسانية والتألّه.

وبعد ذلك، يُعيد الشاعر الحسّ البسيط في البيت الرابع، بعدما أدَّى بنا في رحلة، ما يُعِدُّنا لاستقبال نعمة الحب كما لو كانت حالة إلهية.

وبينما نحن هكذا قد وصلنا إلى هذه النعمة، فلا مانع أن يعطينا «صوتها المتلذذ» ـ يشبه نغمات الصلاة الهادئة ـ ذلك الغرام الذي يعانق القلوب بعد الصبر، وينير الظلمة بضوء غير متوقّع. وهكذا، ندخل، عبر العتبات، إلى أفق الوجد الذي يكشف، وكلمة «صوفية» تحمل معانٍ رمزية تلمس أعمق جوانب هذا البيت.

مع دخولنا، يبدأ «الخلق» بشكل جديد في هذه النعمة، وتحوّل الضمير في «خلقتِني» لم يعد يشير إلى الشاعر بل إلى المبدأ الذكوري الشامل. بالنظر إليها، يمكننا أن نقول «علينا» و»خلقتِنا»، إذ يُجسِّد مبدأ الأنوثة الخلق، ويكتمل الفعل بالتعاون، وهذا التكامل لا يُفقِد أيًا من الجانبين.

الخلق هنا هو خلق الحالة: مشاعر تعبّر. كلمة «حنين» تفتح أبواب النعمة إلى أبعادها، ومن هذه الأبعاد تنبعث كنوز الرحمة، أو العاطفة الصافية بعمقها المطلق، الذي يفيض بحرارة تلك الكنوز على كلّ من يحتاجها.

هذه هي الجنة الضوئية التي يخلقها هذا الحب. ولكن المحب ـ بسبب طبيعة هذه الجنة التي لا يمكن وصفها إلّا مِمّن يعيشها في أعماقه ـ لا يمكنه حصر هذه الكنوز لنفسه، فهي فيض من الحالة، يُغمره ويُشع على الآخرين بلا انغلاق أو ضيق، إذ هذه هي كنوز الروح المحبة التي لا تنقطع ولا تنضب!

يُنهي الشاعر رحلته الشعرية وقد بلغ ذروة العاطفة والانفعال الساطع، ولكنه ينتقل ليشكو من غياب المعشوق الذي يحرمه من حضوره، بالرغم من أنّه هو من يُمنح ويتبارك بنور الحب على الخلق، ويبدو وكأنّه شاعر من تلاميذ الصوفية: تجاوز الشدائد ليصل إلى الإدراك، لكن وبينما يتأمّل في هذا السطوع الذي ينعم به، يظلّ عاجزًا عن الوصول لمصدره، فتختلط مشاعر الحزن بالفرحة العظيمة! وهكذا، في أوج إبداعه وفي حالة غريبة، يشعر بأنّ «جواهره من العبير السكب» ـ هذه الكلمات التي تعبِّر عن شعره وتوهّج روحه المتألّقة بالكشف ـ تتعب من هذه الرحلة وتتمايل في دوامة العاطفة وتنهج غواية العشق.

هذه الجواهر كانت على وشك أن تفقد الهدف من رحلتها في ذلك الدوران، فكان يجب أن تزيِّن «العنق الهاني» للمعشوق الذي ارتقى من وجوده البشري إلى مبدئه الروحي المطلق.. ولولا نورها، لما اهتدت هذه الجواهر إلى هدفها: «فأرشدها إلى سناه حنين النور للنور».

وينتهي الشاعر بلحظة استكمال حالته وقصيدته في آن واحد! هذه الحالة يعبَّر عنها بنهاية هذا البناء الشعري، إذ تُعاش بمهارة في التفكير، وتبقى غامضة وغير مفسرة إلّا لمن يحتاج لفهمها.

ويشعر القارئ بالإيقاع الرنّان الجذاب في هذه الرحلة المحبوبة. فالبداية بالنور والنهاية بعد ثمانية وعشرين بيتًا كانت نقطة البداية والنهاية للقصيدة، تمامًا كالرباعية والرد في الموسيقى.. وفي الوسط، لعبت الذات الشاعرة العاشقة ببراعة من خلال الصور أو الجمل المركبة، لعبة تأثيرية تأسر القارئ وتؤثّر فيه.

استنتاج

بينما نستعرض هذه النماذج القليلة، نرى أنّها تلمس مستويَّيْن أساسيَّيْن في التعبير الفني للشاعر البدوي في الجبال. من الخطأ أن نفكّر في هذه الصورة على أنّها بسيطة أو مستقلّة عن سياق النص، فهذا الشعر يستخدم الصور ليدفع بالحسّ الشعوري نحو هدف خارجي يحقّق به التميّز. يستخدم الشاعر الحواس ليقودنا نحو تجربة جمالية عميقة ليصل بنا إلى الحالة العاطفية والفكرية الأعلى برسالة معيّنة.

لكنه في كلتا الحالتين لا يتجاهل الجماليات اللغوية التي تضفي قوة وتأثيرًا على النص، تجعلها تبدو حديثة رغم تراثها المألوف.

قد لا تكفي هذه المساحة لتغطية كل شيء، ولكن نرى ضرورة المزيد من التعبير والتصوير في شعر البدوي، ورغم أنّها قد تكون محصورة ضمن نمطين، إلّا أنّها تحمل عناصر الفرادة والتميّز في أسلوب العرض الفني.

وأخيرًا، نعتقد أنّ محاولة تجنيس أسلوب «بدويّ الجبل» مع أسلوب القُدامى من الشعراء كالمتنبي مثلًا، تعتبر مبالغة نقدية شائعة، فالأسلوبان مختلفان تمامًا

رغم وجود بعض القواسم المشتركة، نذكر منها قوة اللغة الشعرية والغنى اللغوي والأسلوب الرفيع والقوة التعبيرية.

وعطفًا على الإشكاليّة التي طرحناها، من الممكن الوصول إلى استنتاجات نربطها بالعمل التحليليّ الذي قمنا به، ويمكن إجمال الاستنتاجات على النحو الآتي:

- تعالقات النصّ في شهر بدوي الجبل توحي بانسجام البناء بين الأبيات، وبالتالي التشكيل المتماسك للقصيدة.
- إنّ الصورة الفنّيّة التي ميّزت شعر بدوي الجبل تثبت فرادته، وأنّه كان ذو أسلوب فريد في نسج صوره الشعريّة.
- تنفع الحالات الثقافيّة في حالة التلقّي، ومحور استمالة الجمهور لتكوين حالة ثقافيّة متجدّدة لديهم.

قائمة المصادر والمراجع

أ. المصادر باللغة العربية

- أدونيس، علي سعيد: **بيان الحداثة**، سراس للنشر، تونس، 1995.
- بدويّ الجبل، محمد الأحمد: **الديوان**، دار العودة، بيروت، ط 1، 1978.
- خير بك، كمال: **حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر**، دار الشرق، بيروت، 1982.
- المناصرة، عزالدين: **إشكاليات قصيدة النثر، نص مفتوح عابر للأنواع**، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ـ عمان، 2002.
- يحياوي، رشيد، **الشعري والنثري ـ مدخل لأنواعيّة الشعر**، اتحاد كتاب المغرب،2001.

ب. المراجع المعرّبة

- إيسّر، فولفجانج: **فعل القراءة ـ نظرية في الاستجابة الجمالية**، ترجمة: عبدالوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ، 2000.
- هولب، روبرت: **نظرية التلقي ـمقدمة نقدية**، ترجمة الدكتور عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي الثقافي بجدة، 1994.

ج. المقالات في المواقع الإلكترونية

- بتول محمد وآخرون: **ما لا تعرفه عن بدوي الجبل**، نقلًا عن مدوّنة «**أراجيك**»، شوهد بتاريخ 14/ 12/ 2023، على الرابط:

https://www.arageek.com/bio/badawi-al-jabal

- عمر الحافظ وآخرون: **بدوي الجبل شاعر وسياسي سوري**، نقلًا عن **الموسوعة الدمشقيّة**، شوهد بتاريخ 14/ 12/ 2023، على الرابط:

https://damapedia.com/%D8%A8%D8%AF%D9%88%D9%8A-/

إدارة المشاريع ومجالاتها المعرفية

سندس غسّاني(*)

الملخّص

هدفت الدراسة إلى معرفة تأثير نضج إدارة المشروع بمؤشّرات الأداء، حيث اختارت المؤسّسات الهندسية في لبنان كمجتمع للدراسة، التي اعتمدت نضج إدارة المشروع نهجًا رسميًا لتحديد أدائها وجودته، وتعمل على اكتسابها مستويات أعلى من النضج في تطبيق إدارة المشروع، لذلك تهدف إلى النظر في الفوائد، ومؤشّرات الأداء لتحقيق مستويات عالية من نضج إدارة المشروع في سياق بيئة وطبيعة مشاريع المنظّمات في لبنان.

اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، والاستمارة الموجّهة إلى العاملين في عدد من الشركات الهندسية عيّنة الدراسة، حيث بلغت **(409)** عامل.

الكلمات المفتاحية:

إدارة المشاريع، المجالات المعرفية، إدارة الموارد، إدارة مشتريات المشروع، إدارة مخاطر المشروع.

Abstract

This study aimed to know the impact of project management maturity on performance indicators, as the researcher chose engineering institutions in

(*) مهندسة ميكانيك، وطالبة في مرحلة الدكتوراه في جامعة الجنان، في إدارة الأعمال.

Lebanon as a community for the study, which adopted project management maturity as a formal approach to determine their performance and quality, and works to acquire higher levels of maturity in the application of project management, so this thesis aims to consider the benefits and performance indicators to achieve high levels of project management maturity that is suitable to the environment and nature of organizations' projects in Lebanon.

The study adopted the descriptive analytical approach, and the form addressed to the employees of the engineering company The study adopted the descriptive analytical approach, and the form addressed to workers in the engineering companies of the study sample, which amounted to 409 workers.

Keywords: Project Management, Knowledge Areas, Resource Management, Project Procurement Management, Project Risk Management

المقدمة

في عالم الأعمال المعاصر، تُعتبر إدارة المشاريع أحد أهمّ الأدوات والمناهج التي تُسهم في تحقيق الأهداف المحدّدة وتنفيذ الأعمال بكفاءة وفعالية. إذ يتمثّل هدف إدارة المشاريع في تحقيق النّجاح من خلال توظيف الموارد المُتاحة بشكل أمثل، وتنظيم العمليّات بشكل متّسق، وتحقيق الجودة المطلوبة في المنتَج النهائي.

تمثّل إدارة المشاريع تحدّيًا متنوّعًا ومعقّدًا يتطلّب فَهمًا عميقًا، وتحليلًا دقيقًا، للمعرفة المتخصّصة في مجالات مختلفة. لذلك تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف مفهوم إدارة المشاريع وتحليل مجالاته المعرفية المتنوّعة. وسيتمّ تسليط الضوء على أهمّية إدارة المشاريع في تحقيق الأهداف المؤسّسية وتطوير العمليات التشغيلية، بالإضافة إلى استعراض التحدّيات التي تواجه عمليّات إدارة المشاريع وكيفية التعامل معها بفعالية.

1. مشكلة الدراسة

تُعتبر إدارة المشاريع مَهمّة معقدة، تصاحبها العديد من المراحل والعمليّات. حيث إنها من الضروري أن تتبّع بالكامل دورة حياة العمل، ابتداءً من تحديد المشروع وتأطيره، وصولاً إلى التسليم، بالإضافة إلى الأخذ بعين الاعتبار الفوائد التي تعود على

الشركة. وفي ظل تنوّع الصناعات والقطاعات وتعقيدات البيئة المشروعية المتنوّعة، تشكّل إدارة المشاريع ومجالاتها المعرفية تحدّياً معرفياً متنوّعاً ومعقّداً، يتطلّب فهمًا عميقًا وتحليلًا دقيقًا.

تنطوي الإشكالية على تحدّيات متعدّدة، بما في ذلك التحدّي الذي يُمثِّله التعامل مع التنوّع الواسع للمشاريع والصناعات والقطاعات، ما يتطلّب تطبيق مفاهيم إدارة المشاريع بطرق مختلفة وفقًا للظروف الفريدة لكل مشروع.

بالإضافة إلى ذلك، تعترض الإشكالية تحدّيات ثقافيّة ولغوية، قد تعقّد عمليات التواصل والتفاهم بين الفرق المشاركة في المشاريع، ومع تطوّر التكنولوجيا والابتكار في مختلف الصناعات.

وفي هذا السياق، تعترض الإشكالية تحدّيات مؤسّسية وثقافية، قد تعيق عمليّات التغيير والتطبيق، ما يستدعي توجيه الاهتمام نحو كيفية تطوير القدرات والمهارات اللازمة وتنميتها، لتحقيق أهداف المشاريع بنجاح في مختلف الصناعات والقطاعات في لبنان. حيث إنّ السؤال الرئيسي هو: كيف يمكن تحقيق التوازن بين تطبيق مفاهيم إدارة المشاريع بشكل فعّال في مجالاتها المعرفية المتعدّدة، مع التحدّيات المتنوّعة المتمثّلة في التعقيدات المشروعية المختلفة، والتحدّيات الثقافية واللغوية، والتكنولوجيا والابتكار، والمقاربة النظرية مقابل التطبيق العملي، والتحدّيات المؤسّسية والثقافية؟

2. أهمية الدراسة

تكمن أهميّة الدراسة النظرية في تبيان مستوى نضج إدارة المشاريع وعلاقته بجودة المشاريع المنفّذة، من وجهة نظر الشركات محلّ الدراسة. ومن المتوقّع في الدراسة، معرفة المعوّقات التي تؤدي إلى الحدِّ من جودة المشاريع وفشلها، ومعرفة المجالات المعرفية لإدارة المشاريع التي تعزّز مستوى الجودة ومستوى الأداء، إذ إنّ التعرّف إلى هذه المجالات يُعدّ الخطوة الأساسية لإيجاد الحلول المناسبة لها. ويُظهر تطبيق دراسة إدارة المشاريع ومجالاتها المعرفية فوائد عديدة، بدءًا من تحسين إدارة الموارد

وزيادة كفاءة العملية التشغيلية، وصولًا إلى تحقيق الأهداف بكفاءة أكبر، وتحقيق التطوير والابتكار في مختلف الصناعات والقطاعات.

وتقوم الدراسة أيضًا بتحليل عدة مجالات معرفية تتعلّق بإدارة المشاريع، مثل مجال البناء والهندسة المدنية وتكنولوجيا المعلومات والاتّصالات والطاقة والبيئة والصحّة، وغيرها. وتسلّط الضوء على كيفية تطبيق مفاهيم إدارة المشاريع في هذه المجالات المختلفة، وكيفية استغلال المعرفة المتخصّصة لتحقيق أهداف المشاريع وتفادي المخاطر.

بالتالي، تُعتبر هذه الدراسة مساهمة مهمة في فهم أعمق لمفهوم إدارة المشاريع ودورها في مجالات مختلفة. لأن فهم المعرفة المتخصّصة وتطبيقها بفعالية، يُعتبران عاملاً أساسيًا في تحقيق النجاح والتميّز في مختلف الصناعات والقطاعات.

3. أهداف الدراسة

هناك أهداف أساسية تدور حولها الدراسة، وتركّز على محاولة الإجابة على إشكالية هذا الموضوع، ومن أبرز هذه الأهداف:

- فهم التحدّيات الخاصّة بتطبيق إدارة المشاريع في مختلف المجالات.
- التعرّف على استراتيجيات تحسين فعالية تطبيق إدارة المشاريع.
- تطوير مقاربات نظرية وعملية لتطبيق إدارة المشاريع بشكل فعّال.
- تجديد الممارسات الناجحة واستخلاص الدروس المستفادة من تجارب تطبيق إدارة المشاريع في المجالات المختلفة.
- المساهمة في تطوير المعرفة والمهارات في مجال إدارة المشاريع.

4. المنهج المعتمد

اعتمدت الدّراسة على المنهج الوصفي التّحليلي الذي يقوم بدراسة الظّاهرة كما هي في الواقع، ويهتمّ بوصفها وصفاً دقيقاً، ويعبّر عنها كيفياً أو كمّياً، فأمّا التّعبير الكيفي فيصف الظّاهرة ويوضّح خصائصها، وأمّا التّعبير الكمّيّ فيعطيها وصفاً رقمياً يوضح

مقدار هذه الظّاهرة أو حجمها أو درجة ارتباطها مع الظّواهر الأخرى (المشوخي، 2002، ص 22).

5. المجالات المعرفية لإدارة المشاريع

تُعتبر إدارة المشاريع وسيلة فعّالة تستخدمها المنظمات لتحقيق أهدافها، حيث تُعزّز قدرات المنظّمة على التخطيط والتنظيم والتنفيذ ومراقبة الأنشطة المختلفة. وتتضمّن إدارة المشاريع جميع الوسائل والأساليب المستخدمة في إنجاز المشاريع ضمن الزمان والتكلفة والجودة المطلوبة لتحقيق أهداف المنظمة. ويحدّد الدليل المعرفي لإدارة المشاريع الأمريكي، عشرة معايير تحكُّم وضبط لعملية إدارة المشاريع، هي: إدارة تكامل المشروع، إدارة نطاق المشروع، إدارة زمن المشروع، إدارة تكلفة المشروع، إدارة جودة المشروع، إدارة موارد المشروع، إدارة اتّصالات المشروع، إدارة مخاطر المشروع، إدارة مشتريات المشروع، وإدارة أصحاب المصلحة (أحمد، 2012، ص 62).

1.5. إدارة تكامل المشروع

إنّ تكامل إدارة المشروع هو مجموعة من العمليات التي تبدأ بوصف المشروع في وثيقة، وتستمر حتى مرحلة إغلاقه، حيث تكون هذه العمليات مترابطة ومتكاملة. كما تهدف إدارة تكامل المشروع إلى تحقيق طلبات العملاء وأصحاب المصلحة، من خلال توحيد العمليات وتنسيقها ومتابعتها بشكل متوازٍ، فيتمّ تقسيم الأنشطة إلى مجموعات إدارة المشروع، بهدف تحديد العمليات المختلفة وتعيينها وتجميعها وتوحيدها وتنسيقها، والاهتمام بمتطلبات أصحاب المصالح وإدارة توقّعاتهم. ويتضمن التكامل خصائص التوحيد والاندماج والربط المفصّل والإجراءات التكاملية المهمّة لإكمال المشروع، حيث إن إدارة تكامل المشروع تعني تخصيص الموارد وإجراء المبادلات بين الأهداف والبدائل (Wysocki, 2014, P30).

2.5. إدارة نطاق المشروع

تشتمل إدارة نطاق المشروع على عدة نشاطات مثل تحديد الاحتياجات، وتحديد

النطاق، وإنشاء هيكل تجزئة، والعمل، وتحقيق النطاق، وضبط النطاق. ويُعتبر تحديد الاحتياجات بدقّة، أحد الأسس الضرورية لضمان نجاح المشروع، حيث يتمّ ذلك من خلال التواصل المستمرّ مع العملاء، كما تشمل تفويض الوظائف وتحديث بيانات النطاق لتحديد الحدود وتوزيع الأعمال على مجموعات صغيرة قابلة للإدارة، والتحقّق من إنجاز الأعمال المخطّط لها، إنّ عدم تحديد العمليات والمهام والاحتياجات اللازمة، يمكن أن يؤدي إلى فشل المشروع، لذا، يُعتبر تحديد الاحتياجات بشكل دقيق وصحيح أمرًا ضروريًا (Levin, 2010, P110).

إذًا، إن إدارة النطاق تختصّ بتحديد جميع الأعمال المطلوبة لإكمال المشروع بنجاح، وتهتمّ بما يجب أن يُدرج أو لا يُدرج في المشروع، ويتمّ توزيعها وفق مجموعة عمليات إدارة المشاريع كالتالي (الديري، 2011، ص55):

- عملية التخطيط.
- وضع خطة إدارة النطاق.
- إعداد هيكلة تجزئة العمل.
- عملية تقسيم هرمي للتسليمات الرئيسية للمشروع إلى مكوّنات أصغر قابلة للإدارة.
- عملية المراقبة والتحكّم.
- التحقّق من النطاق.
- إضفاء صفة رسمية على قبول تسليمات المشروع.

3.5. إدارة زمن المشروع

يعرّف ريشمان إدارة الزمن بأنه الاستفادة من الزمن بفاعلية وكفاءة بهدف إنجاز أعمال المشروع، والتّأكّد من عدم التأخر في تسليم المشروع (Richman, 2011, P142).

وتشمل إدارة زمن المشروع جميع العمليات اللازمة لاستكمال تنفيذ المشروع بالوقت المحدّد، ووضع خطة مفصّلة للجدول الزمني، حيث يقوم فريق إدارة المشروع

بوضع الجدول الزمني، وعملياته كالآتي (Richman, 2011, P144):

- عملية التخطيط.
- وضع خطة إدارة الزمن.
- تحديد الإجراءات لتخطيط الجدول الزمني مثل (نموذج الجدولة الزمنية - مستوى الدقة - وحدة القياس - طرق قياس الأداء).
- تحديد الأنشطة.
- تسلسل الأنشطة (هي توثيق العلاقة بين أنشطة المشروع).

4.5. إدارة تكلفة المشروع

يتضمّن المجال المعرفي لإدارة تكاليف المشروع، تكاليف المشروع وميزانيّته، إذ تُحدَّد التكاليف الخاصة، وتُحدَّد أيضاً مصادر التمويل لإتمام إنجاز المشروع، واستلام الأموال بما يتناسب مع الميزانية المحدّدة.

وتشمل العمليات اللازمة لتخطيط التكاليف وتقديرها، ووضع ميزانياتها وضبطها، وذلك لإنجاز المشروع ضمن الموازنة المخصصة له.

تشمل عمليات إدارة تكلفة المشروع على الآتي (Heldman, 2009, P88):

- **عملية التخطيط**: وضع خطة إدارة التكاليف - تقدير التكاليف - تحديد الموازنة.
- **عملية المراقبة**: ضبط التكاليف (وهي تضمن عدم تجاوز التكاليف للتمويل).

5.5. إدارة جودة المشروع

يعرّف المعهد الأمريكي لإدارة المشاريع، إدارة جودة المشروع، بأنها عمليّة يتمّ من خلالها العمل بأنظمة إدارة الجودة عم طريق تطبيق السياسات والاجراءات بتوازٍ مع تطبيق أنشطة تحسين العمليّات المستمرة، حيث يتمّ العمل بها من مرحلة بدأ المشروع الى مرحلة الإغلاق، وذلك لضمان تحقيق الجودة العالية للمخرجات والّتي ترضي جميع أطراف المصلحة (جاسم، 2006، ص 112).

6.5. إدارة موارد المشروع

هي العمليّة التي تتضمّن تأمين الموارد اللازمة لإمداد ودعم عمليّات الموقع، والحرص على إنجاز الأعمال وتسليمها خلال المدّة المطلوبة، وكذلك انجاز الأعمال ضمن حدود الموازنة المحدّدة، أيضاً على مدير المشروع مسؤوليّة اختيار الأشخاص ذوي الكفاءة العالية لأجل ضمان تنفيذ أنشطة المشروع بكفاءة عالية وتحقيق النتائج المرجوّة (Khalid, 2017, P201).

تشمل إدارة الموارد، تحديد الموارد اللازمة للاستكمال الناجح للمشروع، والحصول عليها وإدارتها، حيث تقوم بتأمين الموارد المناسبة لفريق المشروع، وتسليمها في الزمان والمكان المطلوبَيْن، وإن عمليات إدارة موارد المشروع هي كالآتي:

- **عملية التخطيط**: وضع خطة إدارة الموارد، تقدير موارد الأنشطة.
- **عملية التنفيذ**: حيازة الموارد، تطوير الفريق.
- **عملية المراقبة**: التحكّم في الموارد.

7.5. إدارة اتّصالات المشروع

يمكن القول بأن إدارة اتّصالات المشروع هي العمليّة الّتي يتمّ من خلالها التأكّد من تسليم جميع المعلومات المطلوبة الى المدراء والمعنيّين باتّخاذ القرارات، في الوقت المحدّد، وذلك لتجنّب أي أخطار قد تواجه المشروع، وأيضا أرشفة المعلومات والبيانات المتعلّقة بالمشروع في الأرشيف لاستخدامها (Heldman, 2009, P110).

8.5. إدارة مخاطر المشروع

هي إدارة تشمل العمليّات الّتي تهتمّ بتحديد المخاطر وتحليلها وإيجاد الحلول المناسبة لها ومراقبة هذه الحلول وتطويرها وتحسينها باستمرار (المقداد، 2011، ص95).

تنطوي جميع المشاريع على مخاطر نظراً لفرادتها بدرجات متفاوتة من التعقيد، أما في حال عدم إدارة هذه المخاطر بالشكل السليم، فمن المُحتَمَل أن تتسبب في

انحراف المشروع وفشله في تحقيق أهدافه، ولذلك فإن نجاح المشروع يتأثّر بشكل مباشر بفعالية إدارة مخاطر المشروع، اذ تشمل عمليات إجراء تخطيط إدارة المخاطر، والتعرّف عليها، وتحليلها، وتخطيط الاستجابة لها، وتطبيق الاستجابة.

9.5. إدارة المشتريات في المشروع

يعرّفها الدليل المعرفي لإدارة المشاريع بأنها عمليّة الحصول على اللوازم من سلع وخدمات لإنجاز أعمال المشروع بالزمن والجودة المناسبين (PMBOK, 2013, P205)، حيث تشمل إدارة مشتريات المشروع القيام بمجموعة من العمليّات الفرعية المرتبطة بتخطيط إدارة الشراء وإجراءات الشراء وضبط عمليّة الشراء واغلاق عمليّة الشراء (الميناوي، 2014، ص82).

تشمل عمليات شراء المنتجات اللازمة، وعمليات إدارة وضع الاتفاقيّات والعقود، وأوامر الشراء، ما يلي:

- **عملية التخطيط**: وضع خطة إدارة المشتريات ـ توثيق قرارات الشراء في المشروع.
- **عملية التنفيذ**: إجراء المشتريات ـ عملية الحصول على عروض البائعين ـ إبرام العقد.
- **عملية المراقبة**: التحكّم في المشتريات ـ هي إدارة علاقات المشتريات، ومتابعة التنفيذ.

10.5. إدارة أصحاب المصلحة

تشمل إدارة أصحاب المصلحة في المشروع، العمليّات الضرورية لتحديد هوية الأفراد أو المجموعات أو المنظمات التي يمكن أن تؤثّر أو تتأثّر بالمشروع، وتحليل توقّعاتهم وتأثيرها على النجاح النهائي للمشروع، ومن ثمّ تطوير استراتيجيات إدارة مناسبة لضمان مشاركتهم بفعاليّة في صنع القرارات المتعلّقة بالمشروع (نصير،2006، ص18)

وتركّز إدارة أصحاب المصلحة أيضًا، على التواصل المستمرّ مع الجهات المعنية

بهدف فهم احتياجاتهم وتوقّعاتهم، وتقديم الحلول المناسبة لأي مشكلات قد تنشأ، وإدارة المصالح المتعارضة، وتعزيز مشاركة أصحاب المصلحة المعنيّين في قرارات المشروع وأنشطته. كما إنّ تحقيق رضا أصحاب المصلحة يعتبر هدفًا أساسيًا لنجاح المشروع.

تتضمن عمليات إدارة أصحاب المصلحة:

- **تحديد أصحاب المصلحة:** تعريف الأفراد أو المجموعات أو المنظّمات، التي يمكن أن تؤثّر أو تتأثّر بالمشروع، وتحليل معلوماتهم المتعلّقة بمصالحهم وتفاعلاتهم وتأثيراتهم المحتملة على نجاح المشروع.
- **وضع خطة إدارة أصحاب المصلحة:** وضع استراتيجيات فعّالة لإشراك أصحاب المصلحة في جميع مراحل المشروع، مع الاعتماد على تحليل احتياجاتهم وتأثيراتهم المتوقّعة على النجاح النهائي للمشروع.
- **إدارة التزامات أصحاب المصلحة:** التواصل المستمر والتعاون مع أصحاب المصلحة لتلبية احتياجاتهم وتطلعاتهم، ومعالجة أي مشكلات تنشأ، وتعزيز مشاركتهم في جميع مراحل المشروع.
- **مراقبة التزامات أصحاب المصلحة:** مراقبة العلاقات والتفاعلات بين أصحاب المصلحة في المشروع، وضبط الاستراتيجيات والخطط لإدارة المصلحة وفقًا للتغيّرات المحتملة.

تتفاعل هذه العمليّات مع بعضها البعض، ومع مختلف الإجـراءات، وضمن المجالات المعرفية الأخرى. كما إن لكلّ مشروع أصحاب مصلحة يتأثّرون أو يؤثّرون في المشروع بطريقة إيجابية أو سلبية، وقد يكون لبعضهم قدرة محدودة للتأثير على المشروع، ولبعضهم الآخر تأثير كبير على المشروع ونتائجه المتوقّعة. وإن قدرة مدير المشروع على تحديد وإدارة أصحاب المصلحة بشكل صحيح، يمكن أن تعني الفرق بين النجاح والفشل.

ينطوي كل مشروع على معنيّين يتأثّرون بالمشروع أو يمكنهم التأثير عليه بصورة إيجابية أو سلبية وعملياتها هي:

- **عملية البدء**: تحديد المعنيّين (تحليل وتوثيق المعلومات ذات الصلة بهم).
- **عملية التخطيط**: وضع خطة مشاركة المعنيّين (بناءً على احتياجاتهم وتوقعاتهم وتأثيرهم على المشروع).
- **عملية التنفيذ**: إدارة مشاركة المعنيّين (التواصل مع المعنيّين بالمشروع لتلبية احتياجاتهم).
- **عملية المراقبة**: متابعة مشاركة المعنيّين.

6. القسم التطبيقي للدراسة

يتناول القسم التطبيقي النتائج الإحصائية، وقد اعتمدت الدراسة على النِسب المئوية والفرضيات لتبيان علاقة الدراسة، حيث تم استخدام المنهج الوصفي للدراسة باستخدام عيّنة من الشركات التي تُعنى بالمشاريع الهندسية، وقد تمت دراسة عيّنة عبارة عن (**409**) موظفين، ممّن أجابوا على الاستبانة من الشركات التي وافقت على المشاركة.

لقد تمّ استخدام الإحصاء الوصفي لدراسة العيّنة الوصفية من خلال النسب المئوية والجداول، وتحليل الفرضيات، وهو الإحصاء الاستنتاجي، حيث استخدمنا معامل ارتباط بيرسون لمعرفة العلاقة الارتباطية بين (**1- و1+**)، والدلالة الإحصائية بمعيار ثقة (**95٪**)، ودلالة احتمالية (**0.05**).

1.6. اختبار الثبات

بالاستفادة من البرنامج الإحصائي المتخصص (SPSS)، أُجريت المعالجات الإحصائية اللازمة لاستخراج النتائج، حيث تم التأكّد من ثبات البيانات للتأكّد من صلاحيتها لقياس متغيّرات الدراسة.

وكمفهوم عام، فإن الثبات هو قدرة الاختبار الذي يجريه أحد الباحثين على تحقيق نفس النتائج، عند تكراره في وقت لاحق، لنفس المجموعة وفي نفس الظروف. وتتراوح قيمة ألفا كرونباخ بين (**0.6 و0.9**) ليعتبر أن الثبات جيّد.

تم حساب الثبات لمحاور الدراسة، حيث إنها تتبع ليكرت الخماسي، فمن

الضروري استخدامه لمعرفة قيمة ألفا كرونباخ، وتتضمن محورَين رئيسيَّيْن: إدارة المشاريع والمجالات المعرفية للمشروع، حيث إن إدارة المشاريع تتضمّن إدارة نطاق المشروع ونضج المشروع ويتألف من **(43)** بنداً، أما المجالات المعرفية لمشروع يتضمّن إدارة الجودة، والمشتريات، إدارة الموارد وتتضمن **(11)** بنداً.

الجدول الرقم (1)

اختبار ثبات البيانات

البعد/المحور	قيمة ألفا	عدد العبارات
إدارة المشاريع	0.967	43
المجالات المعرفية للمشروع	0.923	11
كل الاستبيان	**0.976**	**54**

يظهر ممّا ورد في الجدول أعلاه، أنّ قيمة ألفا كرونباخ هو **(0.976)** المحاور كلّها، وهو ما يؤشّر إلى أنّ هناك ثباتًا كافيًا لاعتماد نتائج الاستمارة، ولمحور إدارة المشاريع قيمة ألفا كرونباخ **(0.967)**، والمجالات المعرفية **(0.923)**.

تشير قيمة ألفا كرو نباخ العالية إلى ثبات جيّد للدراسة ما يمكننا اعتماد نتائجها.

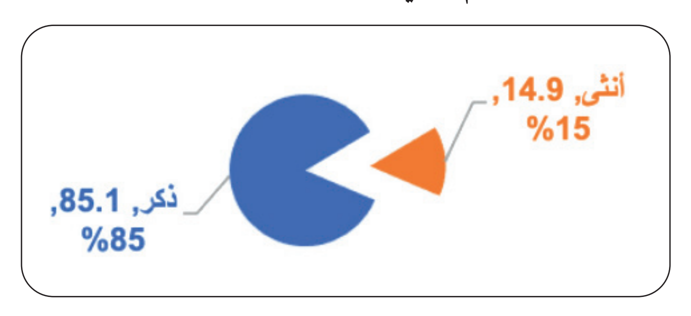
2.6. توزيع العيّنة حسب المتغيّرات الديمغرافية

يتضمن الاستبيان متغيّرات ديمغرافية، وتساعد على وصف عيّنة الدراسة وشرحها، وتتضمن الجنس، العمر، الوضع العائليّ، المستوى العلميّ، المهام الوظيفيّة وسنوات الخدمة. وهذه المتغيّرات تساعد على فهم العيّنة وتوضيح أساسيّاتها.

1.2.6. توزّع المستطلعين بحسب الجنس

يتضمن الرسم البياني متغيّر الجنس، وهو لتبيان تعداد الإناث والذكور في الدراسة، وقد تمّ استخدام النسبة المئويّة لتأكيد ذلك.





بما يتوافق مع مجتمع الدراسة، فقد تجاوزت نسبة الذكور (**85**٪) من العيّنة، مقابل أقل من (**15**٪) من الإناث.

ويتضح من هذه النتائج، أن نسبة الذكور أعلى من نسبة الإناث، ما يمكن القول إنّهم أكثر اهتماماً بإدارة المشاريع، كما يتطلّب السوق العملي الذكور أكثر من الإناث.

2.2.6. توزيع المستطلعين بحسب العمر

يعتبر العمر من المتغيّرات الديمغرافية المكمّلة للدراسة، وذلك لمعرفة عمر العيّنة المتوجّهة، بحال كانت بمرحلة الشباب أو الشّيب، ويستهدف العمر، بحسب عيّنة الدراسة.

الجدول الرقم (2)
توزّع العيّنة تبعاً لمتغيّر العُمر

العمر	التكرار	النسبة
من 20 إلى 29 سنة	43	10.5
من 30 إلى 39 سنة	160	39.1
من 40 إلى 49 سنة	132	32.3
50 سنة أو أكثر	74	18.1
المجموع	**409**	**100.0**

تجاوزت نسبة المستطلعين الذين تراوحت أعمارهم بين (**30** و **39**) سنة، فبلغت (**39٪**) من العيّنة، تَلَتْها نسبة من هم في الفئة التي تليها، أي بين (**40** و **49**) سنة، وبلغت (**32.3٪**)، وسجّلت فارقاً كبيراً عن الفئة التي بلغت أعمارهم (**50**) سنة وما فوق، فيما الفئة التي سجّلت أقلّ نسبة بين المستَطْلَعين، هي الأقل عمراً، أي تراوحت بين (**20** و **29**) سنة.

وتُبيّن نتائج الجدول، أن أعلى نسبة هي بين (**30** و **39**) سنة، أي بمعنى، أنها عمر الشباب والعمل والحركة. كما إن عمر (**40 الى 49**) سنة، بما يمثّل النضوج والعقلانية وروح الشباب معاً، وهو الذي يهتم بإدارة المشاريع والعمل. ومن هنا يمكن الاستنتاج أن لكلّ عمر عمله واهتماماته.

3.2.6. توزّع المستَطْلَعين بحسب الوضع العائلي

يُعدّ الوضع العائلي من المتغيّرات الديمغرافية التي تشرح العيّنة ووضعها الاجتماعي، إذ إن اهتمامات العازب تختلف عمّا هي لدى المتزوج الذي يرتبط بالعمل أكثر فأكثر، نتيجة التزاماته المادية والمالية تجاه أسرته.

الجدول الرقم (3)

توزّع العيّنة تبعاً لمتغيّر الوضع العائلي

الوضع العائلي	التكرار	النسبة
أعزب	88	21.5
متزوج	321	78.5
المجموع	**409**	**100.0**

إن النسبة الأعلى من المستَطْلَعين هي من المتزوّجين، وذلك يتوافق مع كونهم هم الفئات العمرية التي تتجاوز (**20**) سنة، فيما نسبة العزّاب سجّلت (**21.5٪**)، أغلبهم من الفئات العمرية الأدنى.

وتشير النتائج إلى أن الوضع العائلي الأعلى هو للمتزوّجين، ما يشير إلى أن الذين

يرتبطون بالعمل أكثر وارتباطاً بالفئة العمرية ما بين سنّ **(30 حتى 49)**، هي العيّنة الأعلى نسبة.

4.2.6. توزّع المستطلعين بحسب المستوى التعليمي

يعدّ المستوى التعليمي من المتغيرات التي تدلّ على كفاءة الموظّفين ومستواهم العلمي، وكيفية تولّيهم للمناصب، وتوضيح ما إذا تمّ تعيينهم نتيجة الخبرة المهنية أم المستوى العلمي والخبرة معاً.

الجدول الرقم (4)

توزّع العيّنة تبعاً لمتغيّر المستوى التعليمي

المستوى التعليمي	التكرار	النسبة
ثانوي	5	1.2
إجازة	198	48.4
ماجستير	152	37.2
دكتوراه	54	13.2
المجموع	**409**	**100.0**

قاربت نسبة حملة شهادة الإجازة الجامعية نصف العيّنة، وتلتها نسبة حملة شهادة الماجستير، فيما نسبة حملة شهادة الدكتوراه بلغت **(13.2٪)**، وهو ما يدلّ على أن مجتمع الدراسة عموماً هو مجتمع المتعلّمين وحملة الشهادات الجامعية، أما نسبة من هم دون ذلك، فهي متدنّية، بسبب إن طبيعة عمل الشركات المستهدفة يستلزم حمل شهادة جامعية.

ويتبين من النتائج، أن أعلى نسبة هي لحاملي الإجازة، يليها حملة الماجستير، ما يدلّل أن سوق العمل في المشاريع الهندسية، يتطلّب حملة الشهادات، ولا يكتفون بالخبرة فقط، بخاصّة في إدارة المشاريع.

5.2.6. توزّع المستَطْلَعين بحسب المهام الوظيفيّة

تشير المهام الوظيفية الى وضع العيّنة في العمل، وما هو المستوى الوظيفي، حيث توزّعت الوظائف بين مهندس، مدير مالي، رئيس أعمال، وضابط جودة.

الجدول الرقم (5)

توزّع العيّنة تبعاً لمتغيّر المهام الوظيفية

المهام الوظيفية	التكرار	النسبة
مهندس	319	78.0
مدير مالي	22	5.4
رئيس عمال	55	13.4
ضابط جودة	13	3.2
المجموع	**409**	**100.0**

بما أن الشركات المستهدفة هي شركات هندسية، فقد كان من الطبيعي والمتوقّع أن يتجاوب المهندسون بشكل كبير مع الدراسة، مقابل نِسب محدودة من باقي المهام.

وتشير النتائج إلى أن (**78٪**) من المشاركين في العيّنة هم مهندسون، و (**13٪**) رئيس أعمال، ما يدلّل أن الفئة المتعلّمة هم المهندسون.

6.2.6. توزّع المستطلَعين بحسب سنوات الخدمة

يُعتبر متغيّر سنوات الخدمة من المتغيرات الديمغرافية التي تدلّ على ديمومة الموظّف في الشركة التي يعمل بها أو تاريخ البدء فيها.

الجدول الرقم (6)
توزّع العيّنة تبعاً لمتغيّر سنوات الخدمة

سنوات الخدمة	التكرار	النسبة
من سنة إلى 5	102	24.9
من 6 إلى 10	124	30.3
من 11 إلى 15	145	35.5
أكثر من 15	38	9.3
المجموع	**409**	**100.0**

لقد تبيّن من إجابات المستطلَعين، أن النسبة الأعلى يملكون خبرة، تتراوح بين (**11** و **15**) سنة، تليهم نسبة من لديهم خبرة تتراوح بين (**6** و **10**) سنوات، فيما ربع العيّنة من الجدد الذين لديهم خبرة أقل من (**6**) سنوات، ونسبة مقبولة من الذين لديهم خبرة أكثر من (**15**) سنة.

من خلال هذه النتائج، نستنتج أن نسبة الموظفين الذين يمتلكون سنوات خدمة عالية من (**11**) إلى (**15**) سنة هي النسبة الأعلى.

3.6. توزّع الإجابات على عبارات الدراسة بحسب محور إدارة المشاريع

بعد الحديث في الاستبيان، عن العاملين والمتغيّر البنيوي بخصوصياتهم، يأتي الاستطلاع ليكمّل الدراسة عن إدارة المشاريع، فتصبح هي المتغير الأساسي في العيّنة، ولاكتمال المشروع يجب وضع خطة لإدارته بشكل موثّق ودقيق، لكي لا يحدث خلل أو إشكالات في فترة إنجاز المشاريع.

الجدول الرقم (7)

توزّع إجابات العيّنة على فقرات محور إدارة المشاريع

		غير موافق بشدة	غير موافق	محايد	موافق	موافق بشدة
يتمّ انشاء ميثاق المشروع بصورة دقيقة	التكرار	31	58	51	121	148
	النسبة	7.6٪	14.2٪	12.5٪	29.6٪	36.2٪
تتمّ استشارة المعنيّين وأصحاب المصلحة لتطوير ميثاق المشروع	التكرار	27	47	54	185	96
	النسبة	6.6٪	11.5٪	13.2٪	45.2٪	23.5٪
يتمّ وضع خطط تفصيلية لإدارة المشروع	التكرار	10	6	30	77	286
	النسبة	2.4٪	1.5٪	7.3٪	18.8٪	69.9٪
يتم العمل وفق خطة إدارة المشروع	التكرار	15	11	74	139	170
	النسبة	3.7٪	2.7٪	18.1٪	34.0٪	41.6٪
يضمن المنظّم معالجة جميع التغييرات المطلوبة للمشروع	التكرار	6	10	50	65	278
	النسبة	1.5٪	2.4٪	12.2٪	15.9٪	68.0٪
يتم تحديث وثائق المشروع في مجال الأعمال والمخاطر والإشكالات	التكرار	29	26	132	129	93
	النسبة	7.1٪	6.4٪	32.3٪	31.5٪	22.7٪

يشير الجدول أعلاه الى إدارة المشاريع، حيث إن (**36٪**) من أفراد العيّنة، أجابوا «موافق بشدة» على أن يتمّ إنشاء ميثاق المشروع بصورة دقيقة. و(**45٪**) من أفراد العيّنة أجابوا «موافق»، على أن تتمّ استشارة المعنيّين وأصحاب المصلحة لتطوير ميثاق المشروع. وأجاب (**70٪**) من أفراد العيّنة أجابوا «موافق بشدة» على أن يتم وضع خطط تفصيلية لإدارة المشروع. في حين أجاب (**42٪**) من أفراد العيّنة، أجابوا «موافق بشدة» على أن يتمّ العمل وفق خطة إدارة المشروع. وهناك (**68٪**)، جاء جوابهم «موافق بشدة»، على أن يضمن المنظم معالجة جميع التغييرات المطلوبة للمشروع. وهناك أيضاً (**32٪**) من أفراد العيّنة أجابوا «موافق»، على أن يتمّ تحديث



وثائق المشروع في مجال الأعمال والمخاطر والإشكالات.

من خلال هذه النتائج، تبيّن أنه يجب استشارة المعنيّين وأصحاب المصلحة لتطوير ميثاق المشروع، كما ويتمّ وضع خطة لإدارة المشروع، وذلك لتفادي المخاطر والمشاكل خلال تنفيذ المشروع، اذ يجب أن يضمن المنظّم معالجة جميع التغييرات المطلوبة للمشروع.

4.6. توزّع الإجابات على عبارات الدراسة بحسب محور المجالات المعرفية

تدلّ إدارة كلفة المشروع من المجالات المعرفية على الكلفة المالية لكلّ مشروع مع كافة تكاليفه وميزانيّته المفصلة.

الجدول الرقم (8)

توزّع إجابات العيّنة على فقرات «إدارة كلفة المشروع» من محور المجالات المعرفية

		غير موافق بشدة	غير موافق	محايد	موافق	موافق بشدة
تقدم جميع التكاليف اللازمة لإكمال المشروع	التكرار	49	47	131	149	33
	النسبة	12.0٪	11.5٪	32.0٪	36.4٪	8.1٪
توضع ميزانية مفصلة حول المشروع	التكرار	17	77	131	148	36
	النسبة	4.2٪	18.8٪	32.0٪	36.2٪	8.8٪
يتابع المنظم العمل المنفذ مقابل المبالغ المصروفة	التكرار	16	77	136	143	37
	النسبة	3.9٪	18.8٪	33.3٪	35.0٪	9.0٪
يقيس المنظم الكلفة الفعلية عند الاكتمال مقابل الكلفة المقدرة	التكرار	21	74	125	155	34
	النسبة	5.1٪	18.1٪	30.6٪	37.9٪	8.3٪

يشير الجدول أعلاه إلى البعد الأول في محور المجالات المعرفية، إذ إن (**36٪**) من أفراد العيّنة أجابوا «موافق»، على أن تقدّم جميع التكاليف اللازمة لإكمال المشروع. وأيضاً هناك (**36٪**) من أفراد العيّنة، أجابوا «موافق»، على أن توضع

ميزانية مفصّلة للمشروع. وكذلك هناك (35٪) من أفراد العيّنة، أجابوا «موافق»، على أن يتابع المنظّم العمل المنفذ مقابل المبالغ المصروفة. وأيضاً (38٪) من أفراد العيّنة، أجابوا «موافق»، على أنه يقيس المنظّم الكلفة الفعلية عند الاكتمال مقابل الكلفة المقدرة.

يتبيّن من نتائج الجدول أن أعلى نسبة هي قياس الكلفة الفعلية عند الاكتمال مقابل الكلفة المقدرة، وهي المهمّة نظراً لصعوبة تكملة مشروع من دون وجود مخاطر أو دفع مبالغ غير مقررة.

5.6. إدارة الموارد

تُعدّ إدارة الموارد من المجالات المعرفية للمشروع، كي تتمّ وضع خطة لتوفير الموارد وتأمينها بمعيار الجودة والزمن المطلوبَيْن، كذلك تدخل في إطار متابعة أداء الفريق لإنتاج مشروع جيّد، وتشكيل فريق جيد، وتعالج أيضاً حالات الأداء المنخفض لفريق المشروع، ما يعني وجوب أن يكون الفريق جاهزاً ودقيقاً بعمله، ويقدّم إنتاجاً ذا جودة، حيث تعتبر من موارد المشروع.

الجدول الرقم (9)

توزّع إجابات العيّنة على فقرات «إدارة الموارد» من محور المجالات المعرفية

		غير موافق بشدة	غير موافق	محايد	موافق	موافق بشدة
توضع خطة لتوفير الموارد وتأمينها دومًا في الجودة والزمن المطلوب	التكرار	12	27	47	178	145
	النسبة	2.9٪	6.6٪	11.5٪	43.5٪	35.5٪
تتمّ متابعة أداء أفراد فريق المشروع	التكرار	10	10	45	106	238
	النسبة	2.4٪	2.4٪	11.0٪	25.9٪	58.2٪
تعالج حالات الأداء المنخفض لفريق المشروع	التكرار	11	11	75	139	173
	النسبة	2.7٪	2.7٪	18.3٪	34.0٪	42.3٪

تشير النتائج إلى البعد الثاني من أبعاد إدارة المشاريع، وهو إدارة الموارد، حيث إن (44٪) من أفراد العيّنة، أجابوا «موافق»، على أن توضع خطّة لتوفير الموارد وتأمينها ضمن معايير الجودة والزمن المطلوب. وهناك (58٪) من أفراد العيّنة، أجابوا «موافق بشدة»، على أن تتمّ متابعة أداء أفراد فريق المشروع. في الوقت الذي جاءت نسبة (42٪) من أفراد العيّنة، أجابوا «موافق بشدة» على أن تعالج حالات الأداء المنخفض لفريق المشروع.

وتشير النتائج إلى أن أعلى نسبة في الاستبيان، هي لمعالجة حالات الأداء المنخفض لفريق المشروع، وتحمل أهمية عالية نظراً لأهمية أداء فريق العمل كي ينتج عنه مشروع ذو جودة عالية.

6.6. إدارة مخاطر المشروع

لكلّ مشروع مخاطره، حيث يتمّ تحديد المخاطر المؤثرة فيه، وذلك لتفاديها، وليكون هناك مرونة بالتعامل مع المخاطر الطارئة، وتُعتبر أيضاً من المجالات المعرفية للمشاريع.

الجدول الرقم (10)

توزّع إجابات العينة على فقرات «إدارة مخاطر المشروع» من محور المجالات المعرفية

		غير موافق بشدة	غير موافق	محايد	موافق	موافق بشدة
يتم تحديد المخاطر التي يمكن أن تؤثر على المشروع	التكرار	20	40	144	105	100
	النسبة	4.9٪	9.8٪	35.2٪	25.7٪	24.4٪
توثق تفاصيل كل خطر تواجهه	التكرار	21	28	130	105	125
	النسبة	5.1٪	6.8٪	31.8٪	25.7٪	30.6٪
هناك مرونة بالتعامل مع المخاطر الطارئة	التكرار	21	33	133	105	117
	النسبة	5.1٪	8.1٪	32.5٪	25.7٪	28.6٪

العبارة		غير موافق بشدة	غير موافق	محايد	موافق	موافق بشدة
يتم تحديد تأثير المخاطر على أهداف المشروع، أو كلفته، أو مدته أو جودته بشكل دقيق	التكرار	23	23	151	102	110
	النسبة	5.6٪	5.6٪	36.9٪	24.9٪	26.9٪
تتخذ خطوات لتقليل تأثيرات المخاطر وتلبية أهداف المشروع	التكرار	21	30	145	97	116
	النسبة	5.1٪	7.3٪	35.5٪	23.7٪	28.4٪

يشير الجدول أعلاه الى البعد الثالث من أبعاد إدارة المشاريع، وهو إدارة مخاطر المشروع، حيث إن (**26٪**) من أفراد العيّنة، أجابوا «موافق»، على أن يتمّ تحديد المخاطر التي يمكن أن تؤثر على المشروع. وهناك (**31٪**)، أجابوا «موافق بشدة»، على أن توثّق تفاصيل كل خطر تواجهه، وضرورة وجود مرونة بالتعامل مع المخاطر الطارئة. وأيضاً أجاب (**27٪**) من أفراد العيّنة، بصيغة «موافق بشدة»، على أن يتمّ تحديد تأثير المخاطر على أهداف المشروع، أو كلفته، أو مدته، أو جودته بشكل دقيق. وكذلك بلغت نسبة (**28٪**) من أفراد العيّنة الذين أجابوا «موافق بشدة»، على أن تتّخذ خطوات لتقليل تأثيرات المخاطر وتلبية أهداف المشروع.

تدلّ النتائج، على أن إدارة مخاطر المشروع عليها توثيق تفاصيل كل خطر تواجهه، وتحدّد المخاطر التي يمكن أن تؤثر في المشروع، كما تتطلّب مرونة بالتعامل مع المخاطر، وتحديد المخاطر على أهداف المشروع، أو الكلفة، أو مدّته، أو جودته، كما تتّخذ الخطوات لتقليل تأثيراتها، وتلبية أهداف المشروع، بعد كل توثيق هذه البنود فتتوصل الى مشروع أقلّ خسائر.

7.6. إدارة المشتريات

تعدّ إدارة المشتريات من أساسيات المجالات المعرفية في إدارة المشاريع، حيث توضع خطط للمشتريات، وعروض أسعار لكفاية المشروع.

الجدول الرقم (11)
توزّع إجابات العيّنة على فقرات «إدارة المشتريات» من محور المجالات المعرفية

		غير موافق بشدة	غير موافق	محايد	موافق	موافق بشدة
يتم وضع خطة لشراء الاحتياجات المختلفة لتنفيذ المشروع	التكرار	37	65	108	146	53
	النسبة	9.0٪	15.9٪	26.4٪	35.7٪	13.0٪
يتم طلب عروض أسعار أو مناقصات ضمن شروط مرجعية	التكرار	47	64	146	106	46
	النسبة	11.5٪	15.6٪	35.7٪	25.9٪	11.2٪
يختار الموردين المحتملين بالاعتماد على نظام ومعايير محددة	التكرار	112	120	67	80	30
	النسبة	27.4٪	29.3٪	16.4٪	19.6٪	7.3٪
يستخدم عقد مفصل لإدارة العلاقة مع المورد	التكرار	27	47	65	184	86
	النسبة	6.6٪	11.5٪	15.9٪	45.0٪	21.0٪
يكتمل وينتهي كل عقد عند الانتهاء من العمل في المشروع	التكرار	19	18	48	91	233
	النسبة	4.6٪	4.4٪	11.7٪	22.2٪	57.0٪

تشير نتائج إدارة المشتريات، حيث إن (**36٪**) من أفراد العيّنة، أجابوا «موافق»، على أن يتمّ وضع خطة لشراء الاحتياجات المختلفة لتنفيذ المشروع. وأيضاً هناك (**30٪**) من أفراد العيّنة أجابوا «موافق»، على أن يتمّ طلب عروض أسعار أو مناقصات ضمن شروط مرجعية. وكذلك هناك (**20٪**) من أفراد العيّنة، أجابوا «موافق»، على أن يختار الموردين المحتملين بالاعتماد على نظام ومعايير محددة. وجاءت نسبة (**45٪**)، من أفراد العيّنة الذين أجابوا «موافق»، على أن يستخدم عقد مفصّل لإدارة العلاقة مع المورد. وأيضاً (**57٪**) من أفراد العيّنة، أجابوا «موافق بشدة»، على أن يكتمل وينتهي كل عقد عند الانتهاء من العمل في المشروع.

تدل النتائج أن إدارة المشتريات، تتضمّن عدة خطوات وبنود للوصول إلى نتيجة

جيّدة، حيث يسلتزم وضع خطة لشراء الاحتياجات لتنفيذ المشروع، وطلب عروض الأسعار، وإجراء مناقصات ضمن شروط معيّنة، كما يتمّ اختيار الموردين المحتملين بالاعتماد على نظام ومعايير محدّدة، وأيضاً يوضع عقد عمل، ينتهي بانتهائه.

7. الخاتمة

يتبين من خلال النتائج وجود علاقة ارتباطية قوية بين إدارة المشاريع والمجالات المعرفية من حيث إدارة كلفة المشروع وموارده ومشترياته وإدارة مخاطره.

وكذلك، يُظهر استكشاف إدارة المشاريع ومجالاتها المعرفية، أهمية هذا المجال في تحقيق الأهداف وتنفيذ المشاريع بنجاح. لأن إدارة المشاريع ليست مجرّد مجموعة من العمليات والتقنيات، بل هي فنّ وعلم يتطّلب فَهماً عميقاً للعلاقات البشرية والتحدّيات التقنية والاقتصادية والثقافية.

وتظهر الدراسات والتجارب العملية، أن نجاح المشاريع يتوقف بشكل كبير، على قدرة الفرق الإدارية على التواصل الفعّال، وتحليل المخاطر، وتطبيق الاستراتيجيات الصحيحة في إدارة الموارد والجداول الزمنية. كما يؤكد البحث عن الابتكار والتطوير المستمرّ، أهمية تطبيق الأساليب والأدوات الحديثة في إدارة المشاريع.

وتعدّ دراسة إدارة المشاريع ومجالاتها المعرفية، ركيزة أساسية لتحقيق النجاح في عالم الأعمال والمشاريع. وفي حال تم تطبيق المبادئ والمفاهيم بشكل صحيح، وتمّ تحسين أداء الفرق الإدارية، فإن إمكانية تحقيق أهداف المشاريع وتجاوز التحدّيات المختلفة، تصبح أكبر بكثير.

8. التوصيات والمقترحات

بناءً على الفهم العميق لإدارة المشاريع ومجالاته المعرفية، يمكن تقديم بعض التوصيات والمقترحات التالية:

أ. **تعزيز التوازن بين الجوانب الفنّية والإدارية**: يجب أن تولي إدارة المشاريع اهتمامًا متوازنًا لكل من الجوانب الفنية والإدارية، مع فهم عمق المتطلّبات التقنية، والقدرة على إدارة الموارد والجداول الزمنية بشكل فعّال.

ب. **تعزيز التواصل وإدارة العلاقات:** ينبغي على مديري المشاريع بناء علاقات قوية مع جميع أصحاب المصلحة والفاعلين المختلفين في المشروع، وضمان تواصل مستمرّ وفعّال لتلبية احتياجاتهم ومتطلباتهم.

ج. **استخدام التقنيات والأدوات الحديثة:** ينبغي استخدام أحدث التقنيات والأدوات في إدارة المشاريع مثل البرمجيات الذكية والحلول السحابية لتحسين كفاءة التخطيط والتنفيذ والمراقبة.

د. **التركيز على التطوير المهني:** يجب على فرق إدارة المشاريع السعي للتحسين المستمرّ، وتطوير مهاراتهم، من خلال التدريب وورش العمل والشهادات المعترف بها دوليًا.

هـ. **الاستفادة من التجارب السابقة:** ينبغي توثيق التجارب والدروس المستفادة من المشاريع السابقة، واستخدامها كمرجع لتحسين أداء المشاريع القادمة.

و. **تعزيز ثقافة الابتكار والتحفيز:** يجب تشجيع الابتكار، وتقديم المكافآت، وتحفيز فرق العمل ّعلى تحقيق الأداء المتميز، وتحقيق أهداف المشروع بنجاح.

ز. **التركيز على إدارة المخاطر:** يجب أن تكون إدارة المخاطر عملية متكاملة ومستمرة طوال دورة حياة المشروع، مع التركيز على تحليل المخاطر المحتملة، وتطبيق استراتيجيّات مركّزة للتعامل معها بفعالية.

ح. **التقييم المستمر وتحسين الأداء:** ينبغي على فرق إدارة المشاريع إجراء تقييم دوري لأداء المشروع، والتحليل المستمر للنتائج، مع اتّخاذ الإجراءات الضرورية لتحسين الأداء، وضمان تحقيق أهداف المشروع بنجاح.

مع تطبيق هذه التوصيات والمقترحات، يمكن تعزيز كفاءة وفاعلية إدارة المشاريع وتحقيق أهدافها بنجاح في مختلف المجالات المعرفية.

مكتبة الدراسة

أ. المصادر العربية

1. دودين، أحمد (2012)، **إدارة المشاريع الهندسيّة**، دار اليازوري للنشر، جامعة الزرقاء، عمان، الأردن.
2. المشوخي، حمد سليمان (2002)، **تقنيّات ومناهج البحث العلميّ**، دار الفكر العربيّ، الإسكندريّة، مصر، ط 1.
3. المقداد، ط. (2011) **إدارة المشاريع الصغيرة الأساسيات والمواضيع المعاصرة**، ورقة عمل، الأكاديمية العربية البريطانية للتعليم العالي
4. الميناوي، أ. (2014) **الوجيز العلمي لإدارة المشاريع**، دار الرقم للنشر والتوزيع، غزة ـ فلسطين.
5. نصير، إبراهيم عبد الرشيد (2006)، **إدارة مشروعات التشييد**، دار النشر للجامعات، مصر.

ب. المصادر الأجنبية

1. Heldman, K. (2009). **PMP: Project Management Professional Exam Study Guide (5 ed.).** Indianapolis: Indiana: Wiley Publishing, In.
2. Khalid, F. (2017). **The Impact of Poor Planning and Management on the A Review. Multi-Knowledge Electronic.** (MECSJ).
3. Levin, G. (2010). **Knowledge management success equals project management.** Washington, DC. Newtown SquareNorth America,: PA: Project Management Institute.
4. Richman , L. (2011). **. Successful Project Management (3 ed.).** . New York,: , a division of the American Management Association.
5. Wysocki, R. K. (2014). **Effective Project Management: Traditional, Agile Extreme (7 ed).** USA: : John Wiley & Sons.

ج. الدوريات

1. جاسم، ن. ع، (2006)، **تقييـــم إدارة جودة التصاميم الهندسية لمشاريـــع محافظة ديالى باعتماد تقنيـــــة التقييم النسبية، المتعددة المعايير المعقدة،** مجلة ديالى للعلوم الهندسية، العراق.

د. أطروحة دكتوراه

1. الديري، علاء (2011) **إدارة وتخطيط المشاريع الإنشائيّة تأثير سوء التخطيط في مدّة تنفيذ المشاريع الإنشائية في إمارة دبي.** رسالة دكتوراه، الأكاديميّة العربيّة البريطانيّة، بريطانيا.

learning: an emerging pedagogical approach enabled by a smart learning environment. *Smart Learning Environments*, *6*(1). https://doi.org/10.1186/s40561-019-0089-y

18) Stewart. (2006). *Analyzing Focus Group Data*. https://www.sagepub.com/sites/default/files/upm-binaries/11007_Chapter_7.pdf

19) UNESCO. (2023, April 20). *How can artificial intelligence enhance education?* Unesco.org. https://www.unesco.org/en/articles/how-can-artificial-intelligence-enhance-education

20) University, S., Stanford, & California 94305. (n.d.). *The History of Artificial Intelligence*. Spotlight at Stanford. Retrieved October 15, 2023, from https://exhibits.stanford.edu/ai/catalog?f%5Btopic_facet%5D%5B%5D=DENDRAL

21) York, A. (2023, September 11). *10 Educational AI Tools for Students in 2023*. ClickUp. https://clickup.com/blog/ai-tools-for-students/

22) Zhou, Y., Ye, X., & Liu, Y. (2022). The influence of personalized learning intervention system on student learning a study of junior middle school. *Interactive Technology and Smart Education*, *v19 n4 p441-459 2022*(EJ1353211). https://doi.org/10.1108/itse-10-2021-0192



- *Harvard Business School*. HBS Executive Education. https://www.exed.hbs.edu/competing-age-ai-virtual/?utm_source=bing&utm_medium=paid-search&utm_campaign=exed-non-brand-program-aiv-global-none-phrase-cross-device-middle-east&utm_id=core&&msclkid=a7598f7ef3051efb2954ea5fe65280b2&gclid=a7598f7ef3051efb2954ea5fe65280b2&gclsrc=3p.ds

Intelligent Tutoring Systems: Enhancing Learning through AI | The Princeton Review. (2023). Www.princetonreview.com. https://www.princetonreview.com/ai-education/intelligent-tutoring-systems

11) Java T point. (2023). *Artificial Intelligence in Education - Javatpoint*. Www.javatpoint.com. https://www.javatpoint.com/artificial-intelligence-in-education

12) Karandish, D. (2021, June 23). *7 benefits of AI in education*. THE Journal. https://thejournal.com/articles/2021/06/23/7-benefits-of-ai-in-education.aspx

13) LeCun, Y. (2022, August 18). *The Role of AI in Education And Learning: Just Promises Or Revolution*. Aeologic Blog. https://www.aeologic.com/blog/the-role-of-ai-in-education-and-learning/

14) Lieberman, M. (2018, July 18). *Moodle + Blackboard No More*. Inside Higher Ed. https://www.insidehighered.com/digital-learning/article/2018/08/01/moodle-and-blackboard-part-ways-amid-shifting-lms-landscape#:~:text=Moodle%20launched%20in%202002%20as%20a%20free%2C%20open-source

15) Niemi, H. (2021). AI in learning. *Journal of Pacific Rim Psychology*, *15*, 183449092110381. Journal of pacific Rim phycology . https://doi.org/10.1177/18344909211038105

16) Nikolaj, M., Graf, T., Malotky, V., & Martens, I. (2016). *FRAMEWORK FOR INTELLIGENT TEACHING AND TRAINING SYSTEMS -A STUDY OF SYSTEMS* (p. 1). https://files.eric.ed.gov/fulltext/ED571423.pdf

17) Peng, H., Ma, S., & Spector, J. M. (2019). Personalized adaptive

REFERENCES

1) Athmika, T. (2020, August 26). *Learning Management Systems: A Brief History of their Evolution*. Rapid ELearning Blogs – CommLab India. https://blog.commlabindia.com/elearning-design/learning-management-system-evolution

2) Barrientos, Q. (2023, July 17). *Research Guides: Open Education Resources (OER): What are Open Education Resources?* Guides. library.harvard.edu. https://guides.library.harvard.edu/OER

3) Bojorquez, H., & Martínez Vega, M. (2023, May 30). *The Importance of Artificial Intelligence in Education for All Students - IDRA*. IDRA - Intercultural Development Research Association. https://www.idra.org/resource-center/the-importance-of-artificial-intelligence-in-education-for-all-students/

4) Caulfield, J. (2019, September 6). *How to do Thematic Analysis*. Scribbr. https://www.scribbr.com/methodology/thematic-analysis/

5) Chen, C. (2023, March 9). *AI Will Transform Teaching and Learning. Let's Get it Right.* Stanford HAI; Stanford University. https://hai.stanford.edu/news/ai-will-transform-teaching-and-learning-lets-get-it-right

6) Delve. (2022). *Essential guide to coding qualitative data*. Delve. https://delvetool.com/guide

7) Frankenfield, J. (2022, September 28). *EdTech Definition and Uses*. Investopedia. https://www.investopedia.com/terms/e/edtech.asp

8) George, T. (2021, December 10). *What is a focus group?* Scribbr. https://www.scribbr.com/methodology/focus-group/

9) Hardman, D. P. (2023, March 23). *A Brief History of AI in Education*. Drphilippahardman.substack.com. https://drphilippahardman.substack.com/p/a-brief-history-of-ai-in-education

10) Harvard Business School. (2023). *Competing in the Age of AI—Virtual - Digital Transformation - Programs - Executive Education*

4) **Challenges and Concerns:**

j- What concerns or challenges do you see with the increasing integration of AI in education?

k- Are there any ethical or privacy considerations related to AI in education that concern you?

l- How might AI impact the role of educators and the human touch in education?

5) **Equity and Accessibility:**

m- How can AI be used to bridge educational disparities and improve access to quality education, especially for underserved communities?

n- Are there potential pitfalls or biases in AI systems that could exacerbate educational inequalities?

6) **Student Experiences:**

o- For those of you who are students or have students in your care, how do you think AI impacts the learning experience from a student's perspective?

p- Do you think students are generally comfortable with AI-driven learning tools, or do they have reservations? Why?

7) **Implementation and Adoption:**

q- What factors do you believe influence the successful implementation of AI in educational settings?

r- Are there any barriers, such as cost, infrastructure, or resistance to change, that might hinder the adoption of AI in education?

8) **Future Prospects:**

s- How do you see the role of AI in education evolving in the next five to ten years? What changes or innovations do you anticipate?

t- What role do you think researchers, educators, and policymakers should play in shaping the future of AI in education?

AI for personal learning, ongoing research and development efforts must prioritize usability, accessibility, and transparency. Overall, as AI continues to evolve, it has the potential to revolutionize education by providing learners with tailored, data-driven experiences that empower them to reach their full potential.

Appendix

Guided Questions for The Focus Group

The guided questions were divided into eight sections:

1) **Introduction and Warm-up Questions:**

   a- Kindly introduce yourselves, including your background in education and any experience with AI or technology in education.

   b- What are your initial thoughts or perceptions about the use of AI in education?

   c- To kick things off, let's imagine a classroom of the future with AI integration. What do you envision? What do you hope to see?

2) **Understanding AI in Education:**

   d- How would you define or describe Artificial Intelligence in the context of education?

   e- What are some specific AI technologies or tools you are aware of that are currently being used in education?

   f- Can you share any personal experiences or examples of AI being used in your educational or professional journey?

3) **Benefits and Opportunities:**

   g- What potential benefits do you think AI brings to education for students, teachers, and educational institutions?

   h- In what ways can AI help personalize the learning experience for students with diverse needs and learning styles?

   i- How might AI be used to assist educators in their teaching practices and administrative tasks?

potential of AI to enhance student engagement, as interactive and personalized content aligns with the interests and pace of each learner. The efficiency of AI in automating routine tasks also allows educators to redirect their focus toward personalized guidance and mentorship. Indicating by the previous that AI tools facilitate educators work especially in personalized learning.

XII) Discussion

The incorporation of artificial intelligence (AI) has emerged as a transformative force in the quickly changing educational scene, promising to completely change how we teach and learn. The focus group is a flexible and useful method that academics have used to fully realize the promise of AI in education. This approach to qualitative research brings a variety of stakeholders together for controlled talks and the exchange of insightful information, including educators of different backgrounds. Focus groups enable a deeper comprehension of how AI technologies can be used to improve the educational experience, inform curriculum design, and handle the difficulties and opportunities within this dynamic sector by utilizing the combined insights and views of these participants.

The analysis of the findings reveals that AI tools are capable of enriching educators with multiple resources for utilizing in personalized learning for different learners of different backgrounds and needs. Also, such tools facilitate the work of educators by allowing them to track their different students' work in an organized way and in a short time.

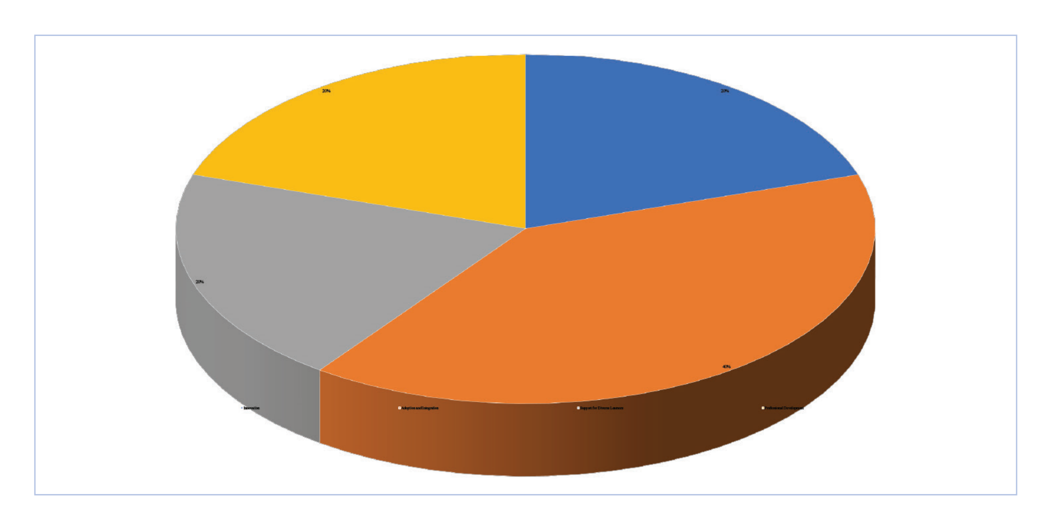
XIII) Conclusion

«AI in education is not about humanoid robots as a teacher to replace human teachers, but it is about using computer intelligence to help teachers and students and making the education system much better and effective» (Java T point, 2023). In conclusion, this research has shed light on the transformative potential of AI for personalized learning. Our findings demonstrate that AI-driven personalized learning systems can significantly enhance the educational experience. Additionally, the successful integration of AI in personal learning environments depends on the readiness of educational institutions and the acceptance of both educators and learners. To realize the full benefits of

In the context of searching about the role of AI, 40% of the focus group teachers find that it is going to enhance personalized learning. And the other 40% state that it is going to assist educators. While 10% mention that it is going to expand accessibility and 10% indicate that it is going to encourage collaborative learning.

Figure (15)

The Role of Research in Shaping the Future of AI in Education



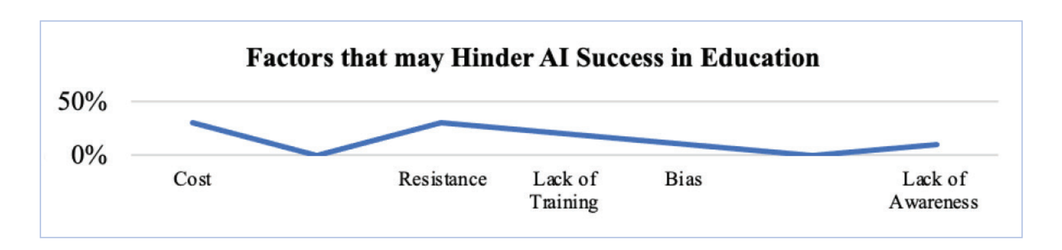
40% of the focus group participants think that it is a must for educational researchers to adopt and integrate AI tools in all the teaching–learning process phases. The others ask researchers to provide innovation in this field 20%, to support different types of learners according to their needs 20%, and to add more professional development to the educational field 20%.

XI) Summary

The findings from the focus group research on the integration of Artificial Intelligence (AI) in personalized learning within secondary schools reveal a spectrum of positive impacts. Educators highlight the capacity of AI to customize learning experiences, catering to diverse student needs and learning styles. The adaptability of AI-driven platforms enables real-time feedback and targeted interventions, fostering a more responsive and individualized approach to education. Furthermore, participants express optimism about the

Figure (13)

Barriers that May Hinder the Adoption of AI in Education



30% of the participants stated that if these tools are not free or with low costs it is going to prevent the majority of learners from using it. Moreover, 20% find that learners have to be trained in how to use such tools. In addition, 30% of teachers point to the matter of resistance to change that may reduce the adoption of AI tools in educational institutes. Finally, bias and fairness concerns, as well as lack of training and lack of awareness may be causes of the unsuccessful use of AI in education.

Future Prospects are the main discussion ideas in the eighth division of the guided focus group questions. The outcomes of this discussion are presented in Figures (**14**) and (**15**).

Figure (14)

The Role of AI in the Coming Years

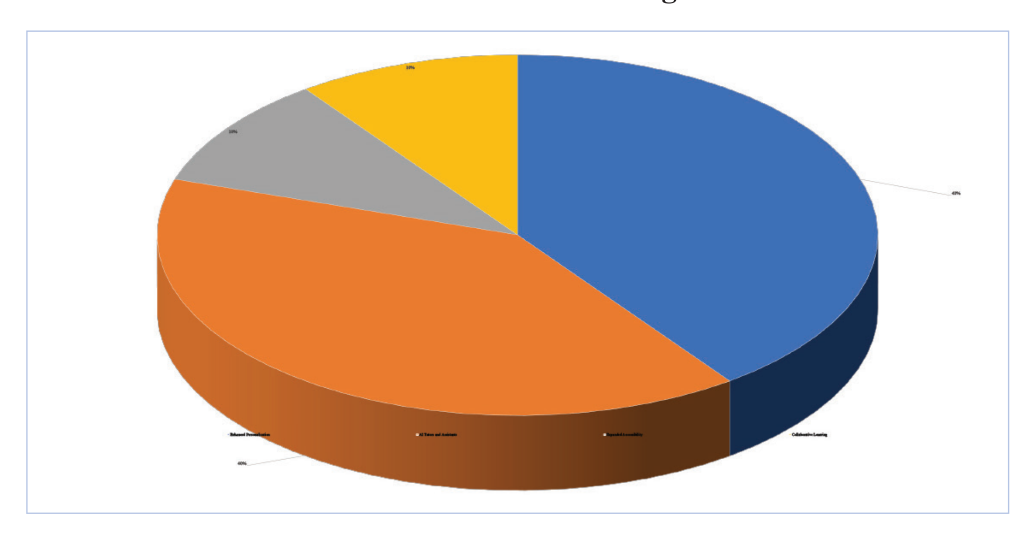


Figure (11)

Students Comfortability with AI

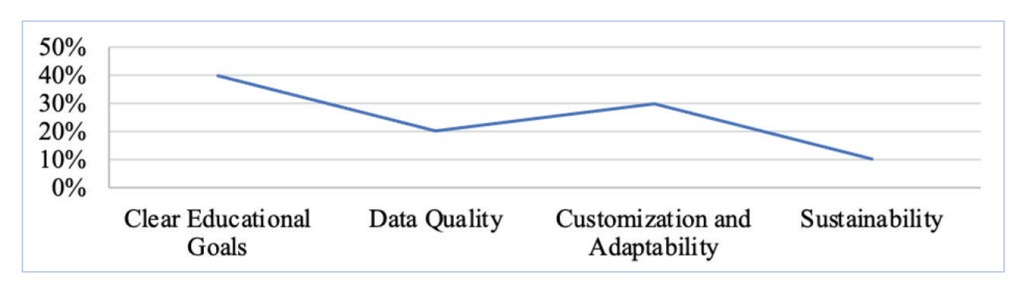


40% of the focus group participants indicated that most of this century learners are characterized by tech literacy that may differ among different countries and cities. Moreover, 30% of them notice that their students are familiar with AI tools in different fields. In addition, 20% realize that learners are aware of AI tools' educational goals. Finally, 10% see that students use these tools with teachers' and parents' encouragement.

AI implementation and development is the material of the seventh division of the focus group questions. The results for that are shown in Figures (**12**) and (**13**).

Figure (12)

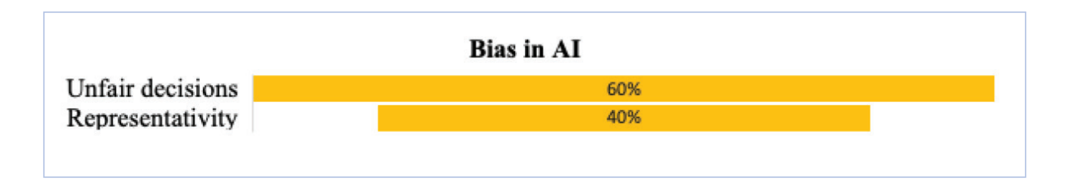
Factors that influence the Successful Implementation of AI in Education



In the framework of checking the factors that influence the success of AI implementation in educational settings, 40% of teachers reveal that the educational goals should be clear before choosing any AI tool. 30% say that this implementation has to be customized. 20% indicate that it is a must to make sure of the data quality before adopting any AI tool in the educational process. And 10 % find that such tools must be sustainable to be successful.

learning that serves learning equity. And 30% of them state that it also ensures equality among teachers to reach various types of educational resources.

Figure (9)
Bias in AI



60% of the focus group participants found that AI may provide unfair decisions and predictions mainly in students' evaluation analysis. And 40% of them state that sometimes the data used for training AI may not be representative.

Students' experience with AI in learning is the title of the sixth division of the focus group guided questions. Figures **(10)** and **(11)** summarize the answers to the previous questions.

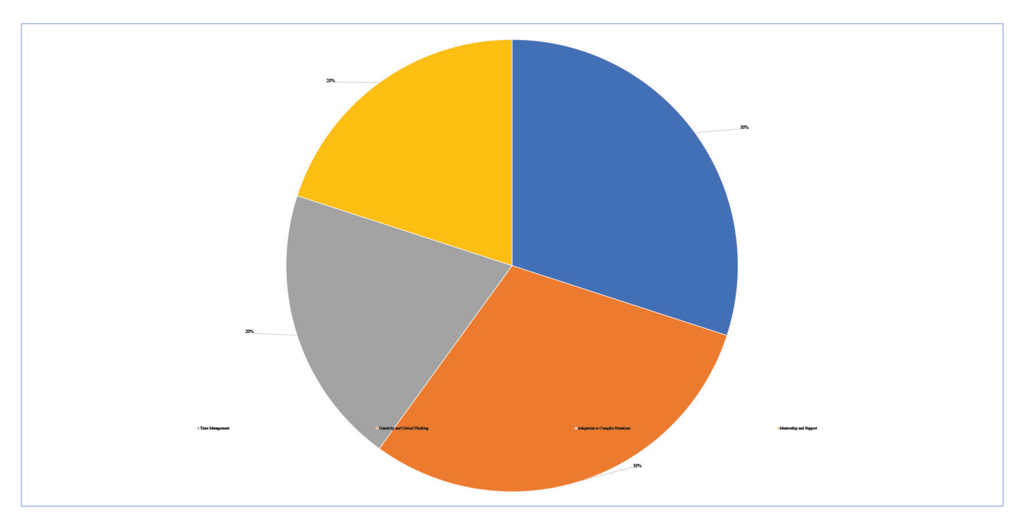
Figure (10)
AI Impact on Learning Experience from Students' Perspective



The focus group teachers find that 40% of their students have enough knowledge and skills to access AI resources and a similar percentage of 40% indicates the students benefit from the direct feedback that AI provides to them. However, 10% of them admit that students like to use AI tools while learning for its easy access. Finally, 10% focus on the engagement role that AI affords to learners.



Figure (7)
AI Impacts Teachers' Role



30% of the focus group teachers state that AI enhances educators' creativity and critical thinking by providing them with multiple resources to add their human touch to it. Similarly, 30% of them indicate that AI manages the time frame for the teaching-learning process. As well as 20% admit that AI has a role in support and adaptation to complex situations.

The fifth division of the focus group guided questions assesses the equity and accessibility of using AI in education. The answers to these division questions are categorized in Figures (**8**) and (**9**).

Figure (8)
Equity and Accessibility

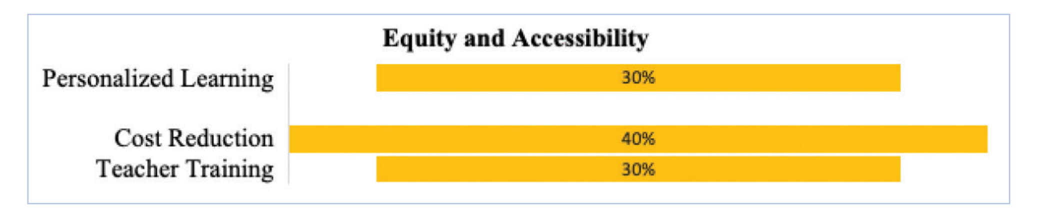
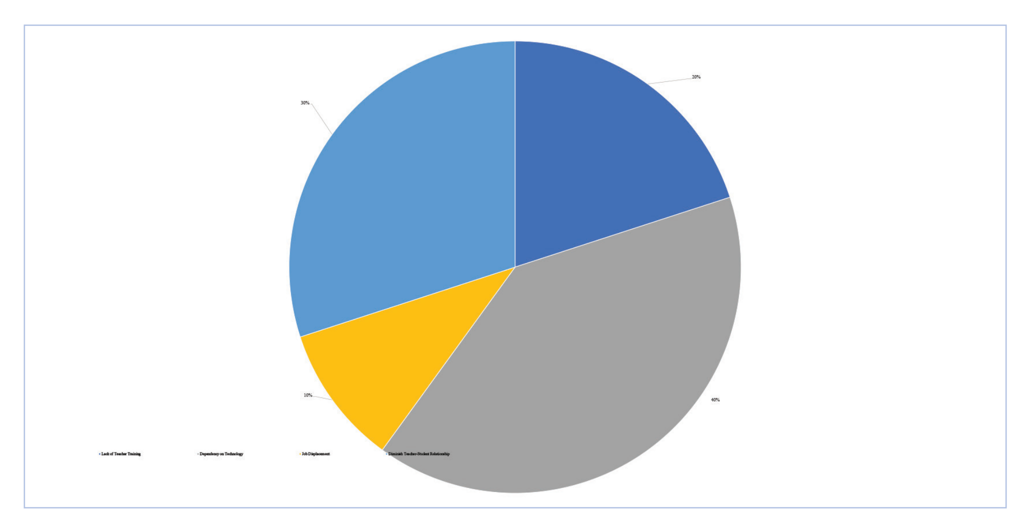


Figure (**8**) shows that 40% of the focus group teachers find that AI reduces learning costs which in turn provides a wide range of accessibility for many learners. In addition, 30% of them believe that AI helps provide personalized

The answers of educators of the focus group for the question aiming to investigate the importance of AI in personalized learning show that it provides individualized content that ensures personalized learning. In addition to being a quick tool for grasping immediate feedback. Moreover, it identifies gaps quickly and provides teachers with the required insights. Add to all the previous it is a motivator for learners for better learning experiences.

The fourth division of the focus group guided questions deals with the educators' challenges and concerns upon adopting AI in their classes. Figures (**6**) and (**7**) light on the main educators' worries concerning teaching with AI tools.

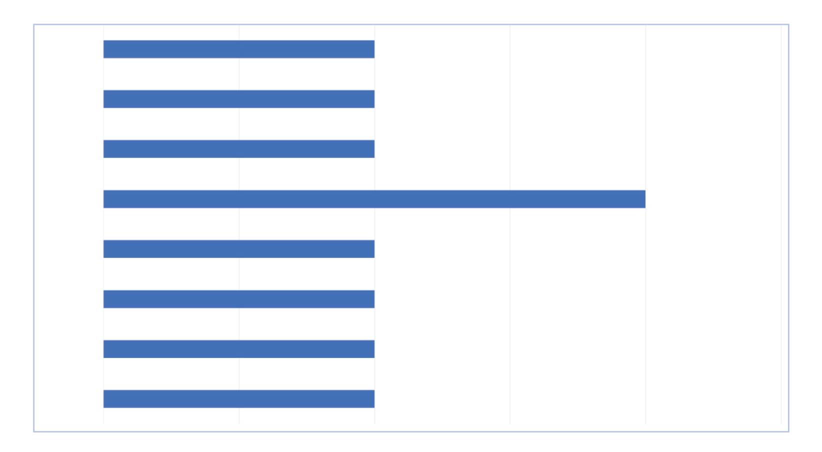
Figure (6)
Challenges and Concerns



40% of the focus group educators worry about the full dependency on technology. And 30% of them are afraid of reducing the teacher-student relationship while using AI during the teaching-learning process. Where others have concerns related to the lack of teacher training 20% and job displacement 10%.

benefits and opportunities of AI in the educational field. Figures **(4)** and **(5)** reflect the focus group participants' answers.

Figure (4)
Benefits of AI in Education



When the focus group teachers were asked how they think that AI may help in education, their answers showed a wide fan of AI uses. They think that it can enrich class activities, reach students of multiple intelligences, reduce scientific gaps for learners, develop their professional development, enhance students' engagement, reduce costs, save time, and empower inclusive learning.

Figure (5)
AI in Personalized Learning

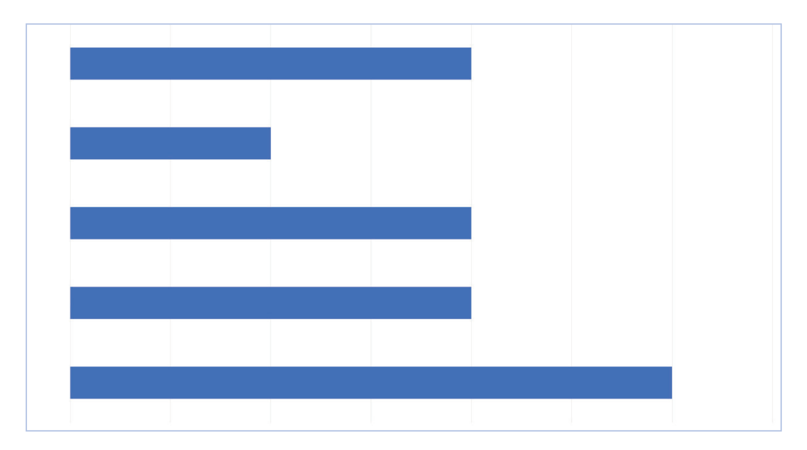
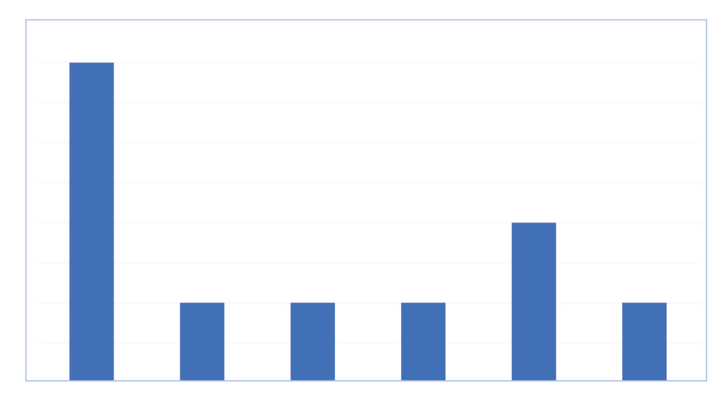


Figure (2)

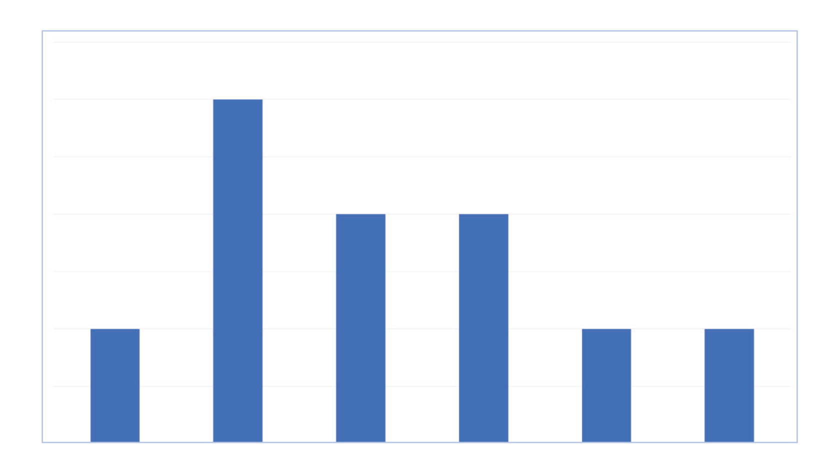
AI Tools Currently Used in Education



As shown in Figure (**2**), teachers think that they can use different and multiple AI tools in their work for preparation, presentation, practice, and evaluation. 40% of them mention that ChatGPT is the most applicable tool for their work requirements.

Figure (3)

Personal Experience in Using AI



Upon asking teachers how they use AI in their professional career, their answers cover adaptive learning, assessment, scheduling, and gamification, as well as more percentages for simulations 30% and virtual labs 20%.

The third division of the focus group-guided questions shifted to the

X) Findings

The focus group-guided questions are distributed among eight different divisions. Each of them focused on a specific theme. The first part was an introductory part, that introduced the participants.

Table of Focus Group Participants

Participants Personal Information

Participants	Years of experience in teaching (in years)				Gender		Subject		
	1 to 5	6 to 10	o 15	≥ 16	Female	Male	B	P	C
10	2	6	1	1	6	4	6	3	1

The chosen focus group includes ten Lebanese secondary science teachers, six biology teachers, three physics teachers, and one chemistry teacher. The focus group participants included six female secondary science teachers and four male secondary science teachers. Two of them have teaching experience of less than five years. However, the majority have teaching experience of more than six years as shown in the above table.

Figure (1)

Experience with AI in Education

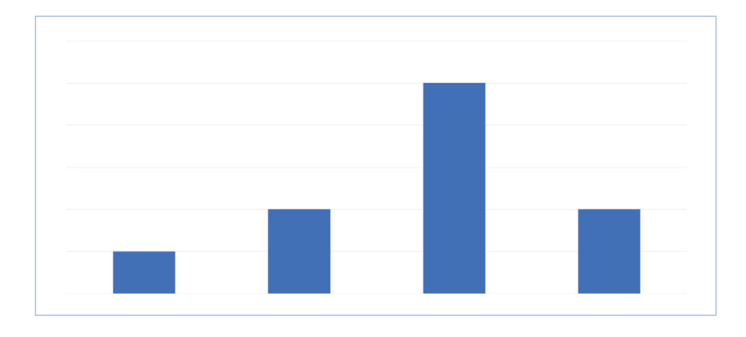


Figure (1) indicates the participant's experience with AI in education. 10% of them never dealt with AI in their career. 20% use AI slightly in their work. 50% use it as a support aid. However, 20% depend on it for completing their preparations.



e- Procedure

The current study conducted a focus group which is a systematic process aimed at gathering in-depth qualitative data through group interaction and discussion. First, the researcher defined the research objectives and addressed participants who possess relevant experiences and perspectives related to the study's concern. Then, the researcher designed a structured set of open-ended questions that will guide the discussion, encouraging participants to share their thoughts and experiences. Later, during the actual session, a facilitator guided the discussion, ensuring that all participants had an opportunity to express their views. At the same time, an observer took notes for later analysis.

f- Data Analysis

The transcribed data is carefully reviewed to identify recurring themes, patterns, and key concepts that emerged during the discussions involving the identification of themes, patterns, and unique insights that emerge from the discussion. The application of thematic analysis is utilized to recognize and examine recurrent topics throughout the focus group meetings. The interpretation of findings involves synthesizing the identified themes into a cohesive narrative that aligns with the research objectives. The focus group's results provided insightful qualitative information that deepened the comprehension of the research question and enhanced the overall study flow.

IX) Limitations

One significant constraint lies in the potential for group dynamics to influence participant responses. Social desirability bias has the potential to impede the identification of authentic views toward AI applications in education by inducing participants to comply with perceived standards or withhold opinions. Furthermore, the focus group's makeup may add bias because individuals with varying degrees of comfort or expertise with technology may influence the discussion as a whole. Additionally, focus groups' intrinsically small sample size is another drawback, since it could not adequately represent the range of viewpoints seen in a broader community.

which is «a research method that brings together a small group of people to answer questions in a moderated setting. The group is chosen due to predefined demographic traits, and the questions are designed to shed light on a topic of interest» (George, 2021. In this approach, a carefully selected group of participants, ten secondary science teachers, with relevant knowledge and experiences is brought together to engage in structured discussions, guided by a moderator. This allows for the exploration of the complexity of the studied topic, uncovering diverse perspectives, and identifying key themes and patterns in a dynamic and interactive setting. By utilizing open-ended questions shown in appendix 1, and encouraging participants to share their thoughts, ideas, and experiences, the focus group of this study provided rich, in-depth insights into the current research.

c- Focus Group Interview

This research involved a focus group with secondary teachers to examine how AI might be integrated into individualized learning in secondary education. The focus groups serve as a productive method to gather qualitative insights into educators' perspectives, experiences, and concerns related to the implementation of AI technologies in personalized learning settings. The participants, secondary teachers, bring a wealth of practical knowledge and classroom experience to the discussion, providing nuanced perspectives on the potential benefits and challenges associated with AI in education. The research aims to gather insightful information through collaborative interactions and open-ended debates that could guide the creation of useful AI-based teaching tools and methods. The researcher is aware of potential constraints such as group dynamics and the need for complementary research approaches to achieve a thorough knowledge of secondary teachers' attitudes toward AI in personalized learning, even though the focus group methodology provides depth and context.

d- Participants

Thanks to ten secondary educators who provided this study with their time, experience, opinions, and suggestions through a focus group discussion.

Online Proctoring and Assessment (2010s - Present): AI is also being employed for remote proctoring of exams and assessments, ensuring the integrity of online testing.

Future Prospects (2020s and beyond): AI continues to evolve in education, with a growing focus on natural language processing, virtual reality, and augmented reality technologies to create immersive and engaging learning experiences.

The history of artificial intelligence in education demonstrates a persistent dedication to better teaching and learning through technology, promising more individualized, adaptable, and successful educational experiences for students of all ages and backgrounds.

Methodology

With the (AI), personalized learning has gained significant traction, offering tailor-made educational experiences that adapt to individual strengths, weaknesses, and interests. This qualitative research seeks to delve into the importance of AI in personalized learning. By exploring educator insights, this study aims to uncover the nuances of how AI technology enhances personalized learning environments, ultimately shedding light on its implications for the future of education.

a- Research Design

As detailed knowledge of complex phenomena and the investigation of underlying meanings, viewpoints, and context are crucial, qualitative data is adopted in this research. Unlike quantitative data, which primarily deals with numerical measurements and statistical analysis, qualitative data provides rich, descriptive insights into the depth and intricacies of human experiences, behaviors, and social phenomena. Qualitative research methods, such as focus groups, the adopted method in this study, allow researchers to delve into the subjective and contextual dimensions of a phenomenon, fostering a deeper comprehension and interpretation of the studied subject matter.

b- Data Collection Tool

A data collection strategy centered solely around the use of a focus group

instruction based on a student's performance. «The history of ITSs can be traced back to the early 1980s» (Nikolaj et al., 2016). «Intelligent Tutoring Systems, commonly known as ITSs, are computer programs designed to deliver individualized instruction and feedback to learners» (*Intelligent Tutoring Systems: Enhancing Learning through AI | the Princeton Review*, 2023).

Learning Management Systems (LMS) (1990s - 2000s): In the 1990s and 2000s, Learning Management Systems like Blackboard and Moodle gained prominence, «Moodle launched in 2002 as a free, open-source alternative to Blackboard's expensive but dominant proprietary software» (Lieberman, 2018), offering a digital platform for organizing and distributing educational content. «Personalized learning was made possible by letting learners pick the content they wished to store or export» (Athmika, 2020).

Adaptive Learning (2000s - Present): Adaptive learning platforms, such as Knewton and Dream Box, began to gain traction. These systems use AI to tailor instruction to individual learners, adapting to their strengths and weaknesses.

Massive Open Online Courses (MOOCs) (2010s - Present): MOOCs, such as Coursera and edX, have integrated AI for features like automated grading and personalized recommendations, making education accessible to a global audience.

Chatbots and Virtual Assistants (2010s - Present): Chatbots and virtual assistants like IBM's Watson and Duolingo's AI-driven language tutors have become increasingly prevalent, offering personalized support and feedback.

Data Analytics (2010s - Present): AI and data analytics are being used to analyze and interpret student performance data, providing insights that can inform instructional design and enhance learning outcomes.

Gamification and EdTech Startups (2010s - Present): The emergence of educational technology (EdTech) startups has brought AI into the realm of gamified learning, interactive lessons, and mobile apps that support personalized learning experiences.

VIII) Literature Review

In the digital age, education is going through a significant revolution, and at the vanguard of this change is the exciting connection between personalized learning and artificial intelligence. As we begin this trip of a literature study, we step into the fascinating world of research that looks at how AI and customized learning might work together. By utilizing the power of data-driven decision-making to customize educational experiences, modify content distribution, and maximize student engagement, AI-customized learning represents a paradigm leap in pedagogy. This introduction lays the groundwork for a thorough examination of the varied body of research literature that explores the many facets of AI personalized learning. It does so by illuminating the creative approaches, difficulties, and opportunities that this developing field presents to educators, students, and researchers alike.

«Artificial Intelligence in Education has been around for over 60 years. AI-powered education technologies to design and deliver learning experiences for the same amount of time as we have explored space and researched nuclear physics and DNA» (Hardman, 2023). The history of artificial intelligence in education is an intriguing one that has seen its use in a range of educational contexts, from conventional classrooms to online platforms. Here are some significant turning points in the history of AI in education:

Early Experiments (1960s - 1970s): The initial exploration of AI in education began in the 1960s and 1970s, with early programs like Dendral and SAM that aimed to tutor students and teach them complex subjects. «DENDRAL was an influential project in artificial intelligence (AI) of the 1960s, and the computer software expert system that it produced» (University et al., n.d.). Its main objective was to research how scientists create hypotheses and make discoveries. To do that, a specific scientific aim was selected: assist organic chemists in identifying unidentified organic molecules by examining their mass spectra and applying chemical knowledge.

Intelligent Tutoring Systems (ITS) (1980s - 1990s): The 1980s and 1990s saw the emergence of Intelligent Tutoring Systems, such as the Expert Mathematics System and ALGEBRA, which provided individualized

VI) Research Questions

In the realm of education, AI-powered personalized learning systems have the potential to revolutionize how students engage with educational content, adapt to their unique learning styles, and, in turn, foster enhanced learning outcomes. This research aims to address two questions that shape the landscape of AI in personalized learning. These questions delve into the efficacy of AI in truly personalizing educational experiences. Searching for answers to the following questions:

1- Can secondary teachers depend on AI tools as educational resources for personalized learning?

2- To what extent can AI tools replace secondary teachers' roles?

VII) Research variables

In the context of research in AI in personalized learning, many variables come into play, each with its unique significance. The independent variables typically include the AI-driven components of personalized learning systems, such as the algorithms used for content recommendation, the adaptability of learning pathways, and the customization of learning resources. These elements are subjected to manipulation and testing to assess their impact on the dependent variables, which encompass various aspects of educational outcomes. These may comprise academic performance, knowledge retention, student engagement, and motivation. However, this research studies secondary learners' achievements from their teachers' point of view as the dependent variable. Research in AI in personalized learning carries profound significance in the educational field. «(AI) is a key driver of innovation across all industries, and the education sector is no different. According to the eLearning Industry, upwards of 47% of learning management tools will be enabled with AI capabilities in the next years» (Karandish, 2021). By researching the potential of AI to modify educational experiences for individual learners, this research seeks to unlock a future where every student can reach their full potential.

leaders like Sal Khan, founder and CEO of Khan Academy, in sharing cutting-edge research and brainstorming ways to unlock the potential of AI in education in an ethical, equitable, and safe manner» (Chen, 2023) reflecting the importance and the need of studying AI in the educational field. This research aims to address this critical gap by investigating the following key issues: the extent to which AI can genuinely tailor learning experiences to individual student needs, and the readiness of educators to embrace and effectively integrate AI into their teaching practices.

IV) Purpose

The purpose of conducting research in AI in personalized learning is to harness the potential of artificial intelligence to revolutionize education. This research aims to explore how AI can be effectively utilized in educational experiences to the unique needs and preferences of individual learners. By delving into this field, we seek to enhance student engagement, boost learning outcomes, and promote self-directed learning. Ultimately, this research endeavors to contribute to the advancement of personalized learning, fostering a more adaptive and inclusive educational landscape that empowers learners of all backgrounds to thrive in an ever-evolving knowledge-driven world.

V) Study Importance

«AI is revolutionizing the way today's businesses compete and operate.» (Harvard Business School, 2023). In an era marked by increasing diversity in learners' needs and technological advancements, AI in personalized learning offers a promising solution to address these challenges effectively. By adapting educational content and experiences to individual students, we can unlock their full potential, improving learning outcomes and engagement. Additionally, as the global educational landscape undergoes profound changes, understanding the ethical implications and best practices of AI implementation is vital. This research contributes to the ongoing dialogue, providing valuable insights that can guide educators, policymakers, and technologists in harnessing AI's power to create a more equitable, inclusive, and adaptive education system, preparing learners for the demands of the future.

UNESCO Director-General Audrey Azoulay (2023) states that AI is going to fundamentally alter education. From intelligent tutoring systems that provide real-time, personalized feedback to students, to natural language processing algorithms that enhance language learning, and from data-driven insights that inform instructional design to virtual classrooms that transcend geographical boundaries, we will scrutinize the manifold facets of AI's impact on education.

II) Definition of Terms

Artificial Intelligence (AI): LeCun (2022) states that AI is a wide spectrum of computer programs that can carry out activities that call for human intelligence and are referred to as having artificial intelligence.

AI-Enhanced Educational Tools: According to York (2023) the term «AI tools for students» refers to a variety of programs and technologies that make use of artificial intelligence to facilitate, improve, or accelerate the academic process.

Personalized learning: «instruction in which the pace of learning and the instructional approach are optimized for the needs of each learner» (Zhou et al., 2022).

Open Educational Resources: «are teaching, learning, and research materials--digital or print that is in the public domain redistribution by others with limited or no restrictions» (Barrientos, 2023).

EdTech: «EdTech refers to hardware and software designed to enhance teacher-led learning in classrooms and improve students' education outcomes» (Frankenfield, 2022).

III) Problem statement

Despite the growing interest and adoption of AI-driven personalized learning systems in educational settings, there remains a significant gap in our understanding of their true effectiveness and impact on student learning outcomes. «Researchers across Stanford University – from education, technology, psychology, business, law, and political science – joined industry



والتفضيلات الفريدة للمتعلمين الأفراد، وبالتالي تحسين المشاركة والاحتفاظ بالمعرفة. من خلال فحص الأدبيات الحالية، توضح هذه الدراسة فعالية أنظمة التعلم الشخصية المعتمدة على الذكاء الاصطناعي في تحسين النتائج التعليمية، وزيادة تحفيز الطلاب، وتعزيز التعلم الموجه ذاتيًا. واعتمدت الدراسة على التحليل النوعي لمجموعة نقاش مركزة تعكس الأهمية المتزايدة للذكاء الاصطناعي في التعليم. تؤكد نتائج البحث على ضرورة تكيف المؤسسات التعليمية مع هذا المشهد المتطور، مما يضمن استفادة المتعلمين من جميع الخلفيات من إمكانات التعليم الشخصي القائم على الذكاء الاصطناعي.

الكلمات المفتاحية:

أدوات الذكاء الاصطناعي؛ التعلم الشخصي؛ الموارد التعليمية؛ التطبيقات التعليمية المحسنة بالذكاء الاصطناعي؛ تكنولوجيا التربية.

I) Introduction

As humans stand at the crossroads of technological evolution and educational advancement, the integration of Artificial Intelligence (AI) tools into the field of education represents a compelling avenue for exploration. This study seeks to unravel the intricate tapestry of AI's role in education, revealing its multifaceted impact on students and educators.

«AI has the potential to revolutionize the education sector by enhancing learning experiences, supporting teachers, and offering more personalized learning opportunities for students» (Bojorquez & Martínez Vega, 2023). In recent years, the fusion of AI with education has emerged as a compelling force of change. The promise of AI lies in its capacity to adapt, personalize, and optimize the learning experience. It possesses the ability to cater to the unique needs, preferences, and aptitudes of individual learners, transcending the limitations of one-size-fits-all education. This research endeavors to delve deep into the heart of this transformation, dissecting how AI tools are revolutionizing educational paradigms.



AI Tools in Personalized Learning for Secondary Students

Layal Merhi(*)

I) ABSTRACT

This research explores the significance of Artificial Intelligence (AI) in personalized learning and its potential to revolutionize educational practices. In the age of digital transformation, AI offers the ability to tailor learning experiences to the unique needs and preferences of individual learners, thereby optimizing engagement and knowledge retention. Through an examination of current literature, this study demonstrates the efficacy of AI-driven personalized learning systems in improving educational outcomes, increasing student motivation, and fostering self-directed learning. The study depended on a qualitative analysis for a focus group discussion that reflects the growing importance of AI in education. The research results underscore the imperative for educational institutions to adapt to this evolving landscape, ensuring that learners of all backgrounds benefit from the potential of personalized AI-driven education.

Keywords: AI tools; personalized learning; educational resources; AI-Enhanced Educational Apps; EdTech

الملخص

يستكشف هذا البحث أهمية الذكاء الاصطناعي في التعلم الشخصي وقدرته على إحداث ثورة في الممارسات التعليمية. في عصر التحول الرقمي، يوفر الذكاء الاصطناعي القدرة على تصميم تجارب التعلم بما يتناسب مع الاحتياجات

(*) Educational Researcher

دار بيروت الدولية



للطباعة والنشر والتوزيع

بإدارة الدكتور حسن محمد إبراهيم

بيروت – لبنان

009613973983

موقع المجلة الإلكتروني: www.sadaloulum.com
البريد الإلكتروني: sadaloulum@gmail.com
الرقم التسلسلي المعياري الدولي لتعريف الدوريات الإلكترونية: ISSN 2959-9431